الإعجاز البلاغي

في جزء

"عمَّ"

دراسة بلاغيَّة تحليليَّة

تأليف

الدكتورة خَديجة مُحمَّد بنَّاني

المقدِّمة

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدِّين.

وبعد أحمدُ الله حمداً كثيراً طيباً مباركٌ فيه على أن يسر لي هذه الدِّراسة، ثمَّ هدى ووفق وأعان إلى إتمامها بشكل مختصر وسريع.

حيث تاقت نفسي لدراسة هذا الجزء "جزء عمَّ" لِمَا عليه من أهميَّة عظمى لتكرار سُوره القصار في معظم ركعات الصَّلاة؛ فرضاً أو نفلاً؛ وذلك لسهولتها على عامَّة النَّاس صغيرهم وكبيرهم.

وقد عمدتُ في هذه الدِّراسة بتوفيق من الله ﷻ إلى توضيح كثير من مفاهيم الآيات الكريمات الَّتي قد تغيب معانيها عن البعض.

كما حاولت جاهدة توضيح التَّرابط المعنوي بين آيات كُلِّ سُورة من تلك السُّور، ثمَّ التَّرابط المعنوي بين كُلِّ سورة وما تسبقها وما تليها حسب ترتيب المصحف الكريم؛ لإظهار تناسق المعاني والأهداف في أسلوب قرآننا الكريم بكافة، وهذا الجزء خاصة وبذلك يسهل على التَّالي إيجاد الرَّبط بين سُور هذا الجزء كاملاً تدبراً وسرداً. وكل ذلك جاء بإشارة سريعة تتناسب مع ضيق المقام.

وآمل من الله ﷻ أن يجعل هذه الدِّراسة نافعة ليَّ ولجميع من يطلع عليها بحيث يتأمل التَّالي في الصَّلاة وغيرها المعاني العظيمة الَّتي تحملها آيات هذه السُّور المباركة بما تحتويه من أمور العقيدة الصَّحيحة "عقيدة التَّوحيد" وترسخ أركانها في النُّفوس، وغيرها كثير من دروس وتوجيهات تشمل أمور الدَّنيا والآخرة على منهج الله الواضح الصَّريح، ثمَّ تثبيت تلك المفاهيم القرآنيَّة في قلوب المؤمنين.

وقد سبق أن وضعت ملخصات سريعة عن دراسة هذا الجزء من القرآن في برنامج التَّلجرام بما يناسب ذلك البرنامج، وقد بسطتُ هنا بغض الشيء ما طويته هناك بهدف زيادة الفائدة، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وأسأل الله ﷻ أن يتقبله مني، ويجعل هذه الدِّراسة حُجَّة لنا وشاهداً لنا لا علينا يوم يقوم الأشهاد. أنا وكُلُّ من أهتم بها وأعان على نشرها آمين يا رب العالمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

سورة النِّبأ (١ – ١٦)

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ
﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾
وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا
ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا
مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

بين يدي السُّورة المباركة:

سميت هذه السُّورة المباركة في كثير من المصاحف وكتب التَّفسير وكتب السُّنَّة "سورة النَّبأ" لوقوع كلمة "النَّبأ" في أولها.

وسميت في بعض المصاحف وفي "صحيح البخاري" "سورة عمَّ يتساءلون"، وفي بعض التَّفاسير "سورة عمَّ" بدون زيادة.

وقد اشتملت على وصف خوض المشركين في شأن القرآن الكريم وما جاء به مما يخالف معتقداتهم، ومن أهم ذلك إثبات البعث، وسؤال بعضهم بعضاً عن الرَّأي في وقوعه مستهزئين بالإخبار عن وقوعه.

ولهذا جاء فيها إقامة الحجَّة على إمكان البعث بخلق المخلوقات الَّتي هي أعظم من إعادة خلق الإنسان بعد موته بالخلق الأول للإنسان وأحواله. ووصف الأحول الحاصلة عند البعث من عذاب الطَّاغين الَّذين جحدوا به مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين، وأُدمج في ذلك أنَّ علم الله تعالى محيط بكُلِّ شيء ومن جملة الأشياء أعمال النَّاس [١].

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

---

١ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٦.

وأول ما يستوقفنا في هذه السُّورة المباركة افتتاحها بالاستفهام في قوله تعالى: {عمَّ يتساءلون} افتتاح تشويق لِمَا يشغل المشركين ويستحوذ على مجالسهم فهم مهتمون بهذا النَّبأ العظيم الَّذي جعلهم حيارى مندهشين، لا يسعهم قبوله خوفاً على جاههم ولا بمقدرهم ردُّه.

يقول أبو حيان: والاستفهام عن هذا فيه تفخيم وتهويل وتقرير وتعجب [١]. فننظر كم جمع هذا الاستفهام المعجز من معاني يحار فيها لبُّ الحصيف.

ويقول ابن عاشور: افتتاح الكلام بالاستفهام عن تساؤل جماعة عن نبأ عظيم، افتتاح تشويق، ثمَّ تهويل لِمَا سيذكر بعده، فهو من الفواتح البديعة لِمَا فيها من أسلوب عزيز غير مألوف، ومن تشويق بطريقة الإجمال ثمَّ التَّفصيل؛ لتمكُّن الخبر الآتي بعده في نفس السَّامع أكمل تمكن، وبهذا يعد من براعة الاستهلال [٢].

ويستوقفنا للتأمل الإيجاز البديع في قوله تعالى: {عمَّ} فهو مركب من كلمتين هما "عن" حرف الجر، و "ما" الَّتي هي اسم استفهام، بمعنى: أي شيء، ويتعلق {عمَّ} بفعل {يتساءلون}؛ فهذا التَّركب أصل ترتيبه: "يتساءلون عن ما" فقدِّم اسم الاستفهام؛ لأنَّ له الصَّدارة في الجملة، ووصل به "ما" الَّذي حذفت ألفها فصارت {عمَّ} [٣].

يعلل البقاعي هذا الإيجاز بقوله: خفف لفظاً وكناية بالإدغام، وحذف ألفه لكثرة الدَّوران، والإشارة إلى أنَّ هذا السُّؤال مما ينبغي أن يحذف، فإن لم يكن، فيخفى ويستحى من ذكره ويخفف [٤].

فلننظر إلى دِقَّة مسلك القرآن الكريم في أسلوبه وتراكبه - فسبحان رب القرآن-.

ويأتي الفعل: {يتساءلون} على صيغة التَّفاعل الدَّالة على صدور الفعل من الجهتين فكُلٌّ منهما يسأل الآخر عن هذا الحدث العظيم؛ مما يصور شِدة اهتمامهم به؛ فقد استحوذ هذا النَّبأ العظيم على كافة اهتماماتهم، وأصبح شغلهم الشَّاغل في ليلهم ونهارهم؛ فهم (يتساءلون فيما بينهم ويخوضون فيه إنكاراً أو استهزاءً) [٥].

والسُّؤال الَّذي لابد أن يدور في الذِّهن؛ ما هو الغرض من بدء السُّورة المباركة بهذا الاستفهام؟

---

١ ـ ينظر: البحر المحيط/٨/ ٤١٠.

٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير :٦/٣٠. بتصرف

٣ ـ ينظر: السَّابق بتصرف.

٤ ـ ينظر: نظم الدُّرر/٢١/ ١٩.

٥ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٨٤/٩.

نجد أنَّ أقوال المفسرين تعددت وتنوعت في ذلك؛ فقيل: الغرض من هذا الاستفهام: تفخيم القصَّة [١]. وقيل: التَّعجب [٢]. وقيل: الاستفهام في الآية على الاستعارة التَّبعيَّة، تشبيهاً للشَّيء العظيم الشَّأن المُفخَّم القَدْر - وإن لم يكن مجهولاً- بالمجهول المستفهم عنه [٣]. والله أعلم بمراده.

وكذلك قيل: الضَّمير في: {يتساءلون} لأهل مكَّة، وقيل: الضَّمير لجميع العالم؛ فيكون بذلك الاختلاف الَّذي سيذكر في الآية الثَّالثة يمثله تصديق المؤمن وتكذيب الكافر [٤]. المستمر طول الدَّهر حتَّى يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها.

ونرى أنَّ براعة إيجاز القرآن الكريم اقتضت أن يبادر المحتج بالجواب الَّذي يقتضيه الحال [٥]. في قوله تعالى: {عن النَّبأ العظيم}. فهو بيان عن المسؤول عنه إثر تفخيمه بإيهام أمره، وتوجيه أذهان السَّامعين نحوه، وتنزيلهم منزلة المستفهمين للتَّنبيه على أنَّه خارج عن دائرة علوم الخلق، وهذا خليق بأن يعتنى بمعرفته، ويسأل عنه، فقيل بطريق الجواب: {عن النَّبأ العظيم} مسارعة إلى البيان ومراعاة لترتيب السُّؤال؛ هذا هو الحقيق بجزالة التَّنزيل [٦]. وعليه جاء وصفه من العزيز العليم بقوله: {عن النَّبأ العظيم. الذي هم فيه مُختلفون}.

فلماذا ذكر هذا السؤال بعنوان النَّبأ؟

قيل: النَّبأ: الخبر الَّذي له شأن وخطر [٧]. قال الرَّاغب: النَّبأ الخبر ذو الفائدة العظيمة يحصل به علم. أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر نبأ حتَّى يتضمن هذه الأشياء[٨].

وتعريف كلمة: {النَّبأ} تعريف جنس؛ فيشمل كُلَّ نبأ عظيم أنبأهم به رسول الله ﷺ وقد وصف بالعظيم زيادة في التَّنويه به؛ ولكونه وارداً من عالم الغيب زاده ذلك تعظيماً [٩].

---

[١] ـ ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزَّجاج/٢٧١/٥.
[٢] ـ ينظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة/ ٢٧٩/٢. وكذا المحرر الوجيز لابن عطيَّة/١٦/ ٢٠٦.
[٣] ـ ينظر: التَّفسير الكبير للإمام الرَّزي/ ٥/١١، ٦.
[٤] ـ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان / ٨/ ٤١٠. بتصرف.
[٥] ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/ ١٦/ ٢٠٧.
[٦] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٨٤/٩، ٨٥. بتصرف.
[٧] ـ ينظر: السَّابق.
[٨] ـ ينظر: مفردات القرآن مادة "نبأ"
[٩] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٩/٣٠. بتصرف

يقول الإمام البقاعي: ولما كان في مقام التَّفخيم له وصفه تأكيداً بقوله: {العظيم} مع أنَّ النَّبأ لا يقال إلا لخير عظيم شأنه؛ ففي ذلك كله تنبيه على أنَّه من حقه أن يُذعن له كُلُّ سامع ويهتم بأمره، لا أن يشك فيه ويجعله موضوعاً للنزاع (١).

ثمَّ اتَّضح اختلافهم في هذا النَّبأ العظيم في قوله تعالى: {الَّذي هم فيه مختلفون} أي: عن الخبر العظيم الَّذي طال فيه نزاعهم، وانتشر فيه خلافهم على وجه التَّكذيب والاستبعاد، وهو النَّبأ الَّذي لا يقبل الشَّك، ولا يدخله الرَّيب؛ ولكن المكذِّبين بلقاء ربِّهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كُلُّ آية حتَّى يروا العذاب الأليم (٢).

وعليه قُدَّم الظَّرف: {فيه} على متعلقه في قوله تعالى {الَّذي هم فيه مختلفون} لتقوية الكلام (٣). وللتأكيد على أنَّ خلافهم في شيء لا يختلف فيه البتَّة لشِدة نصوعه وبيان برهانه.

ويزيده تأكيداً أن جيء بالجملة الاسميَّة في صلة الموصول؛ لوجود الضَّمير: {هم} في أولها؛ دون أن يقول: "الَّذي يختلفون فيه" أو نحو ذلك، لتفيد الجملة الاسميَّة أن الاختلاف في أمر هذا النَّبأ متمكن منهم ودائم فيهم؛ لدلالة الجملة الاسميَّة على الدَّوام والثَّبات (٤).

ثمَّ جاء الرَّدع عن نفي المشركين قيام البعث بقوله تعالى: {كلا سيعلمون} (٥)؛ لأنَّ "كلا" حرف ردع وإبطال لشيء يسبقه غالباً في الكلام (٦).

ويستوقفنا للتأمل تكرار الرَّدع مع الوعيد في قوله تعالى: {ثمَّ كلا سيعلمون} لتدلَّ {ثمَّ} على أنَّ الوعد الثَّاني أبلغ من الأول وأشد (٧). لما لعطف الجمل بـ(ثمَّ) من خاصيَّة التَّرتيب الرُّتبي، فتدل على أنَّ مضمون الجملة الَّتي بعدها أرقى رتبة في الغرض مما قبلها، وهذا يعني أنَّ المتوعَّد به الثَّاني أعظم مما يحسبون. وإن قال بعضهم: لا تكرار؛ لأنَّ الأول وعيد للكفار، والثَّاني وعد للمؤمنين (٨).

---

١ ـ ينظر: نظم الدُّرر/٢٠/٢١.
٢ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٠٦.
٣ ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري/ ٣٠/ ٥.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ١٠. بتصرف.
٥ ـ ينظر: جامع البيان للطَّبري/ ٦/٣٠.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٣٠. ١٠.
٧ ـ ينظر: الكشَّاف للزمخشري/٤/ ٦٨٤. وهو ما ذهب إليه الغرناطي إذ العرب تقيمه مقام القسم والدعاء، ينظر: ملاك التأويل/١١٣٠/٢. أو (التَّكرار للتأكيد. ينظر: أسرار التكرار/التركماني/ ٢٤٥)
٨ ـ ينظر: أسرار التِّكرار للكرماني/٢٤٥. وكذا المحرر الوجيز لابن عطيَّة/٢٠٧/١٦.

ويؤيده حذف مفعول الفعل: {سيعلمون} قيل: جاء حذفه على سبيل التَّهويل [١]. أو على سبيل الاختصار [٢]. أو لإفادة عموم العلم وعموم العالمين [٣]. وهو الأولى.

ولَمَّا كان أعظم نبأ جاءهم به القرآن الكريم إبطال ألوهيَّة أصنامهم، وإثبات إعادة خلق أجسادهم، وهما الأصلان اللَّذان أثارا تكذيبهم بأنَّه من عند الله ﷻ وتأليبهم على رسوله ﷺ جاء ﷻ باستئناف جمع فيه آيات استدلال وحدانيته بالانفراد بالخلق والأمر وبدأت تلك الآيات بقوله تعالى: {ألم نجعل الأرض مهاداً}

بدأت هذه الآية الكريمة باستفهام تقريري: في قوله تعالى: {ألم نجعل} وهو تقرير على النَّفي كما هو غالب صيغ الاستفهام التَّقريري، والمقصود منه جعل الأرض مهاداً، وهذا ما لا قدرة لهم على إنكاره. فشُبّهت الأرض بمهد الصَّبي على طريقة التَّشبيه البليغ؛ إذ جعل سطحها ميسَّراً للجلوس والاضطجاع والمشي والبناء والزَّرع والحرث، وكافة ما يحتاجونه، وكُلُّ ذلك دليلٌ على إبداع خلقه ﷻ وتيسيره على الخلائق، وذلك الاستدلال يتضمن الامتنان [٤]. فقد جمع هذا المقطع القصير بين الاستدلال على ألوهيَّته، والامتنان على عباده بما خلق لهم بعد امتنانه عليهم بخلقهم.

ومناسبة ابتداء هذا الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأرض، أنَّ البعث هو إخراج أهل الحشر من الأرض، فكانت الأرض أسبق شيء إلى ذهن السَّامع عند الخوض في أمر البعث، أي بعث أهل القبور.

وجاء العطف عليه بقوله تعالى: {والجبالَ أوتاداً} ليدخل تحت قوله تعالى: {ألم نجعل}؛ لأنَّ العطف بحرف (الواو) يفيد الاشتراك في الحكم.

ونجده ﷻ في هذه الآية شبَّه الجبال بالخيمة المثبتة بالأوتاد [٥]، ونوعه: تشبيه بليغ [٦].

أو يكون ذلك من باب الاستعارة المكنيَّة شُبِهَتْ جبال الأرض بأوتاد البيت تخيلاً للأرض مع جبالها بالبيت ومهاده وأوتاده [٧].

وجاء العطف عليه بمنَّة أخرى بقوله تعالى: {وخلقناكم أزواجاً} أول ما يستوقفنا في هذه الآية الكريمة الالتفات من أسلوب الغيبة إلى الخطاب الصَّريح وذلك - والله أعلم - أن هذه المنَّة هي أشد ما تكون لصوقاً بهم، وأسلوب الخطاب أقوى الأساليب

---

[١] - ينظر: البحر المحيط لأبي حيان/٤٠٣/٨.
[٢] - ينظر البلاغة القيمة / عبد القادر حين/ ٦.
[٣] - ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/ ٨٥، ٨٦. بتصرف
[٤] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٢/٣٠، ١٣بتصرف
[٥] - ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/ ١٦/ ٢٠٧.
[٦] - ينظر: روح المعاني للألوسي/٢٨٦/٣٠.
[٧] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ١٤.

تمكناً لما يحمله من معنى المواجهة. وعليه قيل: جاء هذا الالتفات للمبالغة في الالتزام والتَّبكيت (١). يشرحه الشيخ السِّعدي بقوله: أي: ذكوراً وإناثاً من جنس واحد ليسكن كُلُّ منهما إلى الآخر؛ فتكون المودَّة والرَّحمة وتنشأ عنهما الذريَّة، وفي ضمن هذا الامتنان بلذَّة المنكح (٢).

وما يستحق وقفة تأمل وتَّنويه به أن الفعل: {خلقناكم} بزمنه الماضي معطوف على الفعل المضارع في قوله تعالى: {ألم نجعل} ويأتي مسوغ ذلك في اتجاهين الأول: أن حرف النَّفي "لم" الَّذي دخل على الفعل المضارع: {نجعل} قلب معنى المضارع إلى ماضٍ.

والثَّاني: لمناسبة كُلِّ فعل لسياقه المعنوي: فالأول {ألم نجعل} لأنَّ صيغة المضارع تستعمل لقصد استحضار صُّورة الفعل في ذهن المتلقي؛ فالإتيان به يفيد استدعاء إعمال النَّظر في خلق الأرض والجبال؛ إذ هي مرئيات لهم، والأكثر أن يُغفل النَّظر عن التأمل في دقائقها؛ لتعودهم بمشاهدتها؛ فأوثر الفعل المضارع ليكون إقرارهم مما قُرروا به على بصيرة؛ فلا يجدوا إلى الإنكار سبيلاً.

وجيء بفعل المضي في قوله تعالى: {خلقناكم أزواجاً} وما بعده؛ لأنَّ مفاعيل فعل (خلقنا) وما عطف عليه ليست مشاهدة لهم (٣). والله أعلم وأحكم.

وفي ذكر ذلك حمل لهم على الشُّكر بالإقبال على النَّظر فيما بُلِّغ إليهم عن الله الَّذي أسعفهم بهذه النِّعم على لسان رسوله ﷺ وفي ذات الوقت جاء تعريضاً بأن إعراضهم عن قبول الدَّعوة الإسلاميَّة ومكابرتهم فيما بلغهم من ذلك كفران لنعمة واهب النِّعم (٤).

ونجد أنَّه ﷻ ينتقل من الاستدلال بخلق النَّاس إلى الاستدلال ببعض أحوالهم في قوله تعالى: {وجعلنا نومكم سُباتاً} أي: كالسُّبات، فالكلام على التَّشبيه البليغ (٥).

وقد خصت من تلك الأحوال الحالة الَّتي هي ألصق شبهاً بالموت، لتكون أقوى في الاستدلال (٦).

يؤكده أبو السَّعود قائلاً (٧) أي: موتاً؛ لأنَّه أحد التَّوفيتين؛ لما بينهما من المشاركة التَّامة في انقطاع أحكام الحياة؛ وعليه جاء قوله تعالى في مواضع أخرى: {وهو

---

١ - ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٨٦/٩.
٢ - ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٠٦.
٣ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٥/٣٠. بتصرف.
٤ - ينظر: السَّابق بتصرف.
٥ - ينظر: روح المعاني للألوسي/٢٨٨/٣٠.
٦ - ينظر: التحَّرير والتَّنوير / لابن عاشور/٣٠/ ١٧.
٧ - ينظر: إرشاد العقل السَّليم /٩/ ٨٦.

الَّذي يتوفاكم بالليل}[الأنعام:٦٠] وقوله تعالى: {الله يتوفى الأنفس حين موتها والَّتي لم تمت في منامها}[الزمر:٤٢] وغير ذلك كثير.

وهذه منَّة عظيمة على الخلق لِمَا فيها من فوائد جمَّة لا يحصيها إلا علَّام الغيوب ﷻ ، يذكر بعضها الشَّيخ السِّعدي بقوله: أي راحة لكم، وقطعاً لأشغالكم الَّتي متى تمادت بكم أضرَّت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنَّوم يغشى النَّاس لتنقطع حركاتهم الضَّارة، وتحصل راحتهم النَّافعة [١].

ويجيء العطف عليه بما يؤكده قال تعالى: {وجعلنا الليل لباساً} أي كاللباس على التَّشبيه البليغ [٢]. وقيل: على الاستعارة [٣].

يقول أبو السَّعود: أي يستركم بظلامه كما يستر اللباس، ولعل المراد به ما يستتر به عند النَّوم من اللِّحاف ونحوه؛ فإنَّ شبه الليل به أكمل، واعتباره في تحقيق المقصد أدخل [٤].

وكما جعل ﷻ الليل محلاً للنوم الَّذي جعل موتاً، جعل بالمقابل النَّهار محلاً لليقظة المعبرة عنها بالحياة[٥]. في قوله تعالى: {وجعلنا النَّهار معاشاً}، وقد حصل في الكلام اكتفاء دلَّتْ عليه المبالغة، إذ تقدير: وجعلنا النَّهارَ واليقظة فيه معاشاً [٦]. تبعثون فيه من منامكم فتتقلبون في تحصيل المعاش والحوائج [٧].

لذا قيل: في قوله تعالى: {معاشاً} مجاز بعلاقة السَّببيَّة؛ لأنَّ النَّهار سبب للعمل الَّذي هو سبب لحصول المعيشة [٨].

ثمَّ تنتقل الآيات المعجزات إلى الاستدلال بالعالم العلوي في قوله تعالى: {وبنينا فوقكم سبعاً شِداداً}. أي: سبع سماوات قويَّة الخلق محكمة البناء لا يؤثر فيها مرُّ الدُّهور وكرُّ العصور، والتَّعبير عن خلقها بالبناء مبني على تنزيلها منزلة القبَّة المضروبة على الخلق [٩].

ويستوقفنا للتأمل: تقديم الظرف: {فوقكم} على مفعول الفعل {بنينا} ووصفه في قوله تعالى: {سبعاً شِداداً}، وذلك لم يكن لمراعاة الفواصل فقط؛ بل للتشويق إليه فإنَّ

---

١ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٠٦.
٢ ـ ينظر: صفوة التَّفاسير للصابوني/ ٣/ ٥١١. وكذا التَّفسير المنير للزحيلي/٧/٣٠، ٨.
٣ ـ ينظر: الدُّر المصون للسمين الحلبي/ ٦/ ٤٦٢.
٤ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم /٩/ ٨٦.
٥ ـ ينظر: السَّابق. بتصرف
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ١٩، ٢٠.
٧ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٨٧/٩. بتصرف.
٨ ـ ينظر: التَّحرر والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢٠.
٩ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/ ٩/ ٨٧.

ما حقه التَّقديم إذا أُخر تبقى النَّفسُ مترقبةً له؛ فإذا ورد عليها تمكن عندها فضل تمكن [١].

ولا غرو إنَّ ذكر السَّماوات يُحضر في الذِّهن ذكر أعظم ما يشاهده النَّاس في فضائها؛ "الشَّمس" ففي ذلك مع العبر بخلقها عبرة في كونها على تلك الصِّفة، ومنَّة على النَّاس باستفادتهم من نورها وحرارة وهجها فوائد جمَّة.

وعليه جاء الكلام في تسميتها: {سراجاً وهاجاً} على التَّشبيه البليغ والغرض منه تقريب صفة المشبَّه إلى الأذهان، والوهاج: أي الشَّديد السَّنا، ويطلق على المتلألئ المضيء؛ ولذلك أوثر فعل: {جعلنا} دون: خلقنا؛ لأنَّ كونها سراجاً وهَّجاً حالة من أحوالها وإنَّما يعلق فعل الخلق بالذوات [٢].

يقول الشَّيخ السِّعدي: نبَّه بالسِّراج على النِّعمة بنورها، الَّذي صار كالضرورة للخلق، وبالوهَّاج الَّذي فيه الحرارة على حرارتها وما فيها من المصالح [٣].

ثمَّ تتتابع المنن بقوله تعالى: {وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً. لنخرج به حباً ونباتاً. وجنَّات ألفافاً}

أول ما يستوقفنا للتأمل إسناد الفعل "أنزل" إلى نون العظمة الدَّالة عليه ﷻ

أي: {وأنزلنا} بعظمتنا.

وجاء ذكر السُّحب المحملَّة بالمطر بصورة يقف عندها الذهن متأملاً لقوله تعالى: {المعصرات} قيل: هي السَّحائب إذا أعصرتها الرِّياح [٤]. فسبحان من سخر الرِّياح لذلك العمل العظيم.

والماء الثَّجاج: المنصب بقوة، وذلك دليلٌ على الكثرة. ولا يخفى أنَّ وصف الماء هنا بالثَّجاج للامتنان على الخلائق.

ثمَّ بيَّن ﷻ عِلَّة إنزال المطر في قوله تعالى: {لنخرج به حباً ونباتاً. وجنَّاتٍ ألفافاً} فبعد لام التَّعليل يأتي الفعل "نخرج" تتصدره نون العظمة أيضاً لتدل على عظمة ذلك الإخراج، وعظمة مخرجه ﷻ ، والضمير في "به" يعود على الماء الثَّجاج " المطر" وقد بدأ ﷻ بذكر الحب؛ لأنَّه الأصل في الغذاء؛ بل هو الأصل في زراعة

[١] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/ ٩/ ٨٧. بتصرف شديد.
[٢] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢١، ٢٢. بتصرف شديد.
[٣] ـ تفسير: السِّعدي/٩٠٦.
[٤] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/٨٧.

كُلِّ نبات، وثنى بالنَّبات لاحتياج جميع النَّاس والأنعام إليه، وأخر ذكر الجنَّات؛ لأنَّ الحاجة إلى الفواكه ليست ضروريَة [١].

وفي هذا استدلال بحالة أخرى من الأحوال الَّتي أودعها الله تعالى في نظام الموجودات، وجعلها منشأً شبيهاً بحياة بعد موت، لخلق الموجودات من ذرات دقيقة. وذلك نفسه ما يحدث بإنزال ماء المطر من السحاب على الأرض؛ فتنبت الأرض به وهي صورة قريبة من حياة الإنسان والحيوان، عند منشأ خلقه، وعند إعادة بعثه؛ ليكون ذلك دليلاً على تصور البعث بعد الموت حتَّى تضمحل من نفوس المكابرين شُبَهُ إحالة البعث [٢].

ومع ذلك نجد في هذه الآية استدلالين، الأول بإنزال الماء من السَّحاب والآخر بالإنبات، وفيه منَّة على المعرضين عن النَّظر في دلائل صنع الله ﷻ الَّتي تتطلب شكر المنعم بها لِمَا فيها من منافع للنَّاس جمَّة [٣].

قيل: والتَّعبير بالحب على اعتبار ما سيصير إليه النَّبات على المجاز المرسل، وفي التَّعبير بـ(جنَّات) مزيد امتنان من الله ﷻ على الإنسان، وفي قوله تعالى: {ألفافاً} مجاز عقلي؛ لأنَّ الالتفاف في أشجار الجنَّات، لا في الجنَّات ذاتها، وقد ذهب ابن عاشور إلى أنَّ هذا الوصف من مبتكرات القرآن الكريم [٤].

وبهذا الاستدلال ختمت الأدلة الَّتي أُقيمتْ على وحدانيَّته تعالى، وكمال قدرته على البعث – في هذه السُّورة المباركة، مع ما أدمج فيها من المنن، كما نلحظ في هذه الآيات الأخيرة أسلوب ردّ للعجز على الصَّدر [٥] وهو نوعٌ من المحسنات البديعيَّة يفيد التَّأكيد على أهم مضمون في النَّص.

---

١ ـ ينظر: التَّفسير الكبير للإمام الفخر الرازي/١١/ ١١. وكذا إرشاد العقل السَّليم أبي السَّعود/٩/٨٨.
٢ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٢٣. بتصرف شديد.
٣ ـ ينظر: السَّابق.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير / ٣٠/ ٢٥، ٢٦.
٥ ـ ينطر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٢٦.

سورة النّبأ (١٧–٣٠)

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾
وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ
كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا
وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ
حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾
فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ .

الدِّراسة البلاغيَّة التحليليَّة:

يبدأ هذا القسم من السُّورة الكريمة بقول الله تعالى: {إنَّ يوم الفصل كان ميقاتاً} جاءت هذه الآية تمهيداً لذكر ما يكون في يوم القيامة الَّذي يتساءل عنه المكذِّبون، ويجحده المعاندون، لتؤكد على أنَّه يومٌ عظيم، وأنَّ الله تعالى جعله {ميقاتاً}.

هذا بيان لِمَا أُجمِلَ في بداية السُّورة من قوله تعالى: {عن النَّبأ العظيم. الَّذي هم فيه مختلفون}. وهو المقصود من تلك الفاتحة الَّتي افتتحت بها السُّورة [١]. بقوله تعالى: {عمَّ يتساءلون}؛ فجاء في هذا القسم تفصيلاً لما أجمل مما سيلاقيه الطَّاغون من صنوف العذاب حسبما جرى به الوعيد إجمالاً [٢].

ولذا بدأت الآية بأقوى أدوات التَّوكيد "إنَّ" المشدَّدة، واسميَّة الجملة، وأخبر عنها بجملة "كان" زيادة في التَّوكيد، وأخبر عن "كان" بقوله تعالى: {ميقاتاً} وهكذا جاء هذا الخبر مؤكداً بعِدَّة مؤكدات؛ (لإبطال إنكار المشركين وتكذيبهم لوقوع يوم الفصل، وجاء التَّعبير بـ{ميقاتاً} كناية تلويحيَّة عن تحقق وقوعه [٣].

١ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٢٦.
٢ - ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/ ٨٨، وكذا روح المعاني للألوسي ٣٠/٢٩٥.
٣ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٢٦.

ويوم الفصل: هو يوم البعث للجزاء؛ لأنَّ الفصل: التَّمييز بين الأشياء المختلفة، فالجزاء على الأعمال فصل بين النَّاس بعضهم من بعض، وأوثر التَّعبير بيوم الفصل لإثبات الفصل بين الصِّدق والكذب، والقضاء بين النَّاس بالحق (١).

ثمَّ جاء تفصيل البعث دون الالتفات إلى وقت وقوعه، فيبدأ ذكر ذلك الحدث العظيم بقوله تعالى: {يوم يُنفخ في الصُّور فتأتون أفواجاً} أي: النَّفخة الثَّانية.

قيل: جاء ذلك الخبر بدل من يوم الفصل، أو عطف بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله (٢). لِمَا لعطف البيان من قدرة على ذاك. وحقاً إنَّ هذا لحدثٌ عظيم؛ فبالنفخ في الصُّور تنتهي مرحلة الحياة الدُّنيا، ويبعث النَّاس من قبورهم إلى مصيرهم الَّذي وعدوا أو توعدوا به، فيأتون أفواجاً خاضعين للداعي لا مفر لهم منه.

يستوقفنا عطف هذا المقطع بـ(فاء) التَّعقيب الَّتي مما تفيده مسارعة الحدث فههم النَّاس أمام قدرة الله وعظمته، لا يستطيعون حولاً ولا قوَّة، سائرون أفواجاً إلى مصيرهم المجهول إما إلى نعيم أو إلى جحيم.

كما ويستوقفنا للتأمل أسلوب الذِّكر الحكيم الَّذي جاء بالخطاب في: {فتأتون أفواجاً} وذلك لِمَا لهذا الأسلوب من قوة تأثير على نفس المخاطب؛ لاستشعاره أنَّه فرد في خضم هذه الأفواج.

فكلمة أفواجاً الَّتي وقعت حال من ضمير {تأتون} هي جمع لكلمة فوج الَّتي تعني الجماعة المتصاحبة من أناس مقسَّمين باختلاف الأغراض (٣). أو المصائر.

ويزيد المشهد رهباً قوله تعالى: {وفُتحت السَّماء فكانت أبواباً} هذا الحدث العظيم عطف على ما قبله بحرف (الواو) ليدل على المصاحبة والملازمة زمناً، كما جاء الفعل {فُتحت} بزمن الماضي لما لهذا الزَّمن من قدرة على تأكيد وقوع الحدث وإن كان مستقبلاً. ومما يزيد هذا الفتح رهبة وهيبة بناء الفعل لِمَا لم يسم فاعله.

قيل: في التَّعبير بالفتح دون الشَّق أو الفطر إشارة إلى كمال قدرته ﷻ حتَّى كأنَّ شقَّ هذا الجرم العظيم المؤلف من سبع طبقات عظام بمثابة فتح الباب سهولة وسرعة، أو الفتح على ظاهر معناه، والكلام على تقدير مضاف، أي: فكانت السَّماء ذات أبواب (٤).

---

١ ـ ينظر: السَّابق /٢٧/٣٠. بتصرف شديد
٢ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/ ٨٩. بتصرف.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٨/٣٠.
٤ ـ ينظر: روح المعاني للألوسي/٢٩٧/٣٠. بتصرف

فجاء قوله تعالى: {فكانت أبواباً} تشبيه بليغ أي: كالأبواب [١] لتقريب المعنى إلى الأذهان؛ فكأنَّ السَّماء برمتها أبواب مفتحة؛ لعظم تلك الأبواب، وعظم خالقها تبارك وتعالى.

يشرح أبو السَّعود ذلك المشهد بقوله: أي: كثرت أبوابها المفتَّحة لنزول الملائكة نزولاً غير معتاد حتَّى صارت كأنَّها ليست إلا أبواباً مفتحة [٢].

وبذلك الحدث المهيب حينئذ لا يبقى حاجزٌ بين سُكَّان السَّماوات وبين النَّاس [٣].

وعندها تتلاحق مشاهد يوم القيامة بقوله تعالى: {وسُيِّرت الجبالُ فكانت سراباً} قيل: أي نقلت الجبال وقلعت من مقارَّها حتَّى كأنَّها تسير من مكان إلى آخر، وهو نقل يصحبه تفتيت كما دلَّ عليه تعقيبه بقوله تعالى: {فكانت سراباً}؛ لأنَّ ظاهر التَّعقيب ألَّا تكون معه مهلة، أي فكانت كالسَّراب في أنَّها لا شيء بأسرع ما يكون عليه الحدث.

كما نلاحظ مجيء الفعل: {سُيِّرتْ} بالبناء: لِمَا لم يسم فاعله، أيضاً زيادة في تهويل تلك المشاهد الَّتي يشيب لهولها الوليد.

وجاء قوله تعالى: {فكانت سراباً} على طريقة التَّشبيه البليغ لرسم هذه الصُّورة في ذهن المتلقي بأوضح ما تكون عليه. فبعد أن كانت أكبر وأعظم ما يشاهد في الأرض ذهبت وتلاشت بقدرة الخالق العظيم. كما جاء في سورة أخرى: {ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً. فيذرها قاعاً صفصفاً. لا ترى فيها عِوجاً ولا أمتاً} [طه:١١٥-١١٧]

ويستوقفنا للتأمل البدء بتفصيل حال الأشقياء قبل السُّعداء بقوله تعالى: {إنَّ جهنَّم كانت مرصاداً} قيل: لأنَّ السُّورة بُنِيتْ منذ مبدئها على التَّهديد [٤].

وعليه جاء هذا الخبر مؤكداً بأقوى أدوات التَّوكيد؛ لظهور "إنَّ" في أولها، والإخبار عنها بجملة "كان" فهو شُّروع في تفصيل أهوال يوم القيامة [٥].

فما هو ؟ "المرصاد" قيل: اسم للمكان الَّذي يرصد فيه، أي: إنَّ "جهنَّم" كانت في حكم الله تعالى وقضائه موضع يرصد فيه خزنة النَّار الكفار ليعذبوهم فيها [٦].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢٩.
٢ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/ ٨٩/٩.
٣ ـ ينظر: السَّابق.
٤ ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان/ للنيسابوري/٨/٣٠.
٥ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/ ٩٠. بتصرف
٦ ـ ينظر: السَّابق.

فيترقبوا من يزجى إليها من أهل الطغيان كما يترقب أهل المرصاد من يأتي من علوّ (١). نسأل الله تعالى السلامة والعفو والعافية في الدُّنيا والآخرة آمين.

ومن سعة رحمته وفضله نجد أنَّه ﷻ قد حدد المرصود في جهنَّم بقوله تعالى: {للطاغين مئاباً} ولذا جاء الإظهار في مقام الإضمار لتسجيل وصف الطُّغيان عليهم، ولبيان أنَّ الشرك بالله هو أقصى درجات الطُّغيان، وحتَّى يخرج الطَّائعين لله من هذا التَّوعد بفضلٍ منه ورحمة، وبذلك حق وصف الطغيان على الكفرة والمشركين جزاءً وفاقاً.

وجاءت كلمة: {مئاباً} مكان للأوب؛ وهو الرُّجوع، أطلق على المقر والمسكن إطلاقاً أصله كناية، ثمَّ شاع استعماله فصار اسماً للموضع الَّذي يستقر به المرء، ونصب هنا على الحال من {جهنَّم}، أو على أنَّه خبر ثانٍ لفعل {كانت}، أو على أنَّه بدل اشتمال من {مرصاداً}؛ لأنَّ الرَّصد يشتمل على أشياء مقصودة منها أن يكونوا صائرين إلى جهنَّم (٢).

ويستوقفنا للتأمل تقديم: {للطاغين} في قوله تعالى: {للطاغين مئاباً} فأصل الجملة "مئاباً للطاغين" لكن قُدِمَ قوله تعالى: {للطاغين} وهو جار ومجرور على متعلقه {مئاباً} لإدخال الرَّوع على قلوب المشركين (٣). لما في حرف الجر من معنى الملكيَّة.

وجاءت الطَّامة الكبرى في الخبر الأقوى بقوله تعالى: {لابثين فيها أحقاباً} كناية عن دوام لبثهم في النَّار دون انتهاء في معظم أقوال المفسرين (٤) والله أعلم

فهم إذا وردوها قال الله تعالى: {لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً}. حقيقة الذَّوق: إدراك طعم الطَّعام والشَّراب. ويطلق على الإحساس بغير الطُّعوم إطلاقاً مجازياً. وشاع في كلامهم، يقال: ذاق الألم، على وجدان النَّفس كقوله تعالى: {ليذوق وبال أمره} [المائدة: ٩٥]. وقد استعمل هنا في معنييه حيث نصب {برداً} و{شراباً} مفعولين للفعل المنفي: {لا يذوقون}.

يفسره الشيخ السِّعدي بقوله: أي لا ما يبرد جلودهم، ولا ما يدفع ظمأهم (٥).

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٣١. بتصرف.
٢ ـ ينظر: السَّابق/٣٠/٣٢.
٣ ـ ينظر: السَّابق. بتصرف.
٤ ـ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي/ ١٩/ ١٧٨. التَّحرير والتَّنوير /٣٠/ ٣٢. إرشاد العقل السليم /٩/ ٩١.
٥ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٠٧.

ثمَّ أستثنى من عدم الذَّوق الحميم والغسَّاق، فالحميم: الماء الشَّديد الحرارة. أمَّا الغسَّاق: فمعناه الصَّديد الَّذي يسيل من جروح الحرق وهو المُهْل [١].

فجاء استثناء: {حميماً وغسَّاقاً} من {برداً} أو {شراباً} على أسلوب اللف والنَّشر المرتب [٢].

وهو استثناء منقطع؛ لأنَّ الحميم ليس من جنس البرد في شيء؛ إذ هو شديد الحرِّ، ولأنَّ الغسَّاق ليس من جنس الشَّراب، وصورة الاستثناء هنا من تأكيد الشيء بما يشبه ضدَّه في الصُّورة [٣].

وتبرز المطابقة البلاغيَّة بين (البرد) و(الحميم) [٤]؛ لِمَا لأسلوب المطابقة من قوة في إبراز كُلِّ حالة منهما بأوضح ما تكون.

يشرح ذلك الشيخ السِّعدي بقوله: أي ماءً حاراً يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، و{غساقاً} وهو صديد أهل النَّار الَّذي هو في غاية النتن، وكراهة المذاق، وإنَّما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة جزاءً لهم على ما عملوه من أعمال، ولم يظلمهم الله ﷻ ولكن ظلموا أنفسهم [٥].

يؤكد ذلك قوله تعالى: {جزاءً وفاقاً} أي: جوزوا بذلك جزاءً وافق أعمالهم [٦]. حيث أنكروا البعث وكذَّبوا الرَّسول ﷺ وما جاء به من القرآن الكريم. ويصدِّقُه قوله تعالى: {إنَّهم كانوا لا يرجون حِساباً. وكذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً}. وعليه صُدِّرَتْ الجملة الأولى بِعِدَّة مؤكدات؛ لرد إنكار المشركين. من هذه المؤكدات:

"إنَّ" و "كان" لكون تكذيبهم بذلك قد استقر في نفوسهم، ولم يترددوا فيه وذلك ما يصوِّره زمن الفعل "كان" لِمَا لزمن الماضي من قوة تأكيد. فدلَّت بمعناها وزمنها على أن تلك الخصلة سجيَّة فيهم.

وقد جاء الفعل المنفي: {لا يرجون} بزمن المضارع دلالة على استمرارهم في ذلك، والتَّعبير بفعل الرَّجاء ليطمئن المسلمون بأنَّهم ناجون مما سيلقاه الطَّاغون، لأنَّ ترقبهم ليوم الحساب ترقب رجاء، وفي الكلام كناية تعريضيَّة [٧]. للكفرة والمشركين.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٤.
٢ ـ ينظر: التَّفسير الكبير للإمام الرَّزي/١٦/١١. والتَحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٤/٣٠.
٣ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير /٣٤/٣٠.
٤ ـ ينظر: صفوة التَّفاسير للصابوني/١١/٣، وكذا التَّفسير المنير الزحيلي/١٥/٣٠.
٥ ـ وتفسير السِّعدي/٩٠٧.
٦ ـ ينظر إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩١/٩.
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٦/٣٠. بتصرف.

ثمَّ يُعطَفُ على جرمهم الأول جرمٌ ثانٍ بقوله تعالى: {وكذَّبوا بآياتنا كذَّاباً} أي: كذَّبوا بها تكذيباً واضحاً صريحاً وجاءتهم البيّنات فعاندوها [1]. وذلك ما حكاه انتصاب: {كِذَّاباً} لأنَّه مفعول مطلق مؤكد لعامله؛ لإفادة شِدَّة تكذيبهم بالآيات [2].

ويأتي قوله تعالى: {وكلَّ شيءٍ أحصيناه كتاباً} ليقول أنَّ أي: من الأشياء الَّتي من جملتها أعمالهم [3]. قد أحصاها العليم القدير ﷻ .

وجاء انتصاب {كُلَّ} على المفعوليَّة لـ{أحصيناه} على طريقة الاشتغال بضميره، وتقديمه للتأكيد على مضمونه.

ولا يخفى أنَّ إحصاء الأعمال كناية عن ضبطها وتحصيلها، والجزاء عليها. فمن عمل مثقال ذرة خيراً يره ومن عمل مثقال ذرة شراً يره.

كما جاء انتصاب: {كتاباً} على المفعوليَّة المطلقة للفعل {أحصيناه} والتَّقدير: أحصيناه كتابة، وهوه كناية عن شِدة الضَّبط؛ وعليه جاء مفعولاً مطلقاً [4] لِمَا له من قوة في تأكيد الحدث.

ثمَّ جاءت الآية الَّتي هي في غاية الشِدَّة على الطَّاغين، بقوله تعالى: {فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً} وقد زاد من شِدَّتها الالتفات من أسلوب الغائب إلى أسلوب الخطاب [5]. لما للمواجهة من قوة في التَّوبيخ والتَّقريع.

ويؤكد ابن عاشور معنى استمرار زيادته بقوله: والمعنى: فسنزيدكم عذاباً زيادة مستمرة في أزمنة المستقبل، أي: سنزيدكم عذاباً مؤبداً، فهذه الآية ابتداء مُطمِع بانتهاء مُؤْيِس؛ وذلك أشد حزناً للطَّاغين وإيذاناً بشِدَّة عذابهم [6].

ويقول الشيخ السِّعدي وغيره من المفسرين: وهذه الآية أشد الآيات في شِدَّة عذاب أهل النَّار أجارنا الله منها [7]. نسأل الله اللطف والسَّلامة والعافية من سوء المصير آمين.

والله أعلم وأحكم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

---

[1] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٠٧.
[2] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٦/٣٠.
[3] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/ ٩١.
[4] ـ ينظر: التحَّرير والتَّنوير لابن عاشور:٣٧/٣٠.
[5] ـ ينظر: الكشَّاف للزمخشري/٦٩٠/٤. وكذا التفسير الكبير للإمام الرَّازي/٢٠/١١، ٢١.
[6] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٨. بتصرف
[7] ـ ينظر: تفسير السعدي/٩٠٧.

سورة النَّبأ (٣١–٤٠)

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحي

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤)
لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا (٣٥) جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا (٣٦) رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن
شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا (٣٩) إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ
يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا (٤٠)

الدِّراسة البلاغيَّة التحليليَّة :

يبدأ هذا القسم من السورة المباركة بتبشير من هم أهلٌ للبشارة، وذلك على عادة القرآن الكريم من تعقيب إنذار المنذَرين ببشارة المؤمنين.

فانتقلت الآيات الكريمات من ترهيب الكافرين بما سيلاقونه إلى ترغيب المتقين فيما أُعد لهم في دار الآخرة من كرامة ومن سلامة مما فيه أهل الشِرك (١).

فقال تعالى: {إنَّ للمتقين مفازاً} بدأت هذه الجملة الخبريَّة بحرف التَّأكيد: {إنَّ} تأكيداً لتحقيق وعد الله ﷻ الذي لا يخلف وعده ﷻ.

قيل: الافتتاح بحرف: {إنَّ} للدلالة على الاهتمام بالخبر لئلا يشك فيه أحد (٢).

وخصص ذلك بالمتقين، وذلك ما دلَّ عليه تقديم خبر "إنَّ": {للمتقين} على اسمها: {مفازاً} ويزيد ذلك التَّخصيص " لام" الملكيَّة في قوله تعالى: {للمتقين} أي ملك لهم.

١ ـ نظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٣٨، ٣٩. بتصرف.
٢ ـ ينظر: السَّابق.

يقول ابن عاشور: والمقصد منهم المؤمنون الذين آمنوا بالنَّبي ﷺ واتبعوا ما أمرهم به واجتنبوا ما نهاهم عنه، وهو المقصود من مقابلتهم بالطَّاغين المشركين في كل زمان ومكان (١).

فهم اللذين اتقوا سخط ربِّهم بالتمسك بطاعته، والانكفاف عمَّا يكره؛ فلهم مفاز ومنجى وبعد عن النَّار (٢).

فما هي الـ{مفازاً} قيل: يراد به اسم المكان، إذن هو موضع فوز ، وقيل: قد يكون مصدراً ميمياً، ليعني عندها : فوزاً أو ظفراً أو نجاة ، وقد رَجَّح الرَّزي معنى المصدر ؛ لأنَّه فُسِّر بما جاء بعده من الآيات (٣).

ويأتي بيان ذلك بعِدَّة آيات ابتداءً من قوله تعالى: {حدائق وأعناباً} (٤). فأبدل: {حدائق} من {مفازاً} بدل بعض من كُلّ؛ باعتبار أنَّه بعض من مكان الفوز، أو يكون بدل اشتمال باعتبار معنى الفوز (٥).

فماذا تعني {حدائق} في هذا المقام؟

يقول الشيخ السَّعدي: {حدائق} وهي البساتين الجامعة لأصناف الشَّجر الزَّهية في الثمار الَّتي تنفجر خلالها أنهار، وقد خصَّ الأعناب لشرفها وكثرتها في تلك الحدائق اليانعة (٦).

ويأتي العطف عليه بقوله تعالى: {وكواعب أتراباً} وذلك؛ لأنَّ نعيم المكان لا يكمل الاستمتاع به إلا بمشاركة أحب وأقرب ما يكون على قلب المتنعم.

فقيل: في: {كواعب} جمع كاعب (٧). وهنَّ الزَّوجات النواهد من شبابهنَّ وقوتهنَّ ونضارتهنَّ. وأمَّا قوله تعالى: {أتراباً} اللات على سن واحد متقاربات، ومن عادة الأتراب أن يكنَّ متآلفات متعاشرات، وقيل: ذلك السِّن الذي هنَّ فيه ثلاث وثلاثون سنة في أعدل سن الشباب (٨).

---

١ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/ ٣٩.
٢ - ينظر: تفسير السِّعدي: ٩٠٧.
٣ - ينظر: التَّفسير الكبير/ ١١/ ٢١. وتفسير النَّسفي /٤/ ٣٢٧. والتَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠ / ٣٩.
٤ - ينظر: أضواء البيان للإمام الشنقيطي/ ٩/ ١١.
٥ - التَّحرير والتَّنوير :٣٠/ ٣٩.
٦ - ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٠٧.
٧ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير:٣٠/ ٣٩.
٨ - ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٠٧.

ويتتابع ذكر النِّعم بقوله تعالى: {وكأساً دهاقاً} أي: كأساً مترعة يقال: أدهق الحوض أي ملأ [1]. يقول الشيخ السِّعدي: مملوء من رحيق لذَّة للشاربين [2].

ويستوقفنا للتأمل عطف كُلِّ تلك النعم على بعضها بحرف الـ(واو) الَّذي يدُلُ العطف به على المشاركة والمزامنة؛ لتصوير حضورها كلها في وقتٍ واحد وذلك لكمال التَّنعم بها دون تنغيص التَّراخي الزَّمني أو الانتظار.

ويأتي قوله تعالى: {لا يسمعون فيها لغواً ولا كِذَّاباً} يحمل متعة أخرى دالة على نقاء تلك الأجواء من جميع المنغصات الَّتي لا تكاد تنفك منها متعة من متع الحياة الدُّنيا. فقد صوَّرت هذه الآية الكريمة النَّعيم الرُّوحي بجانب النَّعيم الجسدي؛ لأنَّ معنى: {لغواً} هو الكلام الَّذي لا فائدة فيه و {كذَّاباً} الكلام الَّذي يجلب الإثم وينتج العدوان [3].

وتأتي المنَّة الكبرى من ربٍّ رحمن رحيم بقوله تعالى: {جزاءً من ربك عطاءً حساباً}.

يشرح أبو السَّعود هذا القول الكريم قائلاً: بدأت الجملة بمصدر مؤكد منصوب إنَّ للمتقين مفازاً؛ فإنَّه في قوة أن يقال جازى المتقين بـ(مفازاً) جزاءً كائناً {من ربك}، والتَّعرض لعنوان الرُّبوبيَّة المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئاً فشيئاً، مع الإضافة إلى ضميره ﷺ مزيد تشريف له [4].

وعليه يأتي قوله تعالى: {عطاء} أي: تفضلاً وإحساناً منه ﷻ إذ لا يجب عليه شيء، وهذه الكلمة بدل من {جزاءً}. وتأتي كلمة {حساباً} صفة لـ{عطاءً} بمعنى كافياً، وقيل: على حسب أعمالهم [5].

ويستوقفنا للتأمل المفارقة فيما جاء في حق الكُفَّار قال تعالى: {جزاءً وفاقاً}، وفي حق المؤمنين قال تعالى: {عطاءً حِساباً}.

يقول الإمام الشنقيطي [6]: ففي الأول بيان أنَّ مُجَازاتهم وفق أعمالهم، ولا يظلم ربُّك أحداً. ففي الثَّاني بيان بأنَّ هذا النَّعيم عطاءً من الله وتفضلاً عليهم به من الأصل، وهو المفازُ المُفسَّرُ في قوله تعالى: {فمن زُحزح عن النَّار وأدخل الجنَّة فقد

---

[1] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/ ٩٢.
[2] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٠٧.
[3] ـ ينظر: السَّابق بتصرف.
[4] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم /٩٢/٩. بتصرف.
[5] ـ ينظر: السَّابق.
[6] ـ ينظر: أضواء البيان/ ٩/ ١١.

فاز}. [آل عمران: ١٨٥] فدخول الجنَّة ابتداءً عطاءً من الله ﷻ كما في الحديث الشريف " لن يدخل أحدكم الجنَّة بعمله".

ويمدح الله تعالى نفسه بقوله تعالى [١]: {ربِّ السَّماواتِ والأرض وما بينهما الرَّحمن لا يملكون منه خطاباً}. فقوله تعالى: {ربِّ السماوات} نعت لـ{ربك} من قوله تعالى: {جزاءً من ربِّك} ويأتي النعت الثَّاني بقوله: {الرَّحمن} الَّذي وسعت رحمته كلَّ شيء فرباهم ورحمهم ولطف بهم حتَّى أدركوا ما أدركوا؛ وهكذا دلَّت الآية الكريمة على عموم ربوبيته على جميع ما في الكون، وفي عموم ربوبيّته وملكه إشعارٌ بمدار الجزاء المذكور سابقاً [٢].

ويأتي قوله تعالى: {لا يملكون منه خطاباً} استئناف مقرر لِمَا أفادته الرُّبوبيَّة العامة من غاية العظمة والكبرياء، واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء من غير أن يكون لأحدٍ قدرة عليه [٣].

هذا ما أكده وقوع قوله تعالى: {لا يملكون منه خطاباً} في سياق العموم الدَّال على المخصص بمخصص منفصل؛ كقوله عقب هذه الآية {إلا من أذن له الرَّحمن وقال صواباً}. والغرض من ذكره إبطال اعتذار المشركين حين استشعروا شفاعة عبادتهم الأصنام [٤].

ويأتي تحديد ذلك اليوم بقوله تعالى: {يوم يقوم الرُّوح والملائكة صفاً} قيل: الرُّوح خلق أعظم من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من ربِّ العالمين، وقيل هو جبريل عليه السلام وجاء قوله تعالى: {صفاً} حال أي: مصطفين [٥].

فجاء ذكر قيام الرُّوح والملائكة صفاً ليبرز مشهداً عظيماً من مشاهد ذلك اليوم المجموع له النَّاس، وفيه ما فيه من التهويل والتعظيم لشأنه ما لا يخفى.

وعليه يأتي قوله تعالى: {لا يتكلمون} مؤكداً للجملة السَّابقة: {لا يملكون منه خطاباً} أعيدت بمعناها لتقرير المعنى إبطالاً لزعم المشركين شفاعة أصنامهم إذ الشفاعة كلام من له وجاهة وقبول عند سامعه [٦].

ولذا يستثني منهم بقوله تعالى: {إلا من أذن له الرَّحمن وقال صواباً}. ونقف وقفة تأمل مع تقديم: {له} على الفاعل {الرَّحمن} قيل: للاهتمام بمن سيأذن له الله تعالى

---

١ ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري/١٢/٣٠.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٥. وتفسير السِّعدي/٩٠٨. وإرشاد العقل السليم لأبي السَّعود/٩/ ٩٣.
٣ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/ ٩/ ٩٣.
٤ ـ ينظر: التحرير والتنوير/٣٠/ ٤٥. بتصرف.
٥ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم /٩٣/٩.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/ ٤٦.

بالشَّفاعة، وهو السبب نفسه لإظهار هذا الفاعل: {الرَّحمن} مع احتمال المقام إضماره [1].

وإطلاق صفة: {الرَّحمن} على مقام الجلالة إيماءً إلى أنَّ إذن الله لمن يتكلم أثرٌ من آثار رحمته؛ لأنَّه أذن فيما يحصل به نفع لأهل المحشر من شفاعة أواستغفار [2].

وهكذا يأتي ﷻ بهذا الاسم: {الرَّحمن} في هذا المقام المهيب تطميناً لعباده المطيعين، وليؤكد أنَّ رحمته وسعت كُلَّ شيء، وهي قريبة من عباده المتقين.

وتأتي جملة: {وقال صواباً} لتوضح أنَّ من يأذن له الله ﷻ بالكلام؛ لعلمه تعالى أنَّه سيتكلم بما يرضيه ﷻ.

ويستوقفنا للتأمل ورود هذا الفعل بزمن الماضي، وهو مستعمل في معنى المضارع أي: ويقول صواباً؛ لكن عُبِّر عنه بالماضي لإفادة تحقق ذلك في علم الله تعالى [3].

وعليه يأتي قوله تعالى: {ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربِّه مئاباً} هكذا أشير إلى ذلك اليوم بأداة البعيد تأكيداً لعظمته وعلوِّ شأنه على سائر الأيام.

وقيل: الإشارة إلى اليوم المتقدم في قوله تعالى: {إنَّ يوم الفصل كان ميقاتاً} إيَّمَا كان فهو يومٌ مشهود، يشهده كُلُّ خلق الله من الملائكة والإنس والجَّان.

فجاء تعريف: {اليوم} بأل العهديَّة زيادة في تعظيمه، ودلالة على معنى الكمال. والمقصود التنويه بعظيم ما يقع فيه من الجزاء بالثواب والعقاب، وهو نتيجة أعمال النَّاس من يوم وجود الإنسان في الأرض [4].

وجاء وصفه بـ{الحق} تكريماً له. قيل: يجوز أن يكون بمعنى الثَّابت، ويجوز أن يراد ما قابل الباطل، إذ الحق يقع فيه، واليوم ظرف له [5].

ويتفرع عنه قوله تعالى: {فمن شاء اتخذ إلى ربِّه مئاباً} بـ(فاء) الفصيحة لإفصاحها عن شرط مقدر ناشئ عن الكلام السَّابق والتَّقدير: فإذا علمتم ذلك كُله فمن شاء أن يتخذ مآباً عند ربه فليتخذ، وهذا تفريع من الآية من أبدع المواعظ بالترغيب والترهيب [6]. وذلك لِمَا في الشَّرط من قوة تأكيد وربط بين جملة الشَّرط وجوابه.

---

[1] ـ ينظر إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود: ٩/ ٩٤.
[2] ـ ينظر: ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٧.
[3] ـ ينظر السَّابق
[4] ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/٤٨/٣٠.
[5] ـ ينظر: السَّابق.
[6] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٤٩.

ويستوقفنا قوله تعالى: {اتَّخذ} الذي جاء بصيغة: "افتعل" وذلك لأنَّ الاتخاذ: مبالغة في الأخذ، أي: أخذ أخذاً فيه تمكن؛ وذلك لأنَّه: {إلى ربِّه} بكل ما تتضمنه كلمة "رب" من معاني الخير.

ومعنى: {مئاباً} قيل: المآب يكون اسم مكان من الفعل "آب" إذا رجع فيطلق على المسكن، لأنَّ المرء يؤوب إلى مسكنه، ولكن قد يكون مصدراً ميمياً وهو الأوب، أي الرُّجوع والمعنى: فليجعل أوباً مناسباً للقاء ربِّه، أي: أوباً حسناً [١].

وتختم السُّورة المباركة بما يزيد في تخويف الكافرين [٢]. يقول الله تعالى: {إنَّا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً} جاء الخطاب فيها عام لجميع الكافرين [٣]. وهو مستعمل في قطع العذر [٤].

وقد ابتدأ بحرف التَّوكيد " إنَّ" وجاء اسمها "نا" ضمير العظمة تأكيداً على شِدَّة ذلك الإنذار، ثمَّ يكرر ذلك قي قوله تعالى: {أنذرناكم} مع ما يحمل زمن الفعل الماضي من قوة التأكيد على الحدث، وما يحمل ضمير المخاطبة المتصل بالفعل من معنى المواجهة الَّتي تفضي إلى التَّبكيت، وما تدل عليه صيغة الجمع من عموم إنذار الكفرة الملحدين والمشركين والعصاة. ولذا قيل: قد أنزل جميع المشركين منزلة من يتردد في صحة وقوع العذاب [٥].

وفي وصف اليوم بالقريب دليلٌ على قرب حصوله، وإن ظنَّه اللاهون بعيداً [٦]. لأنَّه قد أزف مقبلاً وكُلَّ ما هو آتٍ فهو قريب [٧].

وتأتي الحقيقة العظيمة بقوله تعالى: {يوم ينظر المرء ما قدَّمت يداه} أي: يرى كُلَّ ما أسلفه من الأعمال في الدنيا من خير أو شر، وقد خصَّ ﷻ اليدين بفعل التَّقديم من عامة الجوارح على سبيل التَّغليب [٨]. لأنَّ غالب الأعمال توكل لليدين، أو يكون مجازاً مرسلاً؛ فذكرت اليدان وهي جزء من الجوارح بإرادة الكُلِّ أو الكلام بطريق التمثيل [٩]. فكُلُّ ما أسلفه في الدُّنيا من خير أو شر يحضر أمام عينه ليكون أعظم

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٤٩.
٢ ـ ينظر التَّفسير الكبير لفخر الدين الرّازي/ ٢٦/١١.
٣ ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/١٦/ ٢٠٦.
٤٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/ ٤٩، ٥٠.
٥ ـ ينظر: السَّابق.
٦ ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/١٦/ ٢١٦.
٧ ـ ينظر: تفسير السِّعدي: ٩٠٨.
٨ ـ ينظر: روح المعاني للألوسي/ ٣٠/ ٣١٠.
٩ ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥١، ٥٢.

حُجَّة له أو عليه. نسأل الله الكريم اللطف والسَّلامة والعافية، والستر في الدُّنيا والآخرة آمين. وقد بيَّن نتيجة هذا النَّظر إمَّا المسرَّة به، وإمَّا الفزع منه [1].

وعليه: {يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً} عندما يرى أنَّ البهائم بعد القضاء بينها تكون تراباً بإذن ربها؛ عندها يتمنى الكافر لو كان فرداً منها، ويصير إلى ما صارت إليه، بعد أن كان في حياته الدُّنيا متعالياً حتَّى على أوامر خالقه تبارك وتعالى.

يقول ابن عاشور: وخص بالذِّكر من عموم المرء الإنسان الكافر؛ لأنَّ السُّورة أقيمت على إنذار منكري البعثِ، أي: يتمنى الكافر أن يكون أقلَّ شيءٍ مما لا إدراك له؛ وهو التُّراب، وذلك تلهفٌ وتندُّمٌ على ما قدمت يداه من الكفر؛ فجعل الله ﷻ عقابهم بالتَّحسر والتَّمنِّي أن يكونوا من جنس التُّراب. نسأل الله اللطف والسلامة والعافية من سوء المصير، وما ظلمهم الله تعالى، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

والله أعلم وأحكم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة النَّازعات (١-١٤)

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤ .

[1] ـ ينظر: أضواء البيان للإمام الشنقيطي/ ٩/ ١٣.

بين يدي السُّورة المباركة:

سُمِّيتْ هذه السُّورة المباركة في المصاحف وأكثر التَّفاسير "سورة النَّازعات"، واشتملت على إثبات البعث والجزاء، وإبطال إحالة المشركين وقوعه، وتهويل يومه وما يعتري النَّاس حينئذ من الوهل [١].

يربط البقاعي بين هذه السُّورة و"سورة النَّبأ" قبلها بقوله: لما ذكر ﷻ يوم يقوم الرُّوح ويتمنى الكافر العدم، أقسم أول هذه بنزع الأرواح على الوجه الَّذي ذكره بأيدي الملائكة -عليهم السَّلام- على ما يتأثر عنه من البعث، وساقه على وجه التَّأكيد بالقسم لأنَّهم به مكذبون فقال تعالى: {والنَّازعات}... [٢]

الدِّراسة البلاغيَّة التحليليَّة :

ابتدأت بالقسم بمخلوقات ذات صفات عظيمة، وهو قسمٌ مراد منه تحقيق ما بعده من الخبر، وفي هذا القسم تهويل المقسم به [٣].

يقول الشيخ السَّعدي: هذه الإقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدَّالة على كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره [٤].

وهذه الأمور الخمسة المقسم بها جُموع جرى لفظها على صيغة الجمع (بألف) و(تاء)؛ لأنَّها في تأويل جَماعات تتحقق فيه الصِّفات المجموعة، فهي جماعات، نازعات، ناشطات، سابحات، سابقات، مدبرات، فتلك صفات لموصوفات محذوفة تدلُّ عليها الأوصاف الصَّالحة لها، والَّذي يقتضيه غالب الاستعمال أنَّ المتعاطفات بـ(الواو) صفات مستقلَّة مستعملة لموصوفات مختلفة أنواعاً أو أصنافاً، أو لموصوف واحد له أحوال متعددة [٥].

وعيله قيل في: {والنَّازعات غرقاً}: هم الملائكة الَّتي تنزع الأرواح بقوة، وتغرق في نزعها حتَّى تخرج الرُّوح، فتجازى بعملها [٦].

يقول ابن عاشور: ويؤكده اسم المصدر: {غرقا} وهو هنا مفعول مطلق للنازعات، أي: (نزعاً غرقاً) أي: نزعاً مغرقاً؛ لأنَّه نزعٌ للأرواح من أقاصي الأجساد، وعليه سُميت لحظات الموت بالنِّزاع. أو النَّزع الأخير.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٥٣.
٢ ـ ينظر: نظم الدُّرر/٢١٧/٢١.
٣ ـ ينظر: نظم الدُّرر/٢١٧/٢١.
٤ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٠٨.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/ ٥٤/٣٠. وما بعدها بتصرف.
٦ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٠٨.

فالقسم على هذا الوجه مناسب للغرض الأهم من السُّورة؛ وهو إثبات البعث؛ لأنَّ الموت أول منازل الآخرة؛ فهذا من براعة الاستهلال [1].

ويأتي العطف عليه بقوله تعالى: {والنَّاشطات نشطاً} جاء عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما

أنَّ: {النَّاشطات} الملائكة تُنشط نفوس المؤمنين، وعنه أيضاً هي: نفوس المؤمنين تَنشط للخروج [2].

يقول الشيخ السَّعدي: أو أنَّ النَّزع يكون لأرواح المؤمنين، والنَّشط لأرواح الكفَّار [3]. والأول أولى لدلالة السِّياق عليه فهما وصفان متقابلان الأول: نزع بشِدَّة والآخر: نشط بخفة، فيكون النَّزع غرقاً لأرواح الكُفَّار، والنَّشط بخفة لأرواح المؤمنين، وقد جاء ذلك مفسراً في كثير من الآيات [4].

ويعطف عليه قوله تعالى: {والسَّابحات سبحاً} أرجح ما قيل: أنَّ: {السَّابحات} الملائكة المترددات في الهواء صعوداً ونزولاً [5]. فالآية الكريمة ترسم جزءاً من صُّورة النِّهاية الحتميَّة لكُلِّ البشر؛ فبعد نزع الرُّوح إمَّا نزعاً لأرواح الكفرة، أو نشطاً لأرواح المؤمنين، يسبح بها الملائكة في الهواء إلى ما أمرت به.

وبما أنَّ السَّبح: العوم في الماء، أُعتُبر أنَّ هذه الصُّورة مبنيَّة على الاستعارة التِّبعيَّة حيث أطلق المشبه به "السَّبح" على المشبه، وهو صعود الملائكة في الهواء، واستعير منه لفظ: {السَّابحات} تقريباً لهذا الحدث الَّذي يحكي جانباً من عالم الغيب.

وجاء قوله تعالى: {فالسَّابقات سبقاً} كناية عن الإسراع، وقد قيل: إنَّه لا يستدعي مسبوقاً [6].

ولكن الشيخ السَّعدي يقول: {فالسَّابقات} لغيرها {سبقاً} فتبادر لأمر الله، وتسبق الشَّياطين في إيصال الوحي إلى رُسل الله حتَّى لا تسترقه [7]. فخصصه – رحمه الله- بحملة الوحي. لكنَّ الأول أنسب للسياق، وذلك لعطف الآية بحرف الـ(فاء) الَّذي يؤذن بأنَّ هذه الصِّفة متفرعة عمَّا قبلها - والله أعلم وأحكم-.

كما يأتي العطف بحرف الـ(فاء) لقوله تعالى: {فالمدبرات أمراً} أُسند التَّدبرُ إلى الملائكة -عليهم السلام - على سبيل المجاز؛ وذلك لأنَّ الله ﷻ هو المدبِّر لكُلِّ أمر،

[1] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٥٥. وما بعدها. بتصرف
[2] - ينظر: السَّابق/٣٠/٥٧.
[3] - ينظر: تفسير السِّعدي / ٩٠٨.
[4] - ينظر: أضواء البيان لإمام الشنقيطي/٩/١٥. بتصرف
[5] - ينظر: تفسير السِّعدي/٩٠٨. بتصرف يسير.
[6] - ينظر: حاشية محي الدين شيخ زادة/٤/٦١٠وما بعدها. بتصرف
[7] - ينظر: تفسير السِّعدي/٩٠٨.

فهو المدبِّر للعقاب والثَّواب ولجميع الأشياء وليس الملائكة [1]. فيكون ذلك من إسناد الشَّيء إلى سببه [2]. ويكون إسناد التَّدبير للملائكة بمعنى تدبيرها تنفيذ ما نيط بعهدتها على أكمل ما أُذنت به؛ فيشبه فعل المدبر المتثبِّت [3].

يؤيد ذلك الشيخ السِّعدي بقوله: الملائكة الَّذين وكَّلَهم الله أن يدبروا كثيراً من أمور العالم العلوي والسُّفلي، من الأمطار، والنَّباتات، والأشجار، والرِّياح، والسَّحاب، والأجنَّة والحيوانات، والجنَّة والنَّار وغير ذك [4].

وبما أنَّ لكُلِّ قسم جواباً جاءت جملة: {يوم ترجف الرَّاجفة} جواباً لكُلِ تلك الأقسام الخمسة -على رأي بعض المفسرين- وفي ذلك تهويل ليوم البعث، وفي طيَّاتها تحقيق لوقوعه، وبذلك يحصل في الكلام إيجاز جامع بين الإنذار بوقوعه والتَّحذير مما يجري فيه [5].

ولكنَّ بعض المفسرين أعتبر قوله تعالى: {يوم ترجف الرَّاجفة} جملة مقرر لمضمون الجواب المضمر [6]. المحذوف الَّذي تقديره: لتُبعثنَّ [7].

وقُدِّم في جملة: {يوم تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ} الظرف: {يوم} على متعلقه الفعل: {تَرْجُفُ}؛ لأنه هو الأهم في جواب القسم؛ فهو المقصود إثبات وقوعه؛ فقدم للاهتمام والعناية به[8].

يربط البقاعي هذا الحدث بما قبله قائلاً: ولما أقسم على القيام بتلك الأفعال العظام الَّتي ما أقدر أهلها عليها إلا الملك العلام، ذكر ما يكون فيه من الأعلام تهويلاً لأمر السَّاعة فقال ناصباً الظَّرف بذلك المحذوف؛ لأنَّه لشِدَّة وضوحه كالملفوظ به: {يوم ترجف} أي: تضطرب اضطراباً كبيراً مزعجاً فـ{الرَّجفة} أي: الصَّيحة، وهي النَّفخة الأولى الَّتي يبلغ من شِدَّة إرجافها للقلوب، وجميع الأشياء السَّاكنة من الأرض والجبال إلى نزع النُّفوس من جميع أهل الأرض [9].

---

[1] - ينظر: إعراب القرآن للنحاس/٥/١٤٠.
[2] - ينظر: حدائق الرَّوح والرَّيحان/ الشافي/٣١/١٠٩.
[3] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٨. بتصرف يسير
[4] - ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٠٨.
[5] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٣٠/ ٥٩. بتصرف يسير.
[6] - ينظر: التَّفسير الكبير للرازي/ ٣٤/١١. وانظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/٩٧.
[7] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٥٩. بتصرف
[8] - ينظر: السَّابق. بتصرف
[9] - ينظر: نظم الدرر /٢١/ ٢٢٢.

إذن الرَّاجفة: هي النَّفخة الأولى – على أحد وجوه تفسيرها- على المجاز [١] المرسل؛ لأنَّها سبب الرَّجف [٢]. وقد زاد من هول الرَّجف الجِّناس الاشتقاقي البارز بين قوله تعالى: {ترجف} و{الرَّاجفَة} [٣].

والرَّجف: الاضطراب والاهتزاز، ويجوز أن يكون إسناد: {ترجف} إلى: {الرَّاجفة} حقيقياً فالمراد بـ{الرَّاجفة}: الأرض؛ لأنَّها تضطرب وتهتز بالزلازل الَّتي تحصل عند فناء العالم الدُّنيوي، والمصير إلى العالم الأخروي؛ قال تعالى في سورة [المزمل:١٤] {يوم ترجف الأرض والجبال}، وقال في سورة الواقعة: {إذا رجَّت الأرض رجاً}. والمراد بها – والله أعلم- الصَّيحة والزلزلة الَّتي ترجف الأرض بسببها جعلت هي الرَّاجفة مبالغة كقولهم: عيشة راضية [٤]. أي: عيشة مرضيَّة. أو مرضيٌ عنها

وحينئذ: {تتبعُها الرَّادفة} وهي: رجفة أخرى تتبع الرَّجفة السَّابقة، فجملة: {تتبعها الرَّادفة} حال من: {الرَّاجفة}

ثمَّ جاء الآيات التَّالية لتفصِّل بعض أحوال الإنسان في ذلك اليوم العصيب، ويبدأها المولى ﷻ بأحوال القلوب؛ لأنها ملاك الإنسان ولبِّه، ومقر صلاحه وفساده.

قال تعالى: {قلوبٌ يومئذٍ واجفة} كُلُّ كلمة في هذه الآية تستحق وقفة تأمل طويلة لو كان في المقام سَعة؛ ولكن نختصر بقولنا إن هذه الجملة اسميَّة تحمل التَّأكيد، وتنكير المبتدأ: {قلوبٌ} للتَّكثير، أي: قلوبٌ كثيرةٌ، وجاء وقوعه نكرة لإرادة النوعيَّة. وقد أُكِّدَ ذلك بالظرف {يومئذٍ} أي: {يوم ترجف الرَّاجفة} فحصلت عناية عظيمة بهذا الخبر [٥].

ويأتي خبر الجملة بقوله تعالى: {واجفةٌ} أي: مضطربة من شِدَّة الخوف، وكيف لا، وكُلُّ ما في تلك الأحداث مما يستوجب الخوف الشَّديد وتنخلع له القلوب.

والخوف يومئذٍ وإن كان لا يخلو منه أحد إلا أنَّ أشِدَّه خوفُ الَّذين يوقنون بسوء المصير، ويعلمون أنَّهم كانوا ضالين مضلين في الحياة الدُّنيا.

ويُظهر ما هو مخبأ في القلوب عياناً الخبر الثَّاني عن القلوب بقوله تعالى: {أبصارُها خاشعة} فقد زاد الوجيف بياناً. فالمعنى: أبصار أصحاب القلوب الواجفة.

---

١ - ينظر: حاشية محي الدِّين شيخ زادة/٦١٢/٤. والتَّصوير القرآني في جزء عمَّ /أناهيد جمال حريري/١٤٩/١.
٢ - ينظر: حاشية الشِّهاب /٣١٣/٨.
٣ - ينظر: صفوة التَّفاسير/الصَّابوني/٥١٧/٣. والتَّفسير المنير/الزحيلي/٣٣/٣٠.
٤ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٦٠/٣٠.
٥ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٦٠/٣٠.

والخشوع حقيقته: الخضوع والتَّذلل؛ وهو هيئة للإنسان، ووصف الأبصار به صوَّر شِدة الهلع والخوف من فظيع ما تشاهده من سوء المصير [١].

وقد أضيفت الأبصار لضمير القلوب مع أنَّ القلوب لا أبصار لها؛ وذلك على تقدير مضاف هو: أبصار أصحابها، بدليل قوله تعالى: {يقولون...}؛ لأنَّها محل الخوف، وهو من أحوالها وخواصِّها [٢].

ويأتي الاستئناف البياني بقوله تعالى: {يقولون أءنا لمردودون في الحافرة} رداً على سؤال أثاره القسم وما بعده في نفس السَّامع عن الدَّاعي لهذا القسم فأوجب الإجابة بـ{يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أءذا كنا عظاماً نخره}. وذلك حكاية عمَّا كانوا ينكرونه في حياتهم الدَّنيا على جهة الاستخفاف والتَّعجل والتَّكذيب [٣].

وقد جعل استفهامهم {أإنا...} داخلاً على جملة اسميَّة مؤكدة، مما يعكس قوة تعجب المشركين وإنكارهم؛ وذلك لما للجملة الاسميَّة من قوة في تَّأكيد مضمونها.

ويستوقفنا للتأمل أن تأتي هذه الحاكية على لسانهم بزمن المضارع في قوله تعالى: {يقولون ...}، وذلك - والله أعلم- لإفادة أنَّهم مستمرون عليه، وأنَّه متجدد فيهم، وكذا للإشعار بما في المضارع من استحضار حالهم بتكرار هذا القول ليكون ذلك كناية عن التَّعجب [٤].

والحافرة هي: الحياة، وأصلها: من رجع فلان في حافرته، أي: طريقه الَّتي جاء فيها، والطَّريق في الحقيقة محفورة؛ إلَّا أنَّها سميت حافرة على الإسناد المجازي، أو على النِّسبة أي: ذات حفر [٥]. أو على الاستعارة المكنيَّة بتشبيه القابل للحفر فاعلاً، وجعل الحافرة تخييلاً [٦].

ويزداد الإنكار مع الاستفهام الثَّاني في قوله تعالى: {أءذا كنا عظاماً نخرة} هذه الآية دلَّت على أنَّ المراد بالحافرة: العودة إلى الحياة مرة أخرى، وأكدت على ذلك.

والعظام النَّخرة: البالية، الَّتي تخللها الرِّيح، ونخر الرِّيح شِدَّة صوتها، ومن ذلك المنخرُ؛ لأخذ الهواء منه [٧].

---

١ - ينظر: السَّابق/٣٠/ ٦١.
٢ - ينظر: حاشية محي الدِّين شيخ زادة/ ٤/ ٦١٢، فتح الرَّحمن / الأنصاري/٥٩٧.
٣ - ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/ ٥/ ٤٣١. بتصرف
٤ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٦٢/٣٠. بتصرف شديد
٥ - ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان/ النيسابوري/١٨/٣٠. والتصوير القرآني في جزء عمَّ /أناهيد جمال حريري/١٤٠/١.
٦ - ينظر: روح المعاني /٣١٩/٣٠، وينظر حاشية الشِّهاب /٣١٤/٨.
٧ - ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/ ١٧/٩.

ويتضح مزيد سخريتهم واستهزائهم في قوله تعالى: {قالوا تلك إذاً كرَّةٌ خاسرةٌ} هذه الجملة بدل الاشتمال من جملة [١]: {يقولون أءنا لمردودون في الحافرة}.

فجاء قوله تعالى: {قالوا تلك إذن كرَّةٌ خاسرة} حكاية لكفر آخر منهم متفرِّع على كفرهم السَّابق، ولعل توسط: {قالوا} بينهما للإيذان بأنَّ صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطراد والاستمرار مثل كفرهم السَّابق المستمر صدوره عنهم في كافة أوقاتهم حسبما ينبئ عنه حكايته بصيغة المضارع [٢]. في قولهم السَّابق [الآية:١٠].

و {تلك} اسم إشارة إلى الرَّدة في قولهم: {مردودون}، والحرف: {إذن} جواب للكلام المتقدم، والتَّقدير: إذن تلك كرَّة خاسرة فقُدم {تلك} على حرف الجواب للعناية بالإشارة.

والكرَّة: الواحدة من الكرِّ، وهو الرُّجوع بعد الذَّهاب، أي: رجْعة. ووصفها بـ(الخاسرة) مجاز عقلي؛ للمبالغة؛ لأنَّ الخاسر أصحابها، والمعنى: إنَّا إذن خاسرون لتكذيبنا وتبيُّن صدق الَّذي أنذرنا بتلك الرَّجعة [٣].

يقول الشَّيخ السِّعدي: أي استبعدوا أن يبعثهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظاماً نخرة جهلاً منهم بقدرة الله - تعالى وتقدس- وتجرُّءً عليه [٤].

فقال تعالى في بيان سهولة هذا الأمر عليه، وتفريع للقولين السَّابقين: {فإنَّما هي زجرةٌ واحدة}، بنيت هذه الجملة على القصر لتدل على قوة تأكيد الحدث، وجاء القصر فيها حقيقي، مقصود منه تأكيد الخبر بتنزيل السَّامعين منزلة من يعتقدون أنَّ زجرة واحدة غير كافية لإحيائهم [٥]. وذلك مما دلَّت عليه أداة القصر "إنَّما"

ثمَّ فرَّع عليه قوله تعالى: {فإذا هم بالسَّاهرة} تصدرت هذه الجملة فاء التَّفريع، و"إذا" الفجائيَّة وذلك لتصوير حالتهم النَّفسيَّة عندما سُقِطَ في أيديهم وشاهدوا بأم عينهم حقيقة ما كانوا مستبعدين حصوله، (فكان الجمع بين المفاجأة والتَّفريع أشدَّ ما يعبر به عن السُّرعة مع إيجاز اللفظ) [٦].

و{السَّاهرة}: هي الأرض المستوية البيضاء، الَّتي لا نبات فيها يُختار مثلُها لاجتماع الجموع ووضع المغانم. وأريد بها أرض يجعلها الله تعالى لجمع النَّاس للحشر [٧].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والَّتنوير لابن عاشور:٦٣/٣٠.
٢ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩٨/٩.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٦٤/٣٠.
٤ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٠٩.
٥ ـ ينظر: التحَّرير والتَّنوير /٦٤/٣٠.
٦ ـ ينظر: السَّابق.
٧ ـ ينظر: التحَّرير والتَّنوير /٦٤/٣٠.

وقد قيل: إنَّ إسناد السَّهر للأرض مجاز عقلي؛ لأنَّ السَّائر فيها لا ينام خوف الهلكة[1]. وقيل: مجاز مرسل علاقته المكانيَّة؛ لأنَّ الأرض لا تسهر وإنَّما يسهر النَّاس عليها [2].

سورة النَّازعات (١٥- ٣٦)

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ .

<u>الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:</u>

جاءت الآية الكريمة الأولى في هذا القسم من السُّورة المباركة بقوله تعالى: {هل أتاك حديث موسى} استئناف ابتدائي ابتدئ فيه بقصة نبي الله "موسى" عليه السلام وفي إيرادها تسليةٌ لرسول الله ﷺ وموعظةٌ للمشركين [3]. وتعريضٌ بهم [4]. وبشارةٌ للمسلمين بالنَّصر على أعدائهم [5].

والاستفهام بالحرف (هل) إمَّا يكون للتَّقرير؛ إذا كان الخبر قد أتى رسول الله ﷺ من قبل [6]. أو على بابه، فيكون للعبرة والتَّرغيب [7]، والتَّنبيه إلى هذا الحديث الَّذي هو مما ينبغي الالتفات إليه [8].

---

١ ـ ينظر: حدائق الرَّوح والرَّيحان/ الشَّافعي/٣١/١١٠.
٢ ـ ينظر: البلاغة القيمة / د. عبد القادر حسين/٢٠.
٣ ـ ينظر: التَّفسير الكبير لفخر الدِّين الرَّازي/٣٨/١١.
٤ ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان/ النيسابوري /٣٠/ ١٩
٥ـ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان/٤١٣/٨.
٦ ـ ينظر: التَّفسير الكبير للرازي/ ١١/ ٣٨.
٧ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩٩/٩.
٨ ـ ينظر: تفسير النَّسفي/٣٣٠/٤.

وقد استعير الإتيان في قوله تعالى: {هل أتاك} لحصول العلم تشبيهاً للمعقول بالمحسوس على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، أو المكنيَّة [1].

وبيَّن ﷻ هذا الحديث وموضوعه ومكانه [2] بقوله تعالى: {إذ ناداه ربُّه بالوادِ المقدس طوى} إلى قوله تعالى على لسان فرعون: {فقال أنا ربكم الأعلى}.

أُبتدأت القصَّة من وقت ندائه ﷻ لنبيِّه "موسى" عليه السلام في قوله تعالى: {إذ ناداه ربُّه بالوادي المقدَّس طوى} الظَّرف {إذ} للحديث لا للإتيان لاختلاف وقتهما [3].

وقوله تعالى: {ناداه} دلالة تكريم لنبي الله "موسى" عليه السلام لأنَّ الـ(هاء) ضمير الغائب يعود على "موسى" عليه السلام ويعزز تكريمه قوله تعالى: {ربُّه} بما تحمل كلمة "رب" من معاني جمَّة من ألصقها للمقام هنا أنَّه المنعم عليه، فقد خصصه ﷻ بكرامة تكليمه بهذا النِّداء. حتَّى أنَّ مكان هذا النِّداء قد قُدِّس لقوله تعالى: {بالوادي المقدس طوى}

قيل: طوى: اسم مكان وهو وادي في جانب جبل الطُّور في بريَّة سيناء في جانبه الغربي [4].

ويأتي بيان هذا النِّداء بقوله تعالى: {اذهب إلى فرعون} هذه الجملة بيان لجملة: {ناداه ربه} أمره ﷻ أن يذهب إلى فرعون، وعلل ذلك الأمر بقوله تعالى: {إنَّه طغى} مع عدم تحديد حيثيات هذا الطُّغيان؛ وذلك لإرادة العموم [5]. فقد عمَّ طغيانه البلاد والعباد.

وعليه افتتح قوله تعالى: {إنَّه طغى} بحرف التَّوكيد (إنَّ) الَّذي هو للاهتمام ويفيد مُفاد التَّعليل أيضاً [6].

وقد لقَّنه ﷻ ما يقوله لفرعون الطَّاغية بقوله تعالى: {فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى}.

---

[1] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٦٦.
[2] - ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/ ٩/١٨.
[3] - ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/٩٩.
[4] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٦٧.
[5] - ينظر: حاشية محي الدِّين شيخ زادة /٤/٦١٤.
[6] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير :٣٠/٦٧.

يستوقفنا للتأمل في هذا القول لُطف الاستدعاء؛ لأنَّ كُلَ عاقل يجيب عن هذا السُّؤال أو مثله بالإيجاب [١]. فقول: {هل لك} تركيب جرى مجرى المثل، وهو كلام يقصد منه العرض على سبيل الإيجاز [٢].

والزَّكاة: الزِّيادة، وتطلق على الخير النَّفساني، وهو مجاز شائع ساوى الحقيقة؛ لذاك لا يحتاج إلى قرينة [٣]. وهكذا عُرض على هذا الطَّاغية سبيل الخير بألطف أسلوب لعله يرشد، ويزكي نفسه ويطهِّرها من دنس كفره وطغيانه. ويؤكد ذلك ما عطف عليه من قوله تعالى: {وأهديك إلى ربك فتخشى}.

الهداية: الدَّلالة على الطَّريق الموصل إلى المطلوب إذا قَبِلَها المَهدي.

وتفرَّع عنها: {فتخشى} إشارة إلى أنَّ خشية الله ﷻ لا تكون إلا بالمعرفة، قال تعالى: {إنَّما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ} [فاطر:٢٨]. أي العلماء به [٤].

هكذا فرِّعت الخشية على الهداية للإشارة إلى أنَّ أفضل التَّزكِّي هو الهداية [٥]. وفي الاقتصار عليها أيضاً إيجاز بليغ؛ لأنَّ الخشية ملاك كُلِّ خير [٦].

ويستوقفنا متأملين أن ذُكِرَ له الإله الحق بوصف: {ربِّك} دون أن يذكر اسم الله العلم أو غيره من الأسماء المقدَّسة؛ وأحسب أنَّ ذلك إلطافٌ في الدَّعوة إلى التَّوحيد؛ وفيه أيضاً إطماعٌ له أن يرشد [٧]؛ لأنَّ كلمة "رب" تذكر في مقام البِّر والرَّحمة لِمَا تحمل من معاني الخير بعامة.

وينتقل السِّياق المعجز إلى مجلس فرعون مباشرةً ليذكر لنا ما دار فيه من حوار وأحداث، وليصوِّر سرعة استجابة نبي الله "موسى" وسرعة تنفيذ ما أمره الله به، وهو المشهد الأهم في هذه القصة.

فقال تعالى: {فأراه الآية الكبرى}؛ حتماً هذا المشهد وقع بعد ما قال له ما أمره - الله ﷻ بقوله مما سبق؛ ولكن وقع التَّكذيب والعصيان مباشرة عقب ذلك، ويؤكده قوله تعالى: {فكذَّب وعصى} للدَّلالة على شِدَّة كفره ومكابرته [٨]. حتَّى مع ذلك التَّلطف في الدَّعوة والتَّحذير برؤية الآية الكبرى.

---

١ - ينظر: البحر المحيط لأبي حيان/ ٨/ ٤١٣. وتفسير أبي السَّعود/٩٩/٩ ينظر التبيان في أقسام القرآن لابن القيم/ ٩٤، ٩٥.
٢ - ينظر: التحَّرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٦٨. بتصرف
٣ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٦٨..
٤ - ينظر: السَّابق/٣٠/٦٩.
٥ - ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان/ النيسابوري/ ١٩/٣٠.
٦ - ينظر: التحَّرير والتَّنوير/٣٠/ ٦٩.
٧ - ينظر: السَّابق/٣٠/٧٠/ بتصرف.
٨ - ينظر: السَّابق بتصرف.

وهل اكتفَى فرعون بذلك لا؛ بل أخبر عنه ﷻ بقوله: {ثمَّ أدبر يسعى} عطف هاتين الجملتين بحرف العطف {ثمَّ} دلَّ على أنَّ إدباره عن الهدي وسعيه الجاد لدحض حُجَّة نبي الله "موسى" عليه السلام هما ما استحوذا عليه، ودفعاه لذلك الإدبار والسَّعي، وهذان الفعلان يصوِّران شِدَّةَ الغيظ والمكر الَّذي استحوذ عليه لعظم كرهه للحق وأهله.

أمَّا الفعل: {أدبر} فقد رسم في ذِّهن المتلقي حركة العنف والجفاء، والمباغضة. وجاء الفعل: {يسعى} ليرسم استمرار جهده المضني الحثيث لتحقيق ما تغالبه به نفسه المريضة على تحقيقه، كما يكشفان عن الحالة النَّفسيَّة التَّي كانت مسيطرة عليه آنذاك؛ ولذلك قال بعض المفسرين: هذان الفعلان على معنييهما الحقيقين أو المجازيين [١].

وجاء العطف عليه بـ(فاء) التَّفريع في قوله تعالى: {فحشر فنادى} أي: كان نتيجة ذلك الإدبار والسَّعي الحثيث: {فحشر فنادى}. لتصوير المسارعة الَّتي يدل عليه العطف بحرف (الفاء).

كما نلاحظ عدم ذكر مفعول الفعل: {حشر} لدلالة السِّياق عليه [٢]، أو لعموم من حشره من طوائف وأماكن متفرقة. وقيل: أو لضيق المقام عن ذكره، ففرعون يتلهف للاقتصاص من النَّبي "موسى" وردِّ دعوته [٣]. وفي رأي كُل تلك الحيثيات كانت وراء ذلك الحشر الكبير الَّذي قام به ليتشفى أمام الملأ بدحض حُجَّة نبي الله "موسى" عليه السلام .

وجاء قوله تعالى: {فنادى} معطوف بحرف الـ(فاء) لإفادة أنَّه أعلن هذا القول لهم بفور حضورهم لفرط حرصه على إبلاغ ذلك إليهم [٤] واستعجاله لإسماعهم إياه؛ لأنَّ عبادتهم له هي أهم قضيَّة لديه، وقد فعلوا ذلك ردهاً طويلاً من الزَّمان.

ومما نلاحظه أيضاً حذف مفعول: {فنادى} كما حذف مفعول: {حشر} لدلالة العموم في الحشر وفي النِّداء. فكأنَّه حشر كُلَّ ما بوسعه حشره ونادى كُلَّ ما بوسعه نداءه.

ولأي شيء هذا الحشر الجامع؟ وهذا النداء العام؟ لابد أنَّه لأهم قضيَّة تشغل باله وتعزز مكانته عند قومه؛ يخبرنا المولى ﷻ ما جاء على لسانه بقوله تعالى: {فقال أنا ربُّكم الأعلى} فهل بعد هذا الطغيان طغيان، وهل بعد هذا الكفر كفر ؟؟؟.

١ ـ ينظر: الكشَّاف للزَّمخشري/٦٩٦/٤، المحرر الوجيز لابن عطية/٢٢٣/١٦، غرائب القرن ورغائب الفرقان للنيسابوري/١٩/٣٠.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٧٠/٣٠.
٣ ـ ينظر: البلاغة القيمة / د عبد القادر حسين/٢٣.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٧١/٣٠.

دعونا نقف مع هذه الجملة الَّتي قالها وقفة تأمل لنجد أنَّها جاءت على صيغة الحصر وسبب الحصر أنَّها معرَّفة الرُّكنين المبتدأ {أنا} وهو ضمير والضمائر من المعارف، وكلمة: {ربُّكم} معرفة أيضاً لأن "رب" مضافة إلى كاف الخطاب وهو ضمير أيضاً.

ولم يكتفِ بذلك؛ بل وصف نفسه بكلمة: {الأعلى}. وكُلُّ ذلك الحشد الكبير من التَّعريف الَّذي أتى به في هذه الجملة لرد دعوة نبي الله "موسى" عليه السلام [1].

ففُرِّعَ على كُلِّ ما سبق قوله تعالى: {فأخذه اللهُ نكالَ الآخرة والأولى} نجد أنَّه جل جلاله صوَّر قوة هذا العقاب وغلبته بقوله تعالى: {فأخذه} فالمأخوذ غالباً يصير إلى القهر والضَّعف لتمكن الأخذ منه عندما يكون الأخذ نكالاً.

فما هو النَّكال: قيل: اسم مصدر نكَّل به تنكيلاً؛ وهو إيقاع أذى شديد على الغير مع التَّشهير، بحيث يُنكَّل، أي يَرُد ويصرف من يشاهده عن أن يأتي بمثل ما عومل به المنكَّل به [2]. وقيل: استعملت كلمة: {نكالَ} هنا في معنييه الحقيقي والمجازي، فما وقع لعدو الله فرعون في الدُّنيا نكال حقيقي، وما سيقع له في الآخرة من عذاب يشبه النَّكال في شِدَّة التَّعذيب [3].

ونلاحظ تقديم الآخرة على الأولى، على خلاف الظاهر قيل: لتقديم الأهم والأعظم في نكال فرعون [4].

فنكال الآخرة دائمٌ، ونكال الأولى مهما طال فهو منقطع بانتهاء مدَّ الحياة الدُّنيا. كما نلاحظ أيضاً الطِّباق الَّذي جاء بين الآخرة والأولى ليحُثَ المتأمل على المقارنة بينهما ويهتدي لما هو أنفع وأبقى.

ولهذا ذُيِّلتْ القصةُ بقوله تعالى: {إنَّ في ذلك لعبرة لمن يخشى} بدأت الآية الكريمة بحرف التوكيد لفتاً لما فيها من هدايات، وجاء حرف الجر ظرفاً لِمَا تحمله من خير لمن يخشى.

والإشارة بـ{ذلك} إلى حديث "موسى". والعبرة: الحالة الَّتي ينتقل الذِّهن من معرفتها إلى معرفة عاقبتها أو عاقبة أمثالها، والمراد بها هنا الموعظة، وقد جاءت الكمة مؤكدة بلام الابتداء، وجاء تنوين كلمة {لعبرةً} للتعظيم؛ أي: عبرة عظيمة

[1] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير ٧٢/٣٠. بتصرف
[2] ـ ينظر: السَّابق ٧٢/٣٠، بتصرف.
[3] ـ ينظر: السَّابق ٧٣/٣٠. بتصرف
[4] ـ ينظر: السَّابق بتصرف.

النَّفع. وجعلت لمن يخشى أي: من تخالط نفسه خشيَّة الله ﷻ . وفي ذلك تعريض بالمشركين بأنَّهم ليسوا بأهل للانتفاع بمثل هذا كما لم ينتفع بمثله فرعون وقومه [١].

يقول الشَّيخ السَّعدي: فإنَّ من يخشى الله هو الَّذي ينتفع بالآيات والعبر، فإذا رأى عقوبة فرعون عرف أنَّ كُلَّ من تكبَّرَ وعصى وبارز الملك الأعلى عاقبه في الدَّنيا والآخرة؛ ولكن من ترحلَّتْ خشية الله من قلبه، فلو جاءته كُلُّ آية لا يؤمن بها [٢].

سورة النَّازعات (٢٧-٣٣)

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ .

الدِّراسة البلاغيَّة التحليليَّة:

أول ما يستوقفنا في هذ المقطع من السُّورة المباركة بدؤها بالخطاب الموجه إلى منكري البعث [٣]. بقوله تعالى: {ءأنتم أشدُّ خلقاً أمِ السَّماءُ بناها} قيل: لغرض توبيخهم وتبكيتهم [٤]. خاطبهم الله ﷻ به خطاباً مباشراً بعد أن كان الأسلوب على طريقة الغائب فيما مضى، من قوله تعالى: {يقولون أءنا لمردودون في الحافرة} [النَّازعات:١٠] وما بعدها، وهذا ما يطلق عليه العلماء: الالتفات، وهو أسلوب من أساليب لغتنا العربيَّة، وما أروعه في القرآن الكريم، وحاجة المعنى لذلك هنا أنَّ في خطاب المواجهة قدرة قويَّة تهز قلوب المخاطبين لعلهم يرشدون [٥].

وعليه جاء: {ءأنتم} باستفهام تقرري [٦]. توبيخي، إنكاري [٧].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٧٣/٣٠. بتصرف.
٢ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٠٩.بتصرف يسير.
٣ ـ ينظر: الكشاف للزَّمخشري/٦٩٦/٤. بتصرف.
٤ ـ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي/٢٠٣/١٩. إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٠١/٩.
٥ ـ انظر: الالتفات في القرآن الكريم دراسة بلاغيَّة تحليلية للمؤلفة.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٧٤/٣٠.
٧ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ /أ . أناهيد جمال حريري/١٨٢/١.

وقوله تعالى بعدها: {أشد خلقاً} أي: أصعب خلقاً أم خلق السَّماء؛ وذلك ليدبروا ويتأملوا ويتفكروا بين خلقهم الضَّعيف، وخلق تلك السَّماء الَّتي لا يستطيعون تطاولها مهما بذلوا من جهد؛ ولذلك أتي بقوله {أم السَّماءُ بناها} أي أم خلق السَّماء على عظمها وانطوائها على تعاجيب البدائع الَّتي تحار العقول عن ملاحظة أدناها فضلاً عن الإحاطة بها كُلِّها [١]. فلا يسعهم عند ذلك إلا أن يقروا بأنَّ خلق السَّماء أشدُ وأعظم.

أول ما يشدنا للتأمل في كلمة: {السَّماءُ} ذلك المد في الكلمة الَّذي يقتضي أربع إلى خمس حركات، وكأن الكلمة بهذا الأداء الصَّحيح تصوِّر بعد السَّماء وعلوها وعظم بنائها؛ وقد فسَّرت السُّنة المطهَّرة ذلك بأحاديث شريفة يحسن الرُّجوع إليها.

وجاء قوله تعالى: {بناها} بيان وتفصيل لكيفية خلقها، ولم يذكر الفاعل لهذا الفعل، ولا فيما عطف عليه من الأفعال تنبيهاً على تعينه في الأذهان وتفخيم شأنَّه ﷻ [٢].

قيل: استعمل لفظ (البناء) مع السَّماء مع أنَّها كالسَّقف للأرض؛ للإشعار إلى أنَّها كالبناء في البعد عن الاختلال والانحلال [٣]. كمثال تقريبي؛ ولكن شتان بينهما

وجاء بيان البناء بقوله تعالى: {رفع سمكها} أي: جعل مقدار ارتفاعها من الأرض وذهابها إلى سمت العلو مديداً رفيعاً مسيرة خمسمائة عام [٤]. لكل مسافة بين كُلِّ سماء وما تليها في العلو.

كما جاء قوله تعالى: {فسوَّاها} زيادة في وصف حال تلك السَّماء. وعطفه بحرف الـ(فاء) دلالة على التَّعقيب [٥]. أي أنَّ التسوية أعقبت البناء. مع دلالة حرف الـ(فاء) على المسارعة - فسبحان من بنى وسوى تلك السَّماوات تبارك وتعالى وتقدس -

قيل: معنى: {فسواها} فعدلها مستوية ملساء ليس فيها تفاوت ولا فطور، أو فتممها بما علم أنَّها تتم به من الكواكب وغيرها مما لا يعلمه إلا الخالق العليم من قولهم سوى أمر فلان إذا أصلحه [٦].

---

١ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/. ١٠١ بتصرف.
٢ ـ ينظر: السَّابق بتصرف
٣ ـ ينظر: حاشية محي الدِّين شيخ زادة/٤/٦١٧.
٤ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود، ١٠١/٩.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٧٦/٣٠.
٦ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود، ١٠١/٩

يقول ابن عاشور: وجملة {رفع سمكها فسواها} مبيّنة لجملة {بناها} أو بدل اشتمال منها، وسلك طريق الإجمال ثمَّ التَّفصيل لزيادة التَّصوير [١]. أي أجمل في قوله: {بناها} وفصَّل في قوله تعالى: {فسواها}

وجاء العطف عليه بقوله تعالى: {وأغطش ليلها وأخرج ضُحاها} للدلاة على مغايرة ذلك للبناء؛ لأنَّ العطف بـ(الواو) يفيد المغايرة بين المتعاطفين.

ويفسرهاّ السَّعدي بقوله: أي: أظلمه، فعمت الظُّلمة جميع أرجاء السَّماء، فأظلم وجه الأرض [٢]. بذلك

وتستوقفنا للتأمل كلمة: {أغطش} الَّتي تدور مادتها حول: الظَّلام [٣]. لنتسأل لماذا لم تأتِ الجملة بالقول أظلم ليلها؟؟؟

ذلك - والله أعلم- لأنَّ في إيراد هذه اللَّفظة: {أغطش} إعجاز صوتي لا تؤديه كلمة "أظلم" فكافة أصوات كلمة: {أغطش} تدلُّ على القوة: فالـ(همزة) بغلقها ثمَّ انفجارها تقابل قوَة الظَّلام الهائلة في أوَّله، ثمَّ الـ(غين) بقوتها والـ(طَّاء) القويَّة بعدها مباشرةً؛ لتقابلا إحكام قوة الإظلام وتمامه، وأخيراً يأتي حرف الـ(شِّين) برخاوتها وتفشيها، لتقابل انتشار الإظلام في الكون كُلُه [٤].

وهكذا عبَّرت أصوات حروف كلمة: {أغطش} عن شّدَّة الحدث وصوَّرت ظلاماً دامساً يأتي من العليم الحكيم ليغمر الكون كله.

وجاء العطف بحرف الـ(واو) لإفادة المغايرة في قوله تعالى: {وأخرج ضحاها}. أي: أظهر فيه النُّور العظيم حين أتى بالشَّمس فأنتشر النَّاس في مصالح دينهم ودنياهم [٥].

قيل: وفي التَّعبير عن إحداثه بالإخراج؛ لأنَّ إضافة النَّور بعد الظلمة أتم في الإنعام وأكمل في الإحسان [٦].

لكنَّ كلمة "أخرج" تدلُّ على أن شيئاً أخرج من قلب شيءٍ أخر، وقد كان مستتراً فيه، وفي ذلك دلالة قويَّة على أنَّ الظَّلام هو الحدث الدَّائم العام في الكون كُلِّه؛ وإذا أراد القادر ﷻ بأهل الأرض خيراً أخرج من قلب ذلك الظَّلام نورَ الضُحى؛ لتسعد الأرض ومن عليها من كائنات، كُلُّ الكائنات؛ حتَّى النَّبات يسعد بذلك ويستنشق

---

١ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٧٥/٣٠.
٢ - ينظر: تفسير السَّعدي/٩٠٩.
٣ - ينظر: لسان العرب لابن منظور(غطش).
٤ - ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ / أ. أناهيد جمال حريري/١٧٤/١.
٥ - ينظر: تفسير السِّعدي/٩٠٩.
٦ - ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/ ١٠٢.

عبير الحياة. وفي هذا دلالة قويَّة على عظيم قدرة الله، وإكرامه للخلائق وإحسانه بهم. وعليه لم يقل ﷻ أنار ضُحاها. فشتان بين هذا وذلك.

ويستوقفنا للتأمل أيضاً اختيار وقت الضُحى للدَّلالة على نور النَّهار كله؛ قيل: وتجوز بـ{الضُحى} عن النَّهار بكامله، اعتماداً على قرينة المقابلة بالإغطاش أو الكلام على حذف مضاف، والتَّقدير: وضُحى شمسها، وكنى بذلك عن النَّهار والأول أقرب [١].

وأقول - والله أعلم وأحكم- لأنَّ هذا الوقت قد أودع فيه الرَّب الرَّحمن الرَّحيم من الخير والانشراح والنَّشاط الشَّيء العظيم، وعليه عندما أراد أن يسري عن قلب رسوله ﷺ الحزين أقسم له بهذا الوقت المبارك في "سورة الضُحى" قال تعالى: {والضحى واللَّيل إذا سجى} مقدِّماً الضُحى على غيره.

وقد قال بعض المفسرين: خُصَّ بالذِّكر من النَّهار وقت الضُحى؛ لشرفه على كُل أوقات النَّهار؛ فكان أحق بالذِّكر في مقام الامتنان، وهو السِّرُ في تأخير ذكره عن ذكر الليل [٢]. في هذه السُّورة المباركة "النَّازعات"

كما يستوقفنا للتأمل إسنادُ الليل والضُحى للسَّماء، قيل: وإضافة الليل والضُحى إلى السَّماء لدوران حدوثهما على حركتها [٣] كما قيل: (إضافة ليل وضُحى إلى السَّماء؛ لأنَّهما يلوحان في جهاتها [٤]. وذلك لأنَّ الإضافة تحدث لأدنى ملابسة.

ويأتي العطف بمنَّة أخرى هي ألصق ما تكون بحياة المخاطبين في قوله تعالى: {والأرض بعد ذلك دحاها}.

وفي الانتقال من الاستدلال إلى الأرض بعد السَّماء محسن بديعي يسمى الطِّباق وفائدته اللفت إلى عظيم قدرة الله في كلٍّ من السَّماء والأرض.

ولأجل الاهتمام بدلالة خلق الأرض وما تحتوي عليه قُدِّم اسم: {الأرضَ} على فعله وفاعله: {دحاها}؛ فانتصب على طريقة الاشتغال؛ لأنَّ الاشتغال يتضمن تأكيداً باعتبار الفعل المقدر العامل في المشتغل عنه الدَّال عليه الفعلُ الظَّاهر المشتغل بضمير الاسم المقدَّم [٥].

---

١ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود /١٠١/٩ وكذا روح المعاني للألوسي/٣٢٦/٣٠.
٢ ـ ينظر: الكشَّاف للزَّمخشري/٦٩٧/٤. وكذا التَّفسير الكبير للرازي/٤٥/١١.
٣ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/ ١٠٢.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/ ٧٧.
٥ ـ ينظر: السَّابق.

وتوضيح ذلك أننا نقرأ كلمة: {الأرضَ} منصوبة؛ لأنَّها مفعول به لفعلٍ مقدَّر: أي "دحى الأرض بعد ذلك دحاها" وتكرار الفعل مرَّة ظاهراً وأخرى مقدراً أعطى مزيد من التَّأكيد على الحدث الَّذي يمثله الفعل، وذلك لمزيد لاهتمام به.

يقول الشَّيخ السَّعدي: فدحو الأرض بعد خلق السَّماء كما هو نص هذه الآيات الكريمات، أمَّا خلق نفس الأرض فمتقدم على خلق السَّماء كما جاء في آيات سورة [فصِّلت:١٠ -١٢]

والدَّحو والدَّحيُ يقال: دحوت ودحيتُ. واقتصر الجوهري على الواوي وهو الجاري في كلام المفسرين هو: البسط والمد بتسوية.

والمعنى: خلقها مدحوَّة، أي: مبسوطة مسوَّاة والإشارة بقوله تعالى: {بعد ذلك} إلى ما يفهم من {بناها رفع سمكها فسواها}، أي بعد خلق السَّماء خلق الأرض مدحوَّة [١].

ويقول الشَّيخ السَّعدي [٢] في الدَّحو: أي أودع فيها منافعها، وفسَّر ذلك بقوله تعالى: {أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها}

فمن المنن الَّتي منَّ الله ﷻ بها على عباده في خلق الأرض أولاً: وما تقوم به حياة الأحياء عليها فقال تعالى: {أخرج منها ماءها ومرعاها} هذه الجملة أتت بدل اشتمال من جملة {دحاها}؛ لأنَّ المقصد من دحوها بمقتضى ما يكمل تيسير الانتفاع بها [٣].

ونجد أنَّه ﷻ قدَّم ذكر الماء على المرعى؛ لأنَّه لا يكون إلا به [٤]. كما أنَّ الماء لا تقتصر أهميته على إخراج المرعى؛ بل هي عامة لوجود حياة كُلِّ حي.

وعليه فقد جاءت الآية الكريمة على ما يعرف بإيجاز القِصر [٥]. وللإعجاز العلمي وقفة طويلة مع هذه الآية الكريمة يحسن الرَّجوع إليه في مظانه.

قيل: أريد من قوله تعالى: {مرعاها} ما يأكله الإنسان، فاستعير للإنسان [٦] كما في قوله تعالى: {...يرتع ويلعب...} [يوسف:١٢].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٧٧/٣٠.
٢ ـ ينظر: تفسير السَّعدي/ ٩٠٩.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٧٧/٣٠. كما فسره الشيخ السَّعدي قبل قليل.
٤ ـ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان/٤١٥/٨.
٥ ـ ينظر البلاغة القيِّمة / د عبد القادر حسين/٢٥.
٦ ـ ينظر: الكشَّاف للزَّمخشري/٦٩٧/٤.

ونكتة الاستعارة: توبيخ المخاطبين المنكرين للبعث، وإلحاقهم بالبهائم في التَّمتع بالحياة الدُّنيا والالتهاء عن الآخرة (١).

وجاء ﷻ بذكر نعمة أخرى على الخلق بقوله تعالى: {والجبال أرساها} أي: أثبتها وأثبت بها الأرض أن تميد بأهلها، وهذا تحقيق للحق وتنبيه على أنَّ الرُّسو المنسوب إلى الجبال في مواضع كثيرة من التَّنزيل بالتَّعبير عنها بالرَّواسي ليس من مقتضيات ذواتها؛ بل هو بإرسائه ﷻ لها، تفضلاً منه؛ فلولاه لما ثبتت في نفسها فضلاً عن إثباتها للأرض (٢).

كما يستوقفنا للتأمل تقديم إخراج الماء والمرعى ذكراً مع تقدم الإرساء عليه وجوداً قيل: لإبراز كمال الاعتناء بأمر المأكل والمشرب مع ما فيه من دفع توهم رجوع ضميري الماء والمرعى إلى الجبال (٣).

ويأتي في ختام هذا التَّصوير الرَّباني المعجز قوله تعالى: {متاعاً لكم ولأنعامكم} ليدل ﷻ المنعم على كرمه وفضله على عباده؛ بل على كُلِّ مخلوقاته، وعليه فقد قيل في هذه الآية: إنَّها من جوامع الكلم (٤).

ونلاحظ تقديم متاع العباد على متاع أنعامهم بقوله تعالى: {متاعاً لكم ولأنعامكم} قيل في ذلك: تكريم وتشريف للإنسان (٥).

وأجد في ذلك ملحظ بلاغي آخر يكمن فيما يحمله حرف الجر (اللام) من معنى التَّخصيص والملكيَّة، فتلك الخيرات المذكورة من الماء والمرعة والجبال الَّتي خلقها لتكون حصناً لهم من آفات كثيرة كُلُّ تلك الخيرات بما فيها الأنعام هي متاع للإنسان المكلف بشكرها، ومن بعدهم لأنعامهم الَّتي متاعها متاعاً لهم أيضاً.

ويؤيده قول ابن عاشور: وهذا إدماج الامتنان في الاستدلال؛ لإثارة شكرهم حق النِّعمة بأن يعبدوا المنعم وحده ولا يشركوا بعبادته غيره (٦).

وفي هذا القسم من السَّورة المباركة من قوله تعالى: {والأرض بعد ذلك...} إلى قوله تعالى: {متاعاً لكم ...} مُحسِّن بلاغي هو الجمع ثمَّ التَّقسيم (٧). وفائدته ترسيخ ما يحمله المقطع من مفاهيم عميقة المعنى، كثيرة الفائدة بذكرها مجموعة ثُّم مقسَّمة.

١ ـ ينظر: روح البيان للبروسوي/١٠/٣٨٤.
٢ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/١٠٢. بتصرف
٣ ـ ينظر: السَّابق.
٤ ـ ينظر: روح البيان للبروسوي/١٠/٣٨٤.
٥ ـ ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي/٣/٢٥٣.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/٧٩.
٧ ـ ينظر: المرجع السَّابق.

ونجد المقابلة الواضحة بين ذكر السَّماء وكُلِّ ما يتصل بها، والأرض و كُلِّ ما يتصل بها؛ لتظهر بتلك المقابلة كُلَّ صورة منهما بأوضح ما يكون عليه الإيضاح، كما أنَّ تلك المقابلة تربط جزئيات التَّصوير بعضها ببعض فتظهر قدرة الخاق بصورة متكاملة يحار فيها الفكر، ثمَّ يهتدي لوحدانيَّة الخالق العظيم وبديع صنعه المتقن ﷻ.

سورة النَّازعات (٣٤-٤٦)

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ
لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ
﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ
﴿٤١﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ
مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ
ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة :

بدأ هذه المقطع من السَّورة المباركة بالحديث عن القيامة بعد الفراغ من الاستدلال على إمكانيَّة البعث [1]. بقوله تعالى: {فإذا جاءت الطَّامة الكُبرى}.

وذلك من حديث حرف الـ(فاء) الَّذي ربط الآية بما قبلها للتفريع على كُلِّ ما سبق مما ذكر في السُّورة خاصة الآيات الَّتي ذكرت ما جعله المولى ﷻ متاعاً للنَّاس في هذه الحياة الدُّنيا؛ وعليه فهذه الآية وما بعدها تنذر بانتهاء ذلك كُلِّه بهذه الواقعة الَّتي وصفها سبحانه بـ{الطَّامة الكبرى}.

[1] ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري/٣٠/٢١.

والفعل: {جاءت} هنا مجاز في الحصول والوقوع؛ لأنَّ الشَّيء المؤقَّت المؤجل بأجل يشبه شخصاً سائراً إلى غاية، فإذا حصل ذلك المؤجل عند أجله فكأنَّه السَّائر إذا بلغ المكان المقصود [١]. والَّذي شُبِّه بالسَّائر هو: {الطَّامَّة} أي: الحادثة، أو الواقعة الَّتي تَطِمُّ أي: تعلو وتغلب بمعنى تفوق أمثالَها [٢].

فمادتها تدور حول: كُلّ ما كَثُرَ وعلا حتَّى غلب [٣]. وقد قيل: إنَّها النَّفخة الآخرة، أو السَّاعة الَّتي طمَّت كُلَّ داهية، أو من أسماء القيامة الكُبرى [٤].

قيل: سميت القيامة أو السَّاعة أو النَّفخة الثَّانية...الخ بالطامَّة؛ لأنَّها هي الغاشية والغامرة والهائلة الَّتي تطم كلَّ شيء وتغطِّيه [٥]. وعليه وصفت بالكبرى.

ثمَّ يخبر ﷻ بقوله: {يوم يتذكَّر الإنسانُ ما سعى} هذه الجملة أتت بدل اشتمال من جملة: {إذا جاءت الطَّامة الكُبرى}؛ لأنّ ما أضيف إليه اليوم هو من الأحوال الَّتي يشتمل عليها زمن مجيء الطَّامة الكُبرى، وهو يوم القيامة ويوم الحساب [٦].

ففي ذلك اليوم يوقف الإنسان على أعماله في كتابه؛ لأنَّ التَّذكر مطاوع ذكَّره والتَّذكير يقتضي سبق النِّسيان [٧]. ولكنَّه محفوظ في صحيفة أعماله وإن كان نسيه من فرط الغفلة وطول الأمد [٨]. وقد قال تعالى في موضع آخر: {أحصاه اللهُ ونسوه}.

وعند هذا الموقف الرَّهيب يفاجأ أهل الموقف بما يذيب الأفئدة هلعاً في قوله تعالى: {وبرِّزَتْ الجَّحيمُ لمن يرى}. عطفت هذه الجملة بحرف الـ(واو) على جملة {جاءت} أي: أظهرت إظهاراً بيّناً لا يخفى على أحد [٩].

ومجيء الفعل: {بُرِّزتْ} مضعَّف لإفادة إظهار الجحيم بأقوى ما يكون عليه الإظهار؛ لأنَّه إظهار لأجل الإرهاب. وزاد في رهبة الموقف بناء هذا الفعل لِمَا لم يذكر فاعله، مما يصوِّر زيادة رهبة ذلك الموقف.

قيل: الكلام في الآية على الاستعارة إن حمل الضَّمير في: {لمن يرى} للكافرين، أو على الحقيقة إن حمل الضَّمير فيه لكُلِّ من له بصر من المؤمنين والكافرين، إلا

---

١ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٨٠.،
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٨٠. بتصرف.
٣ ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور "طَمَّ"
٤ ـ ينظر: النُّكت والعيون للماوردي/٦/٢٠٠.
٥ ـ ينظر: السَّابق.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَنوير لابن عاشور/٢٣٠/ ٨٠ بتصرف.
٧ ـ ينظر: السَّابق.
٨ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/ ١٠٤.
٩ ـ ينظر: السَّابق.

أنَّ المؤمنين يرونها رؤية مرور لقوله تعالى: {وإن منكم إلا واردها} في سورة [مريم:٧١]، والكافرين: رؤية استقرار [١].

ويأتي قوله تعالى: {فأمَّا من طغى ...} جواب لقوله تعالى السَّابق: {فإذا جاءت الطَّامة الكُبرى}، وقيل: هو تفصيل للجواب المحذوف المقدَّر بـ(انقسم الرَّاؤون قسمين فأمَّا من ....) والَّذي تستدعيه فخامة التَّنزيل ويقتضيه مقام التَّهويل أنَّ الجواب المحذوف كان من عظائم الشُّؤون مالم تشاهده العيون [٢]. هو مشهد انقسام الخلق إلى فريقين متباينين. فريق إلى الجنَّة وفريق إلى السَّعير.

ومن بديع نظم القرآن أن يتقدم هذه الجملة حرف تفصيل وشرط (أمَّا) [٣].

والطغيان: مجاوزة الحد، بأن تجرأ على المعاصي الكبار ولم يقتصر على ما حدَّه الله تعالى له [٤]. فطغى على أمر الله ولم يخف عقابه كما دلَّ عليه قوله تعالى: {وأمَّا من خاف مقام ربِّه ونهى النفس عن الهوى}.

ونلاحظ تقديم ذكر الطُّغيان في قوله تعالى: {فأمَّا من طغى. وآثر الحياة الدَّنيا} لأنَّ الطُّغيان من أكبر أسباب إيثار الحياة الدَّنيا؛ فلمَّا كان مسبباً عنه ذكر عقبه مراعاة للترتيب الطَّبيعي.

كما نلاحظ ترك ذكر المأثور عليه، لوضوحه من خلال السِّياق، أي: آثر الحياة الدُّنيا على الآخرة [٥].

ويأتي جواب الشَّرط بقوله تعالى: {فإنَّ الجحيم هي المأوى} مؤكدة بعِدة مؤكدات (إنَّ، واسميَّة الجملة، وضمير الفصل: هي). أي: الجحيم هي مأواه المنتظر لا غيرها.

ويستوقفنا للتأمل اختيار كلمة (المأوى) في هذا المقام، لِمَا لهذه الكلمة من معاني إيحائية عميقة؛ ففيها تصوِّرٌ معجزٌ يدلُّ على شِدَّة تلهف الجَّحيم على من ستأويهم في قرارها. وقد قال تعالى عنها: {إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً} [الفرقان:١٢].

---

١ ـ ينظر: التَّفسير الكبير للإمام الفخر الرَّازي /٤٨/١١.
٢ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود /١٠٤/٩.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٨١/٣٠.
٤ ـ ينظر: تفسر السِّعدي/٩١٠.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٨١. بتصرف.

وتأتي المقابلة المعجزة بين حال الطَّاغين وحال المتقين بقوله تعالى: {وأمَّا من خاف مقام ربه ونهى النَّفس عن الهوى. فإنَّ الجنَّة هي المأوى}؛ لأنَّ التقابل يظهر كُلَّ فريق بأدق ما يكون عليه الإيضاح.

فقوله تعالى: {من خاف مقام ربِّه} مقابل قوله تعالى: {من طغى} لأنَّ الخوف ضد الطغيان (١). وشتان بين الفريقين حياة ومآلاً. قيل في: {خاف مقام ربِّه} أي: خاف مقامه بين يدي مالك أمره يوم الطَّامة الكبرى (٢).

ويجعل ابن عاشور: {مقام ربِّه} مجاز عن الجَّلال والمهابة، لأنَّ أصل المقام مكان القيام، ثمَّ شاع إطلاقه على نفس ما يضاف إليه على طريق الكناية بتعظيم المكان عن تعظيم صاحبه (٣). فصور المجاز عظم رهبة المؤمن ذلك الموقف فيثمر ذلك الخوف سلوكاً إيجابياً تحسباً لوقوفه بين يدي العزيز الجبَّار ﷻ .

وعليه يأتي قوله تعالى: {ونهى النَّفس عن الهوى} مقابل قوله: {وآثر الحياة الدَّنيا}. قيل: نهى الخائف نفسه مستعار للانكفاف عن تناول ما تحبه النَّفس من المعاصي والهوى، فجعلت نفس الإنسان بمنزلة شخص آخر يدعوه إلى السَّيئات وهو ينهاه عن هذه الدَّعوة، وهذا يشبه ما يسمى بالتَّجريد (٤).

يقول الشيخ السِّعدي: فأثر هذا الخوف في قلبه؛ فنهى نفسه عن هواها الَّذي يقيدها عن طاعة الله ﷻ وصار هواه تبعاً لما جاء به الرَّسول ﷺ وجاهد الهوى والشَّهوة الصَّادين عن الخير (٥). وجهاد النَّفس من أعظم الجهاد وأدومه.

ولمَّا كان الخوف من الله ﷻ هو السَّبب الدَّافع لهوى النَّفس – لا جرم- قدَّم العلَّة على المعلول (٦). أي قدِّم الخوف على نهي النَّفس عن الهوى.

ثمَّ جاء جواب الشَّرط بقوله تعالى: {فإنَّ الجنَّة هي المأوى} هذه الجملة المؤكدة بعِدَّة مؤكدات حملت البشرى العظيمة بتوضيحها مآل المتقين (٧). وتفضي هذه المؤكدات إلى أنَّ الجنَّة هي المأوى لا غيرها لمن خاف مقام ربِّه ونهى النَّفس عن الهوى؛ لأنَّ المأوى: اسم مكان من الفعل "أوى" إذا رجع، فالمراد به: المقر والمسكن؛ لأنَّ المرء يذهب إلى قضاء شؤونه ثمَّ يرجع إلى مسكنه (٨).

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٨١.
٢ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/١٠٤.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/ ٨٣.
٤ ـ ينظر: السَّابق.
٥ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٠.
٦ ـ ينظر: التَّفسير الكبير للإمام الرازي/١١/٥٠.
٧ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ /أناهيد جمال حريري/١/٢٠٣.
٨ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابت عاشور/٣٠/٨٣.

ولما كانت الجنَّة هي مسكن أبي البشر الأول سيعود بنوه الموحدين إلى مسكنهم بفضل من الله ورحمته.

ومن بديع نظم القرآن الكريم جاء المحسِّن البلاغي: "الجمع مع التَّقسيم " في الآيات من قوله تعالى: {يوم يتذكر الإنسان ما سعى} [النازعات:٣٥] إلى قوله: {فإنَّ الجنَّة هي المأوى} [النَّازعات: ٤١]. وقد أظهر هذا المحسِّن البلاغي الرَّابط المعنويَّ العميق بين آيات المقطع بأوضح ما يكون عليه الإيضاح.

وتأتي الآيات [٤٢-٤٥] بقوله تعالى: {يسألونك عن السَّاعة أيان مُرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنَّما أنت منذرُ من يخشاها} استئنافاً بيانياً [١].

والسَّائلون هم منكرو البعث، إذن السُّؤال في الآية سؤال استهزاء، أو استعجال لوقوعها لعدم إيمانهم بحقيقة وقوعها [٢].

أمَّا السُّؤال في قوله تعالى: {أيَّان مُرساها} مستعمل في الاستبعاد كناية عن الاستحالة، ونلاحظ مجيء التَّعبير عن وقت وقوع السَّاعة بـ(الرَّسو) على سبيل الاستعارة، وقوله تعالى: {أيَّان} ترشيح لهذه الاستعارة [٣].

أي: يسألك المتعنتون المكذبون بالبعث {عن السَّاعة} متى وقوعها [٤]. فيقع قوله تعالى: {فيم أنت من ذكراها} موقع الجواب عن سؤال المشركين للسَّاعة، وهو من باب خروج الكلام على خلاف مقتضى الظَّاهر. وذلك ما عَبَّرَ عنه مضمون قوله تعالى: {إنَّما أنت مُنذرُ من يخشاها} وهذا ما يطلق عليه الأسلوب الحكيم [٥].

والاستفهام في قوله تعالى: {فيم} مستعمل في التَّعجب والتَّوبيخ، وقد قُدِّم الخبر {فيم} على المبتدأ: {أنت} للاهتمام بالخبر [٦].

ثمَّ علل هذا التَّعجب في قوله تعالى: {إلى ربك منتهاها} وفي هذه الجملة أيضاً قُدِّم الجار والمجرور: {إلى ربك}؛ لإفادة معنى القصر، وهو قصر صفة على موصوف أي: إليه وحده ﷻ ينتهي علمها [٧]. لا إليك ولا لأحدٍ غيرك.

ويستوقفنا للتأمل ظهور اسم "الرَّب" في هذا المقام وإضافته إلى ضمير المخاطب وهو رسول الله ﷺ في المقام الأول، تكريماً له ﷺ ثمَّ لكُلِّ واقفٍ على الآية الكريمة

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٨٤. بتصرف
٢ ـ ينظر: التَّفسير الكبير الفخر الدين الرَّازي/١١/٥٠. بتصرف
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٨٤، ٨٥.
٤ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩١٠.
٥ ـ ينظر: التحَّرير والتَّنوير لابن عاشور/٨٥، ٨٦. بتصرف.
٦ ـ ينظر: السَّابق.
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٨٦. بتصرف.

من المسلمين، وحضور هذا الاسم في هذا المقام - والله أعلم- لِمَا يحمل هذه الاسم الكريم من معاني الرَّحمة والقرب والفضل، ومعانٍ أخرى لا حصر لها ومن أمسَّها هنا أنَّ الخلق والأمر له، والمنتهى إليه تعالى وتقدس لا إله غيره. والمنتهى أصله: مكان انتهاء المسير، ثمَّ أطلق على المصير [١]؛ ولكنَّه بهذا المسمى يرسم صورة ركضنا الحثيث المستمر في هذه الحياة؛ حتَّى يفاجئنا الوصول إلى ذلك المنتهى.

ثمَّ يستمر الخطاب الشَّريف إلى رسول الله ﷺ بقوله تعالى: {إنَّما أنت منذرُ من يخشها} هذه الآية بما أتت عليه من تركيب أفادت أيضاً القصر، وجاء من باب قصر الموصوف على الصِّفة قصراً إضافياً. أي أنَّ النَّبي ﷺ حظه التَّحذير من بغتتها، وليس حظه الإعلام بتعيين وقتها [٢].

واختيار القصر بهذه الأداة "إنَّما" دون - النَّفي والإثبات- بـ(ما، وإلا) يؤكد دقَّة مسلك القرآن الكريم في إعجازه البلاغي؛ لأنَّه يعبر بهذه الأداة عمَّا هو معروف مسلم به. والمعنى من يخشى الله ويتقه هو من يعتبر بهذا الإنذار وينتفع به لا غيرهم. (فتخصيص الإنذار بمن يخشى مع عموم الدَّعوة؛ لشدَّة انتفاعه بها) [٣].

يقول الشيخ السِّعدي: إنَّما نذارتك نفعها لمن يخشى مجيء السَّاعة، ويخاف الوقوف بين يديه ﷻ فهم الَّذين لا يهمهم سوى الاستعداد لها والعمل لأجلها.

وأمَّا من لا يؤمن بها، فلا يُبالى به ولا بتعنته؛ لأنَّه تعنت مبني على العناد والتّكذيب، وإذا وصل إلى هذه الحال كان الإجابة عنه عبثاً، ينزَّه الحكيم عنه [٤].

ثمَّ يأتي ختام هذه السُّورة المباركة بقوله تعالى: {كأنَّهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيَّةً أو ضحاها}. هذه الآية جواب عمَّا تضمنه قوله تعالى: {يسئلونك عن السَّاعة أيان مرساها} [النَّازعات:٤٢] الَّذي يرمون به إلى تكذيب وقوعها، فأجيبوا على طريقة الأسلوب الحكيم، أي: إن طال تأخر حصولها فإنَّها واقعةٌ وأنَّهم يوم وقوعها كأنَّه ما لبثوا في انتظارها إلا بعض يوم، وهو ما أنبأ عنه التَّعبير بالعشيَّة أو ضحاها على طريقة التَّشبيه، وقرينته (كأنَّهم) [٥]. فما أسرع انقضاء العمر لو فقه الغافلون.

والله أعلم وأحكم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

١ - ينظر: لتَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٨٦/٣٠.
٢ - ينظر: السَّابق/٨٦/٣٠.
٣ - ينظر: اللُّباب الحنبلي/١٥١/٢٠. وكذا إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٠٦/٩.
٤ - ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٠.
٥ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٨٧. بتصرف.

سورة عبس

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ
ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾
وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾
فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾
كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ
خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ
﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ
صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾
وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾
فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ
وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾
ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ .

<u>بين يدي السُّورة المباركة:</u>

سميت هذه السُّورة في المصاحف وكتب التَّفسير وكتب السُّنَّة "سورة عبس".

أغراضها: تعليم رسول الله ﷺ الموازنة بين مراتب المصالح ووجوب الاستقراء لخفياتها [١]. ومن بعده لكافة الأمَّة.

يربطها البقاعي بسورة النَّازعات بقوله: (مقصودها شرح: {إنما أنت منذر من يخشاها} بأن المراد الأعظم تزكية القابل للخشية بالتَّخويف بالقيامة الَّتي قام الدَّليل على القدرة عليها بابتداء الخلق من الإنسان وكل المخاليق...) [٢].

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

قال تعالى: {عبس وتولى. أن جاءه الأعمى. وما يُدربك لعله يزكى. أو يذَّكر فتنفعه الذِّكرى}.

افتتاح هذه السُّورة المباركة بفعلين لم يذكر فاعلهما: {عبس وتولى} ذلك مما يزيد التَّشويق لِمَا سيرد بعدهما، كما يشعران بأنَّ المحكي حادث عظيم يجب التَّنبه إليه، ويأتي تبيين الضمائر السَّابقة في الآية السَّادسة بقوله تعالى: {فأنت له صدى} وأمَّا الحادث فيتبين من ذكر: {أن جاءه الأعمى} وذكر: {أمَّا مَن استغنى} [٣].

وعن السَّيدة "عائشة" أم المؤمنين ﵂ قالت: (أنزلت: {عبس وتولى} في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى النَّبي ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من عظماء المشركين، فجعل النَّبي ﷺ يُعرض عنه، ويُقبل على الآخر..)[٤]

ويستوقفنا للتأمل ما تصوره أول كلمة في هذه السُّورة المباركة الفعل: {عبس} الَّذي مادته تدور حول: العُبُوس وهو: تقطيب ما بين العينين [٥].

فقد صوَّرت لنا هذه الكلمة حالة النَّبي ﷺ عندما شغله طلب الأعمى عمَّا كان مهتماً به لدعوة أحد صناديد المشركين. حرصاً على جذب أكبر عدد بواسطته للدخول في الإسلام. و(المراد من عَبسه ﷺ في وجه الأعمى قبضه لوجهه تكرُّهاً) [٦].

وهذه الحالة إن لم يرها الأعمى؛ لكنَّ الله يراها وقد خلدها قرآناً يتلى على مر الزَّمان عتاباً للنَّبي ﷺ مع شدَّة حرصه على تقوية الدَّعوة بما ينفع الإسلام، كما إنَّها موعظة لأمَّته.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عشور/٩٠/٣٠. بتصرف
٢ ـ ينظر: نظم الدُّرر/٢١/ ٢٤٩.
٣ ـ ينظر: السَّابق. بتصرف.
٤ ـ انظر: أسباب النزول للواحدي/٢٥٤، وينظر: لباب النُّقول في أسباب النزول للسيوطي/٣٥٣.
٥ ـ انظر: لسان العرب لابن منظور(عبس)
٦ ـ انظر: جامع البيان للطبري/٦٤/٣٠.

ويزيد الصُّورة حياة وحركة عطفه لقوله تعالى: {وتولى} قال ابن منظور: (ولَّى الشَّيء وتولَّى: أدبر عنه وولَّى عنه: أعرض عنه ونأى) (١).

وقد ذكر ﷺ ابن أم مكتوم بـ{الأعمى} ترقيقاً للنَّبي ﷺ ليكون العتاب ملحوظاً فيه أنَّه كان صاحب ضَرارة؛ فهو أجدر بالعناية به؛ لأنَّ مثله يكون سريعاً إلى انكسار خاطره (٢). وقد روي أنَّه ﷺ ما عبس بعد ذلك في وجه ضعيف ولا تصدَّى لغني(٣).

ثمَّ نجد الخطاب توجه إلى رسول الله ﷺ في قوله تعالى: {وما يُدريك لعله يزَّكى} بعد أن كان ذكره بأسلوب الغائب؛ وذلك زيادة في الإنكار عليه (٤). وهذا على أسلوب الالتفات؛ قيل: فيه إيناس بعد إيحاش، وإعراض (٥).

والاستفهام في قوله تعالى: {وما يدريك لعله يَزَّكَّى} مراد منه التَّنبيه قيل: المعنى انظر فقد يكون تزكِّيهِ مرجواً إذا أقبلت عليه بالإرشاد، والمراد تزكية زائدة على تزكية الإيمان (٦).

ويأتي العطف عليه بقوله تعالى: {أو يذَّكر فتنفعه الذِّكرى} أي: ما يدريك أن يحصل أحد الأمرين وكلاهما مهم، أي تحصل الذِّكرى في نفسه بالإرشاد لِمَا لم يكن يعلمه أو تذكُّر لِما كان في غفلة عنه، وقد اكتفي بقوله تعالى: {فتنفعه الذِّكرى} عن أن يقول: فينفعه التَّزكي، وتنفعه الذِّكرى إيجازاً لظهور أنَّ كليهما نفع له (٧).

وقد قُدِّم التَّزكي على التَّذكر؛ لتقديم التَّخلية على التَّحلية (٨) فلولا التَّزكي لِمَا حدثت الذِّكرى. ثمَّ نجد في قوله تعالى: {فتنفعه} تعريضاً وإشعاراً بأنَّ من تصدى ﷺ لتزكيتهم وتذكرهم من الكفرة لا يرجى منهم تذكُّر أو تزكٍّ (٩).

ثمَّ أُكدت معاتبته (١٠) ﷺ بقوله تعالى: {أمَّا من استغنى. فأنت له تصدى}.

الاستغناء: بأن يَعُدُّ الشخص نفسه غنياً في أمر يدلُّ عليه السِّياق، أو فعل أو علم فـ(السِّين والتَّاء) في:{استغنى} للحسبان، أي: حسب نفسه غنياً، وأكثر ما يستعمل الاستغناء في التَّكبر والاعتزاز بالقوَّة، والمراد به من عَدَّ نفسه غيناً عن هديك (١١).

---

١ ـ انظر: لسان العرب (ولى).
٢ ـ انظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٩٢/٣٠.
٣ ـ انظر: الكشاف للزَّمخشري/ ٤/ ٧٠١، وحاشية محي الدين شيخ زادة/ ٦١٩/٤.
٤ ـ انظر: السَّابق.
٥ ـ انظر: روح المعاني للألوسي/٣٣٩/٣٠.
٦ ـ ينظر: التَحرير والتَّنوير /٩٤/٣٠، بتصرف
٧ ـ ينظر: التَحرير والتَّنوير /٩٤/٣٠.
٨ ـ ينظر: روح المعاني للألوسي/ ٣٤٠/٣٠.
٩ ـ ينظر: السَّابق.
١٠ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/ ٣٤٠/١٦.
١١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٩٥.

كما يستوقفنا للتأمل الإتيان بضمير الخطاب {أنت} مظهراً في جملة {أنت له تصدى} دون استتاره في الفعل {تصدى}، قيل: لتقوية حكم الإسناد، فقد ذُكِرَ الفاعل مرتين: مرة في أو الجملة {أنت} كمبتدأ، ومرة ضمير مستتر بعد الفعل؛ كأنَّه قيل: تتصدى له تصدياً، أو للاختصاص؛ أي: أنت لا غيرك تتصدى له [1]. ولا يخفى أنَّ تقديم الضمير {أنت} في أول الجملة جعلها جملة اسميَّة مما يزيد تأكيد الحدث الَّذي تحمله ويعزز المواجه بالحكم الذي تحمله الآية الكريمة. كما نجد تقديم الضَّمير: {له} على متعلقه الفعل: {تَصدَّى} جاء للحصر مع مراعاة الفاصلة القرآنيَّة [2].

فما هو التصدي؟ قيل: التَّصدي: التَّعرُّض، وأطلق على الإقبال الشَّديد مجازاً[3]. وفي هذا الأسلوب مزيد إنكار عليه ﷺ لإقباله عليهم والتَّصدي لهم [4].

ثمَّ جاءت الصُّورة الثَّانية المكملة للعتب [5]. بقوله تعالى: {وأمَّا من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهى}. لقد كَنى ﷻ بالسَّعي عن شِدة حرص ابن أم مكتوم للقاء النَّبي ﷺ ، وتلك صورة حيَّة تجذب الانتباه وتحث على الجد في طلب العلم النَّافع خاصة عندما يتعلق بأمور الدِّين الحنيف. وهو مقابل لحال من استغنى ليظهر بذلك التَّقابل الاختلاف الكبير بين صورة المؤمن الموحد لربِّه ﷻ وصورة الكافر الجاحد لربِّه ﷻ.

ويجيء حذفُ مفعول الفعل: {يخشى} لظهوره؛ فالخشية في لسان الشَّرع لا تنصرف إلا لله تعالى وحده [6].

وعليه يأتي قوله تعلى: {كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ} فبدأ المقطع بـ{كلا} حرف الرَّدع والزَّجر، يقول الشِّنقيطي: معلوم أنَّ كلمة: {كلا}: ردع عمَّا سبق، وهو في جملته منصب على التَّصدي لمن استغنى، والإلحاح عليهم، والحرص على سماعهم منه، ولكنَّ منزلة القرآن والوحي والدِّين أعلى منزلة من أن تُبذَل لقوم هذه حالتهم، فهي على ما هي عليه من تكريم ورفعة أحرى بأن يُسعى إليها، والخير لمن أتاها يطلبها [7].

فجيء بقوله تعالى: {إِنَّها تَذْكِرَةٌ} جملة مؤكَّدة بأقوى أدوات التَّوكيد، {إنَّ}. واسمها الضَّمير المتَّصل وهو عائد إلى الدَّعوة الَّتي تضمنها قوله تعالى: {فأنت له تصدى}. أو عائد على الآيات، وزاد في تأكيد الكلام تنكير الخبر {تذكرةٌ} فساهم هذا التَّأكيد

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٩٥.
٢ ـ ينظر: حاشية الشهاب /٣٢١/٨.
٣ ـ ينظر: السَّابق.
٤ ـ ينظر: فتح القدير للشوكاني/٤٧٩/٥.
٥ ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/٢٣٠/١٦.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٩٦/٣٠.
٧ ـ ينظر: أضواء البيان / ٣١/٩. بتصرف

والتَّنكير في الدَّلالة على تعظيم شأن القرآن الكريم [1]، فليس شرف القرآن في قبول صناديد المشركين له؛ بل العكس [2]

حقاً إنَّ هذه الموعظة تذكرة من الله ﷻ لمن أراد أن يتذكَّر، ويؤكده قوله تعالى: {فمن شاء ذكره} الَّذي جاء للتَّهديد لا للتَّخيير بدليل ما بعده [3]. ولا بد أنَّ تذكُّره يقتضي العمل به [4]. بإخلاص ومحبَّة، فجاء الكلام معرِّضاً بنفع موعظة القرآن لكُلِّ من تجرَّد عن العناد والمكابرة [5].

ثمَّ ذكر محل هذه التَّذكرة وعظمتها ورفع قدرها بقوله تعالى: {في صحفٍ مكرمةٍ. مرفوعة مُطهرةٍ} ثلاث صفات بيَّنت منزلة هذه الآيات عند الله ﷻ فأفادت التَّعظيم خاصة مع تنكيرها، فهي رفيعة القدر والرُّتبة، مطهَّرة من أن تنالها أيدي الشَّياطين أو يسترقونها؛ بل هي {بأيدي سفرةٍ. كرامٍ بررة} وهم الملائكة الَّذين هم السَّفرة بين الله ﷻ وبين عباده، فهم كرام أي: كثيروا الخير والبركة {بررة} موصوفون بكثرة البُرُور لصفاء قلوبهم، وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السُّفراء فيه إلى الملائكة الكرام الأقوياء الأنقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول، ولكن مع هذا أبي الإنسان إلا كفوراً، ولهذا قال تعالى: {قُتِلَ الإنسان ما أكفره} [6]

فتوجه الدَّعاء على الإنسان في قوله تعالى: {قُتل الإنسان...} وهو من أشنع الدُّعاء؛ إذ القتل قصارى شدائد الدُّنيا وفظائعها [7].

وجاء هذا الأسلوب على كلام العرب، ولا يمكن أن يُحمل في حقِّه ﷻ إلَّا على إرادة إيصال العقاب الشَّديد [8]. أو أن يُحمل على معنى الذَّم [9]. والتَّحقير والتَّهديد منه تعالى وتقدس لعباده [10].

ثمَّ يأتي سبب الدُّعاء بقوله تعالى: {...ما أكفره} قد يُحمل هذا الأسلوب البلاغي على التَّعجب من جنس الإنسان، وإن كان القليل منه غير كافر [11].

---

١ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي والسَّعود/ ١٠٨/٩.بتصرف
٢ ـ ينظر: حاشية محي الدين شيخ زادة/٦٢١/٤.
٣ ـ ينظر: أضواء البيان ٩/ ٣١.
٤ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١١. بتصرف
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٠٢/٣٠.
٦ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١١.
٧ ـ ينظر: الكشَّاف / الزمخشري/٤/
٨ ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان/النيسابوري/٣٠/ ٢٩.
٩ ـ ينظر: تأويل مشكل الفرآن/ ابن قتيبة /٢٧٥.
١٠ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/ ابن عاشور/٣٠/ ١٠٦.
١١ ـ ينظر: السَّابق.

أو يكون هذا الأسلوب استفهام محمول على التَّوبيخ، أو التَّقريع لكفر الإنسان بخالقه والمنعم عليه [١]

يقول الزَّمخشري معلقاً على هذه الآية الكريمة: (ولا ترى أسلوب أغلظ منه، ولا أخشن مسَّاً، ولا أدلَّ على السَّخط، ولا أبعد شوطاً في المذمَّة مع تقارب طرفيه، ولا أجمع للَّائمة على قِصر متنه [٢].

ولذا عُدَّت هذه الجملة من جوامع الكلم، ولا أدلَّ على ذلك من حذف متعلِّق الفعل (أكفره)، إذ التَّقدير ما أكفره بالله فجاء الحذف لظهور المراد [٣].

وعليه يجيء وصف حال الإنسان من ابتداء حدوثه إلى أن ينتهي وما هو مغمور فيه من أصول النِّعم وفروعها [٤]. ويبدأ ذلك بسؤال يثير العقل في قوله تعالى: {من أي شيء خلقه} هذا الاستفهام إمَّا يراد به التَّقرير [٥]. أو التَّحقير [٦]، أو كلاهما معاً [٧] وقد يحمل في طياته التَّعجب من حالهم.

ويأتي ذلك لفتاً لانتباه المشركين إلى إمكانيَّة البعث، فيجيء بهذا الاستدلال بطريق السُّؤال والجواب تشويقاً لمضمونه [٨]. وبيان لجملة: {قُتل الإنسانُ ما أكفره}؛ لأنَّ مفاد هذه الجملة الاستدلال على إبطال إنكارهم البعث، وذلك من أكبر أصول كفرهم[٩].

ثمَّ جاء تفصيل ما أُجمل في السُؤال بقوله تعالى: {من نُطفةٍ خلقه فقدَّره}. يستوقفنا هنا تقديم الجار والمجرور: {من نطفة} على متعلقه: الفعل {خلقه} محاكاة لتقديمه في السُؤال، مع الاهتمام بتقديم ما منه الخلق، وأعيد ذكر فعل: {خلقه} دون الاستغناء عنه بما ورد في السُّؤال زيادة في التَّنبيه على دقَّة ذلك الخلق البديع، وهذا الأسلوب من المساواة الَّتي ليست بإيجاز ولا بإطناب [١٠].

ونجده ﷻ قد فرَّع على فعل: {خلقه} الفعل {فقدره} بـ(فاء) التَّفريع؛ لأنَّ التَّقدير هنا إيجاد الشَّيء على مقدار منظَّم كقوله تعالى: {وخلق كُلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراَ} [الفرقان:٢]. أي: جعل التَّقدير من آثار الخلق؛ لأنَّه خلقه متهيئاً للنماء وما يلابسه

---

[١] ـ ينظر: حاشية محي الدين شيخ زادة/٦٢٢/٤، وانظر روح البيان/ البروسوي/١٠/٣٩٥.
[٢] ـ ينظر: الكشَّف٤/ ٧٠٣.
[٣] ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/١٠٧/٣٠.
[٤] ـ ينظر: الكشاف الزمخشري/٤/ ٧٠٣.
[٥] ـ ينظر: معاني القرآن وإعرابه / الزجاج/٢٨٦/٥، ومعاني القرآن / الأخفش/٦١٩.بتصرف
[٦] ـ ينظر: الكشاف للزمخشري/٧٠٣/٤، والمحرر الوجيز لابن عطية/٢٣٢/١٦،
[٧]ـ ينظر: نظم الدرر للبقاعي/٢٦٠/٢١.
[٨]ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ١٠٧.
[٩] ـ ينظر: السَّابق.
[١٠] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /١٠٨/٣٠.

من العقل والتَّصرف وتمكينه من النَّظر بعقله، والأعمال الَّتي يريد إتيانها وذلك حاصلٌ مع خلقه مدرَّجاً مفرعاً. وهذا التَّفريع وما عطف عليه إدماج للامتنان في خلال الاستدلال [1].

ويأتي العطف بحرف: {ثمَّ} لقوله تعالى: {ثمَّ السَّبيل يسره} للدلالة على التَّراخي الرُّتبي وذلك لأنَّ تيسير سبيل العمل الإنساني أعجب في الدَّلالة على بديع صنع الله؛ لأنَّه أثرُ العقل وهو أعظم ما في خلق الإنسان؛ فيكون أقوى في المنَّه.

و{السَّبيل}: الطَّريق وهو هنا مستعار لما يفعله الإنسان من أعماله وتصرفاته تشبيهاً للأعمال بطريق يمشي فيه الماشي فهو تشبيه المحسوس بالمعقول، وموقعه في الجملة مفعولٌ به ولأهميته قُدم على فعله {يسره} [2]

وعليه قيل: {السَّبيل} الدِّين في وضوحه ويُسر العمل به كقوله تعالى: {إنَّا هديناه السَّبيل إمَّا شاكراً وإمَّا كفوراً} [الإنسان:٣] وهو مروي عن الحسن وابن زيد، ورجَّحه ابن كثير [3].

وبعد هذا التَّيسير تأتي النِّهاية الحتميَّة لكُلِّ إنسان بقوله تعالى: {ثمَّ أماته فأقبره} معطوفة بحرف التَّراخي: {ثم} الَّذي يمثل تلك المهلة الممتدَّة بين خلقه وموته.

يقول ابن عاشور: جاء العطف بحرف التَّراخي، وهو لتراخي الرُّتبة؛ فإنَّ انقراض تلك القُوى العقليَّة والحسيَّة بالموت، بعد أن كانت راسخة زمناً ما، انقراض عجيب دون تدرج، ولا انتظار زمان يساوي مدَّة بقائها، وهذا إدماج للدلالة على عظيم القدرة[4].

ويستوقفنا للتأمل إسناد الإقبار له ﷻ في قوله {فأقبره} قيل: إسناد الإقبار إلى الله تعالى مجاز عقلي؛ لأنَّ الله تعالى ألهم النَّاس الدَّفن منذ أول الخليقة في حادثة هابيل وقابيل. [5].

ويقول الشَّيخ السَّعدي: أي أكرمه بالدَّفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات؛ الَّتي تكون جيفها على وجه الأرض [6]. فمحل المنَّة في قوله: {أماته} هو فيما فُرِّع عليه بـ(الفاء) بقوله: {فأقبره} وليست الإماتة وحدها منَّة [7]. وإن كان الموت رحمة للمؤمنين.

---

[1] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /١٠٨/٣٠.
[2] ـ ينظر: السَّابق/١٠٩/٣٠.
[3] ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/٣٢/٩.
[4] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير:١٠٩/٣٠.
[5] ـ ينظر: السَّابق. بتصرف
[6] ـ ينظر: تفسير السعدي/٩١١.
[7] ـ ينظر: التحَّرير والتنَّوير لابن عاشور/١١٠/٣٠.

ويأتي الرُّجوع على إثبات البعث بقوله تعالى: {ثمَّ إذا شاء أنشره} على تقدير: ثمَّ إذا شاء تعالى إنشاره أنشره؛ للإيذان بأنَّ وقته غير متعين أصلاً للخلائق؛ بل هو تابع لمشيئته تعالى [١].

وجاء ذلك رداً لشبهتهم إذ كانوا يطلبون تعجيل البعث تحدياً وتهكماً، فأعلمهم الله أنَّه يقع عندما يشاء هو ﷻ وقوعه؛ لأنَّه موكول لحكمة الله، وأُستفيد منه إبطال قولهم من طريق الكناية [٢].

ثمَّ يتكرر زجرُ الإنسان عمَّا هو عليه في قوله تعالى: {كلا لَمَّا يقض ما أمره} [٣].

يقول الشيخ السَّعدي: فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التَّصاريف؛ لم يشاركه فيه مشارك، والإنسان مع هذا لا يقوم بما أمره الله، ولم يقض ما فرضه عليه؛ بل لا يزال مقصراً تحت الطلب [٤].

وتأتي الآيات الكريمات [٢٤ – ٣٢] من قوله تعالى: {فلينظر الإنسانُ إلى طعام....} إمَّا مفرَّعة على قوله تعالى: {لَمَّا يقضي ما أمر} [عبس:٢٣] فيكون مما أمره الله به من النَّظر، وإمَّا على قوله {ما أكفره} [عبس:١٧] فيكون هذا النَّظر مما يبطل شِدة كفر الإنسان. والـ(فاء) مع كونها للتَّفريع تفيد معنى الفصيحة، إذ التَّقدير: إن أراد أن يقضي ما أمره فلينظر إلى طعامه، أو إن أراد نقض كفره فلينظر إلى طعامه ليهتدي بالنَّظر فيؤمن فينجو [٥].

وعليه نجد أنَّه ﷻ يبتدئ بتعداد نعم الله على الإنسان المتعلِّق ببقائه بعد تفصيل النِّعم المتعلِّقة بحدوثه [٦].

فجاء الابتداء بذكر دلائل الآفاق بعد الفراغ من ذكر دلائل الأنفس [٧]، قال تعالى: {فلينظر الإنسانُ إلى طعامه} معبراً بالاسم الظَّاهر (الإنسان) دون الضمير زيادة في الإيضاح، مبتدئ بذكر نعمة الغذاء الضَّروري لحياة الإنسان، مع أنَّ الاستدلال هو أحوال تكوين الطعام، لإجراء الكلام على الإيجاز [٨].

وجاء التَّفصيل بصور حيَّة متلاحقة تدلُّ على قدرته ﷻ ومنَّته على عباده مبتدئاً بقوله تعالى: {أنَّا صببنا الماءَ صباً} هذه الجملة المعجزة الَّتي تقدَّمها بحرف التأكيد

---

[١] ـ ينظر: الدُّر المصون/ السَّمين الحلبي/٦/٤٨٠، وإرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/١١٠.
[٢] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/١١١.
[٣] ـ ينظر: الكشاف للزمخشري/٤/٧٠٣. بتصرف
[٤] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١١.
[٥] ـ ينظر: التحَّرير والتنَّوير لابن عاشور/٣٠/١١٣وما بعدها. بتصرف
[٦] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/١١١.
[٧] ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان / النيسابوري/٣٠/ ٣٠.
[٨] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ١١٥، الفوائد الجمَّة / أبو النجا٦٧.

"أنَّ" وجاء اسمها نون العظمة المتصلة الدَّالة عليه ﷻ وجاء خبرها جملة فعليَّة فعلها ماضي زيادة في تأكيد حكم الإسناد، ومفعول الجملة {الماء} ثمَّ أُكِدَتْ مرةً ثالثة بالمصدر {صباً} تحمل الشَّيء الكثير من تفاصيل قدرة الله الَّتي لا تضاهيها قدرة.

وتتوالى النِّعم لتكتمل صورة القدرة الإلهية فيها بقوله تعالى: {ثمَّ شققنا الأرض شقاً. فأنبتنا فيها حباً. وعنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً. وحدائق غُلباً. وفاكهة وأباً}. كُلُّ آية منها تحتاج إلى وقفة يطول فيها التَّأمل؛ ولكن لا يسعف المقام إلا للإشارات الطَّفيفة.

فنجد أنَّه ﷻ قدَّم ذكر الحَبِّ في الآية [٢٧] على جميع النَّباتات الأخرى؛ التَّالية الذِّكر؛ لأنَّه قد يكون الأصل في الأغذية عامَّة [١].

ثمَّ عطف عليه قوله تعالى: {وعنباً وقضباً} العنب: ثمرة الكرم ويؤكل رطباً، ويتخذ منه الزَّبيب، وكلاهما له منافع صحيَّة كثيرة مازال العلم الحديث يكشف عن بعضها بين فترة وأخرى.

والقضب: الفصْفصة الرَّطبة، سميت قضباً؛ لأنَّها تعلف للدَّواب رطبة فتقضب، أي تقطع مرة بعد أخرى، ولا تزال تُخلف ما دام الماء ينزل عليها، وتسمى القَت.

والزَّيتون: الثَّمر الَّذي يعصر منه الزَّيت المعروف وهي شجرة مباركة [٢].

وخص في ذكر أنواع النَّبات ذكر النَّخيل دون ثمره؛ لأنَّ منافع شجر النَّخيل لا تقتصر على ثمره؛ بل ذكر اسم هذه الشَّجرة أجمع في الاستدلال بمختلف الأحوال، وإدماج للامتنان بوفرة النِّعم [٣]، قيل: قد خص هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها[٤].

ثمَّ عمم بعد التَّخصيص بقوله تعالى: {وحدائق غلباً} [٥]. والأصل في الوصف بالغُلب: الرِّقاب الغليظة؛ فجاء هنا على سبيل الاستعارة المكنيَّة، أو على سبيل المجاز المرسل، كما أنَّ في الإسناد نفسه تجوزاً، فالحدائق ليست غليظة؛ بل الغليظ أشجارها [٦] لكن إسناد الغلظ للحديقة صوَّر كثرة تلك الأشجار حتَّى استحوذت على نظر الرائي لها. فعمت الصِّفة الحديقة برمتها.

وأجمل ﷻ أيضاً في قوله تعالى: {وفاكهة وأبَّاً} حيث ذكر ما يدخل فيها أولاً للاعتناء بشأنه [٧].

---

١ ـ ينظر: التفسير الكبير للرازي/١١٥٩.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /١١٦/٣٠. بتصرف.
٣ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/١١٦/٣٠.
٤ ـ ينظر: تفسير السَّعدي/٩١١.
٥ ـ ينظر: حدائق الروح والريحان/ الشافعي١٥١/٣١.
٦ ـ ينظر: الكشَّاف للزمخشري/٤/ ٧٠٤، إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/ ١١٢، وينظر حاشية الشهاب/ ٨/ ٣٢٥.
٧ ـ ينظر: روح المعاني / الألوسي/٣٥٠/٣٠.

والفاكهة: ما يتفكَّه فيه الإنسان من تين وعنب وخوخ ورمان وغير ذلك كثير.

والأب: ما تأكله البهائم والأنعام [1]؛ ولهذا جاء الالتفات إلى الإنسان بالخطاب في قوله تعالى: {متاعاً لكم ولأنعامكم} فقد خلقها الله وسخَّرها لكم، فمن نظر في هذه النِّعم، أوجب له ذلك شكر ربِّه، وبذل الجهد في الإنابة إليه، والإقبال على طاعته، والتَّصديق بأخباره [2].

فأوجب ذلك حسابهم على ما فعلوه فيما استخلفوا فيه واسترعوه كما هي عادة كُلِّ مسترع ومستخلف [3] فقال تعالى: {فإذا جاءت الصاخة}.

بدأ هذا المقطع الَّذي يحمل وصفاً لأهوال يوم القيامة بقوله تعالى: {فإذا جاءت الصَّاخة}؛ فهو شروع في بيان أحوال معادهم إثر بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم [4].

هكذا نجد أنّ هذه السُّورة المباركة استغرقت كُلَّ مراحل حياة الإنسان وما أنعم عليه ربُّه من نعم إلى أن وصل إلى يوم المعاد يوم: {لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم}.

وعليه بدأت بالـ(فاء) للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها من فنون النِّعم الَّتي مرت من قريب [5].

وكان للفعل: {جاءت} المسند للصَّاخة أثرٌ بالغٌ في التَّنويه بقرب هذا الحدث؛ لأنَّ الفعل: "جاء" يدلُّ على القرب والتَّمكين والمسارعة. لذا قيل: المجيء يستعمل في الحصول مجازاً، شُبِّه حصولُ يوم الجزاء بشخص جاء من مكان آخر [6].

يقول ابن عاشور: ففرَّع على ذلك إنذاراً بيوم الجزاء، مع مناسبة وقوع هذا الإنذار عقب التَّعريض والتَّصريح بالامتنان فيما سبق [7].

و: {الصَّاخة} كلمة تدور مادتها حول: الصَّوت القوي [8]، والصَّاخة: اسم من أسماء القيامة، وذهب العكبري إلى أنَّها مأخوذة من قولهم: صاخَ فلان لصوت فلان:

---

[1] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١١.
[2] ـ ينظر: السَّابق.
[3] ـ ينظر نظم الدرر للبقاعي: ٢١,٢٦٩.
[4] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السعود/١١٢/٩.
[5] ـ ينظر: السَّابق.
[6] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١١٩/٣٠.
[7] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١١٨/٣٠.
[8] ـ ينظر: لسان العرب / ابن منظور/(صخَّ)

إذا استمع له، ولعل الصَّوت هو الصَّخ، فإن كان كذلك، فينبغي أن يكون ذلك لنَفخة الصُّور [١].

وقيل: (تصخُّ الأسماع، أي: تصمَّها، فلا يسمع إلَّا ما يدعى فيه، لإحيائها) [٢].

ويقول ابن عطيَّة: {الصَّاخة}: اسم من أسماء القيامة، واللفظة في حقيقتها إنَّما هي لنفخة الصُّور الَّتي تصخ الآذان أي تصمها. ويستعمل هذا اللفظ في الدَّاهية الَّتي يصم نبؤها الآذان لصعوبته، وهذه استعارة، كذلك في الصَّيحة المفرطة الَّتي يصعب وقعها على الأذن [٣].

ويأتي قوله تعالى: {يوم يفر المرء من أخيه} بدل مطابق من قوله تعالى: {إذا جاءت الصَّاخة}، والفرار: الهروب للتخلص من مُخيف [٤].

هذه الجملة تصور مشهداً عظيماً من مشاهد يوم القيامة ويساعد على إحضار هذا المشهد في الذِّهن زمن الفعل المضارع: {يفر} بما فيه من قدرة على إحضار المشهد مع تكراره ليدل على اشتغال كُلِّ إنسان بنفسه [٥]. يخبرنا المولى ﷻ بتخلي كُلِّ امرئٍ عن أقرب المقربين له؛ لهول ما هو فيه [٦]. فكُلٌّ يقول: نفسي نفسي مهما كانت صلته بالمستغيث.

وقد ذكر ﷻ فرار المرء من القوم الَّذين معهودهم ألَّا يفر عنهم في الشَّدائد، ثمَّ رتبهم الأول فالأول محبة وحنواً [٧]. كذلك رتبها ابن عطيَّة [٨].

ولابن عاشور رأي آخر في هذا التَّرتيب يقول: وبدأ ﷻ بالأخ ثمَّ بالأبوين؛ لقربهما منه، ثمَّ بالصَّاحبة والبنين؛ لأنهما أقرب وأحب [٩].

ويستوقفنا للتأمل ذكر المرأة بوصف الصَّاحبة دون وصف الزَّوج في قوله تعالى: {وصاحبته وبنيه}

---

١ - ينظر: جامع البيان/٣٠/٧٧.
٢ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه/٥/٢٨٧. وينظر التَّصوير القرآني في جزء عمّ / أناهيد جمال حريري/١/ ٢٦٥.
٣ - ينظر: المحرر الوجيز/٥/٤٤٠.
٤ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لبن عاشور:٣٠/١١٩.
٥- ينظر: حاشية محي الدين شيخ زادة/٤/٦٢٤.
٦ - ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/٤/٤٢٩.
٧ - ينظر: المحرر الوجيز/٥/٤٤٠.
٨ - ينظر: السَّابق.
٩ - ينظر: الكشاف للزمخشري/٤/ ٧٠٥.

قيل: ذلك للدلالة على القرب والملازمة، لأنَّ الزَّوجة قد لا تكون حسنة العشرة لزوجها؛ فلا يكون فراره منها كناية عن شِدَّة الهول، أمَّا وصف الصَّاحبة فيشعر بهول فرار الزَّوج منها [١]؛ لحسن مصاحبتها له. والله أعلم وأحكم.

كما أنَّ فراره منها وليس العكس يدلُّ على أنَّه هو المسؤول في الحياة الدُّنيا عن نجاتها وبنيها، وعليه فهم يهرعون إليه عند الشَّدائد؛ لكن في ذلك الموقف العصيب يذهل كلُ واحدٍ عن أي أحد؛ وذلك مما يصور شّدَّة هوله وصعوبته.

ويأتي ذكر فرار المرء من الأقرباء الخمسة ليدل على فراره من كُلِّ قريب دون أولئك في القرابة والصُّحبة [٢].

يشرح ذلك قوله تعالى: {لِكُلِّ امرئٍ منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه} فقد جاء بياناً واضحاً لسبب الفرار. فقد أشغلته نفسه واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها [٣].

يؤكده تقديم الخبر {لكل امرئٍ} على المبتدأ {شأنٌ} ليتأتى تنكير المبتدأ: {شأنٌ} وفي تنكيره دلالة على تعظيم ذلك الشَّأن.

فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء، وأشقياء، لقوله تعالى: {وجوهٌ يومئذٍ مسفرة ضاحكة مستبشرة. ووجوهٌ يومئذٍ عليها غبرة ...} وهذا هو جواب الشَّرط "إذا" في قوله تعالى: {إذا جاءت الصَّاخة} أي: إذا جاءت الصَّاخة كان النَّاس صنفين صنف وجوههم مسفرة، وصنف وجوههم مغبرَّة.

ومن رحمته ﷻ قدَّم الحديث عن السُّعداء تكريماً لمقامهم واستعجالاً لبشرى المؤمنين؛ فجاء قوله تعالى: {وجُوُهٌ يومئذٍ مسفرة. ضاحكة مستبشرة}

صورة مفرحة مطمئنة تظهر فيها وجوه السُّعداء (قد ظهر فيها السُّرور والبهجة ممَّا عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنَّعيم المقيم) [٤].

ثمَّ عطف عليه قوله تعالى: {ووجوه يومئذٍ عليها غبرة. ترهقها قَتَرة} لتُظهر هذه المقابلة البون الشَّاسع بين هذين الفريقين؛ لما للمقابلة من قدرة على إيضاح تفاصيل الصُّورتين بشكل دقيق.

وجاء تنكير كلمة: {وجوهٌ} الأول، والثَّاني؛ للتنويع وذلك مسوغ وقوعهما مبتدأ.

١- ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١١٣/٩.
٢- ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٢٠/٣٠. بتصرف.
٣- ينظر: تفسير السِّعدي /٩١١.
٤- ينظر: السَّابق.

وإعادة الظرف: {يومئذٍ} لتأكيد الرَّبط بالشَّرط وجوابه، ولطول الفصل بينهما والتَّقدير وجوه مسفرة يوم يفرُّ المرء من أخيه إلى آخره؛ وعليه فقد أغنت إعادة {يومئذٍ} عن ربط الجواب بالـ(فاء) [١].

وإخباره ﷻ عن وجوه المؤمنين السُّعداء بأنَّها مسفرة أي: ذات إسفار، والإسفار النُّور والضِّياء، يقال: أسفر الصُّبحُ، إذا ظهر ضوءُ الشَّمس في أفق الفجر، أي وجوه متهللة فرحاً وعليها أثر النَّعيم [٢].

ويزيد تصوير سعاتهم وصفها بقوله تعالى: {ضاحكةٌ} كناية عن السُّرور.

و {مستبشرة} الَّذي يصور فَرحة الأمل فيما عند الله من نعيم.

قيل: "السِّين والتاء" في هذه الكلمة للمبالغة في الوصف مثل: استجاب، ويقال: بَشَر، أي: فَرِحَ وسُرَّ، وهذه هي وجوه أهل الجنَّة المطمئنين بالأ المكرمين عَرْضاً وحُضوراً [٣]. اللهم إنَّا نسألك من فضلك يا كريم.

وأمَّا أهل الشَّقاء الأخروي - أعاذنا الله من ذلك والمسلمين أجمعين- فوجوههم في ذلك اليوم على النَّقيض: {عليها غبرة. ترهقها قترة}.

قيل الغَبَرة: الغبار كُلُّه، والمراد هنا أنَّها معفرَّة بالغبار إهانة لهم، وقيل ذلك من أثر الكَبوات، وعليه يقول تعالى: {ترهقها قترة} أي: تغالبها وتتعبها.

فما هي القترة؟ قيل فيها: القَتَرة: بفتحتين شِبه دخان يغشى الوجه من الكرب والغم[٤].

ويقول الشيخ السَّعدي: فهي سوداء مظلمة مدلهمَّة قد أيست من كُلِّ خير، وعرفت شقاءها وهلاكها [٥]. نسأل الله اللطف والسَّلامة والعافية من سوء المصير.

وقد خُصتْ هذه الوجوه بأنَّها وجوه الكفرة الفجرة في قوله تعالى: {أولئك هُمُ الكفرةُ الفجرةُ} زيادة في تشهير حالهم الفظيع للسَّامعين.

فجيء باسم الإشارة {أُولئك} في مطلع الآية لزيادة الإيضاح مع تصوير بعدهم في الغي بما دلت عليه صيغة البعد فيه.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٢١/٣٠.
٢ ـ ينظر: لسَّابق بتصرف يسير
٣ ـ ينظر: السَّابق.
٤ ـ ينظر: السَّابق/١٢٢/٣٠.
٥ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١١/١.

وجاء ضمير الفصل: {هم} لإفادة تَّقوي إسناد الحكم لهم. فهم خاصة لا غيرهم

وقد أُتبع وصف (الكفرة) بوصف (الفجرة) مع أنَّ الأول أفظع من الثَّاني؛ لأنَّ الكفر يدلُّ على فساد الاعتقاد، والفجور يدلُّ على فساد العمل وعلى خساسته، وهؤلاء قد جمعوا هذين الوصفين بدلالة ترك العطف بينهما [1].

لكنَّ كفرهم وإن عظم وباله عليهم لا يتعدهم؛ أمَّا فسادهم فقد يتعدى ضرره الأرض ومن فيها وعليه جاء بعد الكفر.

والله أعلم وأحكم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا

سورة التَّكوير

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا
ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا
ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ
نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾
عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا
عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ
ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ
بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾

[1] ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/٣٠/ ١٢٢. وكذا ينظر: التصوير القرآني /أناهيد جمال حريري/١/ ٢٧٦. بتصرف.

﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا
تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾

بين يدي السُّورة المباركة:

قيل: لم يثبت عن النَّبي ﷺ أنَّه سماها تسمية صريحة غير ما ذكر في حديث التِّرمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : "من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنَّه رأيُ عينٍ فليقرأ إذا الشَّمس كُورت، وإذا السَّماء انفطرت، وإذا السَّماء انشقت". وأكثر التَّفاسير يسمونها "سورة التَّكوير" كذلك تسميتها في المصاحف.

اشتملت على تحقيق الجزاء صريحاً، وعلى إثبات البعث وما ابتُدئ به من وصف الأهوال الَّتي تتقدمه، وعلى التَّنويه بشأن القرآن [١].

يربطها البقاعي بسورة "عبس" بقوله: (لما ختمت سورة: عبس بوعيد الكفرة الفجرة بيوم الصَّاخة لجحودهم بما لهذا القرآن من التذكرة، ابتدأت هذه بإتمام ذلك، فصور ذلك اليوم بما يكون فيه من الأمور الهائلة من عالم الملك والملكوت حتَّى كأنَّه رأي عين كما رواه الإمام أحمد والتِّرمذي والطَّبراني وغيرهم عن ابن عمر [٢].

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

الافتتاح بـ(إذا) افتتاح مشوِّق؛ لأنَّ {إذا} ظرف يستدعي متعلقاً، وفي نفس الوقت هو شرط يحتاج إلى جواب بعده، وعليه إذا سمعه السَّامع ترقَّب ما سيأتي بعده؛ فعندما يسمعه يتمكن من نفسه كمال تمكن؛ وخاصة بالإطناب بتكرار كلمة {إذا}[٣].

ثمَّ يلي {إذا} العلامة الأولى من علامات السَّاعة: وهي تكوير الشَّمس؛ وقد ذُكر في تكويرها عِدَّة أقوال كُلُّها تدور حول نهاية أمرها، لأنَّ الله ﷻ جعل لها أجلاً مسمى [٤].

وفي قوله تعالى: {إذا الشَّمس كوِّرت} يقول الشيخ السِّعدي: تكوُّر الشَّمس أي: تجمع وتلف [٥]. ويجعل الشِّهاب ذلك على الاستعارة التِّبعية، أو المكنيَّة بتشبيهها بالجواهر والأمور النَّفيسة الَّتي إن رفعت لُفت في ثوب [٦]. وهذا الموقف الأول

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور: ١٢٣/٣٠. وما بعدها بتصرف.
٢ ـ ينظر: نظم الدَّرر /٢١/ ٢٧٤. والحديث سبق ذكره.
٣ ـ ينظر: نظم الدَّرر /٢١/ ٢٧٤. بتصرف
٤ ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/٣٥/٩.
٥ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩١٢.
٦ ـ ينظر: حاشية الشهاب/٣٢٦/٧. بتصرف

الرَّهيب الَّذي يصوِّر الظَّلام العام إلا من جعل الله ﷻ له نوره الخاص به لقوله تعالى: {يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشراكم اليوم جنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم[الحديد:١٢]

وفي إعادة كلمة {إذا} بعد (واو) العطف في هذه الجمل الَّتي أضيف إليها اثنتي عشرة مرة إطناب اقتضاه قصد التَّهويل، كما إنَّ إعادة {إذا} مع كُلِّ جملة إشارة إلى أنَّ مضمون كُلِّ جملة من هذه الجمل الاثنتي عشرة مستقل بحصول مضمون جملة الجواب، بقطع النَّظر عن تفاوت زمان حصول الشَّرط (١). أي أنَّ الجواب الَّذي ذكر بعد جمل الشَّرط الاثنتي عشرة يتكرر معناه مع كُلِّ جملة منها؛ وفي هذا تصوير دقيق للحالة النَّفسيَّة الَّتي تصاحب تلك الأحداث لكُلِ إنسان على تفاوت زمن حدوثها والله أعلم.

لأنَّ كلمة {كوِّرت} تدور مادتها حول: اللَّف والجمع والزِّيادة، وتكوير الشَّمس: جَمْعُ ضوئها ولفه كما تلف العمامة (٢). وهذه المعاني هي الَّتي دار حولها المفسرون (٣).

وزادوا قد يراد بالتكوير ذهاب الشَّمس نفسها (٤) ورميها (٥)، ورفعها وسترها (٦). وهذه علامة كبرى من علامات يوم القيامة.

وتأتي العلامة الثَّانية بقوله تعالى: {وإذا النُّجُومُ انكَدَرَت} وذلك تابع للعلامة الأولى؛ يقول ابن عاشور: وإذا زال ضوء الشَّمس انكدرت النُّجُوم؛ لأنَّ معظمها يستنير من انعكاس نور الشَّمس عليها (٧). والله أعلم.

ثمَّ يقول: والاكدار: مطاوع كَدَّره المضاعف على غير قياس، أي: حصل للنُّجوم انكدار من تكدير الشَّمس لها حين زال انعكاس نورها، فلذلك ذكر مطاوع كدر دون ذكر فاعل التَّكدير (٨). وجعلوا ذلك استعارة حيث شُبه ذهاب ضوئها بتكدير الماء المذهب لصفائه، ورونق منظره (٩).

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/١٢٤/٣٠. بتصرف
٢ ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور(كور)
٣ ـ ينظر: معاني القرآن للفراء /٢٣٩، جامع البيان للطبري/٨٠/٣٠، تفسير غريب القرآن للرازي(كورت)
٤ ـ ينظر: لمحرر الوجيز لابن عطيَّة/ ٢٣٧/١٦.
٥ ـ ينظر: جامع البيان/٨١/٣٠. الكشَّاف للزمخشري/٧٠٦/٤، ٧٠٧.
٦ ـ ينظر: الكشاف للزمخشري/٧٠٧/٤، فتح القدير للشوكاني٤٨٦/٥. وانظر التَّصوير القرآني في جزء عمَّ/ أناهيد جمال حريري/٢٩٦/١.
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير:٣٠/ ١٢٥.
٨ ـ ينظر: السَّابق.
٩ ـ ينظر: حاشية الشهاب /٣٢٦/٧، جامع البيان للطَّبري/٨٢/٣٠، تفسير غريب القرآن العظيم الرَّازي (كدر)

ويقول الشَّيخ السِّعدي في: {إذا النُّجوم انكدرت} أي: تغيرت وتساقطت من أفلاكها[1]. على سطح الأرض [2]. وقيل: أو في جهنَّم؛ ليرها كُلٌّ من عبدها في النَّار[3].

وأورد البغوي خبراً عن ابن عبَّاس - رضي الله عنهما- قال، "قال ابن عبَّاس: يكور الله الشَّمس والقمر والنُّجوم يوم القيامة في البحر، ثمَّ يبعث عليها ريحاً دبوراً فتضربها فتصير ناراً" [4]. من الملاحظ في قول ابن عبَّاس ﵄ المذكور أنَّه لم يجعل ضوء النُّجوم مستمداً من ضوء الشمس؛ بل جمعهم في التكوير وإلقائهم في البحر.

وللعلم الحديث أبحاث في علوم الفضاء تؤكد وجود شُموس لا حصر لها غير شمسنا هذه، كذا تؤكد بأنَّ النجوم قد يفوق حجم بعضها حجم الشَّمس وإنارتها عند إذٍ ذاتيه - والله أعلم بصحة تلك الأبحاث الحديثة -.

وبعد ذكر أعلام السَّماء العظيمة يتبعه ﷻ بأعلام الأرض بقوله تعالى: {وإذ الجبالُ سُيرت} يقول الشِّهاب: تسيير الجبال في الآية أي: إزالتها عن وجه الأرض على سبيل الاستعارة أو المجاز المرسل [5].

ويفصِّل ذلك الشيخ السَّعدي بقوله: أي صارت كثيباً مهيلاً، ثمَّ صارت كالعهن المنفوش، ثمَّ تغيَّرت وصارت هباء منبثاً، وسُيِّرَتْ عن أماكنها [6].

وبعد ذكر أعظم الجمادات يأتي ﷻ بذكر ما عظم حجمه وكثر نفعه من الحيوانات بقوله تعالى: {وإذا العشار عطلت}. إذ قيل: هنَّ النُّوق الَّتي بلغ حملها عشرة أشّهر فهو اسمها حتَّى تضع في تمام السَّنة [7]. وقيل: هي النُّوق الَّتي يتبعها نتاجها من الصِّغار؛ وقد كانت من أنفس الأموال عند العرب الَّذين نزل فيهم القرآن.

فخُصَّ ذكر تعطيل العشائر في الآية؛ لأنَّ ذلك ينبئ عن ذهاب الأموال وبطلان الأملاك واشتغال النَّاس بما هو أعظم [8]، وهو كناية عن شِدَّة أهوال القيامة [9].

وقيل: العشائر كناية عن السَّحاب الَّتي تعطَّلت عمَّا فيها من الماء [10]، مما يعني توالي القحط على الأرض، وذلك على الاستعارة، وذهب ابن عاشور إلى أنَّه الأنسب

---

[1] - ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٢.
[2] - ينظر: معاني القرآن للفراء/٣/٢٧٩.
[3] - ينظر: الكشاف للزَّمخشري/٤/٧٠٧.
[4] - ينظر: تفسير البغوي /٨/ ٣٤٢-٣٤٤.
[5] - ينظر: حاشية الشهاب /٧/٣٢٦.
[6] - ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٢.
[7] - ينظر: البحر المحيط لأبي حيان/٨/ ٤٣٠.
[8] - ينظر: التَّفسير الكبير للرازي/١١/٦٤.
[9] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ١٢٦.
[10] - ينظر: التفسير الكبير للرَّازي/٣٠/١١/٦٤.

مما قبله؛ لأنَّه من أشراط السَّاعة العلويَّة مما يتناسب مع تكوِّير الشَّمس وانكدار النُّجوم[1].

وجاء التَّناسق المعنوي المعجز بذكر الوحوش بعد ذكر العِشَار بمشهدٍ رهيب في قوله تعالى: {وإذا الوحوش حُشِرتْ}، (وحشرها جمعها في مكان واحد من الأرض؛ وقد يكون سبب حشرِها طوفاناً يغمر الأرض من فيضان البحار؛ فكلَّما غمر جزءاً من الأرض فرَّت وحوشه حتَّى تتجمع في مكان واحد طالبة النَّجاة من الهلاك) [2]. ويشعر بهذا ما عطف عليه من قوله تعالى: {وإذا البحار سُجِّرت}.

وذكر هذا بالنِّسبة إلى الوحوش إيماء إلى شدَّة الهول فالوحوش الَّتي من طبعها نفرة بعضها عن بعض تتجمع في مكان واحد لا يعدو شيء منها على الآخر من شِدة الرَّهب؛ فهي ذاهلةٌ عمَّا في طبعها من الاعتداء والافتراس [3].

وقد يكون (حشرها للقصاص كناية عن العدل التَّام) [4]. يقول الشيخ السِّعدي: أي جمعت ليوم القيامة، ليقتص الله ﷻ من بعضها لبعض، ويرى العباد كمال عدله، حتَّى إنَّه ليقتص من القرناء للجماء، ثمَّ يقول لها: كوني تراباً [5]. فيتحسر الكافر عند ذاك ويقول {يا ليتني كنت تراًا} أي: يتمنى لوكان حيواناً مثل تلك الحيوانات الَّتي انتهى أجلها؛ لأنَّه يعلم عندها أنَّه إلى الجحيم صائرٌ.

وتتضاعف مشاهد الأهوال في ذلك اليوم بالعلامة السَّادسة بقوله تعالى: {وإذا البحار سُجِّرتْ}. كلمة: {سُجِّرت} تدور مادتها حول: الإملاء والفيضان، أو التَّوقُّد والإحماء، يفصِّل في ذلك أبو السعود قائلاً: أي: أحميت أو ملئت بتفجير بعضها إلى بعض حتَّى تعود بحراً واحداً من سجر التنُّور إذا ملأه بالحطب ليحميه، وقيل ملئت نيراناً تضطرم لتعذيب أهل النَّار، وقيل: يذهب ماؤها حتَّى لا يبقى فيها قطرة [6]. ويقول الشيخ السِّعدي: أُوقدت ناراً تتوقد [7].

وتنتهي العلامات السِّتة الدُّنيوية بهذا المشهد الرَّهيب، وينتقل السِّياق القرآني الكريم منها إلى العلامات السِّتة الأخروية بقوله تعالى: {وإذا النُّفوس زوجت}. والمراد بالنُّفوس – هنا- إمَّا الأرواح أو الأجساد، فإن كان المراد الأرواح،

---

١ - ينظر:
٢ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير/١٢٦/٣٠.
٣ - ينظر: السَّابق/١٢٦/٣٠.
٤ - ينظر: حاشية الشِّهاب/ ٣٢٧/٧.
٥ - ينظر: تفسير السِّعدي /٩١٢.
٦ - ينظر: إرشاد العقل السَّليم /١١٥/٩.
٧ - ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٢.

فالأرواح تتزاوج يومئذ بالأجساد المخصصة لها بعد أن كانت الأرواح بلا أجساد في الحياة البرزخيَّة.

وإن كان المراد الأجساد، فالأجساد تصنَّف إلى مؤمنين وصالحين، وكافرين وفجَّار، ولعلَّ قصد إفادة هذا العموم هو السِّر في العدول عن ذكر ما زُوِّجت النَّفوس به (١).

وبمناسبة ذكر تزويج النَفوس بالأجساد خُص سؤال الموؤدة دون غيره مما يُسأل عنه المجرمون يوم الحساب؛ فقال تعالى: {وإذا الموءدة سئلت. بأي ذنب قتلت}.

الموءودة المقتولة، وهي الابنة تدفن وهي حيَّة، سميت بذلك لِمَا يطرح عليها من التُراب، فيؤودها أي: يثقِّلُها حتَّى تموت؛ ومنه قوله تعالى: {ولا يَؤُوده حفظهما} أي: لا يثقِلُه (٢).

قيل: سؤال الموءودة عن ذنبها الَّذي قتلت به دون سؤال وإدها؛ جاء لتبكيته وتوبيخ العرب الفاعلين لذلك (٣). وقيل: توجيه السُّؤال إليها لإظهار كمال الغيظ من قاتلها حتَّى كان لا يستحق أن يُخاطب ويُسأل عن ذلك (٤). أو لتدُلَّ على قاتلها (٥) وهذا نوع من الاستدراج واقع على طريقة التَّعريض، وهو أبلغ من التَّصريح (٦). وعليه فإنَّ الاستفهام في قوله تعالى: {بأي ذنب} يراد به: النَّفي (٧). أي: لا ذنب لها.

وجاءت العلامة التَّاسعة في قوله تعالى: {وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} قيل: نشرت: أي فُرِّقتْ على أهلها فآخذٌ كتابه بيمينه وآخذٌ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره (٨). لتفُتح بعد أن كانت مطويَّة، وتلك هي صحف الأعمال الَّتي كتبت الملائكة فيها ما فعل أهلُها من خير وشر، تطوى بالموت، وتنشر في يوم القيامة، فيقف كُلُّ إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها (٩)، فيقول عندها: {مالِ هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها} [الكهف:٤٩]

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ١٢٧، ١٢٨.
٢ ـ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي/٢٣٢/٢٠.
٣ ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/ ١٦/ ٢٤٠.
٤ ـ ينظر: فتح القدير للشوكاني /٤٨٧/٥.
٥ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١١٥/٩، روح المعاني للأوسي/ ٣٦٠/٣٠.
٦ ـ ينظر: حاشية الشِّهاب/ ٣٢٧/٧. وروح المعاني/٣٦٠/٣٠.
٧ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ /٢٩٩/١/ أناهيد جمال حريري.
٨ـ ينظر: تفسير السَّعدي/٩١٢.
٩ ـ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي/٢٣٤/٢٠. بتصرف.

وجاءت العلامة العاشرة بقوله تعالى: {وإذا السَّماءُ كُشِطَتْ} وكشط السَّماء كما يكشط الجلد عن الشَّاة على سبيل الاستعارة المكنيَّة [١]. لأنَّ كلمة: {كُشِطَتْ} يدور معناها حول: القلع والنَّزع والكشف [٢].

وفسَّرها الشَّيخ السَّعدي بقوله: أُزيلت، وأكدها بقوله تعالى: {يوم تشقق السَّماءُ بالغمام} وقوله تعالى: {يوم نطوي السَّماء كطي السِّجل للكتب} وغيره [٣].

فإذا بالسَّماء مكشوطة والمكشوط عنه عالم الخلود [٤]، وقد أخر ذكرها لمناسبة ذكر الصُّحف الَّتي تنشرها الملائكة الَّذين هم من أهل السَّماء [٥].

ولا شك أنَّ قوة أصوات كلمة: {كُشِطَت} تصور هذا الحدث العظيم المهول الَّذي يفوق كُلَّ ما قبله؛ ويؤكد ذلك ما جاء بعده بقوله تعالى: {وإذا الجَحيم سُعِّرت. وإذا الجنَّة أزلفت}.

قيل: الجَّحيم أصله: النَّار ذات الطبقات من الوَّقود من حَطَبٍ ونحوه بعضها فوق بعض، وصار علماً بالغلبة على جهنَّم دار العذاب في الآخرة في اصطلاح القرآن، وتسعيرها، أو إسعارها: إيقادها، أي: هُيِّئتْ لعذاب من حقَّ عليهم العذاب [٦].

وبعد ذكر ذلك الموقف الَّذي من شأنه هلع القلوب وفزع النفوس جاءت المقابلة البلاغيَّة الرائعة تحمل البشرى للمؤمنين بقوله تعالى: {وإذا الجنَّة أزلفت} أي: دنت وقربت من المتقين [٧].

لأنَّ الزلفى في لغة العرب القرب، أي قربت الجنَّة من أهلها، أي: جعلت بقرب من محشرهم؛ بحيث لا تعب عليهم في الوصول إليها؛ وذلك كرامة لهم من ربِّهم الرَّحمن الرَّحيم [٨]. وهذا المشد يصوِّر تشوقهم لها وتشوقها لهم؛ فهي دار الكرمة من ربٍّ كريم.

يقول ابن عاشور معقباً على تركيب تلك الجمل الشرطيَّة الَّتي وصف بها يوم البعث: واعلم أنَّ تقديم المسند إليه في الجمل الاثنتي عشرة المفتتحات بكلمة {إذا} من قوله تعالى: {إذا الشَّمس وكورت} إلى هنا، والإخبار بالمسند الفعلي مع إمكان أن يقال: إذا كورت الشمس وإذا انكدرت النُّجوم، وهكذا كما قال تعالى: {فإذا انشقت

---

١ ـ ينظر: البلاغة القيمة / د. عبد القادر حسن/٤٠.
٢ ـ ينظر: لسان العرب لآبن منظور(كشط)
٣ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٢.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٣٢/٣٠.بتصرف
٥ ـ ينظر: السَّابق
٦ ـ ينظر: /١٣٣/٣٠.
٧ ـ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي/٢٠/ ٢٣٥.
٨ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ١٣٣. بتصرف

السَّماء فكانت وردة كالدهان} [الرَّحمن:٣٧] أنَّ ذلك التَّقديم لإفادة الاهتمام بتلك الأخبار المجعولة علامات ليوم البعث توسلاً بالاهتمام بأشراطه إلى الاهتمام به وتحقيق وقوعه [١].

فجاء تقديم الفاعل: {الشَّمس} على الفعل {كورت} ومثله في كُلِّ تلك الجمل الشَّرطيَّة للاهتمام بالشَّرط الَّذي يدلُّ على الاهتمام بيوم البعث. والله أعلم وأحكم.

وهكذا تنتهي تلك العلامات الاثنتي عشرة الَّتي حملتها الجمل الشَّرطية وينتظر المتلقي جوابها بكُلِّ حرص واهتمام وشوق لما يحمل من مضمون.

إذاً كانت إطالة تلك الجمل الشرطيَّة تشويقاً للجواب الواقع بعدها بقوله تعالى: {علمت نفسٌ ما أحضرت} لِمَا يحمل في معناه من قوة الوعيد؛ وعليه جاءت كلمة {نفسٌ} نكرة قيل: للتَّحقير، وقيل للعموم [٢]، وهو الأرجح - والله أعلم- لأنّه ذُكِرَ بعد اطلاع كُلِّ نفسٍ على صحيفتها. فلأنَّها نكرة في سياق الشَّرط دلت على العموم.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ العلم بالأعمال كناية عن المجازاة عليها، فالعلم لازم للمجازاة [٣].

ويستوقفنا للتأمل قوله تعالى: {علمت نفسٌ ما أحضرت} جملة {ما أحضرت} المكونة من الاسم الموصول: {ما} المفيد معنى العموم، وجملة الصِّلة {أحضرت} بمعناها وزمن فعلها الماضي المفيد للتأكيد؛ قد حملت معاني عميقة يعجز البيان عن حصرها؛ فهي حقيقة بالتأمل؛ فكأن المقطع يقول هذا ما أفنيت عمرك كُلَّه في جمعه وأبليت صحتك وشبابك في تراكمه؛ قد حملته معك من تلك الدَّار الفانية إلى هذه الدَّار الباقية؛ فإن كان خيراً فمن توفيق الله لك، وفضله عليك، وإن كان غير ذلك فلا تلومنَّ إلا نفسك.

ولا شك أن هذا الموقف يرسم في الِّذهن مشهدين متقابلين متفاوتين في النَّتيجة: مشهد الفوز والانتصار على النَّفس الأمَّارة بالسُّوء والشَّيطان بدخولهم برحمة الله الجنَّة دار السَّعادة الأبديَّة.

والمشهد المقابل الَّذي من أبسط ما يقال فيه النَّدم الَّذي لا ينفع والحسرة المضنية والخسران الأبدي نسأل الله اللطف والسَّلامة والعافية.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ١٣٣.
٢ ـ ينظر: الكشاف للزَّمخشري/٧١٠/٤. والمحرر الوجيز لابن عطيَّة /٢٤١/١٦، والبحر المحيط لأبي حيان/٤٢٥/٨.
٣ ـ ينظر: روح المعاني للبروسوي/٤١٢/١٠.

ويأتي التَّفريع على القَسَمِ وجوابه في الكلام السَّابق بقوله تعالى: {فلا أقسم بالخنَّس. الجوارِ الكنَّس. والليل إذا عسعس. والصُّبح إذا تنفس. إنَّه لقول رسولٍ كريمٍ. ذي قوةٍ عند ذي العرش مكين. مطاعٍ ثمَّ آمين}.

ذلك ما أوحت به (فاء) التَّفريع الَّذي بدأ المقطع بها في قوله تعالى: {فلا أقسم بالخنَّس} لتشير إلى أنَّ ما تقدم من الكلام؛ هو بمنزلة التَّمهيد لِمَا بعد (الفاء)؛ فإنَّ الكلام السَّابق أفاد تحقيق وقوع البعث والجزاء؛ فهم قد أنكروه وكذَّبوا بالقرآن الَّذي أنذرهم به، فجاء التَّفريع هنا تفريع معنى وتفريع ذِكر معاً [١].

ولا شك أنَّ المراد من القسم تأكيد الخبر وتحقيقه، وادمج فيه ﷻ أوصاف الأشياء المقسم بها للدلالة على تمام قدرة الله تعالى [٢].

فقوله تعالى: {لا أقسم} أي أقسم و(لا) للتأكيد. والمقسم به عِدَّة أشياء بدأها ﷻ

بـ{الخنس} ووصفها بقوله تعالى: {الجواري الكنَّس}.

قيل: (الخُنَّس}: جمع خانس من الخنوس؛ وهو التَّواري، وهي الَّتي تخنس، أي: تختفي في النَّهار، وتظهر بالليل، وكُنس في وقت غروبها، أي: تتأخر عن البصر لخفائها فلا ترى. ذكر ذلك جمهور من المفسِّرين [٣].

يقول الشيخ السَّعدي: أقسم الله بها في حال خنوسها أي: تأخرها، وفي حال جريانها وفي حال كنوسها أي: استتارها بالنَّهار، ويحتمل أن يراد بها جميع النَّجوم الكواكب السيَّارة وغيرها [٤].

و في قوله تعالى: {الخنَّس} يقول ابن عاشور: هو من بديع التَّشبيه، لأنَّ الخنوس اختفاء الوحوش عن أنظار الصَّيادين ونحوه دون سكون في كِناس، وكذلك الكواكب شُبِّهت حالة بُدُوِّها بعد احتجابها مع كونها كالمتحركة بحالة الوحوش تجري بعد خنوسها تشبيه التَّمثيل. وهو يقضي أنَّها صارت مرئيَّة؛ فلذلك عقَّب بعد ذلك بوصفها بالكنَّس أي: عند غروبها تشبيهاً لغروبها بدخول الظبي أو البقر الوحشي كناسها بعد الانتشار والجري [٥].

---

١ ـ انظر: التَّحرير والتنوير لابن عاشور /١٣٤/٣٠. بتصرف.
٢ـ ينظر: التَّحرير والتنوير لابن عاشور/١٣٥/٣٠.
٣ ـ ينظر: على سبيل المثال فتح القدير للشوكاني/٤٨٩/٥. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن/٢٢٧/١٩. وغيرهم
٤ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٣.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /١٣٥/٣٠ وما بعدها.

ثمَّ عطف عليه القسم بالليل لمناسبة جريان الكواكب في الليل، ولأنَّ تعاقب الليل والنَّهار من أجلِّ مظاهر الحكمة الإلهيَّة في هذا العالم [١].

فقال تعالى: {والليل إذا عسعس} يقسم ﷻ بالليل في وقت إقباله وإدباره؛ لأنَّ مادة الكلمة (عسعس) تدور حول: الطَّواف باللَّيل، وعسعس اللَّيل من الأضداد قيل أقبل بظلامه أو أدبر [٢].

وبذلك يكون إيثار هذا الفعل لإفادة كلا حَالين صالحين للقسم به؛ فهو إيجاز بلاغي معجز [٣]. وفي كلا الحالتين آية عظيمة من آيات الله تعالى الدَّالة على عظيم قدرته في تدبير هذا الكون الَّذي مقاليده بيده ﷻ ففي أقبال الليل اختلاط بين النُّور والظَّلام؛ حتَّى يغلب الظَّلامُ النُّورَ، والمشهد نفسُه يحدث في أدبار الليل حتَّى يغلب النُّورُ الظلامَ؛ فلابد من لحظة يتشابه فيها الإقبال والإدبار.

وتكرار الصَّوتين في: {عسعس} يقابل تكرُّر هذا الاختلاط للنُّور و الظَّلام، كما أنَّ هذا التِّكرر يعطي دلالة السُّرعة، فسرعان ما يذهب الظَّلامُ بقدرته ويحل النُّورُ، أو العكس [٤].

ثمَّ جاء القسم بالصبح إذا تنفس معطوفاً على القسم بالليل؛ فقال تعالى: {والصُّبحِ إذا تنفس} قيل: التَّعبير عن إقبال الصَّباح وزيادة ضوئه وطوله بالتَّنفس مجاز [٥]. أو هو استعارة لطيفة [٦]. حيث شُبِّه الليلُ المظلمُ بالمكروبِ المحزونِ فإذا تنفَّس وجد راحة [٧]. وفي هذا نظر؛ لأنَّ الآية تنسب التَّنفس للصبح وليس لليل.

ولكن للإعجاز العلمي دراسة تصف فيها تغير حالات طبقات الجو عند تغير الليل بالنَّهار، وكيف يمتلئ الكون بالأكسجين بعد أن كان ملوثاً بثاني أكسيد الكربون، وهذه العملية هي نفسها تحدث بالتَّنفس عند الكائن الحي؛ وكأن الكون كله رئةً كبيرة بحجم الفضاء في حالة زفير وشهيق مستمرين كُلِّ صباح؛ "يرجى الرُّجوع إليه في موقع الإعجاز العلمي" فسبحان ربِّ الأكوان ومنزل القرآن. وعليه يقول الشيخ السِّعدي في قوله تعالى: {والليل إذا عسعس والصُّبح إذا تنفس} هذه آيات عظام أقسم الله بها على علو سند القرآن وجلالته وحفظه من كُلِّ شيطان رجيم [٨].

---

[١] ـ ينظر: السَّابق /٢٣٦/٣٠.
[٢] ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور(عسس)
[٣] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٣٦/٣٠. بتصرف.
[٤] ـ انظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ / أناهيد جمال حريري/٣١١/١. وقد أحالت على كتاب الخصائص لابن جني/١٥٢/٢.
[٥] ـ ينظر: حاشية الشِّهاب/٣٣٠/٧. وكذا ينظر اللُّباب / الحنبلي/١٨٨/٢٠.
[٦] ـ ينظر: فقه اللغة وأسرار العربيَّة للثعالبي/٣٠٠، ومثله: البرهان في علوم القرآن للزركشي/٤٣٥/٣. واللُّباب الحنبلي/٢٠/ ١٨٨
[٧] ـ ينظر: تفسير الخازن/٣٥٦/٤.
[٨] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٣.

ويأتي جواب القسم بقوله تعالى: {إنَّه لقول رسولٍ كريم} بدأت الآية الكريمة بأقوى أدوات التَّوكيد في: {إنَّه} والضمير المتصل بإنَّ اسمها، وهو عائد إلى القرآن، ولم يسبق له ذكر؛ ولكنَّه معلوم في سياق الإخبار بوقوع البعث؛ فإنَّه مما أخبرهم به القرآن وكذَّبوا بالقرآن لأجل ذلك [١].

ويأتي خبر إنَّ بقوله تعالى: {لقولُ رسولٍ كريم} صُدر الخبر بلام التَّوكيد أيضاً فجتمع في الآية الكريمة عِدَّة مؤكدات "إنَّ، واللام، واسميَّة الجملة" وذلك لمقابلة جحود المنكرين للحق تعنتاً واستكباراً.

وإضافة {لقول} إلى {رسول} وهو " جبريل" ﷺ إيماء إلى أنَّ القول الَّذي يبلغه هو رسالة من الله مأمور بإبلاغها كما إنَّها تخص رسول الله "محمدٍ" ﷺ.

وجاء الاستطراد من خلال الثَّناء على القرآن الكريم بالثَّناء على الملك المرسل به تنويهاً بالقرآن الكريم وتنويهاً بالملك المرسل به، وللكناية على أنَّ ما نزل به صدق فكمال القائل يدُّل على صدق القول [٢]. وعليه وصف {رسول} بخمسة صفات: أولها كريم: يعني النَّفيس في نوعه [٣].

ويقول الشيخ السِّعدي: وصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه، وكثرة خصاله الحميدة، فإنَّه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبة عند ربه [٤]. وإن كان الوصف للنَّبي ﷺ فإنَّ خلقه القرآن.

والوصفان الثَّاني والثَّالث {ذي قوةٍ عند ذي العرش مكين}. هذه الآية ترجح أن الوصف السَّابق لرسول السَّماء "جبريل" عليه السلام

فقوله تعالى: {ذي قوة} أي: قدرة على ما أمر به؛ ومن قوته أنَّه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكوا [٥].

وقوله تعالى: {عند ذي العرش} أي: أنَّه مقرَّب عند الله تعالى، وله منزلة رفيعة وخصيصة من الله اختصه بها؛ وعليه يأتي قوله تعالى: {مكين} أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم [٦].

---

[١] ـ انظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٣٧/٣٠. بتصرف.
[٢] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٣٧/٣٠
[٣] ـ ينظر: السَّابق.
[٤] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٣.
[٥] ـ ينظر: السَّابق.
[٦] ـ ينظر: السَّابق.

والمكين: فعيل، صفة مشبَّهة باسم الفاعل من مكُن إذا علت رتبته عند غيره قال تعالى في قصَّة "يوسف" عليه السلام مع الملك: {فلمَّا كلمه قال إنَّك اليوم لدينا مكين أمين} [يوسف:٥٤].

ويستوقفنا للتأمل العدول عن اسم الجلالة إلى قوله تعالى: {ذي العرش} قيل: لتمثيل حال جبريل عليه السلام ومكانته عند ربِّه عز وجل بحال الأمير الماضي في تنفيذ أمر الملك، وهو محل الكرامة لدية، وإذا قُصد بالرَّسول "محمد" صلى الله عليه وسلم فنكتة العدول: إشارة إلى عظيم مكانته إذ كان ذا قوة عند أعظم موجود شأناً [١] جل جلاله

وفي توسط قوله تعالى: {عند ذي العرش} بين {ذي قوة} و {مكين} يقول ابن عاشور: وذلك ليتنازعه كلا الوصفين على وجه الإيجاز؛ أي: هو ذو قوة عند الله تعالى، أي: جعل الله تعالى مقدرة جبريل تخوِّله أن يقوم لعظيم ما يوكله الله به مما يحتاج إلى قوة القدرة وقوَّة التَّدبير، وهو ذو مكانة عند الله وزلفى [٢].

وعليه يأتي الوصف الرَّابع والخامس بقوله تعالى: {مُطاعٍ ثَمَّ أمين} يشمل هذا الوصف جبريل عليه السلام و "محمد" صلى الله عليه وسلم. وقوله: {مُطَاعٍ} أي: يطيعه من معه من الملائكة، أو النَّبي صلى الله عليه وسلم مُطَاع أي: مأمور النَّاس بطاعة ما أمرهم به.

وكلمة: {ثَمَّ} بفتح الثَّاء اسم إشارة إلى المكان، والمشار إليه هو المكان الَّذي دلَّ عليه قوله: {عند ذي العرش}.

وقد خصصه الشَّيخ السَّعدي بجبريل بقوله: أي جبريل مُطاع في الملأ الأعلى؛ لأنَّ من الملائكة المقربين جنوده نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه.

و: {أمين} أي: ذو أمانة وقيام لما أمر به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتعدى ما حُدَّ له وهذا كُلُّه يدلُّ على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنَّه بعث به هذا الملك الكريم الموصوف بتلك الصَّفات الكاملة، والعادة أنَّ الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات، وأشرف الرسائل [٣]. والمثل الأعلى لله تبارك وتعالى.

ولما ذكر فضل الرَّسول المَلَكِي الَّذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرَّسول البشري الَّذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه النَّاس فقال تعالى: {وما صاحبكم بمجنون} كما يقول أعداؤه المكذبين برسالته؛ بل هو أكمل النَّاس عقلاً وأجزلهم رأياً وأصدقهم لهجة [٤].

---

[١] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٣٨/٣٠.
[٢] ـ ينظر: السَّابق/١٣٨/٣٠.
[٣] ـ ينظر: تفسير السِّعدي /٩١٣.
[٤]ـ ينظر: السَّابق بتصرف.

وذكره ﷺ هنا بقوله {صاحبكم} هو من قبيل الإظهار في مقام الإضمار لِمَا في وصفه بـ{صاحبكم} من تبكيت للمكذبين به؛ لأنَّهم صاحبوه ردحاً من الزَّمان فما شهدوا عليه إلا أنَّه الصَّادق الأمين. وما دفعهم لتكذيبه إلا الاستكبار والجحود. وعليه فإنَّ التَّعرض لعنوان الصُّحوبيَّة كناية عن علمهم بنزاهته مما نسبوه إليه بالكليَّة [١]. فحرف العطف (و) الَّذي ربط الجملة بما قبلها أدخلها في حيِّز القسم – حيث عطفت على جوابه [٢] وعليه فقد أُكدت بعِدَّة مؤكدات.

وجاء العطف عليه أيضاً بقوله تعالى: {ولقد رءاه بالأفق المبين} والمناسبة بين الجملتين أنَّ المشركين كانوا إذا بلغهم أنَّ الرَّسول ﷺ يخبر أنَّه نَزل عليه جبريل بالوحي من وقت غار حراء فما بعد استهزأوا وقالوا: إن ذلك الَّذي يتراءى له هو جنِّي؛ فكذبهم الله ﷻ بنفي الجنون عنه ثمَّ بتحقيق أنَّه رأى جبريل القوي الأمين [٣]. وعليه جاءت الجملة مسبقة بـ(قد) حرف التَّحقيق والتَّأكيد المتصلة بلام القسم.

والأفق: الفضاء ً يبدو للعين، و{المبين} أي الواضح البيِّن فلا تشتبه فيه المرئيات ولا يتخيل فيه الخيال، ولذا فإنّ المرئي ملك وليس خيال، وقد أكدت هذا آيات سورة النَّجم [١٢- ١٥]. والقرآن يؤكد ويفسر بعضُه بعضاً.

ويأتي قوله تعالى: {وما هو على الغيب بضنين} دفاعاً عن رسول الله "محمد" ﷺ فليس هو بالبخيل الَّذي لا يعطي ما عنده من الوحي الَّذي ائتمنه عليه ربُّه وأمره بتبليغه.

ثمَّ يأتي الدِّفاع عن الوحي بقوله تعالى: {وما هو بقول شيطانٍ رجيمٍ} أي: إنَّ الشَّيطان في غاية البعد عن الله وعن قربه [٤]. وفي ذلك نفيٌ قاطعٌ أن يكون القرآن الكريم من كلام الشَّيطان؛ وقد تكفل المولى بحفظه ﷻ.

ثمَّ يأتي التَّوبيخ والتَّحدي بجملة معترضة بقوله تعالى: {فأين تذهبون} يقول الشِّنقيطي: بمثابة من يسُدُّ عليهم الطَّريق إلا له؛ لأنَّه - أي القرآن- ليس في نُزُوله من الله تعالى على رسوله ﷺ أي شُبهة ولا تُهمة، فليس للعاقل أن يحيد عنه، وكُلُّ ذهابٍ إلى غَيره فطريقٌ مسدود وضلالٌ وهلاكٌ [٥] موعود.

وجاء قوله تعالى: {إن هو إلا ذكرٌ للعامين. لمن شاء منكم أن يستقيم} يقول فيه ابن عاشور [٦]: بعد أن أفاقهم من ضلالتهم أرشدهم إلى حقيقة القرآن بقوله تعالى: {إن

١ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/ ١١٨/٩. بتصرف.
٢ ـ ينظر: فتح القدير/٤٩٠/٥.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٤١/٣٠.
٤ ـ ينظر: تفسير السِّعدي / ٩١٣.
٥ ـ ينظر: أضواء البيان/٩/ ٤٤.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/١٤٦/٣٠.

هو إلا ذكرٌ للعالمين} هذه الجملة تتنزل منزلة المؤكدة لجملة {وما هو بقول شيطان رجيم} ولذلك جُرِّدَتْ عن العطف؛ لأنَّ القصر المستفاد من النَّفي والاستثناء في قوله تعالى: {إن هو إلا ذكر للعالمين} يفيد قصر القرآن على صفة الذِّكر، وهو قصر إضافي قصد من إبطال أن يكون قول شاعر، أو كاهن، أو مجنون، ومن جملته نفي أن يكون قول شيطان رجيم؛ وبذلك كان تأكيد لجملة: {وما هو بقول شيطان رجيم}

وقد قصره ﷻ على أنَه {ذكر} لكونه اسم جامع لمعاني كثيرة منها الدُّعاء والوعظ والزجر وأمور أخرى كثيرة، أي: ما القرآن إلا تذكير لجميع النَّاس ينتفعون به في صلاح اعتقادهم وطاعة ربِّهم وتهذيب أخلاقهم والسَّعادة الشَّاملة للدارين.

ويستوقفنا عموم نفعه بقوله تعالى: {للعالمين} وما أبدل منه بقوله {لمن شاء منكم أن يستقيم}، وفائدة هذا الإبدال التَّنبيه على أن الَّذين تذكروا بالقرآن وهم المسلمون قد شاءوا الاستقامة لأنفسهم فنصحوا أنفسهم وهو ثناء عليهم [١].

هذه الآية الكريمة صريحة في إثبات المشيئة للإنسان العاقل فيما يأتي ويدع، ولأنَّه لا عذر له إذا قال: هذا أمرٌ قُدِّر، وهذا مكتوب عند الله [٢]. أي: بعد هذا البيان وقوة هذا السَّند، وإظهار ثبوت الرِّسالة فقد أعذر من أنذر [٣].

وتذيَّل السُّورة المباركة بقوله تعالى: {وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ربُّ العالمين} في هذه الآية يقول صاحب أضواء البيان [٤]: إذا كان الكثيرون يستدلون في قضيَّة القضاء والقدر بهذه الآية؛ فإنَّه ينبغي ألَّا نغفل أهميتُها في جانب الضراعة إلى الله دائماً بطلب التَّفضل من الله تعالى علينا بالمشيئة بالاستقامة فضلاً من عنده، كما أمرنا في الصَّلاة في كُلِّ ركعة منها أن نطلبه هذا الطلب: {اهدنا الصِّراط المستقيم}.

ولا شك في أنَّ الإقبال على مرضاة الله للتوسل برضاه إلى تيسير سلوك سبيل الخير هو الطَّريق الصَّحيح للحصول على لطف الله وتيسير سبل سلوك الخير والبعد عن سلوك الشَّر. فجاء هذه الآية، وآية سورة الإنسان إفصاحٌ عن شرف أهل الاستقامة بكونهم بمحل العناية من ربِّهم إذا شاء لهم الاستقامة وهيأهم لها، وهذه العناية معنى عظيم تحيَّر أهل العلم في الكشف عنه [٥].

والله أعلم وأحكم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/١٤٦/٣٠.
٢ ـ ينظر: السَّابق/١٤٨/٣٠. بتصرف
٣ ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/ ٩/ ٤٤.
٤ ـ ينظر: السَّابق
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/١٤٩/٣٠.

سورة الانفطار

والحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا
ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨
كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا
تَفۡعَلُونَ ١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ
١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ
ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩

<u>بين يدي السُّورة المباركة:</u>

سميت هذه السُّور المباركة "سورة الانفطار في المصاحف ومعظم التَّفاسير. وفي حديث رواه التِّرمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ "من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنَّه رأيُ عين فليقرأ إذا الشَّمس كوِّرت، وإذا السَّماء انفطرت، وإذا السَّماء انشقت" قال التِّرمذي حديث حسن غريب [١].

اشتملت هذه السُّورة على: إثبات البعث، وذكر الأهوال الَّتي تتقدمه، وكذا إيقاظ النَّظر في الأمور الَّتي تصرف عن الاعتراف بتوحيد الله ﷻ وتلفت إلى النَّظر في دلائل وقوع البعث والجزاء [٢].

يربطها البقاعي بما قبلها قائلاً:(لما ختمت التَّكوير بأنَّ سبحانه لا يخرج شيءٌ عن مشيئته وأنَّه موجد الخلق ومدبرهم، وكان من النَّاس من يعتقد بهذا أنَّ هذا العالم هكذا بهذا الوصف لا آخر له ... افتتح الله سبحانه هذه السُّورة بما يكون مقدِّمة

---

[١] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/١٥٠.
[٢] - ينظر: السَّابق بتصرف.

لمقصود الَّتي قبلها من أنَّه لابد من نقضه لهذا العالم وإخرابه ليحاسب النَّاس؛ فيجزي كلاً منهم من المحسن والمسيء بما عمل) [1]

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

أول ما يلفتنا لهذه السُّورة وأمثالها افتتاحها بـ{إذا} الَّتي هي ظرف زمان للمستقبل متضمنة معنى الشَّرط [2]. وتكراره بعد ذلك ثلاث مرات مع الجمل المتعاطفة على الجملة الأولى، وهذا افتتاح مشوِّق لمضمون الجواب، وهو نوع من الإطناب يقتضيه مقام التَّهويل [3].

والقول الكريم: {إذا السَّماء انفطرت} يقدِّرُه أهل اللغة بقوله: "إذا انفطرت السَّماء انفطرت" وذلك للقاعدة الَّتي تفرض دخول أداة الشَّرط على الجملة الفعليَّة، وعليه يقول ابن عاشور: وافتتاح هذه الجمل الَّتي أضيف إليها "إذا"- بمسند إليه أي: "السَّماء" الَّتي هي فاعل الانشقاق- مفسَّرة بمسند فعلى: أي: {انشقت} لقصد الاهتمام [4]. والتَّفخيم [5]. والتَّأكيد على هذا الحدث العظيم.

كلمة: {انفطرت} تدور مادتها حول: التَّشقق والتَّصدع [6]. قال الرَّاغب: (أصل الفَطْر: الشَّق طولاً) [7]. والسَّماء تتشقق بالغمام يوم القيامة [8]. أو تتشقق لتزول بنيتها [9]. أو لنزول الملائكة ولهيبة الله تعالى [10]. ويمثل ذلك كُلَّه أصوات حروف الكلمة القرآنيَّة: {انفطرت}، وصيغة بنائها.

يقول ابن عاشور: والظاهر أنَّ هذا الانفطار هو المعبَّر عنه بالانشقاق أيضاً في سورة الانشقاق؛ وهو حدث يكون قبل يوم البعث، وأنَّه من أشراط السَّاعة؛ لأنَّه يحصل عند إخلاف النِّظام الَّذي أقام الله ﷻ عليه حركات الكواكب وحركة الأرض ذلك يقتضيه قرنه بانتشار الكواكب وتفجر البحار وتبعثر القبور [11].

---

١ ـ ينظر: نظم الدُّرر /٢٩٨/٢١.
٢ ـ ينظر: السَّابق.
٣ ـ ينظر: روح المعاني للألوسي/٣٧٧/٣٠.بتصرف
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /١٥١/٣٠.
٥ ـ ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي/٩٠.
٦ ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور "فطر"
٧ ـ ينظر: مفردات القرآن (فطر)
٨ ـ ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج/٢٩٥/٥.
٩ ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/ ٢٤٥/١٦.
١٠ ـ ينظر: فتح القدير للشوكاني/٤٩٤/٥.
١١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /١٥٢/٣٠.

ولذا يأتي العطف عليه بقوله تعالى: {وإذا الكواكب انتثرت}. انتثار الكواكب: تساقطها[1]. متفرقة [2]. من مواقعها الَّتي هي منظمة فيها [3].

قيل التَّعبير عن تفرُّق الكواكب بالانتثار استعارة لإزالة الكواكب، حيث شُبهت بجواهر قُطِعَ سِلكها، وهي استعارة تصريحيَّة أو مكنيَّة [4].

ويعطف عليه ﷻ حدث أخر لا يقل عنه هولاً بقوله تعالى: {وإذا البحار فُجِّرت} كلمت "فجرت" تدور مادتها حول: الشَّق والميل والسُّقوط عن الطَّريق [5].

يشرحه الطَّبري بقوله: وفجَّر الله البحار بعضها في بعض فملأ جميعها، أو أذهب ماءها، أو فَجَّر عذبها في مالحها وما لحها في عذبها [6].

وتأتي الآية الرَّابعة في هذه المتعاطفات بقوله تعالى: {وإذا القبور بعثرت} يدور معنى كلمة {بعثرت} حول التَّفريق وقلب الشَّيء بعضه على بعض لاستخراج شيء وكشفه [7].

فبعثرة القبور حالة من حالات الانقلاب الأرضي والخسف خصت بالذِّكر من بين حالات الأرض لِمَا فيها من الهول باستحضار حالة الأرض وقد ألقت على ظاهرها ما كان في باطن المقابر [8].

ويستوقفنا للتأمل صيغة الماضي في هذه الأفعال كُلِّها مع أنَّ تلك الأحداث لم تقع بعد؛ وذلك لِمَا لصيغة الماضي من قوة تأكيد الحدث؛ لذا قيل: مستعملة في المستقبل تشبيهاً لتحقيق وقوع المستقبل بحصول الشَّيء في الماضي [9].

ثمَّ يأتي جواب كُلُّ تلك الجمل الشَّرطيَّة بقوله تعالى: {علمت نفسٌ ما قدَّمت وأخرت}. يقول ابن عاشور: جواب لِمَا في {إذا} من معنى الشَّرط، ويتنازع التَّعلق به جميع ما ذكر من كلمات {إذا} الأربع. وهذا العلم كناية عن الحساب على ما قدمت النُّفوس وأخرت [10].

---

[1] ـ ينظر: جامع البيان للطبري/١٠٧/٣٠. والنكت والعيون للماوردي/٢٢٠/٦.
[2] ـ ينظر: فتح القدير للشوكاني/ ٤٩٤/٥.
[3] ـ ينظر: لمحرر الوجيز لابن عطيَّة/٢٤٥/١٦.
[4] ـ ينظر: حاشية الشِّهاب/ ٣٣١/٨.
[5] ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور "فجر"
[6] ـ ينظر: جامع البيان/١٠٧/٣٠، الكشَّاف للزمخشري/٧١٤/٤، التَّفسير الكبير للرازي ٧٢/١١، ٧٣.
[7] ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور "بعثر"
[8] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٥٣/٣٠.
[9] ـ ينظر: السَّابق
[10] ـ ينظر: السَّابق

ويستوقفنا للتأمل اختيار: {علمت نفسٌ} وأحسب -الله أعلم- أنَّ ذكر العلم بالشَّيء قبل وقوعه يصوِّر الأحوال الَّتي تكون فيها النُّفوس؛ بين العلم به ووقوع الحدث نفسه؛ فإمَّا البشرى بالخير وإمَّا - والعياذ بالله - العذاب المنتظر وذلك بحد ذاته عذاب نفسي شديد. وجاءَ تنكير كلمة {نفسٌ} دالاً على العموم أي كلُّ نفس.

وقيل: إثبات علم النَّاس بما قدموا وأخروا عند حصول تلك الشُّروط لعدم الاعتداد بعلمهم بذلك الَّذي كان في الحياة الدُّنيا، فقد أنزل منزلة عدم العلم [١].

وفي قوله تعالى: {ما قدَّمت وأخرت} أقوال منها: ما عملت من خير وشر [٢].

وقيل هو كناية عن الحساب على ما قدمَّتْ النُّفوس وأخرتْ من أعمال [٣].

وقد جاء الطِّباق بين: (قدمت) و (أخرت) وهو من المحسنات البديعية [٤]. لتتفكَّر النُّفوس بكلِّ ما قدَّمته وما أخرته [٥]. في حياتها الدُّنيا؛ لأنَّه لابد من وجود شاهد لها أو عليها في الآخرة.

يشرحه الشيخ السعَّدي بقوله: فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفياً، وتعلم كلَّ نفس ما معها من الأرباح والخسران، هنالك يعض الظالم على يديه إذا رأى أعماله باطلة، وميزانه قد خف، والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه، وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السَّرمدي. وهناك يفوز المتقون المقدِّمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم والنَّعيم المقيم، والسَّلامة من عذاب الجحيم [٦].

ولذا جاء النداء العام بقوله تعالى: {يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم. الَّذي خلقك فسوَّاك فعدل. في أي صورة ما شاء ركبك}.

يقول الشيخ السِّعدي في هذا: يقول تعالى معاتباً للإنسان المقصر في حق ربِّه، المتجرئ على معاصيه: {ما غرك بربك الكريم} أتهاوناً منك في حقوقه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه [٧].

ويستوقفنا مجيء كلمة {ربك} هنا إيثارها على ذكر اسم الجلالة "الله" وذلك - والله أعلم- لِمَا في معنى الرَّب من الملك والإنشاء والرَّفق، ففيه تذكير للإنسان

---

١ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٥٣/٣٠.
٢ - ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي:٢٣٦/١٠. في معرض تفسيره لسورة التكوير.
٣ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ١٥٣.
٤ - ينظر: صفوة التَّفاسير للصابوني/٥٢٩/٣.
٥ - ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ / أناهيد جمال حريري/٣٥١/١.
٦ - ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٤.
٧ - ينظر: السَّابق.

بموجبات استحقاق الرَّب بطاعة مربوبه؛ فهو تعريض بالتوبيخ [١]. فكلمة "رب" تحمل من الرِّفق والرَّحمة واللطف الشَّيء الكثير؛ فهي كلمة أكثر ما تذكر في تفضل الله ﷻ على عباده بالنِّعم الَّتي لا تعد ولا تحصى؛ وعليه جاء وصفه ﷻ بـ{الكريم} دون غيره من صفات الله ﷻ للتَّذكير بنعمته على النَّاس بعامة، ولطفه بهم فإنَّ الكريم حقيق بالشُّكر والطَّاعة [٢].

ويستمر خطاب الإنسان للمواجهة بهذا الإعجاز العلمي في تَّدرج وجود الإنسان بعد أن كان عدماً في قوله تعالى: {خلقك فسواك فعدلك} تصوير معجز لمراحل خلق الجنين بدقَّة متناهية. يشهد بعظمة ترتيبه علم الأجنَّة.

ثمَّ جاء قوله تعالى: {في أي صورة ما شاء ركبك} مراداً به التَّعجب، إشعاراً بمزيد المنَّة والفضل منه تعالى على عباده [٣]. وهو جامع لكثير مما تؤذن به الأوصاف السَّابقة؛ فإنَّ الخلق والتَّسوية والتَّعديل وتحسين الصُّورة من الرِّفق بالمخلوق، وهي نعم عليه، وجميع ذلك تعريض بالتَّوبيخ على كفران نعمته بعبادة غيره [٤].

وجاء الرَّدع والزَّجر في قوله تعالى: {كلا}، والإضراب بعده بقوله تعالى: {بل تُكذِّبون بالدِّين} وصيغة المضارع في قوله تعالى: {تكذِّبون بالدِّين} أفادت بأنَّ تكذيبهم بالجزاء متجدد لا يقلعون عنه؛ وهو سبب استمرار كفرهم، مع استحضار حالة هذا التَّكذيب استحضاراً يقتضي التَّعجب منه [٥].

قيل: إنَّ الدِّين هنا يراد به الجزاء، أو الحساب، أو الإسلام الَّذي هو كناية عن التَّصديق بالثَّواب والعقاب [٦].

ثمَّ عطف عليه قوله تعالى: {وإنَّ عليكم لحافظين} جملة مؤكدة بإنَّ و(لام) التَّأكيد لأنكار المشركين ذلك إنكاراً قوياً، وقد دلَّ تقديم الجار والمجرور: {عليكم} على مزيد اهتمام؛ كما صوَّر حرف الجر "على" صورة العلو والتَّمكين منهم.

يقول ابن عاشور: و {الحافظين} صفة لمحذوف تقديره: الملائكة الحافظين، وقد أجرى عليهم أربعة أوصاف هي:

١ـ الحفظ، ومعناه الرِّعاية والمراقبة.

---

[١] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٥٥/٣٠. بتصرف
[٢] ـ ينظر: السَّابق بتصرف.
[٣] ـ ينظر: الكشاف للزمخشري/٧١٦/٤.
[٤] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٥٥/٣٠.
[٥] ـ ينظر: السَّابق /١٥٨/٣٠، وما بعدها.
[٦] ـ ينظر: حاشية الشِّهاب /٣٣/٨. وكذا انظر التَّصوير القرآني في جزء عمَّ/أناهيد جمال حريري/٣٥١/١.

٢ ـ والكرامة: وهي صفتهم النَّفسية الجامعة للكمال.

٣ـ والكتابة: المراد بها ضبط ما وكُّلوا على حفظه؛ فلا يتعرض للنسيان.

٤ـ والعلم: أي الإحاطة بما يصدر عن النَّاس من أعمال، وما يخطر ببالهم من تفكير بما يعمله النَّاس، وفي هذا تنويه بشأن الملائكة الحافظين [١].

ثمَّ استؤنف قوله تعالى: {إنَّ الأبرار لفي نعيم} جملة مؤكدة بحرف التوكيد {إنَّ} و(لام) الابتداء جواباً لسؤال يدور في خاطر المتلقي لما مر من ذكر المكذبين بقوله تعالى {كَلَّا بل تُكذبون بالدِّين}. وحرف الجر في قوله تعالى {لفي نعيم} رسم صورة انغماس الأبرار في ذلك النَّعيم الَّذي لا يقادر قدره إلا المنعم به ﷻ

ولا شك أنَّ الأبرار هم المتقون الله ﷻ قيل: سمي المتقي بَرَّاً؛ لأنَّه بَرَّ ربَّه، أي: صدَّقه ووفى له بما عهد له من الأمر بالتَّقوى[٢].

وتتضح صورة ذلك النَّعيم الَّذي ينغمس فيه الأبرار بمقابلته بضده في قوله تعالى: {وإنَّ الفجَّار لفي جحيم. يصلونها يوم الدين. وما هم عنها بغائبين} بنفس تَّرتيب التأكيد للاهتمام بتحقيق كونهم في جحيم لا يطمعون في مفارقته. ويعمل تنكير: :{نعيم} و :{جحيم} على تفخيم كُلٍّ منهما زيادة في التَّهويل [٣].

ويزيد ذلك وضوحاً جملة: {يصلونها} الَّتي جاءت صفة لـ{جحيم} أو حال من {الفجَّار}.

ويأتي ظرف ذلك الإصلاء بقوله تعالى: {يوم الدِّين}؛ جاء بيان: أنَّهم يصلونها جزاء عن فجورهم؛ لأنَّ الدِّين الجزاء ويوم الدِّين، يوم الجزاء، وهو من أسماء يوم القيامة.

ولا يخفى أنَّ زمن المضارع في الفعل: {يصلونها} دلَّ على استمرار ذلك الحدث وقام برسم صورته في ذهن المتأمل.

ويؤكده قوله تعالى: {وماهم عنَّها بغائبين} أي خالدون فيها [٤]. نلحظ تقديم: {عنها} على متعلِّقه؛ ذلك للاهتمام بالمجرور "الضمير" العائد على جهنَّم زيادة في استحضار صورة ذلك الإصلاء، وهم مخلدون فيه على الدَّوام. نسأل الله السلامة والعافية من غضبه وعقابه.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٥٩. وما بعدها بتصرف.
٢ ـ ينظر: السَّابق/١٦١/٣٠.
٣ ـ ينظر: روح المعاني للألوسي/٣١/٣٠. بتصرف
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /١٦٢/٣٠. بتصرف

ثمَّ يطالعنا الاستفهام عن يوم الدِّين بقوله تعالى: {وما أدراك ما يوم الدِّين} استفهام يبث في النُّفوس التعظيم والتهويل والتخويف، وقد كرر بـ(ثمَّ) في قوله تعالى: {ثمَّ ما أدرك ما يوم الدِّين} الَّتي تفيد التَّراخي الرُّتبي؛ لزيادة التَّهويل [١]. والتَّعظيم من شأن يوم الدِّين [٢]. وحق له ذلك وهو يوم عند الله وعلى عباده عظيم.

وجاءت الآية الأخيرة تؤكد ذلك بقوله تعالى: {يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله} فكلٌ مشتغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها، و {الأمر يومئذٍ لله} فهو الَّذي يفصل بين العباد، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه [٣].

يقول أبو السِّعود شارحا هذه الخاتمة: هذا بيان إجمالي لشأن يوم القيامة إثر إيهامه، وبيان خروجه عن علوم الخلق بطريق إنجاز الوعد؛ فإنَّ نفي إدرائهم مشعرٌ بالوعد الكريم بالإدراء [٤]. وقد بينه لنا ﷻ بقرآنه العظيم في هذه السُّورة وأمثالها

والله أعلم وأحكم وصل اللهم على نبينا وشفيعنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

[١] ـ ينظر: الكشاف للزمخشري/٤/٧١٧.

[٢] ـ ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج/٥/٢٩٦، وأسرار التكرار للكرماني/٢٤٧.

[٣] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٤.

[٤] ـ ينظر: إرشاد العقل السليم :٩/ ١٢٣.

سورة المطففين

الحمد الله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو
وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ (٤) لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ (٥) يَوۡمَ يَقُومُ
ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٦) كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ (٧) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ
(٨) كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ (٩) وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا
يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا
بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (١٤) كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ (١٥)
ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّآ إِنَّ
كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ (٢٠) يَشۡهَدُهُ
ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ
نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ
ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ (٢٧) عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ
ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ (٣٠)
وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢)

وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

بين يدي السُّورة المباركة:

سميت هذ السُّورة في كتب السُّنَّة وبعض التَّفاسير: "سورة ويلٌ للمطففين" وفي كثير من كتب التَّفسير والمصاحف: "سورة المطففين".

اشتملت على التَّحذير من التَّطفيف في الكيل والوزن، وتهويل يوم وقوفهم عند ربهم، ووعيد الَّذين يكذِّبون بيوم الجزاء وبالقرآن، وقوبل حالهم بضدِّه من الأبرار أهل الإيمان. وما أنسب قولهم أنَّها نزلت بين مكَّة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعاملات التِّجاريَّة قبل أن يدخل إليها النَّبي ﷺ لئلا يشهد فيها منكراً عاماً [١].

يربط البقاعي بين هذه السُّورة وما قبلها بقوله: (لما ختم الانفطار بانقطاع الأسباب وانحسام الألباب يوم الحساب، وأبلغ في التَّهديد يوم الدِّين، وأنَّه لا أمر لأحدٍ معه، وذكر الأشقياء والسُّعداء، وكان أعظم ما يدور بين العباد المقادير، وكانت المعصيَّة بالبخس فيها من أخس المعاصي وأدناها؛ حذَّر من الخيانة فيها وذكر ما أعده لأهلها، وجمع إليهم كلَّ من اتصف بوصفهم ... كُلُّ ذلك تنبيهاً للأشقياء الغافلين ... فنبه على الشِّفاء لمن أراده [٢].

الدِّراسة البلاغيَّة التحليليَّة:

افتتاح السُّورة المباركة باسم الويل مؤذن بأنَّها تشتمل على وعيد شديد؛ فلفظ {ويلٌ} من براعة الاستهلال [٣]. وهو افتتاح شديد يؤذن بالعذاب الأليم [٤] وتقديمه لأهميته؛ لأنَّه مقياس اقتصاد العالم وميزان التَّعامل فينتج عنه فساد كبير [٥].

ويسند هذا الويلُ بلام الاستحقاق: {للمطففين}، فما هو التَّطفيف؟ التَّطفيف: النَّقص عن حق المقدار في الموزون أو المكيل، ولم ينقل إلا بصيغة "التَّفعِيل" كأنَّهم راعوا في هذه الصِّيغة معنى التَّكلف والمحاولة؛ لأنَّ المُطفف يحاول أن ينقص الكيل دون أن يشعر به المُكتال [٦].

---

١ ـ التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٣٠/ ١٦٦. وما بعدها بتصرف شديد.
٢ ـ ينظر: نظم الدُّرر/٢١/ ٣١٠. وما بعدها بتصرف
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٦٦/٣٠.
٤ ـ ينظر: البلاغة القيمة/ د عبد القادر حسن/٥١.
٥ ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/٩/ ٥١.
٦ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/١٦٨/٣٠. بتصرف.

وتأتي الصِّفة الكاشفة لهم بقوله تعالى: {الَّذين إذا اكتالوا على النَّاس يستوفون} يتقدمها الاسم الموصول: {الَّذين} وتتبعه جملة الصِّلة مؤلفة من أداة الشَّطر: {إذا} وجملة الشَّرط {اكتالوا على النَّاس} وجوابه: {يستوفون} لتحقق هذه الصِّفة فيهم؛ لأنَّ: {إذا} تفيد تأكيد مضمون جملتيها.

وتقديم الجار والمجرور: {على النَّاس} دلالة على الاختصاص أي يستوفون حقهم من النَّاس كاملاً من غير نقص، إذا اشتروا من النَّاس ما يباع بالكيل، فحذف المفعول إيجازاً؛ لأنَّه معلوم في فعل: {اكتالوا}. أي: المكيل.

ثمَّ وصلت الجملة: {وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون} بما يقابلها بحرف (الواو) لمناسبة التَّضاد حيث يظهر ظلمهم لغيرهم بأوضح ما يكون؛ لأنَّهم: ينقصونهم ذلك، إمَّا بمكيال أو بميزان ناقصين، أو بعد ملء المكيال والميزان ثمَّ يطففونه اختلاساً، أو نحو ذلك.

يقول الشيخ السَّعدي فهذا سرقة لأموال النَّاس، وعدم إنصاف لهم منهم. ثمَّ يتابع - رحمه الله تعالى - قائلاً: وإذا كان هذا الوعيد على الَّذين يبخسون النَّاس بالمكيال والميزان فالَّذي يأخذ أموالهم قهراً أو سرقة أولى بهذا الوعيد من المطففين [1].

ويأتي الاستئناف بقوله تعالى: {ألا يظنُّ أولئك أنَّهم مبعوثون} استئناف ناشئ عن الوعيد والتَّقريع لهم بالويل على التَّطفيف، وما وصفوا به من الاعتداء على حقوق المبتاعين؛ وعليه نجده متصدراً بهمزة الاستفهام وحرف النَّفي: (ألا) توبيخاً على فعلهم وإنكاراً وتعجباً من عملهم.

وقد قام اسم الإشارة: {أولئك} بإظهارهم وهم مقترفون ذلك الجرم الَّذي كانوا أشد حرصاً على إخفائه، ولكن ما خفي على البشر لا يخفى على الخاق ﷻ ، فأبرزهم ربُّهم للعيان؛ وهم متلبسون بجرمهم، إما كفراً بالله وإنكاراً للبعث، أو إغفالاً عن الحق إن كانوا مسلمين [2].

كما صوَّرت صيغة البعد في: {أولئك} بعدهم عن الحق والصَّواب، يقول أبو السَّعود: وفي التَّعبير باسم الإشارة إظهار في مقام الإضمار؛ للإشعار بمناط الحكم الَّذي هو وصفهم [3].

---

[1] - ينظر: تفسير السِّعدي /٩١٥. بتصرف.
[2] - ينظر: التَّفسير الكبير للرازي /٨٤/١١. بتصرف.
[3] - ينظر: إرشاد العقل السَّليم/١٢٥/٩.

كما نجد لجملة: {أنَّهم مبعوثون} بما فيها من تأكيد دوراً كبيراً في إحضار هذا الحدث العظيم أمام أعينهم، لكنَّه غاب عنهم حين قاموا بذلك الجرم فلو تذكروا وقوفهم أمام الله يوم البعث ما أقدموا على ما فعلوا البتة.

ولهذا ذكر يوم البعث بصفته في قوله تعالى {ليومٍ عظيم} (اللام) فاللام الَّتي تصدرته لام التَّوقيت، وفائدتها إدماج الرَّد على شبهتهم الحاملة لهم على إنكار البعث باعتقادهم الخاطئ أنَّه لو كان بعثٌ لبُعث أموات القرون الغابرة فأومأ قوله {ليوم} أنَّ للبعث وقتاً معيناً يقع عنده لا قبله. ووصف يوم بـ{عظيم} باعتبار ما يقع فيه من الأهوال.

وجاء البدل عنه بقوله تعالى: {يوم يقوم النَّاس لربِّ العالمين} جملة: {يقوم النَّاس} صورت هيئتهم العجيبة وهم قيام لهول ما ينتظرونه من أحكام ربِّ العالمين الَّتي ستحدد مصيرهم الأبدي، فالتَّعبير بزمن المضارعة في: {يقوم} لاستحضار المشهد لما لهذه الصيغة من قدرة على ذلك.

واللام في: {لربِّ العلمين} للأجل، أي لأجل ربوبيته وتلقي حكمه، وجاء التَّعبير عنه ﷻ بوصف: {رب العالمين} لاستحضار عظمته بأنَّه هو المالك أصناف المخلوقات كلها [١]. وقيل: في هذا إنكار وتَّعجب، وإيراد الظنِّ، والإتيان باسم الإشارة، ووصف يوم القيامة بالعظمة، والإبدال منه، ووصفه تعالى بالرَّبوبية بيان بليغ لعظم ذنب التَّطفيف [٢].

وعليه يأتي قوله تعالى: {كلا إنَّ كتاب الفجَّار لفي سجِّين} يحمل الكثير من الرَّدع والزِّجر عن التَّطفيف والتَّكذيب بيوم الدِّين على سبيل الاستئناف [٣].

فـ{كلَّا} إبطال وردع لما تضمنته جملة: {ألا يظن أولئك أنَّهم مبعوثون} والمعنى: كلَّا بل هم مبعوثون لذلك اليوم العظيم، ولتلقي قضاء ربِّ العالمين؛ فهي جواب عمَّا تقدم [٤]. ولذا جاءت الجملة بعد {كلا} مؤكدة بمؤكدين حرف التأكيد: {إنَّ} واللام في خبرها؛ في قوله تعالى: {لفي سجين}.

والتَّعريف في {الفجَّار} مراد به استغراق الجنس؛ لذا يقول الشيخ السَّعدي: وهذا شامل لكُلِّ فاجرمن أنواع الكفرة والمنافقين والفاسدين [٥].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /١٧١/٣٠. وما بعدها
٢ ـ ينظر: الكشاف للزَّمخشري/٧٢٠/٤. والتَّفسير الكبير للفخر الرَّازي/ ١١٨٥.
٣ ـ ينظر: معالم التَّنزيل للبغوي/٢٢٣/٤. وزاد المسير لابن جوزي/٤١٤/٤.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /١٧٢/٣٠.
٥ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩١٥.

ويقول ابن عاشور في قوله تعالى: {لفي سجين} إن كان على ظاهر الظرفيَّة كان المعنى أنَّ كتب أعمال الفجَّار مودوعة في مكان اسمه {سجِّين}، أو وصفه: {سجين} وذلك يؤذن بتحقيره، أي تحقير ما احتوى عليه من أعمالهم المكتوبة فيه.

وإن حملت الظَّرفيَّة في قوله تعالى: {لفي سجين} على غير ظاهرها، فجعل كتاب الفجَّار مظروفاً في {سجين} مجاز عن جعل الأعمال المحصاة فيه في سجين، وذلك كناية رمزيَّة عن كون الفجَّار في سجين.

فما هو "سجين"؟

تدور مادة كلمة: {سجِّين}: حول الحبس، والسِّجين: الصَّلب الشَّديد في كُلِّ شيء. وقد اُختلف في معناه على أقوال أشهرها وأولاها أنَّه علم لوادٍ في جهنَّم، صيغ بزنة "فِعِّيل" من مادة السِّجن للمبالغة [١].

ثمَّ جاء الاستفهام عن السِّجين بقوله تعالى: {وما أدراك ما سجين} تعظيماً [٢]. وتهويلاً [٣]. لأمر السِّجين بحيث لا يدرك أهواله أحد [٤].

ويأتي قوله تعالى: {كتاب مرقوم} بيان لكتاب الفجَّار [٥] والكلام على حذف المسند إليه والتَّقدير "وهو كتاب مرقوم" وذلك حذف متبع في استعمال العرب إذا تحدثوا عن خبر جديد [٦]. قال بعض المفسرين [٧]: هو اسم كتاب مخصوص للفجَّار، بدليل قوله تعالى بعده: {كتابٌ مرقوم} وهو الأرجح.

ويقول الشيخ السَّعدي: أي: كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة، والسّجين: المحل الضَّيق الضَّنك، وقد قيل: إنَّ "سجِّين" هو أسفل الأرض السَّابعة، مأوى الفجَّار ومستقرُّهم في معادهم [٨]. والله أعلم وأحكم.

ثمَّ جاء التَّهديد الشَّديد بقوله تعالى: {ويلٌ يومئذٍ للمكذبين} إجمالاً لكُلِّ مكذِّب ثمَ أعيد مفصِّلاً ببيان متعلق التَّكذيب بقوله تعالى: {الَّذين يكذبون بيوم الدِّين} لزيادة تقرير تكذيبهم في أذهان السَّامعين منهم، ومن غيرهم من المسلمين وأهل الكتاب؛

---

١ ـ ينظر: التحَّرير والتَّنوير/١٧٣/٣٠.
٢ ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان/ النيسابوري/٥٠/٣٠.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٧٣/٣٠.
٤ ـ ينظر: التَّصوير القرآني لجزء عمَّ /أناهيد مال حريري/ ١٣٩٣.
٥ ـ ينظر: معالم التنزيل للبغوي/٢٢٤/٥. زاد المسير/ابن الجوزي/٤١٥/٤.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /١٧٤/٣٠.
٧ ـ ينظر: الكشاف للزمخشري/٧٢١/٤، تفسير النَّسفي/٣٤٠/٤، رغائب الفرقان وغرائب القرآن النيسابوري/٥٠/٣٠.
٨ ـ ينظر: تفسير السّعدي/٩١٥. بتصرف، وانظر معاني القرآن للفراء /٢٤٦/٣.

فالصِّفة هنا للتَّهديد وتحذير المطففين المسلمين من أن يستخفوا بالتَّطفيف فيكونوا بمنزلة المكذِّبين بالجزاء عليه [١].

ومن دلائل التَّكذيب بيوم الدِّين الإقدام على السَّيئات والجرائم دون مبالاة، أو تحسُّب لذلك اليوم الَّذي يوجد فيه الحساب الدَّقيق من رب العباد؛ ولذلك أعقبه سبحانه بقوله تعالى: {وما يكذب به إلا كلُّ معتدٍ أثيم} بأسلوب القصر "بما وإلا" الدَّالة على الجحود والنُّكران والجهل [٢].

وقد جمع هذا الأسلوب أنواع من فئات النَّاس: منهم الكافر الجاحد، ومنهم المشرك العارف المكابر، ومنهم المسلم الجَّاهل. لذا جاء تنكير كلمتي {معتدٍ أثيمٍ} لتدل على العموم والسِّعة في هذا الوصف.

ويصف ﷻ حال تكذيبهم بقوله تعالى: {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} بجملتي شرط وأداة الشَّرط فيها "إذا" الَّتي تدلُّ على الجزم والتَّأكيد.

ويستوقفنا تعريف الآيات بإضافتها لضمير العظمة بقوله تعالى: {آياتنا} تعظيماً لها، وحثاً على استيعاب ما تحمله من أحكام، والتَّمسك باتباعها؛ لكن الكافرين قالوا {أساطير الأولين} استخفافاً بها، "والمراد بالأولين: الأمم السَّابقة؛ لأنَّ الأول يطلق على السَّابق على وجه التَّشبيه"[٣].

ثمَّ يقع الرَّدع والزَّجر لقولهم السَّابق بقوله تعالى: {كلَّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}. جاءت هذه الآية لتكشف سبب كفرهم وجحودهم للقرآن وربِّ القرآن ﷻ . والمأمور بتبليغه -عليه أفضل الصَّلاة وأتم التَّسليم –

ونقف متأملين كلمة {ران} الَّتي تدور حول: الطَّبع والدَّنس، والرَّين: كالصَّدأ يغشى القلب ويغطيه [٤]. والرَّان المحيط بالقلب هو: نتيجة المعاصي والذُّنوب الَّتي يرتكبها الإنسان [٥].

ويأتي جزاءهم المخزي وعقابهم الشَّديد بقوله تعالى: {كلا إنَّهم عن ربِّهم يومئذٍ لمحجوبون}. نلاحظ في هذه الآية تقديم الجار والمجرور {عن ربِّهم} وكذلك الظَّرف {يومئذ} على الخبر {لمحجوبون} مع أنهما متعلقان به قيل: ذلك التَّقديم للاهتمام بالمقدَّم.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/١٧٤/٣٠.
٢ ـ انظر: دلائل الإعجاز للجرجاني ص/٣٢٩. وما بعدها
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ١٧٦.
٤ ـ تهذيب اللغة / الأزهري(ران)، ولسان العرب لابن منظور(ران)
٥ ـ معاني القرآن للفراء /٢٤٦/٣، ٢٤٧.

فدلت: {محجوبون} على أنَّ الكافرين محجوبون من رؤية الله ﷻ يوم القيامة [1] إهانة وذلَّة لهم، كما قيل: محجوبون عن رحمته وكرامته [2]

وكذلك جاء هذا التَّقديم لافتاً للنتيجة المذكورة في قوله تعالى: {ثمَّ إنَّهم لصالوا الجحيم} معطوفة بحرف العطف "ثمَّ" الدَّال في عطف الجمل على أن المعطوف أقوى معنى من المعطوف عليه. وعليه قيل: (للإشارة إلى ترقي عقاب هؤلاء المكذبين) [3]. وجاء العطف عليه أيضاً بالحرف: {ثمَّ} قوله تعالى {ثمَّ يقال لهم هذا الَّذي كنتم به تكذبون}. كم تحمل هذه الآية من التَّوبيخ والتَّقريع الشَّيء الَّذي يُذِيبُ قلوبَهم حسرة وندماً على ما فرطوا في زمن السِّعة. نسأل الله العصمة والثبات حتَّى نلقاه على الحق المبين آمين.

والقائلون لهم ذلك على الأرجح هم زبانية "جهنَّم" وإنَّما طوي ذكرهم؛ لأنَّ المقصود ذكر القول، مع ما في عدم ذكرهم من التَّعميم، وبذلك يشتد الخوف [4].

ويستوقفنا للتأمل ذكر النَّار بعنوان: الجَّحيم؛ وأحسب - والله أعلم- أنَّ ذلك لِمَا في حروف كلمة "الجحيم" من تصوير دقيق لشدَّة عذابها وتجهمها لهم؛ كما قال تعالى في سورة الملك: {تكاد تميز من الغيظ كُلَّما ألقي فيها فوجٌ سألهم خزنتها الم يأتكم نذيرٌ. قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذَّبنا وقلنا ما نزَّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلالٍ كبير. وقالوا لو كنَّا نسمع أو نعقل ما كنَّا في أصحاب السَّعير. فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السَّعير} [٨-١١].

فلمَّا ذكر ما للمكذبين من العذاب أتبعه ما للمصدقين الَّذين أقبل بهم إلى السَّعادة فبدأ هذا القسم من السُّورة المباركة بقوله تعالى: {كلَّا إنَّ كتاب الأبرار لفي عليين} {كلَّا}: أداة ردع وإبطال لما تضمَّنه ما يقال لهم: {هذا الَّذي كنتم به تكذبون} [المطففين:١٧] إبطالاً لتكذيبهم المذكور في القسم السَّابق.

وكعادة أسلوب القرآن الكريم في إعقاب النَّذارة بالبشارة، والعكس؛ يأتي الاستئناف بوصف نعيم الأبرار بقوله تعالى: {إنَّ كتابَ الأبرارِ لفي عليين. وما أدراك ما عليُّون. كتابٌ مرقوم. يشهده المقربون}. فيبدأ المقطع بحرف التأكيد {إنَّ}، وجاء اسمها {كتاب} مضافاً إلى {الأبرار} الَّتي هي جمع " بَرّ" بفتح "الباء" وهو التَّقي؛ وسمي كذلك لأنَّه

---

[1] - جامع البيان للطَّبري/١٢٤/٣٠. وكذا تفسير الخازن/٣٦١/٤.
[2] - الكشاف للزَّمخشري/٧٢٢/٤.
[3] - إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/ ١٢٧/٩.
[4] - روح البيان للبروسوي/٤٤٠/٣٠. بتصرف.

بَرَّ ربَّه، أي: صدَّقه ووفى له بما عهد له من الأمر بالتَّقوى (١). وذلك تشريف له ولكتابه

ثمَّ جاء خبر: {إنَّ} بقوله تعالى: {لفي علّيِّن} تتقدمه "لام" التَّوكيد لبيان محل كتاب الأبرار (٢). وهو ضد محلِّ كتاب الفجَّار (٣). فحصلت المقابلة البلاغيَّة توضح البون الشاسع بين أنَّ حال الأبرار ولحال الفجَّار.

ثمَّ جاء الاستفهام في قوله تعالى: {وما أدرك ما علِّيون} تنبيهاً على عظم شأن العلِّيين (٤)، وبالتالي تفخيم مراتب الأبرار (٥). فـ(عليّين، و علِّيون) تدور مادتها حول الارتفاع والرُّقي والعظمة (٦). واختلف المفسرون في المراد به، فقيل: السَّماء السَّابعة، أو مكان عند قائمة العرش اليميني، أو الجنَّة (٧). أو علم لديوان الخير الَّذي دُوِّن فيه كُلَّ ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين، سمي بذلك؛ لأنَّه سبب للارتفاع في درجات الجنَّة، أو لأنَّه مرفوع في السَّماء السَّابعة (٨).

ويأتي تفسير كتاب الأبرار بقوله تعالى: {كتابٌ مرقومٌ} أي: المكتوب كتابة بيّنة تشبه الرَّقم في الثَّوب المنسوج، وهذا وصف يفيد تأكيد ما يفيده لفظ {كتاب}(٩).مما يزيد تأكيده.

ويزيد في وصفه بقوله تعالى: {يشهده المقربون} أي: من الملائكة الكرام، وأرواح الأنبياء والصِدِّيق والشُّهداء، أي: يُنوِّه الله بذكرهم في الملأ الأعلى (١٠).

يقول ابن عاشور: أي يطلعون عليه، أي يعلن به عند المقربين، وهم الملائكة وهو إعلان تنويه بصاحبه (١١).

ثمَّ يأتي الاستئناف البياني لذلك بقوله تعالى: {إنَّ الأبرار لفي نعيم} كأنَّ سأل يسأل هذا حال كتابهم، فما حالهم؟ فأجيب بما ذكر (١٢). ونجد أنَّ الأبرار ذكروا بالاسم الظاهر دون الاكتفاء بضميرهم تنويهاً بهذه الصِّفة فيهم.

---

١ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٦١/٣٠. بتصرف شديد.
٢ - ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٢٧/٩.
٣ - ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان/ النيسابوري/٥٢/٣٠.
٤ - ينظر: تفسير الخازن /٣١٦/٤.
٥ - ينظر: التَّفسير المنير للزحيلي/١٢٤/٣٠.
٦ - ينظر: لسان العرب / ابن منظور "علا"
٧ - ينظر: جامع البيان للطَّبري/٣٠/ ١٢٥وما بعدها. بتصرف.
٨ - ينظر: الكشاف للزَّمخشري/٧٢٢/٤، وما بعدها، وتفسير النَّسفي/٣٤١/٤، التَّفسير الكبير للرازي/٩٠/١١.
٩ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير/١٧٤/٣٠.
١٠ - ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٦.
١١ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير/١٨١/٣٠.
١٢ - ينظر: روح المعاني للألوسي/٣٩٥/٣٠.

كما صوَّر خبر "إنَّ" بحرف الجر "في" المسبوق بلام التوكيد في: {لفي} انغماسهم في ذلك النَّعيم الَّذي لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ وذلك كرمٌ من الكريم المنان.

ويأتي الخبر الثَّاني عن الأبرار بقوله تعالى: {على الأرائك ينظرون} أي: هم على الأرائك متكئون.

والأرائك: جمع أريكة بوزن سفينة، والأرائك: اسم لمجموع سرر ووسادته وحَجلةٍ منصوبة عليها، فلا يقال: أريكة إلا لمجموع هذه الثَّلاثة [١].

وجاء وصف حالهم بقوله تعالى: {ينظرون} قيل: حذف مفعول {ينظرون} إمَّا لدلالة ما تقدم عليه من قوله تعالى: {إنَّهم عن رَّبِّهم يومئذ لمحجوبون} [المطففين:١٥] والتَّقدير ينظرون إلى ربِّهم، وإمَّا لقصد التَّعميم، أي ينظرون كُلَّ ما يبهج نفوسهم ويسرهم بقرينة مقام الوعد والتَّكريم [٢].

ويستوقفنا للتأمل زمن الفعل المضارع: {ينظرون} الذي يفيد استمرار. حال تنعمهم بذلك النَّظر؛ لذا جاء بعده قوله تعالى: {تعرف في وجههم نضرة النَّعيم} على الالتفات؛ للفت الانتباه إلى آثار النِّعم على وجوه الأبرار [٣].

والنَّضرة: البهجة والحُسن، وإضافة {نضرة} إلى {النَّعيم} من إضافة المسبب إلى السبب، أي النَّضرة والبهجة الَّتي تكون لوجه المسرور الرَّاضي إذ تبدو عليه ملامح السُّرور [٤].

ويأتي قوله تعالى: {يُسقون من رحيق مختوم} خبر رابع عن الأبرار، أو حال ثالثة منه. وعُبِّرَ بـ{يسقون} دون: {يشربون} للدلالة على أنَّهم مخدُمون بخدم مخلوقات لأجل ذلك في الجنَّة، ولا بد أن يدلَّ ذلك على تمام الإنعام والتَّرفيه ولذَّة الرَّاحة الدائمة.

والرَّحيق: اسم للخمر الصَّافية الطَّيِّبة. والمختوم: المسدود إناؤه وجعل ﷻ ختام خمر الجنَّة بعجين المسك عوضاً عن طين الختم؛ فقال تعالى: {ختامه مسك} نعت لـ{رحيق} أو بدل مفصِّل من مجمل، أو استئناف بياني ناشئ عن وصف الرَّحيق بأنَّه {مختوم} [٥]. وإذا كان ذلك هو ختام الكأس فكيف بحشوه [٦].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /١٨٢/٣٠.
٢ ـ ينظر: السَّابق. بتصرف.
٣ ـ ينظر: حدائق الرَّوح والرَّيحان للشافعي/٢٤٣/٣١.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٨٢/٣٠.
٥ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٨٣/٣٠.
٦ ـ ينظر: البرهان في علوم القرآن للزَّركشي/٢٠/٢، ٢١.

ونراه ﷻ رغَّب في العمل الموجب لهذه الكرامة بجملة معترضة: قال تعالى: {وفي ذلك فليتنافس المتنافسون} [١]. قُدِّم الجار والمجرور (في ذلك) على متعلقه (فليتنافس) للحصر، أي: في هذا الخمر لا في خمر الدُنيا: {فليتنافس المتنافسون} [٢]. أو في هذا النَّعيم، لا نعيم الدُّنيا فليتنافس المتنافسون

يقول ابن عاشور: ولمَّا كانت (الواو) اعتراضيَّة لم يكن إشكال في وقوع (فاء) الجواب بعدها، والتَّقدير: وفي ذلك فلتنافسوا؛ فتكون الجملة في قوة التَّذييل؛ لأنَّ المقدر تنافس المخاطبين، والمصرَّح به تنافس جميع المتنافسين؛ فهو تعميم بعد تخصيص، وجاءت (لام) الأمر في: {فليتنافس} مستعملة في التَّحضيض والحث [٣].

ثمَّ جيء للرحيق بوصف آخر في قوله تعالى: {ومزاجه من تسنيم}.

فـ{ومزاجه}: ما يمزج به، وبيَّنَ التَّسنيم بقوله تعالى: {عيناً يشرب بها المقربون} [٤]. قيل: هي علمٌ لعين في الجنَّة [٥]. ونكرت {عيناً} تعظيمها [٦].

يشرحه الشيخ السَّعدي قائلاً: فمزاج هذا الشَّراب من تسنيم وهي عين {يشرب بها المقربون} وتلك أعلى أشربة الجنَّة على الإطلاق؛ لذلك كانت خالصة للمقربين الَّذين هم أعلى الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين أي: مخلوطة بالرَّحيق وغيره من الأشربة اللذيذة [٧]. وبهذا تكون (الباء) في {بها} سببيَّة.

ويقول ابن عاشور: وإمَّا أن تكون (الباء) للملابسة وفعل {يشرب} مُعدى إلى مفعول محذوف وهو الرَّحيق، أي يشربون الرَّحيق ملابسين للعين، أي محيطين بها وجالسين حولها؛ وهذا تصوير دقيق ورائع لمجالسهم حول تلك العين الَّتي تسمى تسنيم؛ لأنَّها تصب من أعلى جنانهم، أي: من علوٍّ فكأنَّها سنام [٨]. وبذلك يتضح حال نعيم الأبرار عند مقابلتها بحال الفجَّار سَّابق الذكر.

وعند هذه الآيات انتهت أوصاف نعيم الأبرار، ولوحظ الإطناب في تعداد تلك النِّعم [٩] ترغيباً فيها وتشويقاً للحصول عليها والتمتع بها وذلك أسلوب من الأساليب التربويَّة في قرآننا الكريم.

---

١ ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري/٥٣/٣٠.
٢ ـ ينظر: حاشية الشهاب /٣٣٨/٧.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠١٨٣. وما بعدها بتصرف.
٤ ـ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان/٤٣٤/٨.
٥ ـ ينظر: السَّابق بتصرف.
٦ ـ ينظر: البلاغة القيمة د. عبد القادر حسين/٥٧.
٧ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٦.
٨ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/١٨٤/٣٠. وما بعدها بتصرف.
٩ ـ ينظر: صفوة التَّفاسير/ للصابوني/٥٣٥/٣. والتَّفسير المنير للزحيلي/١٢٤/٣٠.

ثمَّ ينتقل للحديث عن قُبح معاملة الكُفَّار للأبرار المؤمنين في الدُّنيا، ابتداءً من قوله تعالى: {إنَّ الَّذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون} الافتتاح بـ{إنَّ الذين أجرموا} بصورة الكلام المؤكد لإفادة الاهتمام بالكلام ليتوجه ذلك الافتتاح لجميع السَّامعين، وعبَّر باسم الموصول وجملة الصلة: {الذين أجرموا} للتَّنبيه على ما أخبر به عنهم هو الإجرام، وليظهر موقع قوله تعالى: {هل ثوِّب الكفار ما كانوا يفعلون} في خاتمة السُّورة المباركة. وذلك من باب الاحتراس لعدم التعاطف معهم.

فجاء التَّعبير عن المكذبين بقوله تعالى: {الَّذين أجرموا} إظهاراً في مقام الإضمار على طريقة الالتفات، وقُدِّمَ الجار والمجرور: {من الَّذين آمنوا} على متعلقه {يضحكون} للقصر إشعاراً بشناعة فعل هؤلاء المجرمين (١).

ونلاحظ مجيء صياغة الفعل: {يضحكون} بزمن المضارع ليصوِّر المشهد ويدلُّ على الاستمرار.

وتتابع الآيات لتصوير عدد من تصرفات المجرمين الشَّنيعة في حق المؤمنين بقوله تعالى: {وإذا مرُّوا بهم يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فَكِهين}

التغامز: تفاعل من الغمز ويطلق على جس الشَّيء باليد جساً متمكناً، كما يطلق على تحريك الطَّرف لقصد تنبيه النَّاظر لِمَا عسى أن يفوته النَّظر إليه، وكلا الإطلاقين يصح حمل المعنى عليه في هذه الآية (٢).

ويستوقفنا للتأمل التِّكرار للظرف {إذا} في قوله تعالى: {وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين} الفعل {انقلبوا} الذي قرَّار انقلابهم بزمنه الماضي ليثبت معناه في أذهان السَّامعين بما يصوِّره معنى الانقلاب من الخسران والتَّخبط؛ وإن كانوا {فكهين} أي: فرحين بما هم عليه من الكفر والاستهزاء بالمؤمنين. والله أعلم وأحكم.

وقد حكت جملة: {وإذا رأوهم قالوا إنَّ هؤلاء لضالون} ما يقوله الَّذين أجرموا في المؤمنين إذا شاهدوهم.

وهكذا جمعوا بين الأذى بالإشارات، وبالهيئة، وبسوء القول في غيبتهم، وسوء القول إعلاناً به على مسمع المؤمنين؛ لعلهم يرجعون عن الإسلام إلى الكفر. والمراد بقولهم: {لضالون} أي: عن الحق لفساد رأيهم. وما علموا أنَّهم هم الضالون عن الحق المبين.

---

١ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٢٩/٩، روح المعاني للألوسي/٣٩٩/٣٠.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٨٧/٣٠.

ونلاحظ تكرار كلمة: {إذا} الَّتي تصور زمن الفعل في كُلِّ جملة من الجمل الثَّلاث؛ فهي ظرف متعلِّق بالفعل الموالي له في كُلِّ جملة [1]. ليصوِّر أحوال الكافرين مع المؤمنين في جميع تقلباتهم.

وعليه جاء قوله تعالى: {وما أرسلوا عليهم حافظين} تهكماً بهم، فهم لم يوكلوا للرقابة على المؤمنين أو الاعتناء بهم؛ لأنَّ معنى الحفظ هنا الرَّقابة ولذلك عُدِّي بحرف (على) ليتسلط النَّفي على الإرسال والحفظ، ولذا جاء تقديم الجار والمجرور {عليهم} على متعلقه {حافظين} للاهتمام به [2].

ثمَّ جاء قوله تعالى: {فاليوم الَّذين آمنوا من الكفار يضحكون} حكاية لما يقال لهم يوم القيامة [3].

وهكذا قُدِّم الجار والمجرور: {من الكفَّار} على متعلقه: {يضحكون} للقصر؛ تحقيقاً للمقابلة بين حال المؤمنين في الآخرة، وحال الكفَّار لا العكس كما فعلوا في الدُّنيا [4]. وهو قصر إضافي.

أو قُدِّم اهتماماً بالمضحوك منهم، تعجيلاً لإساءتهم ومعرفتهم لمصيرهم عند سماع هذا التَّقريع. وقد جاء الإظهار في مقام الإضمار في قوله تعالى: {الكُفَّار} لمزيد من الذَّم بإظهار هذا الوصف [5].

يصف الشيخ السَّعدي حالهم بقوله: وذلك حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلَّبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون. والمؤمنون في غاية الرَّاحة والطمأنينة بفضل الله ورحمته [6]. ولعل في ذلك عبرة لأمثالهم عبر الزَّمان.

يقول أبو السُّعود: في الآية مشاكلة ومجانسة لحال الكافرين في الآخرة بحال المؤمنين في الدُّنيا [7].

وعليه يأتي مزيد من بيان أحوال المؤمنين في ذلك اليوم بقوله تعالى: {على الأرائك ينظرون} يقول الشيخ السَّعدي: هي السُّرُر المزينة، و{ينظرون} إلى ما أعد الله لهم من النَّعيم، وينظرون إلى وجه ربِّهم الكريم [8].

---

[1] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور١٨٩/٣٠. بتصرف.
[2] ـ ينظر: السَّابق/ ٣٠ /١٩٠. بتصرف
٣ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة / ٢٦٩/١٦.
[4] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/ ١٣٠/٩، وروح المعاني للألوسي/ ٤٠٠/٣٠.
[5] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ١٩١/٣٠.
[6] ـ ينظر: تفسير السِّعدي:٩١٦. بتصرف يسير
[7] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم/٩/ ١٤٠.
[8] ـ ينظر: تفسير السِعدي/ ٩١٦.

وتختم السُّورة المباركة بقوله تعالى: {هل ثوِّبَ الكفَّار ما كانوا يفعلون} تبدأ هذه الآية بالاستفهام تقريري [١]. أو تعجبي؛ لعدم إفلات الكافرين من الإثابة بعد دهور ودهور، والإثابة تستعمل في الشَّر كالمجازة ويراد به التّهكم [٢] أو التَّنغيص [٣].

وهو قول يوجهه ﷺ للمؤمنين؛ ليزيد من سرورهم، لِمَا فيه من الاستخفاف بأعدائهم [٤].

يقول الشَّيخ السَّعدي: فكما ضحكوا في الدُّنيا من المؤمنين ورموهم بالضَّلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة ورأوهم في العذاب والنِّكال، الَّذي هو عقوبة الغي. نعم ثوِّبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله وحكمة، والله عليم حكيم [٥].

والله أعلم وأحكم وصلى الله تعالى نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

سورة الانشقاق

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا
فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا
فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾
وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ
ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ
﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾

---

[١] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم/٩/ ١٤٠.
[٢] ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري/٣٠/٥٤.
[٣] ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/ ٤، ٤٤٢.
[٤] ـ ينظر: التَّفسير الكبير للرازي / ٩٥/١١.
[٥] ـ ينظر: تفسير السَّعدي/٩١٦.

وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥

بين يدي السُّورة المباركة:

سُمِّيت هذه السُّورة المباركة في زمن الصَّحابة: " سورة إذا السَّماء انشقَّت" وسماها المفسرون وكتَّاب المصاحف: "سورة الانشقاق".

ابتدأت بوصف أشراط السَّاعة وحلول يوم البعث واختلاف أحوال الخلق يومئذ بين أهل نعيم وأهل شقاء [١].

يربطها البقاعي بقوله: لما ختم التَّطفيف بأنَّ الأولياء في نعيم وأنَّ الأعداء في جحيم ثواباً وعقاباً ابتدأ هذه بالإقسام على ذلك [٢].

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

بدأت السُّورة المباركة بأول حدث من أحداث يوم القيامة بقوله تعالى: {إذا السَّماء انشقت} يقول الشَّيخ السَّعدي فيه: أي: انفطرت وتمايز بعضُها من بعض، وانتثرت نجومُها، وخُسِفَ بشمسها وقمرها [٣].

فجاء بدء الآية بظرف للزمان المستقبل {إذا} والفعل {انشقت} مؤول بالمستقبل وصِيغ بالماضي للتنبيه على تحقق وقوعه؛ لأنَّ أصل {إذا} تدل على القطع بوقوع الشَّرط [٤].

وكلمة {انشقت} تدور حول: الصَّدع، أو الخرم [٥]. وقد تعددت أقوال المفسرين حول المراد بانشقاق السَّماء فقيل بالغمام [٦]. لقوله تعالى: {ويوم تشقق السَّماء

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٩٣/٣٠.
٢ ـ ينظر: نظم الدُرر /٢١/ ٣٣٥.
٣ ـ ينظر: تفسير السّعدي/٩١٧.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /١٩٤/٣٠.
٥ ـ ينظر: مفردات الراغب الأصفهاني "شقَّ"، لسان العرب / ابن منظور/ "شقَّ"
٦ ـ ينظر: معاني القرآن / الفراء/٢٤٩/٣. معاني القرآن وإعرابه / الزَّجاج/٣٠٣/٥.

بالغمام...}[الفرقان:٢٥] ، أو تشققها لتكون أبواباً [١] ، أو لنزول الملائكة وصعودهم يومئذ، أو لهول يوم القيامة[٢]. أو هو انشقاق من جراء اختلال في تركيب الكرة الهوائية، أو من ظهور أجرام كوكبيَّة تخرج عن دوائرها المعتادة في الجوِّ العلوي، فتنشق القبة الهوائية المحيطة بالأرض [٣]. وقد حكى صوتي الشِّين والقاف ذلك الحدث بوضوح بما يدلان عليه من الانتشار والقوة.

ونلاحظ في تركيب هذه الآية تقديم المسند إليه {السَّماء} على المسند {انشقت} دون أن يقال: "إذا انشقت السَّماء" وذلك لإفادة تقوِّي حكم الإسناد، وهو التَّعلق الشَّرطي، أي إنَّ هذا الشَّرط محقق الوقوع، زيادة على ما يقتضيه {إذا} الشَّرطيَّة من قصد الجزم بحصول الشَّرط بخلاف "إن" [٤].

وفي عُرف النَّحويين أن بعد الظرف: {إذا} فعل مضمر يقدَّر بـ"إذا انشقت السَّماء انشقت" وإضماره زاد في التَّفخيم، فإنَّ الشَّيء إذا أضمر ثمَّ فُسِّر كان أفخم مما إذا لم يتقدَّمه إضمار [٥].

ويأتي قوله تعالى: {وأذنت لربِّها وحُقَّتْ} أي: استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاخت لخطابه، وحُق لها ذلك، فإنَّها مسخرة مدبره تحت مسخر ملك عظيم لا يعصى أمره، ولا يخالف حكمه[٦]. وهذا حكاية عن خبر السَّماء العجيب، وقد أسند الاستماع والإصغاء مجازاً لتصوير المطاوعة[٧].

يشرحه ابن عاشور بقوله: وهو هنا مجاز مرسل في التَّأثر لأمر الله التَّكويني بأن تنشق [٨]. أو يكون الكلام على حقيقته فللجمادات مع الله ﷻ حالة ليست كحالتها مع المَخْلوقين [٩].

والتَّعبير بـ"ربِّها" دون غير ذلك من أسماء الله تعالى، لِمَا يؤذن به وصف الرَّب من الملك والتَّدبير [١٠]. وقدرته الباهرة [١١].

ويحكى خضوع الأرض لأمر ربِّها بقوله تعالى: {وإذا الأرض مُدَّت} بالتَّرتيب نفسه الَّذي سبق في قوله تعالى: {وإذا السَّماء انشقت} ليدلَّ ذلك أيضاً على تفخيم هذا

---

١ ـ ينظر: جامع البيان للطَّبري/١٣٩/٣٠.
٢ ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/٢٦٠/١٦.
٣ ـ ينظر: التَّحير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ١٩٤.
٤ ـ ينظر: السَّابق بتصرف.
٥ ـ ينظر: البرهان في علوم القرآن / الزركشي/٩٠/٤. بتصرف.
٦ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٧.
٧ ـ ينظر: حاشية محيي الدين شيخ زادة /٦٣٧/٦٣٦/٤، روح البيان/ للبروسوي/٤٤٥/١٠.
٨ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/١٩٥/٣٠.
٩ ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/٦١/٩. بتصرف.
١٠ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/١٩٥/٣٠. بتصرف
١١ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٣١/٩/ وروح المعاني لألوسي/٤٠٢/٣٠.

الحدث المهول. فجاء تكرار كلمة {إذا} مع الأرض؛ للإشعار باستقلال كُلٍّ من الأرض والسَّماء بنوع من القُدرة[١]. وكلمة {مُدَّت} يدور معناها على: (الجذب والمطل) [٢] و(الجر) [٣]. وذهب المفسرون إلى أنَّ مدَّ الأرض: بسْطُها[٤]. وذلك للزيادة في سعتها ومساحتها [٥]. أو بسطها بإزالتها عن هيئتها السَّابقة وتبديلها بهيئة أخرى[٦]. أو بسطها بإزالة ما عليها من الجبال ويبوس بحارها [٧]. قال تعالى: {فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً} [طه:١٠٦، ١٠٧].

يقول ابن عاشور بعد أن ذكر عِدَّة معاني للمد: وذلك كله مما يؤذن باختلال نظام سير الأرض وتغيير جاذبتها وما يحيط بالأرض من كرة الهواء، فيعقب ذلك زوال هذا العالم [٨].

ويأتي تصوير ذلك بقوله تعالى: {وألقت ما فيها وتخلت} أي أخرجت ما في بطنها فلم يبق منه شيء؛ لأنَّ فعل "تخلى" يدلُّ على قوة الخلوّ عن شيء لِمَا في مادة "التَّفعل" من الدَّلالة على تكلُّف الفعل [٩].

كُلُّ كلمة في هذه الجملة تصور لنا مشهد من مشاهد يوم القيامة، فكلمة {ألقت} تدلُّ على القوة مع المسارعة في تسليم الأمانة الَّتي حافظت عليه ملايين السِّنين، وهو متكدس في بطنها تنتظر لحظة تسليم الأمانة لباريها. ويؤكده قوله تعالى: {وتخلت} التَّي يدور معناها حول الفراغ[١٠]. والمراد من (تخلت) عمَّا في بطنها إلى الله ﷻ [١١]. غاية الخلو حتَّى لم يبق شيءٌ في باطنها، كأنَّها تكلَّفت أقصى جهدها في ذلك يؤكده صيغة "تفعَّلت" [١٢].

يشرح صاحب أضواء البيان [١٣] قائلاً: بعد أن كانت لهم كفاتاً أحياءً وأمواتاً، وبعد أن كانت لهم مهاداً، لفظتهم وتخلت عنهم، وهذا ما يزيد في رهبة الموقف وشِدته والتَّضييق على العباد ولا ملجأ لهم ومنجى إلا إلى الله، كما قال تعالى: {كلا

---

١ ـ ينظر: روح المعاني للألوسي /٣٠/٤٠٣.
٢ ـ ينظر: لسان العرب / ابن منظور(مدَّ)
٣ ـ ينظر: مفردات القرآن للراغب الأصفهاني(مدَّ)
٤ ـ ينظر: معاني القرآن للفراء /٣/ ٢٥٠، والكشَّاف للزَّمخشري/٤/٧٢٦.
٥ ـ ينظر: جامع البيان للطَّبري/٣٠/١٤٠.
٦ ـ ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج/٥/٣٠٣.
٧ ـ ينظر: الكشَّاف للزَّمخشري/٤/٧٢٦.
٨ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/١٩٥.
٩ ـ ينظر: السَّابق/٣٠/١٩٦.
١٠ ـ ينظر: لسان العرب/ (خلا)
١١ ـ ينظر: جامع البيان للطَّبري/٣٠/١٤١.
١٢ ـ ينظر: الكشَّاف للزَّمخشري/٤/٧٢٦.
١٣ ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/٩/٦٣.

لا وزر. إلى ربك يومئذٍ المستقر} [القيام١١، ١٢]. ويساعد في تصوير ذلك الحدث فخامة الحروف الَّتي خرجت بها كلمة {تخلَّت}.

وبمثل ما استجابت السَّماء فعلت الأرض، يؤكد ذلك قوله تعالى: {وأذنت لربِّها وحقت} فهما محقوقتان لربِّهما لا تخرجان عن سلطانه؛ فهو الخالق وإذا شاء أزال ما خلق بقدرته لا يعظم عليه شيءٌ تبارك وتعالى. وعليه أعيد مع الأرض قوله تعالى: {وأذنت لربِّها وحقت}.

ويأتي على شوق جواب الشَّرط {إذا} بقوله تعالى: {يا أيها الإنسان إنَّك كادحُ إلى ربِّك كدحاً فملاقيه} إلى آخره.

أيضاً كُلُّ كلمة في هذه الآية تطلب وقفة تأمل عميق؛ ولكن نقتطف منها بعض ثمارها: تبدأ الآية الكريمة بنداء عام بقوله تعالى: {يا أيها الإنسان} لقد توجه النِّداء إلى كافة جنس الإنسان ليخصهم جميعاً فرداً فردا، والنِّداء إذا سبق الحكم دلَّ على أهميته لما يقوم به من تنبيه الغافل. ثمَّ يأتي مقصود النِّداء بقوله تعالى: {إنَّك كادحٌ} بجملة مؤكَّدة بأقوى أدوات التَّوكيد {إنَّ} وجاء اسمها "كاف" الخطاب زيادة في الحرص على التَّنبيه والاهتمام، ويأتي خبر النَّاسخ: {كادحٌ} الكلمة الَّتي تدور مادتها على العمل الدؤوب والسَّعي الحثيث والكسب الصَّعب [١].

وهكذا تكاد الأصوات الثلاثة (ك، د، ح) بنسيجها تحكي صوت الكدح بما فيها من صفات [٢]. وتصور تلك المشاق الَّتي يتجشمها كُلُّ إنسان خلال رحلة العمر، ويؤكده المفعول المطلق: {كدحاً}.

ولكن إلى أين المسير إنَّه {إلى ربِّك} فانتهاء غاية المسير إلى الله ﷻ وقد ذكر نفسه هنا ﷻ بعنوان الرُّبوبيَّة {إلى ربِّك} المضاف إلى ضمير الخطاب لزيادة القرب لما تدلُّ عليه كلمة "رب" من معاني عظيمة لا تحصى عداً أبرزها أنَّه الخالق المدبِّر لكافة الأمور كما قال تعالى: {ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربُّ العالمين} [الأعراف:٥٤].

وتنتهي الآية بمفاجأة عظيمه بقوله تعالى: {فملاقيه} هذه "الفاء" الَّتي عطفت الجملة صوَّرت المسارعة فأنَّ المولى يذكرنا بأمور كثير منها أنَّ العمر يمر سريعاً وفي لحظة يجد الإنسان نفسَه أمام النِّهاية الحتمية ويحضر بين يدي الله ﷻ فما

١ ـ ينظر: لسان العرب / ابن منظور(كدح)
٢ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ أناهيد جمال حرير/٤١٥/١.

عسى أن يكون حاله في هذا اللقاء الَّذي من عظمته لا يمكن لأحدٍ أن يوفيه حقه من الوصف.

ويأتي تفصيل الإجمال السَّابق من الآية [٧] إلى الآية [١٥] مبتدأ بقوله تعالى: {فأمَّا من أُوتي كتابه بيمينه. فسوف يحاسبُ حساباً يسيراً. وينقلب إلى أهله مسروراً}

هذا يعض تفصيل الإجمال الَّذي في قوله تعالى: {إنَّك كادحٌ إلى ربك كدحاً فملاقيه} أي: رجوع جميع النَّاس إلى الله ﷻ وعليه بدأ المقطع {فأمّا} الَّتي هي للتفصيل.

ومن أول بشائر الخير للمؤمنين في ذلك الموقف الرَّهيب إتاؤه كتابه باليمين. والكتاب: صحيفة الأعمال: وجعل إتاؤه إياه بيمينه شعاراً للسَّعادة لِمَا هو متعارف من أنَّ اليد اليمنى تتناول الأشياء الزَّكيَّة حتَّى سموا البركة والَّسعادة يُمناً (١).

وحرف (الباء) في {بيمينه} للملابسة أو المصاحبة. وحرف (سوف) في قوله تعالى: {فسوف يحاسب حساباً يسيراً} أصله لحصول الفعل في المستقبل، ويقصد به في استعمال البليغ تحقق حصول الفعل واستمراره، وهنا يفيد ذلك، ويصور حاله وهو ينقلب إلى أهله مسروراً، وذلك المقصود من هذا الوعد العظيم (٢).

يقول الشيخ السِّعدي في قوله تعالى: {فسوف يحاسب حساباً يسيراً} وهو العرض اليسير على الله؛ فيقرره الله بذنوبه، حتَّى إذا ظنَّ العبد أنَّه قد هلك، يقول الله تعالى له: "إني قد سترتها عليك في الدُّنيا، فأنا أسترها لك اليوم" (٣).

ويستوقفنا للتأمل في هذه الآية الكريمة قوله تعالى: {وينقلب إلى أهله} فكلمة: {ينقلب} الانقلاب في اللغة الرُّجوع إلى المكان الَّذي خرج منه، وفي هذا إيحاء إلى رجوع المسلم إلى موطنه الأصلي حيث كان أبو البشر هناك في الجنَّة وخرج منها وزوجه لمَّا أزلهما الشَّيطان عنها بوسوسته، وذلك بمقادير الله ﷻ وعليه فمن اتبع الشَّيطان في حياته الدُّنا لم يعد إلى الجنَّة مرة ثانية إلا لمن شاء الله له السَّلامة، والعفو والعافية

وتأتي كلمة: {مسروراً} لتصف لنا حاله بحال من عاد إلى وطنه وأهله بعد غياب طويل فقد (نجا من العذاب وفاز بالثَّواب) (٤)

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/١٩٨/٣٠.
٢ ـ ينظر: السَّابق. بتصرف شديد.
٣ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٧.
٤ ـ ينظر: السَّابق.

وعليه ينطلق مسروراً فرحاً ينادي بأهله: {هاؤم اقرءوا كتابيه...} [الحاقة:١٩] وأهله آنذاك في الجنَّة من الحور والولدان، ومن أقاربه الَّذين دخلوا الجنَّة، وهذا من تمام النِّعمة يُعلم بها من يعرفه مما يزيد سروره وهو السُّرور الدائم (١).

وتأتي المقابلة العجيبة بالغة الأهميَّة بين حال سرور من دخل الجنَّة بفضل ربِّه ومن كان تعجل سروره في الدَّنيا، وغفل عن أمر ربِّه واتَّبع هواه وشيطانه فأُعطي كتابه بشماله إيذاناً ببؤسه وشقائه الدائمين فقال تعالى: {وأمَّا من أوتي كتابه وراء ظهره. فسوف يدعوا ثبوراً ويصلى سعيراً. إنَّه كان في أهله مسروراً. إنَّه ظن أن لن يحور. بلى إن ربَّه كان به بصيراً}

يقول ابن عاشور: في قوله تعالى: {من أُوتي كتابه وراء ظهره} هو الكافر، والمعنى إنَّه يؤتى كتابه بشماله كما تقتضيه المقابلة بـ{من أُوتي كتابه بيمينه} وذلك أيضاً في سورة الحاقَّة بقوله تعالى: {وأمَّا من أُوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ...}، أي يعطى كتابه من خلفه فيأخذه بشماله تحقيراً له ويناول من وراء ظهره إظهاراً للغضب عليه لا ينظر مُناوله كتابه إلى وجهه (٢).

وتكرار ذكر (كتابه) دون الاكتفاء بما سبق لتغيير مضمون الكتابين وتخالفهما في الاشتمال والحكم في المآل (٣).

واتَّضح مصير هؤلاء الكافرين في قوله تعالى: {فسوف يدعوا ثبوراً. ويصلى سعيراً}. (أي من الخزي والفضيحة وما يجده في كتابه من الأعمال الَّتي قدمها ولم يتب منها) (٤).

الثُّبور: الهلاك وسوء الحال وهي كلمة يقولها من وقع في شقاء، والنِّداء في مثل هذه الكلمات مستعمل في التَّحسر والتَّوجع من معنى الاسم الواقع بعد حرف النِّداء٥.

وتأتي نهايته بقوله تعالى: {ويصلى سعيراً} أي تحيط به السَّعير من كُلِّ جانب، ويقلَّب فيها ليشتد عذابه، وجاءت كلمة {سعيراً} منكَّرة لإبراز هولها وأنَّها تصل إلى غاية لا يدرك كنهها البشر (٦)

وسبب ذلك العذاب {إنَّه كان في أهله مسروراً} هذه الآية الكريمة المركبة بعدَّة مؤكدات تصف حاله زمن عمره القصير في الدُّنيا الفانية؛ فقد كان دائم الانغماس في

١ ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي /٩/ ٦٥. بتصرف شديد.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/١٩٨/٣٠.
٣ ـ ينظر: روح البان للبروسوي/٤٤٩/١٠.
٤ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٧.
٥ ـ ينظر: ابن عاشور/٣٠/ ١٩٩. بتصرف
٦ ـ ينظر: البلاغة القيمة / د. عبد القادر حسن/٦٣.

السُّرور الَّذي ألهاه عن شكر فضل ربِّه عليه، وأنساه وعودته إليه والعمل على النَّجاة من غضبه باتباع أمره واجتناب نهيه.

يقول الشيخ السَّعدي: لا يخطر البعث على باله، وقد أساء ولم يظن أنَّه راجع إلى ربِّه وموقوف بين يديه [١].

وعليه يقول ابن عاشور: وقوله: {إنَّه كان في أهله مسروراً} مستعملة في التَّعجب من حالهم كيف انقلبت من ذلك السُّرور الَّذي كان لهم في حياتهم الدَّنيا المعروف من أحوالهم بما حكي في آيات كثيرة فألوا إلى النَّار في الآخرة حتَّى دَعوا بالثُّبور. وتأكيد الخبر من شأن الأخبار المستعملة في التَّعجب، وهذه الجملة معترضة [٢].

وجاء تعليل ذلك بقوله تعالى: {إنَّه ظن أن لن يحور} حرف {إنَّ} مغنٍ عن (فاء) التَّعليل، والمعنى: يصلى سعيراً لأنَّه ظنَّ أن لن يحور، أي لن يرجع إلى الحياة بعد الموت؛ فهو يكذِّب البعث، وجيء بحرف {لن} الدَّال على تأكيد النَّفي ليصور عمق ظنه في عدم البعث بعد الموت.

وعليه يأتي الإضراب عن هذا الظَّن الباطل بقوله تعالى: {بلى إنَّ ربَّه كان به بصيراً}، موقع {بلى} الاستئناف كأحرف الجواب، وجملة {إنَّ ربَّه كان به بصيراً} مبينة للإبطال الَّذي أفاده حرف {بلى} على وجه الإجمال أي: إنَّ ظنه باطل؛ لأنَّ ربَّه أنبأه بأنَّه يبعث، ولِذا جاء حرف التَّأكيد "إنَّ" لرد إنكاره البعث الَّذي أخبره الله ﷻ به على لسان رسوله ﷺ وتقديم {به} على متعلقه للاهتمام بهذا المجرور، أي بصيرٌ به لا محالة.

ثمَّ استؤنف بالقسم قوله تعالى: {فلا أقسم بالشَّفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} حرف "الفاء" الَّذي بدأ به المقطع لتفريع القسم وجوابه على التَّفصيل الَّذي في قوله تعالى: {فأمَّا من أوتي كتابه بيمينه} وما بعده إلى هنا. ومعنى {لا أقسم} أي: أقسم واللَّام الَّتي تقدمته لتعظيم القسم.

يبدأ- ﷻ القسم بالشَّفق. والشَّفق لغة: الرقَّةّ ومنه رقَّة القلب فهو هنا بقيَّة ضوء الشَّمس وحمرتُها، فكأنَّه تلك الرِّقَّة من ضوء الشَّمس، وهي ظاهرة كونيَّة تدل على عظمة الخالق مقلِّب الأحوال.

[١] ـ ينظر: تفسير السِّعد/٩١٧
[٢] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٢٠٠.

ثمَّ يتبعه بقسم آخر لحالة كونيَّة تتبع الأولى في الظُّهور بقوله تعالى: {والليل وما وَسَقَ}. كلمة (وسق) تدلُّ على الجمع والضَّم للشيء الكثير، فيكون المعنى والليل وما جمعه من المخلوقات.

ويأتي القسم الثَّالث بقوله تعالى: {والقمر إذا اتسق} أي: اتَّسع وتكامل نوره [١].

ويعلل ابن عاشور الإقسام بهذه الآيات الثَّلاثة بقوله: ولعل ذِكر الشَّفق إيماء إلى أنَّه يشبه حالة انتهاء الدُّنيا؛ لأنَّ غروب الشَّمس مِثُل حالة الموت، وأنَّ ذكر الليل إيماء إلى شِدة الهول يوم الحساب، وذكر القمر إيماء إلى حصول الرَّحمة للمؤمنين [٢].

وجاء جواب القسم بقوله تعالى: {لتركبُنَّ طبقاً عن طَبقٍ} بصورة فريدة من الإيجاز [٣]. وقد أكد الفعل {لتركبُنَّ} بلام القسم ونونه تأكيداً لهذا الحدث.

والكلام في الآية المباركة على الكناية عن شِدَّة الأهوال الَّتي يلقاها الإنسان في الدُّنيا والآخرة [٤]. نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة آمين.

يفسره الشيخ السَّعدي بقوله [٥]: أي: أطواراً متعددة وأحوالاً متباينة من النُّطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى نفخ الروح، ثمَّ يكون وليداً وطفلاً، ثمَّ يميز ثمَّ يجري عليه قلم التَّكليف، والأمر والنَّهي، ثمَّ يموت بعد ذلك، ثمَّ يبعث ويجازى بأعماله، فهذه الطَّبقات المختلفة الجارية على العبد دالة على أنَّ الله وحده هو المعبود الموحد المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأنَّ العبد فقير عاجز، تحت تدبير العزيز الرَّحيم، ومع هذا فكثير من النَّاس لا يؤمنون.

وعليه يأتي قوله تعالى: {فمالهم لا يؤمنون. وإذا قُرِئ عليهم القرآن لا يَسجدون} أول ما يستوقفنا للتأمل في هذا المقطع تغير أسلوب الكلام من المخاطب الحاضر إلى ضمير الغائب، وفي ذلك صورة لإبعادهم عن شرف الخطاب لبعدهم عن الإيمان به ﷻ .

والكلام مفرعٌ على ما مضى من الأحوال الَّتي توجب الخوف والرَّهبة من لقاء الله ﷻ وتدعوا إلى الإيمان.

وجاء تركيب "ما لهم لا يؤمنون" يشتمل على (ما) الاستفهاميَّة مُخبر عنها بالجار والمجرور. والجملة بعد {لهم} حال من (ما) الاستفهاميَّة.

---

١ ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/٦٨/٩ وما بعدها. بتصرف.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير:٢٠١/٣٠. وما بعدها.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢٠١
٤ ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان/ النيسبوري/٥٩/٣٠.
٥ ـ ينظر: تفسير السَّعدي/٨١٧.

وهذا الاستفهام مستعمل في التَّعجب من عدم إيمانهم وفي إنكار انتفاء إيمانهم؛ لأنَّ شأن الشَّيء العجيب المنكر أن يسأل عنه. وجملة: {لا يؤمنون} في موضع الحال، ومُتعلَّق: {يؤمنون} محذوف يدل عليه السِّياق، أي: بالبعث والجزاء [1].
وأجد أنَّ غاية حذفه العموم أي: مالهم لا يؤمنون بكل ما جاء به الوحي من عند الله تعالى.

وفي قوله تعالى: {إذا قُرأ عليهم القرآن لا يسجدون}. صورة حيَّة لنفورهم من كلام الله، وعدم احترامه له.

يقول الشيخ السَّعدي: أي لا يخضعون للقرآن، ولا ينقادون لأوامره ونواهيه [2].

ويتبعه ﷻ بقوله تعالى: {بل الَّذين كفروا يُكذِّبون} إظهار في مقام الإضمار؛ لأنَّ مقتضى الظاهر أن يقال: بل هم يكذبون، فعدل إلى الموصول والصلة لِمَا تؤذن به الصلة من ذمهم بالكفر للإيماء إلى علَّة الخبر.

وهو إضراب انتقالي من التَّعجب من عدم إيمانهم وإنكاره عليهم إلى الإخبار عنَّهم بأنَّهم مستمرون على الكفر والطَّعن في القرآن، وعُبِّرَ عنه بالفعل المضارع ليفيد استحضار الحالة ويؤكد استمرارها [3].

ويأتي قوله تعالى: {والله أعلم بما يوعون} اعتراض بين الجملة السَّابقة، وقوله تعالى: {فبشرهم بعذاب أليم} وهذا كناية عن الإنذار والتَّهديد بأنَّ الله مجازيهم بسوء طويتهم.

ومعنى: {بما يوعون} بما يضمرون في قلوبهم؛ لذا قال تعالى: بعده: {فبشِّرهم بعذابٍ أليم} تفريع على جملة: {بل الذين كفروا يكذبون}

والفعل {بشِّرهم} مستعار للإنذار والوعيد على طريقة التَّهكم؛ لأنَّ حقيقة التَّبشير الإخبار بما يسر وينفع [4].

وتختم السُّورة المباركة باستثناء فريق من النَّاس يصفه الرَّحمن ﷻ بقوله {إلا الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات لهم أجرٌ غيرُ ممنون}.

---

[1] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٢٠٦. بتصرف.
[2] - ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٧.
[3] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢٠٧.
[4] - ينظر: السَّابق/٣٠/٢٠٨.

وهذا استثناء بياني كأنَّ سائلاً سأل: كيف حالهم يوم يكون أولئك في عذاب أليم ؟ فجاءت الإجابة [١] بقوله تعالى: {لهم أجرٌ غير ممنون}

يقول الشيخ السَّعدي: من النَّاس فريق هداهم الله فأمنوا بالله، وقبلوا ما جاءتهم به الرُّسل، آمنوا وعملوا الصَّالحات؛ فهؤلاء لهم أجر غير ممنون أي: غير مقطوع؛ بل أجرهم دائم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر [٢].

نسأل الله من فضله كرمه ورحمته آمين.

والله أعلم وأحكم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

سورة البـروج

والحمد لله ربِّ العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ
بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي
لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ
۝١١ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤
ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۝١٧ فِرۡعَوۡنَ

---

[١] ـ ينظر: السَّابق/٣٠/٢٠٩.
[٢] ـ ينظر: تفسير السَّعدي/٩١٧، ٩١٨.

وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾

بين يدي السُّورة المباركة:

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة: "أنَّ الرَّسول ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسَّماء ذات البروج" وهذا ظاهر في أنَّها تسمى سورة "السَّماء ذات البروج". وسُمِّيتْ في المصاحف وكتب التَّفسير "سورة البروج".

ومن أغراضها ضرب المثل للذين فتنوا المسلمين بمكة بأنَّهم مثلُ قوم فتنوا فريقاً ممن آمن بالله ليكون المثل تثبيتاً للمسلمين وتصبيراً لهم، وإشعاراً للمسلمين بأنَّ قوة الله عظيمة فسيلقى المشركون جزاء صنيعهم، ويلقى المسلمون النَّعيم الأبدي [١].

يربط الإمام البقاعي هذه السُّورة بما قبلها قائلاً : لمَّا ختم تلك "الانشقاق" بثواب المؤمن وعقاب الكافر والاستهزاء به بعد أن ذكر أنَّه سبحانه أعلم بما يضمر الأعداء من المكر، وما يرومون من الأنكاد للأولياء، وكانوا قد عذبوا المؤمنين بأنواع العذاب، واجتهدوا في فتنة من قدروا عليه منهم وبالغوا في التَّضيق عليهم حتَّى ألجأوهم إلى شعب أبي طالب وغيره من البروج في البلاد ، ابتدأ هذه بما أوقع بأهل الجبروت ممن تقدمهم على وجه أنَّ ذلك الإيقاع منه سبحانه قطعاً، أنَّ الماضين تجاوزوا ما فعل هؤلاء إلى القذف في النَّار، وأنَّ أهل الإيمان ثبتوا، وذلك لتسلية المؤمنين وتثبتهم، وتوعُّد الكافرين؛ فقال مقسماً لأجل إنكارهم: إنَّ الله ينتقم لهم بما يدل على تمام القدرة على القيامة [٢]

قال تعالى: {والسماء ذات البروج} في افتتاح السُّورة المباركة بهذا القسم تشويق إلى ما يرد بعده، وإشعار بأهميَّة المقسم عليه، ومع ذلك يَلفت ألباب السَّامعين إلى الأمور المقسم بها [٣].

لقد أقسم المولى ﷻ بالسَّماء لعظمة ما تحويه من عجائب صنع الله منها كونها ذات بروج. وجاء تعريف " السَّماء " للدلالة على عموم اتصاف السَّماء بالبروج.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٢١١ وما بعدها بتصرف

٢ ـ ينظر: نظم الدُرر/٢١/ ٣٥٢. وما بعدها بتصرف.

٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٢١١

فما هي البروج؟ كلمة تدور مادتها حول: الظُّهور والارتفاع [١]. واختلف في معناها هنا قيل: نجومها [٢] أو عظام كواكبها [٣] أو أبوابها [٤] أو منازل الكواكب [٥].

والقسم بالسَّماء بوصفها ذات البروج يتضمن قسماً بالأمرين معاً لتلتفت أفكار المتدبرين إلى ما في هذه المخلوقات، وهذه الأحوال من دلالة على عظم القدرة وسعة العلم الإلهي؛ إذ خلقها على تلك المقادير المضبوطة لينتفع بها النَّاس في مواقيت الأشهر والفصول [٦].

ثمَّ يأتي العطف بقسمٍ آخر لا يقل أهميَّة وعظمة عن الأول بقوله تعالى: {واليوم الموعود} هو يوم القيامة بإجماع المفسرين، وقد كانوا يُوعدون به في الدُّنيا، فهو اليوم الموعود به كُلِّ من الفريقين [٧]. ولا يخلف الله الميعاد.

يقول ابن عاشور: فيه إدماج إلى وعيد أصحاب القصَّة على مضمونها، ووعيد أمثالهم المعرَّض بهم [٨].

ويأتي القسمُ الثَّالث بقوله تعالى: {وشاهدٍ ومشهود} لقد حملت هذه الآية من الرُّعب ما ترتعد له فرائص المتدبرين.

و حذف متعلق الوصفين: {شاهدٍ مشهودٍ} لدلالة الكلام عليه، أو ليذهب المقدر كُلُّ مذهب في تقدير المتعلق، فقد جاء هذا الحدث عاماً لكثرة ما يجمع من مواقف، وشهود، ومشهود عليهم، في ذلك اليوم الموعود، ومن أعظمهم الشهود "رب" العزَّة والجلال- لقوله تعالى: {والله على كُلِّ شيء شهيد} ومن بعده ملائكته، ورسله، وأرضه، وسماءُه، حتَّى أعضاء الإنسان؛ تنضم مع الشُّهود، كُلُّ ذلك وأكثر منه جمعه هذا الأسلوب الَّذي أريد به الجنس في قوله تعالى: {وشاهدٍ ومشهودٍ} وقد قيل في أرجح الأقوال إنَّ المشهود: هو الإنسان المحشور للحساب [٩].

كما جاء الجناس الاشتقاقي رابطاً آخر بين اللفظين [١٠].

---

١ ـ ينظر: لسان العرب ابن منظور (برج)
٢ ـ ينظر: جامع البيان للطَّبري/١٥٦/٣٠.
٣ ـ ينظر: معاني القرآن وإعرابه/ الزجاج ٣٠٧/٥، تفسير النسفي/٣٤٤/٤.
٤ ـ ينظر: الكشَّاف/٧٢٩/٤.
٥ ـ ينظر: جامع البيان/ للطبري/ ٣٠/ ١٥٧. المحرر الوجيز لابن عطيَّة/ ٢٦٧/١٦.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢١٢.
٧ ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/ ٧١/٩. وما بعدها.
٨ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور / ٣٠/ ٢١٣.
٩ ينظر: السَّابق/٢١٣/٣٠. بتصرف
١٠ ـ ينظر: صفوة التَّفاسير للصابوني/٥٤٣/٣.

وأُختلف في جواب القسم لهذه الثَّلاثة قيل: إنَّه محذوف لدلالة قوله تعالى: {قتل أصحاب الأخدود} عليه.

وقيل: تقديره: أنَّ الأمر لحقٌ في الجزاء على الأعمال: أو لتبعثنَّ. وقيل الجواب مذكور فيما يلي فقال الفراء: هو {إنَّ بطش ربك لشديد}، والكلام الذي بينهما اعتراض. وقيل غير ذلك [١].

ثمَّ تأتي الجملة الخبرية بقوله تعالى: {قُتل أصحاب الأخدود} التي جعلها بعض المفسرين جواباً للقسم الذي بدأت به السَّورة. والتَّقدير أنَّهم ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود. وهو كناية عن اللعن لأنَّه من لوازمه [٢].

وجاءت المبالغة البلاغيَّة في وصف نار الأخدود في قوله تعالى: {النَّارِ ذاتِ الوَقُود} تصويراً لامتلاكها لوقودها تتصرف فيه كيف شاءت؛ وذلك كناية عن زيادة اتقادها زيادة لا حد لها ولا انقطاع؛ فوقودها تحت تصفها في كل وقت.

يقول ابن عاشور: ومعنى {ذات الوقود}: أنَّها لا يخمد لهبها؛ لأنَّ لها وقوداً يلقى فيها كلما خبت [٣]

ثمَّ وصف أصحاب الأخدود وصفاً تفصيلياً بقوله تعالى: {إذ هم عليها قعود}. يبرز هذا المشهد الظرف: {إذ} الَّذي بدأت به الآية، الَّتي صيغت بالجملة الاسميَّة لما لها من قدرة على التَّأكيد والدَّوام؛ فجاء المبتدأ بضمير الغائب: {هم} يعود على أصحاب الأخدود، ويصور بعدهم عن الحق، وقد قُدِّم الجار والمجرور: {عليها} على الخبر للاهتمام بما يصوره من معنى، ثمَّ جاء الخبر {قعودٌ} كني به عن الملازمة للأخدود؛ لئلا يتهاون المكلفون بتسعير النَّار فيكون "على" للاستعلاء المجازي؛ فعبر على القرب والمراقبة والحرص به.

وعلى احتمال أن يكون المراد بـ{أصحاب الأخدود} المؤمنين المعذَّبين فيه فالقعود حقيقة و (على) للاستعلاء الحقيقي، أي قاعدون على النَّار بأن كانوا يحرقونهم مربوطين بهيئة القعود؛ لأنَّ ذلك أشد تعذيباً وتمثيلاً [٤].

وجاء تكملة المشهد بقوله تعالى: {وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود} يتقدمه واو الحال فالجملة حال من ضمير {إذ هم عليها قعود} كأنَّه قيل: قعود شاهدين على فِعلهم بالمؤمنين على الوجهين المتقدِّمين في معاد ضمير {يفعلون}، وفائدة هذه

---

١ ـ انظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢١٤/٣٠.
٢ ـ ينظر: بصائر ذوي التمييز / الفيروز أبادي/٢٣٨/٤. روح البيان/ البروسوي/٤٥٩/١٠.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٢١٧/٣٠.
٤ ـ ينظر: السَّابق.

الحال تفظيع ذلك القعود وتعظيم جُرمه [1]. وقد تكرر الضَّمير: {هم} للتأكيد على وجود أصحاب الأخدود، وللإخبار عنهم [2]. وتقديم الجار والمجرور (على ما) على متعلقه: {شهودٌ} لفت إلى أفعال هؤلاء الكفَّار المُنكرة [3].

ثمَّ يوضح ﷻ سبب انتقام هؤلاء الكافرين من المؤمنين في قوله تعالى: {وما نقموا منهم إلَّا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الَّذي له ملك السَّماوات والأرض} بأسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذَّم [4].

يقول الشيخ السَّعدي: والحال أنَّهم ما نقموا من المؤمنين إلا خصلة يمدحون عليها، وبها سعادتهم؛ وهي أنَّهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد: أي الَّذي له العزَّة الَّتي قهر بها كُلَّ شيء، وهو حميد في أقواله وأوصافه وأفعاله [5].

فإجراء الصِّفات الثَّلاث على اسم الجلالة لزيادة تقرير صفاته الَّتي تقتضي عبادته ونبذ ما عداه؛ لأنَّه ينصر مواليه ويثبتهم؛ ولأنَّه يَملكهم وما عداه ضعيف العزَّة لا يضر ولا ينفع ولا يملك منهم شيئاً فيقوى التَّعجب منهم بهذا [6].

وجاء قوله تعالى: {والله على كُلِّ شيءٍ شهيد} تذييل بوعيد اللَّذين اتخذوا الأخدود وأمثالهم لتعذيب المسلمين، ووعد اللَّذين عُذبوا من المسلمين بالأجر العظيم.

ثمَّ يتبعه ﷻ بمصير الفاتنين بقوله تعالى: {إنَّ الَّذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثمَّ لم يتوبوا فلهم عذابُ جهنَّم ولهم عذابُ الحريق} جملة خبريَّة مؤكدة بحرف التَّوكيد: {إنَّ} وجاء اسمه الموصول: {اللَّذين} للرَّبط بما ذكر عن الفاتنين في هذه السُّورة، وكُلِّ من يقوم بهذا العمل ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وذلك ما شرحته جملة الصِّلة: {فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثمَّ لم يتوبوا} أي: مستمرون على ذلك، قال الحسن رحمه الله: انظر إلى هذا الكرم والجود هم قتلوا أولياءه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التَّوبة [7]

ويأتي خبر الحرف النَّاسخ: {إنَّ} على شوق بقوله تعالى: {فلهم عذابُ جهنَّمَ ولهم عذاب الحريق} بجملتين اسميَّتين: {فلهم عذاب جهنَّم}، {ولهم عذاب الحريق}. تقدَّم فيهما الخبر {لهم} على المبتدأ؛ وذلك ليدل على الحصر والقصر فمن مواضع

[1] ـ ينظر: السَّابق/٣٠/٢١٨.
[2] ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ /أناهيد جمال حريري/١/ ٤٥٩.
[3] ـ ينظر: البلاغة القيمة/ د/ عبد القادر حسين/٦٨.
[4] ـ ينظر: حاشية محي الدِين شيخ زادة/٤/٦٤٢.
[5] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٨.
[6] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٢١٨.
[7] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٨، ٩١٩.

الحصر تقديم ما حقه التَّأخير، ثُّم إنَّ تقدم (لام) الاختصاص في {لهم} في الموضعين أسهم في تأكيد ذلك الحصر وخصصهم به.

وقد ظهر التِّكرار بارزاً في قوله تعالى: {لهم عذاب جهنَّم ولهم عذاب الحريق} للتأكيد على أنَّ لأصحاب الأخدود عذابين كليهما واقع في الآخرة؛ الأول بسبب كفرهم، والثَّاني: بسبب فتنتهم للمؤمنين [1]. وقد قيل: إنَّ العذابين متلازمان [2].

ونجد لابن عاشور رَأيٌ أخر يقول [3]: والَّذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات هم مشركو قريش وليس المراد أصحاب الأخدود؛ لأنَّه لا يلاقي قوله: {ثمَّ لم يتوبوا} إذ هو تعريض بالتَّرغيب في التَّوبة، ولا يلاقي دخول (الفاء) في خبر {إنَّ} من القول {فلهم عذابُ جهنَّم ولاهم عذابُ الحريق}.

ثمَّ كعادة أسلوب القرآن في إبراز الصُّور المتقابلة في ذكر عذاب الكافرين متبوع بنعيم المؤمنين وعكس ذلك؛ لتضح كُلٌّ من الصُّورتين بأشد ما يكون عليه الوضوح؛ يقول جلَّ من قائل: {إنَّ الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات لهم جنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير}.

يجوز أن يكون هذا استئنافاً بيانياً ناشئاً عن قوله: {ثمَّ لم يتوبوا} المقتضي أنَّه إن تابوا وأمنوا وعملوا الصَّالحات لهم جنَّات...، فإنَّ التَّوبة الإيمان، فلذلك جيء بصلة: {آمنوا} دون تابوا: ليدلَّ على أنَّ الإيمان والعمل الصَّالح هو التَّوبة من الشِّرك الباعث على فتن المؤمنين [4]. وذلك فضلٌ عظيمٌ من الله؛ لأنَّ الإيمان يجب ما قبله.

ونجد أنَّ الجملة أكدت بنفس مؤكدات الجملة السَّابقة لنفس الغرض.

ويستوقفنا للتأمل تلك الصُّورة البديعة للجنَّات الَّتي تجري من تحتها الأنهار، فقد جلب معنى الفعل "تجري" وزمنه المضارع صورة تتراءى فيها للناظرين خضرة تلك الجنَّات اليانعة بجمال زهورها وثمارها، ولمعان أنهارها الَّتي تجري من تحتها حتَّى يخيل للرائي أن الأرض هي الَّتي تجري لشدَّة صفاء الماء، فكيف لا يكون ذلك هو الفوز الكبير؟ وهكذا ويتراوح الأسلوب بين التَّرغيب والتَّرهيب؛ فيأتي قوله تعالى: {إنَّ بطش ربك لشديد} البطش: الأخذ بعنف وشِدَّة ويستعار للعقاب المؤلم الشَّديد.

[1] ـ ينظر: معاني القرآن للزجاج/٥/٣٠٨.
[2] ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان/ النيسابوري/٣٠/٦٧.
[3] ـ انظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/٢١٩.
[4] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٢٢١.

والخطاب موجه للنَّبي ﷺ لأنَّ بطش الله بالَّذين فتنوا المؤمنين فيه نصر للنبي ﷺ وتثبيت له، ومن بعده لأمته في كُلِّ زمان ومكان. والآية ذكرت علَّة لمضمون قوله تعالى: {إنَّ الذين فتنوا المؤمنين} إلى {ولهم عذاب الحريق} [البروج:١٠] فموقع {إنَّ} في التَّعليل يغني عن (فاء) التَّسبب.

ولا شك إنَّ بطش الله يشمل تعذيبه إياهم في جهنَّم ويشمل ما قبله مما يقع في الآخرة وما يقع في الدُّنيا، وقد حكت أصوات حروف الكلمة الشِّدَّة والمسارعة والانتشار، وعزز ذلك إسناده للرَّب مالك الملك، ووصفه بقوله تعالى: {لشديد}. مع بدء الجملة بالتَّأكيد في {إنَّ} وخاتمتها بالتَّأكيد لما تدل عليه لام الابتداء المزحلقة للخبر في: {لشديد}.

وجاء قوله تعالى: {إنَّه هو يبدئ ويعيد} تعليلاً لجملة: {إنَّ بطش ربك لشديد}؛ لأنَّ الَّذي يُبدئ ويعيد قادرٌ على إيقاع البطش الشَّديد في الدُّنيا وهو الإبداء، وفي الآخرة وهو إعادة البطش، ونلاحظ حذف مفعولي الفعلين (يبدئ ويعيد) لعمومها في كُلِّ شيء.

ويستوقفنا للتأمل تركيب هذه الجملة: حيث بدأت بحرف التَّوكيد في {إنَّه} وجاء اسمها ضمير الغائب المتصل؛ ثمَّ جاء ضمير الفصل {هو} للتقوية، أي: لتحقيق الخبر زيادة في التَّوكيد، ثمَّ جاء خبر النَّاسخ: {إنَّ} جملتين فعليتين {يبدئ ويعيد} زيادة في تأكيد حكم الإسناد له ﷻ.

ويعطف عليه ﷻ قوله: {وهو الغفورُ الودودُ}. يقول السَّعدي في: {وهو الغفور} الَّذي يغفر الذُّنوب لمن استغفر وتاب، ويؤكده قوله تعالى: {الودود} الَّذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء؛ فكما أنَّه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه التَّابعة لذلك لا يشبهها شيءٌ من أنواع المحاب؛ ولهذا كانت محبته أصل العبوديَّة، وكُلُّ المحاب تابعة لها، وهو تعالى الودود لأحبابه، كما قال تعالى: {يحبهم ويحبونه} والمودَّة، هي المحبَّة الصَّافية وفي هذا سر لطيف حيث قرن {الودود} بالغفور ليدل ذلك على أنَّ أهل الذُّنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا غفر لهم ذنوبهم وأحبهم؛ فله الحمد والثَّناء وصفو الوداد ما أعظم بره وأكثر خيره [١]

ولما ذكر الله تعالى من صفاته ما تعلُّقه بمخلوقاته بحسب ما يستأهلون من جزاء أعقب ذلك بصفاته الذَّاتية على وجه الاستطراد والتكملة بقوله تعالى: {ذو العرش

---

١ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٩.

المجيدُ. فعالٌ لما يريد} تنبيهاً للعباد إلى وجوب عبادته لاستحقاقه العبادة لجلاله كما يعبدونه لاتقاء عقابه ورجاء نواله [١].

و{العرش}: اسم لعالم يحيط بجميع السَّماوات، سمي عرشاً لأنَّه دالَّ على عظمة الله تعالى [٢] فيكون المعنى: صاحب العرش العظيم الَّذي من عظمته أنَّه وسع السَّماوات والأرض والكرسي؛ فهي بالنِّسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة، وخص الله العرش بالذكر لعظمته، وأنَّه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، وهذا على قراءة الجر لكلمة {المجيدِ}، فيكون "المجيد" نعتاً للعرش، وأمَّا على قراءة الرَّفع أي : {المجيدُ} فإنَّ المجيد نعت لله، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها[٣].

ثمَّ ذَيل ذلك بصفة جامعة لعظمته الذَّاتية وعظمة نعمه بقوله تعالى: {فعال لما يريد} فصيغة المبالغة في قوله: {فعَّال} للدلالة على الكثرة في الكميَّة والكيفيَّة مع ما حملت من تأكيد على قدرته المطلقة ﷻ.

وجاء قوله تعالى: {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} متصلاً بقوله تعالى: {إنَّ بطش ربك لشديد} فالخطاب للنبي ﷺ ثمَّ من بعده لكُلِّ متدبر؛ وذلك لبيان أنَّ بطشه ﷻ شديد وهو تمثيل ودليل، وجاء على طريقة الاستفهام للتهويل؛ لما فيه من التَّعرض للمشركين بأنَّه قد يحل بهم من البطش ما حلَّ بأولئك الأوائل [٤].

ويأتي الإضراب الانتقالي بقوله تعالى: {بل الَّذين كفروا في تكذيب.} أي لا يزالون مستمرين على التَّكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآيات ولا تُجدي لديهم العظات [٥]

يستوقفنا للتأمل قوله تعالى: {في تكذيب} فقد جعل التَّكذيب مظروفهم وهم فيه غرقى فأنى لهم يروا حقائق الدِّين، وهم في غيهم منغمسون، لكنهم وإن كانوا مختبئين بتكذيبهم إلا إن {والله من ورائهم محيط} ﷻ هذه الجملة خبر مستعمل في الوعيد والتَّهديد وقد عطف على جملة: {الَّذين كفروا في تكذيب} أي: بقدر ما هم متمكنون من التَّكذيب الله يسلط عليهم عقاباً لا يفلتون منه لإحاطته بهم [٦].

يرى ابن عاشور فيها صورة يشرحها بقوله: هي تمثيل لحال انتظار العذاب إياهم، وهم في غفلة عنه بحال من أحاط به العدو من ورائه، وهو لا يعلم حتَّى إذا رام الفرار والإفلات وجد العدو محيطاً به [٧] والمثل الأعلى لله ﷻ.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٢٣/٣٠.
٢ ـ ينظر: السَّابق
٣ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٩.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢٢٤.
٥ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩١٩.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٢٢٥/٣٠. بتصرف شديد.
٧ ـ ينظر: السَّابق

وتختم السُّورة المباركة بإضراب قاطع يحمل خبراً لا شك فيه بقوله تعالى: {بل هو قرآن مجيد في لوحٍ محفوظ}. بدأ المقطع بحرف الإضراب "بل" هو إضرابُ إبطال لتكذيبهم؛ لأنَّ القرآن جاءهم بدلائل بيّنة لكنَّهم استمروا على التَّكذيب لسوء اعتقادهم؛ فوصفوه بصفات النَّقص والضلال؛ فجاء التَّنويه به جامعاً لإبطال جميع ترهاتهم على طريق الإيجاز [١]. يشرحه السَّعدي بقوله أي: واسع المعاني عظيمها كثير الخير والعلم. {في لوحٍ محفوظ}: من التَّغيير والزّيادة والنَّقص، محفوظ من الشَّياطين، وهو اللوح المحفوظ الَّذي قد أثبت الله تعالى فيه كُلَّ شيء. وهذا يد على جلال القرآن وجزالته ورفعة قدره عند الله تعالى [٢].

سورة الطَّارق

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٍ
لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ
بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا
لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾
إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾
فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾

---

١ ـ ينظر: السَّابق بتصرف.
٢ ـ تفسير السَّعدي/٩١٩.

بين يدي السُّورة المباركة:

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة: بأنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسَّماء ذات البروج والطَّارق؛ فسماها أبو هريرة: " السَّماء والطَّارق". وسميت في كتب التَّفسير والسّنَّة وفي المصاحف "سورة الطَّارق".

ومن أغراضها: إثبات إحصاء الأعمال والجزاء عليها، وذلك يقتضي إثبات البعث، وأدمج في ذلك التَّذكير بدقيق صنع الله ﷻ وحكمته في خلق الإنسان، والتَّنويه بشأن القرآن [1].

ويربطها البقاعي بما قبلها بقوله: (لما تقدم في آخر البروج أنَّ القرآن في لوح محفوظ لأنَّ منزله محيط بالجنود من المعاندين وبكل شيء أخبر أنَّ من إحاطته حفظ كُلِّ فرد من جميع الخلائق ليجازى على أعماله يوم إحقاق الحقائق، وقطع العلائق فقال مقسماً على ذلك لإنكارهم له: {والسماء} أي: ذات الأنجم الموضوعة لحفظها من المردة لأجل حفظ القرآن المجيد المحافظ على طريق الحق)[2]

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

أُفتتحت السُّورة المباركة بالقسم تحقيقاً لِمَا يقسم عليه، ووقع القسم بمخلوقين عظيمين فيهما دلالة على عظيم قدرة خالقهما هما: السَّماء، والنُّجوم، أو نجم منها عظيم، أو ما يبدو انقضاضه من الشُّهب [3].

بدأ القسم بأعظم آية: {والسَّماء} لتصوِّر عظم قدرها وبعد أفاقها وما فيها من آيات معجزات تسترعي نظر المتأمل؛ وذلك ما يدلُّ عليه جرس حرف (السَّين) وصوت المد في أخرها.

وعطف عليها بـ(واو) التشريك في الحكم آية أخرى من مخلوقاته: {الطَّارق} تدور مادة هذه الكلمة حول: الضَّرب والدَّق [4]. "فالطَّاء والقاف" تحكيان صوت الطَّرق، وبينهما "الرَّاء" الَّتي تشير إلى تكرار هذا الحدث لما لها من خاصيَّة التِّكرار [5].

وقد أبهم الموصوف: {الطَّارق} ابتداءً، ثم زيد إبهاماً مشوباً بتعظيم أمره بقوله تعالى: {وما أدراك ما الطَّارق} استفهام مستعمل في تعظيم الأمر، ثمَّ بُيِّنَ بقوله[6]: {النَّجم الثَّاقب} ليحصل من ذلك مزيد تقرير للمراد بالمقسم به، وهو أنَّه من جنس

[1] ـ التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٣٩/٣٠. وما بعدها
[2] ـ ينظر: نظم الدرر /٢١/ ٣٧٠. وما بعدها.
[3] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٣٩/٣٠.
[4] ـ ينظر: لسان العرب / ابن منظور/ (طرق)
[5] ـ ينظر: التَّصوير القرآني /أناهيد جمال حريري/٤٧٢/١. بتصرف.
[6] ـ ينظر: جامع البيان للطبري/ ٣٠/ ١٧٢.

النُّجوم، شُبه طلوع النَّجم ليلاً بطروق المسافر الطَّارق بيتاً بجامع كونه ظهور في الليل. فوقعت كلمة: {النَّجم} خبراً عن ضمير محذوف تقديره: هو، أو: الطَّارق النَّجم الثاقب [١].

{الثَّاقب}: تدور مادته حول كُلِّ ما ينفذ [٢]، فالثُّقب خرق شيءٍ ملتئم، وهو مستعار لظهور النُّور في خلال ظلمة الليل [٣]

يقول السَّعدي: ثمَّ فسر الطَّارق بقوله: {النَّجم الثَّاقب} أي: المضيء، الَّذي يثقب نوره فيخرق السَّماوات فينفذ حتَّى يرى في الأرض [٤].

ويقول الشِّنقيطي: قيل: ما يثقب الشَّياطين عند استراقهم السَّمع [٥]. والآيات من سورة [الشعراء، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢] تدل على ذلك.

وقيل: الصَّحيح أنَّه اسم جنس يشمل سائر النُّجوم الثَّواقب [٦]؛ لأنَّ النُّجوم كلها مضيئة.

ولا يخفى أنَّ للطرق صوت يسمع خاصة طرق تلك الأجرام السَّماوية العظيمة لكن برحمة الله الرؤوف بالعباد جعل في السَّماء أحزمة تحجب تلك الأصوات فضلاً منه ومنَّة؛ وإلا لما استطاع أحدٌ أن يهنأ بحياته ثانية لكثرة وشدَّة ما في السَّماء من أصوات.

ثمَّ جاء جواب القسم السَّابق في قوله تعالى: {إن كُلُّ نفسٍ لَمَّا عليها حافظ} وما بينه وبين القسم اعتراض جيء به لتأكيد فخامة المقسم به من أجل تأكيد مضمون الجملة المقسم عليها [٧]. والمعنى إن كُلُّ نفسٍ عليها حافظ يحفظ أعمالها الصَّالحة والسَّيئة، وتجازى عليها بعملها المحفوظ عليها [٨]

وقيل في قوله تعالى: {إن كُلُّ نفسٍ لمَّا عليها حافظ} أي: حارس يحرسها في المرحلة الجنينيَّة؛ فهو في حفظ الله: أولاً: لأنَّه {في قرار مكين} [المؤمنون:١٣].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٢٣٠. بتصرف
٢ ـ ينظر: لسان العرب (نفذ)
٣ ـ ينظر: السَّابق.
٤ ـ ينظر: تفسير السِّعدي:٩١٩ وما بعدها
٥ ـ ينظر: أضواء البيان /٩/ ٨٤.
٦ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٠.
٧ ـ ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود/٩/ ١٤٠، ١٤١.
٨ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٠.

وثانياً: في الحديث الشريف : "إنَّ لله وكَّلَ بالرَّحم ملكاً..." أخرجه البُّخاري ومسلم من حديث أنس [١]. وبعد بلوغه سنَّ التَّكليف يجري عليه القلم فيحفظ عليه عمله [٢]. وفي هذا الجواب كناية رمزيَّة عن المقصود، وهو إثبات البعث [٣].

وعليه يأتي قوله تعالى: {فلينظر الإنسان ممَّ خلق} في هذا القول الكريم دليلٌ على وجوب التَّدبر والنَّظر في قدرة ﷻ في آياته العظام الَّتي من جملتها خلق هذا الإنسان فالتَّدبر في ذلك من أجَلِّ العبادات لِمَا له من أثر عظيم في تعظيم الخالق ﷻ .

ووقع التَّعبير بالفعل: {فلينظر} لبيان طُرق المعرفة، فهو بسط في إيجاز وإدماج[٤]. فـ(الفاء) الَّتي بدأت بها الآية لتفريع الأمر بالنَّظر في الخلقة الأولى ليعلم أنَّ إعادة الخلق أي: البعث ليس بأبعد من الخلق الأول [٥].

ونجد أنَّه ﷻ قد لفت نظر الإنسان إلى أوَّل أمره بأسلوب الاستفهام في القول الكريم: {...مِمَّ خُلق} للإيقاظ والتَّنبيه إلى ما يجب على الإنسان علمه [٦]

يقول السَّعدي [٧]: أي فليتدبر خلقته ومبدأه فإنَّه مخلوق: {من ماءٍ دافق}.

وقد اتضح ممَّا خلق الإنسان في قوله تعالى: {خُلق من ماءٍ دافق} وحُذف فاعل الفعلين: {خُلق} في الآيتين: [٥، ٦] للعلم به أولاً، إذ لا يُسند الخلق إلا لله ﷻ ، وللتَّفخيم بإضماره ثانياً [٨].

ويستوقفنا للتأمل إرجاع خلق الإنسان إلى (ماء) وكأنَّه ماءٌ واحدٌ دون أن يُقال: ماءان وهذا ذليلٌ على امتزاجهما في الرَّحم، واتحادهما عند ابتداء خَلق الإنسان [٩].

وجاء الإطناب في وصف الماء بقوله تعالى: {يخرج من بين الصُلب والتَّرائب}، هذه الجملة وقعت حالاً من الماء الدَّافق. والتَّعريف في كُلِّ من (الصُّلب والتَّرائب) للعهد؛ لأنَّ الصُّلب – عند الجمهور مخصوص بالرَّجل، والتَّرائب بالمرأة [١٠].

وهو دليلٌ قويٌ على قدرته على الخلق يتوصل به إلى قدرته على البعث.

---

١ ـ أخرجه البخاري (٣١٨ـ ٦٥٩٥) ومسلم (٢٦٤٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
٢ ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/٩/ ٨٦.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠٢٣٢. بتصرف.
٤ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السعود/٩/ ١٤٠، ١٤١.
٥ ـ ينظر: جامع البيان للطبري ٣٠/ ١٧٤، كذا التحرير والتنوير / ٣٠ / ٢٣٢.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٢٣٣/٣٠.
٧ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٠.
٨ ـ ينظر: روح المعاني للألوس /٤٣٣/٣٠.
٩ ـ ينظر: تفسير النسفي /٣٤٨/٤. بتصرف.
١٠ ـ ينظر: مجاز القرآن للعز بن عبد السَّلام ٤٧٣.

يقول الشيخ السِّعدي [1]: فالَّذي أوجد الإنسان من ماء دافق يخرج من هذا الموضع الصَّعب قادرٌ على رجعه في الآخرة وإعادته للبعث والنُّشور والجزاء؛ ولهذا جاء قوله تعالى: {إنَه على رجعه لقادر}.

ويذكر الطَّبري عِدَّة وجوه في تفسير هذه الآية؛ من أرجحها قوله: إحياء الإنسان بعد مماته [2].

ونقف وقفة تأمل في تركيب هذه الآية الَّتي احتشدت بالمؤكدات لِمَا لهذا الأمر من أهميَّة عظمى كان ومازال كثيرٌ من النَّاس يجحده افتراءً منهم على قدرة الخالق ﷻ

فقد بدأت الآية الكريمة بأقوى أدوات التوكيد "إنَّ" وجاء اسمها الضَّمير العائد على الله ﷻ في: {إنَّه} ثمَّ قدم التَّابع: {على رجعِه} تأكيداً للاهتمام به، وصيغة الكلمة المجرورة {رجعهِ} بالمصدر لقوة المعنى، والضَّمير المتصل عائد على الإنسان، ثمَّ جاء خبر حرف التَّوكيد {لقادرٌ} تتقدمه لام التَّوكيد أيضاً، وصيغت هذه الكلمة على وزن "فاعل" فهي صفة مشبهة باسم الفاعل؛ لدلالتِها على الاستمرار، والدَّوام؛ فقدرته تبارك وتعالى ليس لها حد، ولا تنقضي بوقت من الأوقات.

ويأتي قوله تعالى: {يوم تُبْلَى السَّرَائرُ} الابتلاء: هو الاختبار، والمراد به الاستنباء عن السَّرائر كناية لازمة عن التَّعرف عليها، وهو متعلق بـ{رجعِه} أي يرجِعه يومَ القيامة [3] فتختبر سرائر الصُّدور، ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه؛ قال تعالى: {يوم تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه} ففي الدُّنيا تنكتم كثير من الأمور، ولا تظهر عياناً للنَّاس، وأما في القيامة فيظهر برُّ الأبرار، وفجور الفجَّار وتصير الأمور علانية [4].

وجاء قوله تعالى: {فماله من قوة ولا ناصر} متفرعاً عن الآية: {يوم تبلى السَّائر} و الضَّمير في قوله {فماله} عائد إلى الإنسان في قوله السَّابق: {فينظر الإنسان} والمقصود به المشركون من النَّاس؛ لأنَّهم المسوق لأجلهم هذا التَّهديد، أي: فما للإنسان المشرك من قوة يدفع بها عن نفسه، وما له من ناصر يدافع عنه [5].

ويأتي القسم مرَّة أخرى بقوله تعالى: {والسماء ذات الرَّجع. والأرض ذات الصدع. إنَّه لقول فصل. وما هو بالهزل}. لا يخفى أن حرف (الواو) الَّذي بدأت به الآيتان هو للقسم. وقد وصفت السَّماء بأنَّها {ذات الرَّجع} هو مصدر الفعل "رَجَعَ" وعليه تعددت

[1] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٠.
[2] ـ ينظر: جامع البيان للطبري/٣٠/ ١٧٧، ١٧٨.
[3] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٢٣٦/٣٠.
[4] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٠.
[5] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢٣٦.

الأقوال بوصفها بهذه الصِّفة؛ فقيل: رجع السَّماء: إعادة ضوء النُّجوم والشَّمس والقمر. وقيل: "الرَّجع": الملائكة ترجع بأعمال العباد. وقيل " الرَّجع": المطر وأرزاق العباد [1]. وكل ذلك وارد وأكثر منه بكثير ما يعلمه علَّام الغيوب من إشعاعات ونيازك وأصوات وأمور اكتشفت، وأمور كثيرة هي في علم الغيب؛ وعليه حق للسَّماء أن تذكر بـ{ذات الرَّجع}. لعظم ذلك الرَّجع الَّذي اقسم بالسَّماء من أجله.

وتأتي المقابلة البلاغيَّة بقوله تعالى: {والأرض ذات الصَّدع} قيل: تنشقُّ عن الخلائق يوم البعث. وقيل: تنشقُّ بالنِّبات [2]. وكُلُّ ذلك صحيح، ومنه ما اكتشف مؤخراً عن انصداع طبقات الأرض، أو دخول طبقة تحت أخرى وما يعلمه الله أخفى وأعظم.

ويأتي جواب القسم بقوله تعالى: {إنَّه لقولٌ فصلٌ. وما هو بالهزل} أي: حق وصدق، بيِّن واضح، {وما هو بالهزل} أي: جد ليس بالهزل، وهو القول الَّذي يفصل بين الطَّوائف والمقاولات وتنفصل به الخصومات [3].

وعليه جاء مُؤَكداً بعِدَّة مؤكدات؛ للرد على إنكار الكافرين بالقرآن، أو للبعث والنُّشور، على أنَّ القرآن أو بعث الإنسان: {لقول فَصل. وما هو بالهزل}، وسياق السُّورة يؤيد القول الثَّاني؛ لأنَّ السُّورة كُلُّها في معرض إثبات قدرته ﷻ على بعث الإنسان من خلال القَسَمَين: الأول والثَّاني، ولفت نظر الإنسان إلى مبدأ خَلقه [4].

هذا إضافة إلى التَّعبير بلفظي: (الرَّجْع) و(الصَّدع) اللَّذين يلمح فيهما الإشارة إلى رجع الإنسان بعد الموت، وبعثه من الأرض إثر تصدُّعها عنه [5].

ثمَّ يأتي الإخبار عن الكفار بقوله تعالى: {إنَّهم يكيدون كيداً. وأكيدُ كيداً} استئناف بياني ينبئ عن سؤال سائل يتعجب من إعراضهم عن القرآن مع أنَّه قول فصل ويعجب من معاذيرهم الباطلة مثل قولهم: هو هزل، أو هذيان، أو سحر، فبُين ﷻ للسَّماع أن عملهم ذلك كيد مقصود. وعليه جاء التأكيد بـ{إنَّ} لتحقيق هذا الخبر لغرابته؛ وقوله {وأكيد كيداً} تتميم وإدماج وإنذار لهم حين يسمعونه، وكذلك تثبيت للرسول [6] ﷺ. و{كيداً}: في الموضعين مفعول مطلق مؤكد لعامله، وقصد منه مع التَّوكيد تنوين تنكيره الدَّال على التَّعظيم [7].

---

[1] ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/٩/٨٨.
[2] ـ ينظر: السَّابق.
[3] ـ ينظر: تفسير السَّعدي /٩٢٠
[4] ـ ينظر: السَّابق.
[5] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود /٩/ ١٤٢.
[6] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢٣٨.
[7] ـ ينظر: السَّابق

وتختم هذه السُّورة الكريمة بوعيد شديد اللهجة بقوله تعالى: {فمهِّل الكافرين أمهلهم رويداً}. بدأت الآية بحرف (الفاء) الَّذي دلَّ على تفريع الأمر بالإمهال على مجموع الكلام السَّابق من قوله تعالى: {إنَّه لقولٌ فصلٌ} بما فيه من تصريح وتعريض وتبيين ووعِد بالنَّصر، أي: فلا تستعجل لهم بطلب إنزال العقاب؛ فإنَّه واقع بهم لا محالة.

ونلاحظ الجمع بين {مهِّل} و{أمهلهم} تكرار للتأكيد بقصد زيادة التَّسكين. وجاء المصدر: {رويداً} مؤكداً لفعل {أمهلهم} وهكذا أكد {فمهل الكافرين} مرتين [1].

وبعد، فإنَّ نُذُرَ الحقِ تطرقُ القلوبَ جميعها، فإمَّا أن تفتح له، فيغمرها بالخير والصَّلاح في الدُّنيا والآخرة، وإمَّا أن تغلق دونه؛ فيكسوها بالرَّان، ويظل القلب خاوياً فيمتلئ فساداً أو ضلالاً [2]. نسأل الله السَّلامة والعافية وحسن الخاتمة آمين.

سورة الأعلى

والحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ
أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ
إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾
سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا
يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ
تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ
﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ .

---

[1] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير ٣٠/ ٢٣٩. بتصرف.
[2] ـ ينظر: التصوير القرآني في جزء عمَّ / أناهيد جمال حريري/ ١/ ٤٩٢.

بين يدي السُّورة المباركة:

هذه السُّورة المباركة وردت تسميتها في السُّنَّة سورة: {سبح اسم ربك الأعلى} وسماها أكثر المفسرين وكتَّاب المصاحف "سورة الأعلى" لوقوع صفة الأعلى فيها دون غيرها.

واشتملت على تنزيه الله تعالى والإرشاد إلى وحدانيته لانفراده بخلق الإنسان وخلق ما في الأرض مما فيه بقاؤه. وعلى تأييد النَّبي- صلى الله عليه وسلم- وتثبيته على تلقي الوحي [١].

يربطها البقاعي بما قبلها بقوله: لَمَّا تضمن أمره سبحانه في آخر الطَّارق بالإمهال والنَّهي عن الاستعجال الَّذي هو منزه عنه الكون نقصاً، وأشار نفي الهزل عن القرآن الذي وسموه به، وهو في غاية البعد عنه، إلى غير ذلك مما أشير إليه فيها ونزه نفسه الأقدس ﷻ عنه، أمر أكمل خلقه رسوله المنزل عليه هذا القرآن ﷺ بتنزيه اسمه؛ لأنَّه وحده العالم بذلك حق علمه، وإذا نزه اسمه عن يدعو به وثناً أو عيره، أو يضعه في غير ما يليق به، كان لذاته ﷻ أشد تنزيهاً.... [٢].

الدِّراسة البلاغيَّة التحليليَّة:

فجاء افتتاح السُّورة المباركة بأمر النَّبي ﷺ بأن يسبح اسم ربِّه بالقول يؤذن بأنَّه سيُلقي إليه عَقِبَه بشارة وخيراً له؛ وذلك قوله تعالى: {سنقرئك فلا تنسى} [الأعلى :٦] وفي ذلك براعة استهلال، ولا شك أنَّ الخطاب للنَّبي ﷺ ومن بعده لكُلِّ قلبٍ واعٍ محبٍ للقرآن. الكريم

والتَّسبيح: التَّنزيه عن النَّقائص، وهو من الأسماء الَّتي لا تضاف لغير اسم الله تعالى، وكذلك الأفعال المشتقَّة منه، لا تَرفع ولا تنصب على المفعوليَّة إلا ما هو اسم الله، وكذلك أسماء المصادر منه نحو: سبحان الله[٣]

وإضافة كلمة "رب" إلى ضمير المخاطب في {ربِّك} المقصود الأول به رسول الله ﷺ وهي إضافة تشريف ورحمة؛ لأنَّ كلمة "رب" تدلُّ على القرب والعطف والرَّحمة وهي تجلب معها معنى الرِّضى والحرحمة. ولا يقتصر ذلك على النَّبي ﷺ ؛ بل يصل من بعده إلى كُلِّ تالٍ أو سامعٍ متأملٍ بقلب يقظ. مع دلالة هذه الإضافة على أن سيكون له حظ زائد على التَّكليف بالتَّسبيح.

---

١ ـ ينظر: التحَّرير والتَّنوير لابن عاشور (٢٤٠/٣٠).
٢ ـ ينظر: نظم الدُّرر/ ٢١/ ٣٨٨.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٤٠/٣٠.

والتَّسبيح قد يتوجَّه للرَّب أو لاسمه، والأول هو الأرجح عند جمهور من المفسرين؛ فالاسم صلة جيء به لضرب من التَّعظيم على سبيل الكناية (١)

ويأتي وصف الرَّب تبارك وتعالى بقوله: {الأعلى} قيل المراد به العلويَّة والتَّنزيه في المكانة من كُلِّ شائبة نقص (٢). وقيل: {الأعلى} في الآية بمعنى: (علوَ الحق في العظمة والكبرياء) (٣). وقيل: العلو في عرف النَّاس يفيد الكمال، خاصة مع عدم ذكر مفضَّل عليه، للدلالة على التَّفضيل المطلق (٤). وإثار هذا الوصف في هذه السُّورة؛ لأنَّها تضمنت التَّنويه بالقرآن والتَّثبيت على تلقيه وما تضمنه من التَّذكير؛ وذلك لعلوِّ شأنه؛ فهو من متعلقات وصف العلوّ الإلهي إذ هو كلامه جلَّ جلاله (٥).

وقد جُعل من قوله تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى} دعاء السُّجود في الصَّلاة؛ ليقرن أثر التَّنزيه الفعلي بأثر التَّنزيه القولي (٦).

ويأتي قوله تعالى: {الَّذي خلق فسوى} حاملاً وصفين له -عزَّ وجلَّ- وقد أطلق الخلق ليعمَّ كُلَّ مخلوق. وعطف عليه {فسوى} بـ(فاء) التَّفريع باعتبار أن الخلق مقدم، وإن كان ذلك بلا مهلة لِمَا للعطف بالـ(فاء) من معنى الترتيب والمسارعة.

والتَّسوية: التَّقويم والتَّعديل، وقد خلق الله تعالى كُلَّ مخلوق مستوٍ على أحسن ما يتناسب لخلقه وما خُلق له (٧).

ويعطف عليه صفتين أخريين بقوله تعالى: {والذي قدَّر فهدى} أعيد الاسم الموصول في هذه الآية مع إغناء حرف العطف عن تكراره للاهتمام بكُلِّ صلة من هذه الصِّلات وإثباتها لمدلولها، وهذا من مقتضيات الإطناب البلاغي (٨).

معنى: {والَّذي قدَّر فهدى} أي: قدَّر كُلَّ ما خلق وهده إلى ما قدَّره له (٩). ولذا عطف: {فهدى} على {قدَّر} عطف المسبَّب على السَّبب.

وهذه الهداية العامة، الَّتي مضمونها أنَّ هدى كُلَّ مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيويَّة (١٠). ولهذا قال تعالى فيها (١١): {والَّذي أخرج المرعى. فجعله غُثاءً

---

١ ـ ينظر: روح المعاني للألوسي/٣٠/٤٣٩. (وعدَّه الزركشي من المجاز الإفرادي ونوعه: إطلاق الاسم على المسمَّى / ينظر البرهان في علوم القرآن٢/٢٩٧)
٢ ـ ينظر: نظم الدُّرر للبقاعي/٢١/٣٨٩
٣ ـ ينظر: بصائر ذوي التَّمييز للفيروز أبادي/٢/١٥٦.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٢٤٣.
٥ ـ ينظر: السَّابق بتصرف.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور٣٠/٢٤٤. بتصرف
٧ ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/٩/٩٥.
٨ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /ابن عاشور/٣٠/٢٤٥.
٩ ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/٩/٩٦. بتصرف
١٠ ـينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٠.
١١ ـ ينظر: السَّابق.

أحوى} يأتي مرتبطاً بما قبله بحرف الوصل (الواو) وهو تذكير لخلق جنس النَّبات من شجر وغيره. ولكن خصَّ ذكر الكلأ؛ لأنَّه معاش السَّوائم الَّتي يكثر انتفاع النَّاس بها (١).

وفي قوله تعالى: {فجعله غثاء أحوى} يقول ابن عاشور: ويجوز أن يكون المقصود منه إدماج العبرة بتصاريف ما أودع الله في المخلوقات من مختلف الأطوار من الشيء إلى ضده للتذكير بالفناء بعد الحياة. وذلك لأنَّ الغُثاء: المراد منه: الهشيم الجاف من ورق الشَّجر الَّذي إذا خرج السَّيل رأيته مخالطاً زبده (٢).

ونجد لاختيار هذه الكلمة إعجاز صوتي؛ فقوة صوت حرف (الغين) تقابل القوة الظاهرة من النَّبات الجاف، ثم يصور حرف (الثاء) بضعفه وبعده الألف الممتدَّة تدرج مراحل الضَّعف للنبات، ثمَّ تأتي (الهمزة) لتقابل تحول النَّبات إلى هشيم (٣).

وقد وصف بقوله تعالى: {أحوى} (٤) وهو نعت مؤكِّد أو حالاً من المرعى (٥)، أي: أخرج المرعى أحوى: أخضر، ثمَّ صيَّره غثاء بتغير لونه وشكله.

وعليه قيل: هذه الآية تلفت إلى سرعة زوال الدَّنيا وفنائها؛ لذلك ينبغي عدم الالتفات إليها والانشغال بها؛ لأنَّها مانعة من التَّسبيح الخالص لله تعالى (٦).

يشرح الشيخ السَّعدي كيفيَّة التسبيح بقوله: يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحاً يليق بعظمة الله تعالى بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كُلِّ اسم بمعناها الحسن العظيم، وتذكر أفعاله الَّتي منها أنَّه خلق المخلوقات فسواها، أي: أتقنها وأحسن خلقها، {والذي قدر} تقديراً تتبعه جميع المقدرات {فهدي} إلى ذلك جميع المخلوقات (٧).

ثمَّ تأتي البشارة للنَّبي الكريم ﷺ بعد أن أمره بالتسبيح (٨) بقوله تعالى: {سنقرئك فلا تنسى} على طريقة الاستئناف البياني وعلى أسلوب الالتفات بضمير المتكلم المعظِّم؛ لأنَّ التَّكلم أنسب بالإقبال على المُبشَّر. فتنشئ في نفس النَّبي ﷺ ترقباً لوعد بخير يأتيه؛ فبشَّره بأنَّه سيزيده من الوحي، فـ(السين) في قوله تعالى: {سنقرئك}

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢٤٦. بتصرف.
٢ ـ ينظر: تهذيب اللغة الأزهري (غثى)، لسان العرب / ابن منظور (غثا)
٣ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ/أناهيد جمال حريري/٥٠٠/١.
٤ ـ ينظر: التِّبيان في إعراب القرآن للعكبري/٣٨٩.
٥ ـ ينظر: المرجع السَّابق.
٦ ـ ينظر: روح البيان للبروسوي/٤٨١/١٠.
٧ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٠.
٨ ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري /٧٥/٣٠.

علامة على استقبال مدخولها، وتقتضي مع ذلك تأكيده واستمراره وتجدده مع ما فرَّع على قوله: {سنقرئك} قوله تعالى: {فلا تنسى} [١].

وقد قيل: كانت هذه السُّورة من أوائل السُّور نزولاً. والجملة {فلا تنسى} خبر مراد به الوعد والتَّكفُّل له بذلك [٢].

ويأتي الاستثناء بقوله تعالى: {إلا ما شاء الله} الاستثناء مفرَّع من الفعل: {تنسى} وما موصولة هي المستثنى. والتَّقدير إلا الَّذي شاء اللهُ أن تنساه فحُذِفَ مفعول فعل المشيئة جرياً على غالب استعماله في كلام العرب [٣].

يقول الشيخ السَّعدي: أي ستحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب ويعيه قلبك، فلا تنسى منه شيئاً. أي: إنَّ الله تعالى سيعلمه علماً لا ينساه {إلا ما شاء اللهُ} مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة بالغة: {إنَّه يعلم الجهر وما يخفى} [٤].

والالتفات إلى الاسم الجليل: (الله) في الآية؛ لتربية المهابة والإيذان بان المشيئة على عنوان الألوهيَّة المستتبعة لسائر الصِّفات [٥].

وقد كشف عِلَّة هذا النَّسخ أو النسيان [٦] بقوله تعالى: {إنَّه يعلم الجَّهر وما يخفى} وفي قوله تعالى: {الجهر) و (ما يخفى) يظهر الطِّباق ليتضح شمول علمه لكُلِّ شيء؛ حتَّى الخفايا الَّتي قد لا تظهر للنَّاس ولا يدركونها[٧].

ثمَّ تأتي البشارة الثَّانية للنَّبي ﷺ بقوله تعالى: {ونُيسِّرُك لليسرى} وصلت الجملة بحرف العطف عطفت على قوله تعالى: {سنقرئك فلا تنسى} [الأعلى:٦] وجملة: {إنَّه يعلم الجهر وما يخفى} [الأعلى:٧]. وهذا العطف من عطف الأعم على الأخص في المآل [٨]

والتَّيسير: جعل العمل يسيراً على عامله. واليسرى: مؤنث الأيسر، جات بصفة (فُعلى) لتدلَّ على قوة الوصف؛ لأنَّها أفعل. وعلى هذا المعنى: فالتَّيسير مستعار للهيئة، وهذه الاستعارة تحسِّنها المشاكلة بين (نُيسرك) و(اليسرى) [٩].

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٤٧/٣٠.
٢ ـ ينظر: السَّابق
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٤٧/٣٠.
٤ ـ ينظر: تفسير السِّعدي /٩٢١.
٥ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود /١٤٤/٩.
٦ ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسبوري/٧٦/٣٠.
٧ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمّ أناهيد جمال حريري /٥١٤/١.
٨ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٥٠/٣٠. بتصرف.
٩ ـ ينظر: السَّابق. بتصرف.

وقد جاء الجناس الاشتقاقي بين قوله تعالى: {نيسرك} و {اليسرى}[1] ليتحقق التَّجانس الشَّكلي، وينضم إلى التَّجانس الدَّلالي بينهما[2].

ثمَّ أُمِرَ الرسول ﷺ بقوله تعالى: {فذكِّر إنَّ نفعت الذِّكرى} وغرض هذا الأمر الإرشاد والنُّصح والتَّنبيه [3].

فـ(الفاء) التي بدأ بها المقطع للتَّفريع على ما تقدَّم تفريع النَّتيجة على المقدِّمات، ومفعول: {فذكِّر} محذوف لقصد التَّعميم، وجملة: {إن نفعت الذِّكر} معترضة بين الجملة المعللة وعلتها، وهذا الاعتراض منظور فيه إلى العموم الَّذي اقتضاه حذف مفعول {فذكِّر}، فأداة الشَّرط {إن} مقصود بها التَّشكيك في نفع كُلِّ من ذُكِّر.

لذا يقول الشَّيخ السِّعدي: أي ذكِّر بشرع الله وآياته، ما دامت الذِّكرى مقبولة، والموعظة مسموعة سواء حصل من الذِّكرى جميع المقصود أو بعضه. ومفهوم الآية الكريمة أنَّه لم تنفع الذِّكرى، بأن كان التَّذكير يزيد في الشَّر، أو ينقص من الخير فعندها لم تكن الذِّكرى مأموراً بها، بل منهياً عنها؛ فالذِّكرى ينقسم النَّاس فيها إلى قسمين منتفعون وغير منتفعين [4]. فأمَّا المنتفعون فقال عنهم سبحانه وتعالى: {سيذكر من يخشى}. فاعل الفعل {يخشى} ضمير مستتر يعود على {مَنْ} وتكرار إسناده دليل على تقوية الفعل والعمل به [5]. وقد نُزِّل الفعل: {يخشى} منزلة الفعل اللَّازم فلم يقدر له مفعول، أي: يتذكر من الخشية جبلته [6].

ثمَّ تأتي المقابلة بقوله تعالى: {ويتجنبها الأشقى} فجاء وصفه باسم تفضيل؛ لأنَّ شقاءه لا يعادل شقاء أي أحد في الآخرة؛ وعليه يأتي وصف حاله بقوله تعالى: {الذي يصلى النَّار الكبرى} وجاء تعريف {النَّار} بـ(ال) لتفخيمها، وبيان شِدَّة حرارتها ومدى إيلامها [7].

وجاء التَّفصيل في عذاب ذلك الأشقى بقوله تعالى: {ثمَّ لا يموت فيها ولا يحيى} كناية عن نفي خلاصه وراحته من العذاب بناء على أنَّ لازم الإحراق الهلاك، ولازم الحياة عدم الهلاك [8]. الكلام على حقيقته، فاصطلاء الأشقى في نار جهنَّم لا يميته

---

[1] ـ ينظر: حدائق الرَّوح والرَّيحان / الشَّافعي/٣١/٣٦٧.
[2] ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ / أناهيد جمال حريري/١/٥١٥.
[3] ـ ينظر: البلاغة القيمة د/ عبد القادر حسين :٨٢.
[4] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢١.
[5] ـ ينظر: البلاغة القيمة د/ عبد القادر حسين/٨٢.
[6] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٢٥٢.
[7] ـ ينظر: البلاغة القيمة /٨٢.
[8] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٢٥٤.

ولا يحيه؛ لأنَّ الموازين مختلفة في الآخرة عن موازين الدُّنيا؛ وذلك بالطبع أبلغ في التَّعذيب [1].

وذلك كما قال الطَّبري: لأنَّ العرب كانت إذا وصفت الرَّجل بوقوع في شِدَّة شديدة قالوا: لا هو حي، ولا هو ميت، فخاطبهم اللهُ بالَّذي جرى به ذلك في كلامهم [2].

وقد أبرز صورة عذابهم محسن الطِّباق بين: (يموت) و (يحيا)، لأجل التَّضاد الظَّاهر بينهما [3].

ثمَّ يأتي الاستئناف البياني إجابة لمن يتساءل عن حال جزاء من يخشى فقال: {قد أفلح من تزكى} مؤكداً بحرف التَّحقيق {قد} وزمن الفعل الماضي {أفلح}.

وقد جُمعت أنواع الخير في هذه الآية؛ فإنَّ الفلاح نجاح المرء فيما يطمح إليه فهو يجمع معنيي الفوز والنَّفع، وذلك هو الظَّفر المبتغى من الخير [4]. ومعنى الآية قد فاز وربح من طهَّر نفسه ونقَّاها من الشَّرك والظُّلم ومساوئ الأخلاق، {وذكر اسم ربِّه فصلى} أي: اتصف بذكر الله: وانصبغ به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصاً الصَّلاة الَّتي هي ميزان الإيمان [5].

ورتبت هذه الخصال الثَّلاث على ترتيب تولدها، فأصلها: إزالة الخباثة النَّفسيَّة من عقائد باطلة، وحديث النَّفس بالمضرات الفاسدة، وهو المشار إليه بقوله {تزكى}، ثمَّ استحضار معرفة الله بصفات كماله وحكمته ليخافه ويرجوه وهو المشار إليه بقوله {فذكر إن نفعت الذكرى}، ثمَّ الإقبال على طاعته وعبادته وهو المشار إليه بقوله: {فصلى}[6] لقوله تعالى: {إنَّ الصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر}[العنكبوت:٤٥]

وجاء قوله تعالى: {بل تؤثرون الحياة الدَّنيا} مبتدئ بحرف الإضراب أي: انصرف القول أو الحكم إلى ما يأتي بعد {بل}، والمعنى: أنَّهم بُعداء عن أن يظن بهم التَّنافس في طلب الفلاح؛ لأنَّهم يؤثرون الحياة الدُّنيا.

---

١ ـ ينظر: أضواء اللبان للشِّنقيطي/ ٩/ ٩٨.
٢ ـ ينظر: جامع البيان /١٨٩/٣٠.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٢٥٤.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢٥٤.
٥ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢١.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/ ٣٠/ ٢٥٥. وما بعدها

والإيثار: اختيار شيء من بين متعدد [1]. فيخرج المعنى إلى: تقدمونها على الآخرة، وتختارون نعيمها المنغَّص الكدر الزائل على نعيم الآخرة [2]

ويأتي العطف على بقوله تعالى: {والأخير خيرٌ وأبقى} عطف الخبر على الإنشاء؛ لأنَّ هذا الخبر يزيد إنشاء التَّوبيخ توجيهاً وتأييداً بأنَّهم في إعراض عن النَّظر في دلائل حياة آخرة قد أعرضوا على ما هو خير وأبقى [3]. فحب الدُّنيا وإثارها على الآخرة رأس كُلِّ خطيئة [4].

ثمَّ تأتي جملة التَّذييل بقوله تعالى: {إنَّ هذا لفي الصُّحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى}؛ فهو الكلام النَّافع الثَّابت في كتب إبراهيم وموسى - عليهما السَّلام - قصد به إبلاغ المشركين الَّذين كانوا يعرفون رسالة "إبراهيم" ورسالة "موسى" ولذلك أكِّد هذا الخبر بـ{إنَّ} و(لام) الابتداء؛ لأنَّه مسوق إلى المنكرين.

وحيث ما يقلِّب العبد نظره في ملك الله تعالى يجد في ذلك عظيم القدرة، ودقَّة الصُّنع، وإحكام التَّسخير، في السَّماء وما فيها من مخلوقات، وفي الأرض ما حوت من بديع الصَّنعة وكلٌّ قائمٌ بهداية الخالق لِمَا خلق له؛ فسبحان ربنا العظيم، ما عبدناه حق عبادته، ولا شكرناه حق شكره، لا إله إلا هو تبارك وتعالى وتقدس.

والله أعلم وأحكم، وصل اللهم على نبينا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

سورة الغاشيَّة

الحمد لله رب العلمي ن عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ

---

[1] - ينظر: السَّابق.
[2] - ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٤.
[3] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٢٥٧.
[4] - ينظر: تفسير السعدي/ ٩٢٤.

﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ
مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ
كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾
وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ
﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ
إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ .

بين يدي السُّورة المباركة:

سميت هذه السُّورة المباركة في المصاحف والتَّفاسير "سورة الغاشيَّة" لوقوع لفظ الغاشية في أولها، وثبت في السُّنَّة تسميتها "هل أتاك حديث الغاشيَة"

اشتملت على تهويل يوم القيامة وما فيه من عقاب قوم مشوهةٍ حالتهم، ومن ثواب أقوامٍ ناعمةٍ حالتهم، وعلى وجه الإجمال المرهَّب والمرغَّب [1].

يربطها الإمام البقاعي بما قبلها قائلاً: لما ختمت "سبح" بالحث على تطهير النُّفوس عن ونهم الدُّنيا، ورغَّب في ذلك بخيريَّة الآخرة تارة، والاقتداء بأولى العزم من الأنبياء أخرى، رهَّب أول هذه السورة من الإعراض عن ذلك مرة، ومن التزكي بغير منهاج الرسل أخرى، قال تعالى مذكراً بالآخرة الَّتي حث عليها آخر تلك مقرراً لأشرف خلقه ﷺ أنَّ ذلك أعظم في تقدير اتباعه، وأقعد في تحريك النُّفوس إلى تلقي الخير بالقبول [2]؛ فقال تعالى: {هل أتاك حديث الغاشية}.

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

وعليه افتتحت السُّورة المباركة بقوله تعالى: {هل أتاك حديث الغاشية} هذا الاستفهام مستعمل في التَّشويق إلى معرفة هذا الخبر؛ لِمَا يترتب عليه من الموعظة.

---

[1] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور (٢٦٠/٣٠) تأويل مشكل القرآن /بن قتيبة/ ٥٣٨ ، تفسير النسفي /٣٥١/٤.
[2] ـ ينظر: نظم الدُّرر/١/٢٢وما بعدها.

وكونُ الاستفهام بـ{هل} المفيدة معنى (قد) فيه مزيد تشويق؛ فهو استفهام صوري يكنى به عن أهميَة الخبر بحيث شأنه أن يكون بَلَغَ السَّامع خبرُ الغاشية[١]

أو يكون في الاستفهام تعجب من خبر الغاشيَّة[٢] وأهوالها وقد رجَّح هذا غير واحد من المفسرين [٣].

وإضافة كلمة: {حديث} إلى: {الغاشية} الَّذي يقتضي موصوفاً لم يذكر؛ هو في عرف البلاغة إيهام لزيادة التَّشويق إلى بيانه الآتي ليتمكن الخبر في الذِّهن كمال تمكن.

وهذه الصَّفة: {الغاشية}: مشتقة من الغشيان وهو تغطية متمكِّنة، هي صفة أريد بها حادثة القيامة. وهي هنا علم بالغلبة على ساعة القيامة. يؤكد ذلك قوله تعالى: {وجوه يومئذٍ} أي: يوم الغاشية [٤].

ونجد لأصوات كلمة: {الغاشيَة} أثراً كبيراً في تصوير ذلك الحدث الرَّهيب "فـ(الغين) بقوتها وبعدها (الألف) بامتدادها تقابلان أوَّل حدث الغشيان وامتداده ، و(الشِّين) بتفشيها وانتشارها تقابل: انتشار الغشيان، و(الياء) و (الهاء) تقابلان إحكام الغشيان وسيطرته"[٥].

وجاء جواب الاستفهام التَّشويقي بقوله تعالى: {وجوهٌ يومئذ خاشعة}؛ كأنَّه قيل من جهته ﷺ ما هو؟ [٦]. أو يكون مستأنف نحوياً؛ لبيان ما تضمنته الغاشية من وجوه متصفة بالصَّفات المذكورة في السُّورة [٧].

وأول ما يطالعنا في جملة الجواب كلمة {وجوهٌ} بما فيها من تنوين الضَّم لكونها مبتدأ وتنوينها دلَّ على كثرة تلك الوجوه. ثمَّ يأتي الظَّرف {يومئذٍ} مقدَّماً على عاملة {خاشعة} لشدَّة الاهتمام بذلك اليوم [٨].

وتأتي كلمة: {خاشعة} خبرٌ لهذه الجملة، والكلمة تدور مادتها حول الخضوع والانكسار في البدن والبصر [٩]. فتصور أصوات حرف الكلمة مراحل حدوثها حيث تبدأ بـ(الخاء) القويَّة ويزيد قوتها امتداد (الألف) بعدها؛ فتصوران بداية حدث الخشوع

---

[١] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٢٦٠ وما بعدها.
[٢] ـ ينظر: فتح القدير /للشوكاني/٥/٥٤٠.
[٣] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٤٨/٩، الشوكاني/٥/٥٤٠، الألوسي٣٠/٤٥٤.
[٤] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير / ٣٠/ ٢٦٢.
[٥] ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ أناهيد حريري/ ٥٢٨/١.
[٦] ـ نظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٤٨/٩، وكذا روح المعاني للألوسي/ ٣٠/٤٥٤، ٤٥٥.
[٧] ـ ينظر: فتح القدير للشوكاني/٥/٤٥٠، ٤٥١
[٨] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٧٢/٣٠.
[٩] ـ ينظر: لسان العرب ابن منظور "خشع"

والذِّلة وامتداده، وتأتي (الشين) بتفشيها وانتشارها؛ لتقابل انتشار الخشوع في كافة ملامح الوجه، ثمَّ (العين) بنصاعتها وقوتها ومعها (الهاء) لتقابلان آخر الحدث، وهو استحكام المذلَّة والمهانة بوجوه الكفار يوم القيامة. واختيار الجملة الاسميَّة في هذا الحدث لِمَا لها من قوة تأكيد وثبات للمعنى الَّذي تحمله

ثمَّ تأتي الأخبار متتابعة عن تلك الوجوه بقوله تعالى: {عاملةٌ ناصبةٌ} ذكر المفسِّرون احتمالات عِدة لهذا لمقطع؛ لكن أرجح ما قيل: هو قول الشيخ السَّعدي قال: أخبر ﷻ عن وصف كلا الفريقين فقال في وصف أهل النَّار: {وجوهٌ يومئذ} أي: يوم القيامة {خاشعةٌ} من الذُّل والفضيحة والخزي. {عاملةٌ ناصبةٌ} أي: تعبة في العذاب، تُجرُّ على وجوهها وتغشى وجوههم النَّار.

ثمَّ قال: ويحتمل أنَّ المراد في الدُّنيا لكونهم في الدُّنيا أهل عبادات وعمل؛ ولكنه لمَّا عدم شرطه وهو الإيمان صار يوم القيامة هباءً منثوراً، لكنَّ الصَّواب الاحتمال الأول؛ لأنَّه مقيد بالظرف وهو يوم القيامة [١].

ويستوقفنا للتأمل البدء بالوجوه الخاشعة؛ قيل: لمناسبتها للابتداء بـ{الغاشيَة} [٢]. والحق أنَّه عُبِّرَ بالوجوه عن أصحابها على سبيل الكناية. أو المجاز العقلي، أو المجاز المرسل [٣].

ويأتي الخبر الرَّابع عنها بقوله تعالى: {تصلى ناراً حاميةً} ليحدد مصير تلك الوجوه على وجه الإجمال، أي: يصيبها حرُّ النَّار؛ وعليه جاءت كلمة {نَّاراً} بعد {تصلى} نكرة لزيادة التَّهويل والإرهاب، وليُجرَى على {ناراً} وصف {حاميّةً} لإفادة تجاوز حرَّها المقدار المعروف [٤] بين الخلائق.

ثمَّ يأتي تفصيل ذلك المصير بقوله تعالى: {تُسقَى من عين آنية. ليس لهم طعامٌ إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع}.

فجاء الخبر الخامس بقوله تعالى: {تسقى من عين آنية}؛ لأنَّ ذكر الاحتراق بالنَّار يُحضر في الذِّهن تطلب إطفاء حرارتها بالشَّراب؛ فجُعل شرابهم من عين آنية [٥]

يفسرها الإمام الشِّنقيطي [٦] بقوله: أي شديدة الحرارة ويشهد له القرآن بقوله تعالى: {يطوفون بينها وبين حميمٍ آن}.

---

١ ـ ينظر: تفسير السّعدي /٩٢٢.
٢ ـ ينظر: نظم الدُّرر للبقاعي/٢٢/ ٣.
٣ ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/٢٦٢/٣٠.
٤ ـ ينظر: السَّابق/٢٦٣/٣٠.بتصرف
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٦٣/٣٠.
٦ ـ ينظر: أضواء البيان /١٠٦/٩.

ويؤكده الشيخ السِّعدي بقوله: أي حارةٌ شديدةُ الحرارة قال تعالى: {وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمهل بشوي الوجوه} فهذا شرابهم [١] - نسأل الله السَّلامة والعافية -

وذِكرُ السُّقيَ يُخطر في الذِّهن تطلب معرفة ما يَطْعمونه؛ فجيء به خبراً سادساً بجملة: {ليس لهم طعامٌ إلا من ضريع} أول ما يستوقفنا في هذه الآية أسلوب القصر الحقيقي فقد خصَّص هذا الطعام بأصحاب الوجوه الخاشعة وإن وجد غيره في النَّار مثل الزقوم وغيره.

قيل: الضَّريع هو نبات أخضر منتن خفيف يرمى به البحر وله جوف. وقيل: هو العرفج والخُلَّة، وقيل: مادام رطباً فهو ضريع، فإذا يبس فهو الشَّربق [٢]. وقيل: هو نبات ذو شَوك إذا كان رطباً وإذا يبس يصير مسموماً [٣].

ونجد في كلمة: {ضَريع} غلبت الأصوات القويَّة مما يوحي بالشِّدة والغلظة المنبئ عن اللأم والعذاب لأكليه [٤]

ولأنَّ المقصود من الطعام أحد أمرين: إمَّا أن يسد جوعاً، وإمَّا أن يسمن بدناً من الهزال يستدرك ﷻ نافياً عنه تلك الفوائد بقوله تعالى: {لا يسمن ولا يغني من جوع}. فجاء تنكير {جوعٍ} للدَّلالة على مزيد من التَّحقير لهم، أي: لا يغنى من (جوع) ما أي: مهما كان نوعه [٥].

وفي الآية احتباك إذ نفي السِّمن أولاً يدلُّ على إثبات الهزال، ونفي الإغناء عن الجوع ثانياً يدلُّ على نفي الشَّبع [٦]. وبذلك لا يزدادون إلا هزالاً على هزالهم السَّابق. ولا يزدادون إلا جوعاً على جوعهم المستمر، وهذا لون من ألوان العذاب الشَّديد وما ظلمهم الله تعالى؛ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وتأتي المقابلة المعجزة بوصف أصحاب الجنَّة مقابل كُلِّ ما ذكر من أحوال أهل النَّار بقوله تعالى: {وجوهٌ يومئذٍ ناعمة. لِسعْيِها راضية. في جنَّة عالية...} وذلك لِمَا للمقابلة من قيمة بلاغيَّة تنبه ذهن المتلقي إلى الفروق المتباينة وتحبر ملامح كُلِّ صورة منهما بأوضح ما تكون عليه الإيضاح.

وقد فصلت عما قبلها مع كثرة عطف أمثالها بحرف الوصل (و) قيل: وجه الفصل التَّنبيه على أنَّ المقصود من الاستفهام في {هل أتاك حديث الغاشيَة} الإعلام

---

١ - ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٢
٢ - ينظر: لسان العرب لابن منظور (ضرع)
٣ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور ٢٦٣/٣٠
٤ - ينظر: التَّصوير القرآني / أناهيد جمال حريري/٥٢٨/١.
٥ - ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٤٩/٩.
٦ - ينظر: نظم الدُّرر للبقاعي/٨/٢٢.

بحال المعرَّض بتهديدهم؛ وهم أصحب الوجوه الخاشعة، فلمَّا حصل ذلك الإعلام بجملة: {وجوه يومئذٍ خاشعة} إلى آخره تمَّ المقصود؛ فجاءت الجملة بعدها مفصولة؛ لأنَّها جعلت استئنافاً بيانياً؛ أي: إجابة عن سؤالٍ في الذِّهن مفاده؛ ما هو أنس ونعيم المؤمنين [١]. وقيل أيضاً: لم تعطف {جوه} الثَّانية في هذه الآية على {وجوهٌ} الأولى إيذاناً بكمال تباين مضمونهما [٢]. وكلا الرأيين حق.

وعليه جاء وصفها بقوله تعالى: {وجوهٌ يومئذ ناعمةٌ} جملة اسميَّة دلَّت على الثُّبوت والتَّأكيد والدَّوام. وقَّدِمَ الظَّرف {يومئذٍ} زيادة في الاهتمام بذلك اليوم الموعود. و{ناعمةٌ} خبر عن المبتدأ: {وجوهٌ}. قيل: يجوز أن يكون مشتقاً من (نُعم) (ينعُمُ) الَّذي مصدره نعومة؛ وهي اللين وبهجة المرأى وحسن المنظر.

وقيل: يجوز أن يكون مشتقاً من (نَعِم) بكسر العين (ينعَم) إذا كان ذا نعمة، أي: حسن العيش والتَّرف [٣].

ويقول الشيخ السِّعدي: {ناعمةٌ} أي: قد جرت عليهم نضرة النَّعيم، فنضرت أبدانهم واستنارت وجوههم، وسروا غاية السُّرور [٤].

وتتتابع الإخبار عن حال تلك الوجوه فيقول تعالى: {لسعيها راضية} هذه الآية حملت الكناية عن كونها محمودة العاقبة [٥]. وإنَّما قيل: {راضية} دون (ترض) بالنظر لزمان الحكم، وذلك بعد مشاهدتها لثواب سعيها [٦]. وتحمل الكلمة بصيغتها تأكيد فوق تأكيد الجملة الاسمية؛ لأنها تفيد الوصف بالرِّضا على الدَّوام وذلك ما تدلُ عليه الصِّفة المشبَّهة باسم الفاعل.

ونلاحظ تقديم الخبر {لسعيها} على المبتدأ: {راضية} للاهتمام بشأن سعيهم في الدُّنيا الَّذي هو أساس ثوابهم في الآخرة [٧].

كما نلاحظ تتابع أخبار النَّعيم لهذا الفريق السَّاعين لرضا الله ﷻ عليهم في الدَّنيا فأرضاهم يوم المعاد؛ فيقول عزَّ من قائل في مكان حلولهم: {في جنَّةٍ عاليةٍ}.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٦٤/٣٠. بتصرف
٢ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٤٩/٩.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٦٤/٣٠. بتصرف
٤ ـ ينظر: تفسير السعدي/٩٢٢.
٥ ـ ينظر: حاشية الشهاب /٣٥٣/٨، روح المعاني للألوسي/٤٥٨/٣٠.
٦ ـ ينظر: حاشية الشهاب/٣٥٣/٨.
٧ ـ ينظر: البلاغة القيمة/ د عبد القادر حسين/٨٧.

وصف {جنَّة} بـ{عالية} لزيادة الحسن؛ لأنَّ أحسن الجنَّات ما كان في المرتفعات؛ قال تعالى: {كمثل جنَّة بربوة} [ابقرة:٢٦٥] فذلك يزيد حسن باطنها بحسن ما يشاهده المخلد فيها من مناظر؛ وهذا وصف شامل لحسن موقع الجنَّة التي رزقوها.

فنجد أنَّه تعالى ذكر صفتها الذَّاتية وهي (العلو) ثمَّ ثُني بعد ذلك بصفة ثانية للجنَّة تنزيها عما يُعدُّ من نقائص مجامع النَّاس، وهو اللغو في قوله تعالى: {لا تسمعُ فيها لاغيةً} فتنكير كلمة {لاغيةً} في سياق النَّفي أفاد العموم [١] بذلك وصفت بالهدوء.

تلك منزلة أدبيَّة رفيعةٌ؛ فهو إكرامٌ لهم حتَّى في الكلمة الَّتي يسمعونها. وأسلوب الخطاب في {لا تسمع} يوقظ ضمائر المخاطبين لترك اللغو وفضول الكلام في دنياهم، لِمَا أشارت إليه الآية من صفة النقص.

ثم يثني بوصف تلك الجنَّة العالية بقوله تعالى: {فيها عينٌ جارية} أول ما يستوقفنا للتأمل تقديم الخبر {فيها} على المبتدأ {عينٌ} قيل: اهتمام بأمر الجنَّة، ودلالة على اختصاص الجنَّة دون غيرها بهذه العيون الجَّارية [٢].

ثمَّ مجيء كلمة {عينٌ} نكرة دلالة على التَّكثير والتَّعظيم؛ ومعلوم أنَّها عيونٌ وأنهارٌ تجري، ومن لوازم تلك العيون الجارية الصَّفاء والنَّقاء والمتعة؛ فأشجارٌ وأزهار، وروحٌ وريحان وجنَّاتُ نعيم، وهذا التَّعميم يقابل العين الآنية في الحميم للقسم الأول.

ثمَّ يأتي الإسهاب في صفها بقوله جلَّ من قائل: {فيها سررٌ مرفوعة} بنفس التَّرتيب السَّابق لنفس الغرض. وأعيد قوله {فيها} دون أن يعطف {سررٌ} على {عينٌ} عطف المفردات؛ لأنَّ عطف السُّرر على {عينٌ} يبدو نابياً عن الذَّوق لعدم الجامع بين الماء والسُّرر في الذِّهن لولا أن جمعها الكون في الجنَّة؛ فلذلك كرر الظرف: {فيها} تصريحاً بأنَّ تلك الظَّرفية هي الجامع [٣]. فسبحان ربَّ القرآن، كم في إعجازه من دِقة متماهية

ومجيء {سُررٌ} بالرفع يحضر في الذِّهن صورة المنعمين وهم عليها متكئون، مع مقارنة هذا المشهد بمشهد مصير الآخرين وهم في نصب وشقاء. فهي صورة من صور المقابلة المنبئة على الفرق بين حال الفريقين الكافر والمؤمن.

وتستكمل صور النَّعيم في كمال الخدمة والرفاهيَّة، بقوله تعالى: {وأكوابٌ موضوعةٌ} يشرح الشيخ السَّعدي قائلاً: أي أوانٍ ممتلئة من أنواع الشَّراب اللَّذيذ، قد

---

١ ـ ينظر: السَّابق.
٢ ـ ينظر: البلاغة القيمة/ د عبد القادر حسين/٨٨.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٢٦٧.

وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف عليهم الولدان المخلدون.

ثمَّ يقول في وقوله تعالى: {ونمارق مصفوفةٌ} أي: وسائد من حرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفَّت للجلوس والاتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها، ويصفوها بأنفسهم [١]

وتتابع صور النَّعيم في جنان الخلد بقوله تعالى: {وزرابي مبثوثة} أي: بسط مفروشةٌ في كُلِّ مكان، فاكتمل النَّعيم من كُلِّ جانب؛ حيث اشتمل ما تراه العين وما تسمعه الأذن، وما يتذوقون طعمه من شراب وغيره؛ فيكون بذلك قد غشيتهم النِّعمة، كما غشيت أولئك النِّقمة، وتكون الغاشية بمعنى الشَّاملة، وعلى عمومها للفريقين وهي صالحة لغة وشرعاً للمعذبين بالعذاب، وللمنعمين بالنَّعيم.

ونلاحظ مجيء الظرف: {فيها} مرتين: {فيها عينُ حاريةٌ}، {فيها سررٌ مرفوعة} للدلالة على قسمي نعيم الجنَّة الأول: عيون ونزهة. والثاني سرور وسكن [٢].

فلَمَّا تقدم التَّذكير بيوم القيامة ووصف حال أهل الشَّقاء بما وصفوا به؛ فرَّع على ذلك إنكارٌ عليهم إعراضهم على النَّظر في دلائل الوحدانيَّة ؛ فـ(الفاء) في قوله تعالى: {أفلا ينظرون} تفريع التَّعليل على معلل؛ لأنَّ فظاعة ذلك الوعيد تجعل المقام مقام استدلال على أنَّهم محقوقون بوجوب النَّظر في دلائل الوحدانيَّة الَّتي هي أصل الاهتداء إلى تصديق ما أخبرهم به القرآن الكريم من البعث والجزاء، والاهتداء إلى أنَّ منشئ النشأة الأولى عن عدم بما فيها من عظيم الموجودات، لا يُستبعد في جانب قدرته إعادة إنشاء للإنسان بعد فنائه[٣].

وعليه يبدأ المقطع بعد (فاء) التَّفريع بهمزة استفهام إنكاري إنكاراً عليهم إهمال النَّظر في دقائق صنع الله تعالى في بعض مخلوقاته [٤]؛ لأنَّ التأمل في ذلك عبادة من أجلِّ العبادات لِمَا لها من تأثير قوي على اهتداء القلب إلى الخالق العظيم، وتعظيمه بما يستحق ﷻ .

١ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٢.
٢ ـ ينظر: أضواء البيان للشِّنقيطي /١٠٩/٩) بتصرف
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٦٩/٣٠.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٦٩/٣٠. بتصرف

فجاء هذا المقطع لتقرير ما فُصِّل من حديث الغاشيَّة [1]. ولذا تقدمته الهمزة الإنكار والتَّوبيخ على استبعاد الكافرين وقوع البعث بقدرته ﷻ لأنهم لا ينظرون نظر اعتبار إلى خالق كُلِّ هذه الموجودات العظيمة الصُّنع [2].

ويستوقفنا للتأمل الفعل: {ينظرون} بزمنه المضارع المستمر لحاجة كُلِّ جيل لهذا النَّظر المتأمل.

يقول ابن عاشور: النَّظر نظر العين المفيد بدقائق المنظور، وتعديته بحرف {إلى} تنبيه على إمعان النَّظر ليشعر النَّاظر مما في المنظور من الدقائق؛ فإنَّ قولهم نظر إلى كذا أشد في توجيه النَّظر من نظر كذا؛ لما في (إلى) من معنى الانتهاء حتَّى كأنَّ النَّظر انتهى عند المجرور بـ(إلى) انتهاء تمكن واستقرار كما في قوله تعالى: {فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك} [الأحزاب:١٩] وقوله تعالى: {إلى ربِّها ناظرة} [القيامة:٢٣] [3].

ويستوقفنا البدء بالإبل، قيل: لارتباط العرب بها خاصة ممن عاصر نزول القرآن، وقيل: لأنَّهم لم يروا بهيمة أعظم منها حجماً وفوائداً؛ فجاءت البداية بها لتعدد منافعها [4]، وما زال العلم الحديث يكتشف ذلك حين بعد حين ويظهر إعجاز الله في خلقها. ويؤكده البدء بها توجيهاً للأنظار إلى الإعجاز في خلقها.

ولزيادة التَّنبيه على ذلك قُيِّدَ فعل: {ينظرون} بالكيفيات المعدودة في قوله تعالى: {كيف خلقت}، {كيف رفعت}، {كيف نصبت}، {كيف سطحت} إي لم ينظروا إلى دقائق هيئات خَلقها [5]. قيل: وجه ارتباط هذه المخلوقات الأربعة بالذِّكر؛ لأنَّها في نظر العرب في أوديتهم وبواديهم [6]. أو لأنَّهم أمروا بالنَّظر والتفكُّر بما يتعلق به نظرهم في خلواتهم [7].

ولو لاحظنا المناسبة الصَّوتيَّة في هذه الآيات الأربع نجد كلاً منها يشتمل على أصوات مجهورة وشديدة في مجملها تناسب المقامات الَّتي وردت فيها، ففي قوله تعالى: {كيف خلقت} (الخاء)، و(اللام)، و(القاف) أصوات قويَّة تناسب قوة خلق الإبل بهذا الشَّكل العجيب من الضَّخامة، والقوة، والصَّبر، والاحتمال، والتَّناسق، والتَّسخير لما خلقت له.

---

[1] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٥٠/٩، وكذا روح المعاني للألوسي/٤٦٠/٣٠.
[2] ـ ينظر: السَّابق.
[3] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٧٠/٣٠
[4] ـ ينظر: معالم التَّنزيل للبغوي/٢٤٦/٥، وكذا زاد المسير لابن الجوزي/٤٣٦/٤.بتصرف
[5] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٧٠/٣٠.
[6] ـ ينظر: الكشاف للزمخشري/٧٤٥/٤.
[7] ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/٤٥٧/٤.

وقوله تعالى في السَّماء: {كيف رفعت} لحرف (الـرَّاء)، و(الـفاء)، و(العين) أصوات قوية تناسب قوة رفع السَّماء بلا عمد..

وقوله تعالى في الجبال: {كيف نصبت} (النُّون) و(الصَّاد) و(الباء) كذلك تلائم ارتفاع الجبال.

وقوله في الأرض: {كيف سطحت} أصوات (السِّين) و(الطَّاء) و(الحاء) كذلك تناسب انبساط الأرض [1]. وذلك الإعجاز الصَّوتي من أدق إعجاز كتاب الله تعالى. ولكن قلَّ ما ينتبه إليه.

ومن عجائب نظم القرآن الكريم تقديم ذكر المعمولات: (الإبل، السَّماء، الجبال، الأرض) على أفعالها (خُلقت، رُفعت، نُصبت، سُطحت) وذلك - والله أعلم- للاهتمام بشأن المتقدم، لأنَّ النَّظر إليها والتَّأمل فيها مدعاة للتَّفكر في حالها وذلك موصل لعظمة خالقها ﷻ وذكرت هذه المنظورات الأربع دلالة على ما فيها من مخلوقات كثيرة كلها جديرة بالتَّأمل والتَّفكر في صنع الله وقدرته ﷻ تلك عبادة الأنبياء عليهم السلام، وهي من أجل العبادات عند الله تبارك وتعالى.

وقد رسمت هذه المتعاطفات صورة حيَّة للناظر إليها حيث ينقل بصره من أقرب شيء له؛ وهي الجمال لشِدّة علاقة العربي بها، ثمَّ يدعوه ذلك إلى ما هو أبعد شيء عنه؛ وهو السَّماء، يتأمل علوها وكُلَّ ما يظهر له مما فيها، ثمَّ ينزل ببصره قليلاً إلى الجبال يتأمل ارتفاعها وصلابتها وشموخها ورزانتها، وأخيراً يستقر بصره إلى الأرض وما فيها من عجائب خلق الله وهي ألصق شيء به.

ولا يخفي ما في الجمع بين (السَّماء) والأرض من طباق، وبينها وبين الجبال والإبل من مراعاة النَّظير، فكلها تجري في مضمارٍ واحدٍ [2].

وبعد ذلك ينتقل السِّياق المبارك إلى خطاب النَّبي ﷺ بقوله تعالى: {فذكر إنَّما أنت مذكر} مجيء هذا الأمر بـ(الفاء) في هذا الموطن يُشعر بأنَّ النَّظر الدَّقيق والفكر الدَّارس مما قد يؤدي بصاحبه إلى الاستدلال على وجود الله وعلى قدرته [3]

فهذه (الفاء) الَّتي بدأ بها المقطع فصيحةُ تفرِّيع على محصَّل ما سبق من أول السَّورة الَّذي هو تذكير بالغاشيَّة وما اتصل به من ذكر إعراضهم وإنذارهم، رتَّب على ذلك كُلِّه أمر اللهُ ﷻ رسولَه ﷺ بالدَّوام على تذكيرهم، وأنَّه لا يؤيسه إصرارهم

---

[1] ـ ينظر: التَّصوير القرآني / أناهيد مال حريري/١/٥٥٥. بتصرف
[2] ـ ينظر: البلاغة القيمة/ بد القادر حسين.٨٩.
[3] ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي / ١١١/٩.

على الإعراض، وتثبيته بأنَّه لا تبعة عليه من عدم إصغائهم إذ لم يُبعث مُلجئاً لهم على الإيمان.

إذن الأمر الَّذي بدأ به المقطع مستعمل في طلب الاستمرار والدَّوام [١]، وهذا الأمر إن كان متجهاً لرسول الهدى ﷺ فهو متجهٌ من بعده لأمته حتَّى لا يَملُّوا من الدَّعوة إلى الله، يصيبهم الفتور فيها. وذلك ما دلَّ عليه قوله تعالى: {إنَّما أنت مُذكر} بأسلوب القصر الإضافي الَّذي أفادته {إنَّما}؛ أي أنت مُذكر لست وكيلاً فلا تتحرج من عدم تذكُّرهم وهذا تطمين لنفسه الزَّكيَّة [٢]. ولكل داعٍ إلى الله مهما لاقى من مشقَّة.

وتأتي جملة: {لست عليهم بمصيطر} بدل اشتمال تأكيداً لما قبلها وتوضحاً له. وتقديم {عليهم} على متعلقه وهو {مُسيطر} تأكيد للنفي.

يقول الشيخ السَّعدي: (أي ذكر النَّاس وعظهم، وأنذرهم وبشرهم؛ فإنَّك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطراً عليهم مسلطاً موكلاً بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك، فلا لوم عليك بعد ذلك) [٣].

ويأتي قوله تعالى: {إلا من تولى وكفر. فيعذبُه اللهُ العذاب الأكبر} معترض بين جملة: {لست عليهم بمصيطر} وقوله تعالى: {إنَّ إلينا إيابهم، ثمَّ إنَّ علينا حسابهم} [الغاشية٢٥/ ٢٦] والمقصود من هذا الاعتراض الاحتراس من توهم أنَّهم أصبحوا آمنين من المؤاخذة على عدم التَّذكر، فحرف (إلا) للاستثناء المنقطع، وهو بمعنى الاستدراك. والمعنى: لكن من تولى عن التَّذكير ودام على كفره يعذبه الله العذاب الشَّديد. فدخلت (الفاء) في الخبر: {فيعذبه اللهُ} إذ كان الكلام استدراكاً، وكان المبتدأ موصولاً فأشبه بموقعه وبعمومه الشَّرط فأدخلت (الفاء) في جوابه [٤]. وفي ذلك من التَّهديد والوعيد ما الله أعلم به.

ثمَّ يختم ﷻ بقوله: {إنَّ إلينا إيابهم. ثمَّ إنَّ علينا حسابهم}. تعليل لجملة: {لست عليهم بمُصيطر} [الغاشية:٢٢] أي: لست مكلفاً بإجبارهم على التَّذكر والإيمان؛ لأنَّا نحاسبهم حين رجوعهم إلينا في دار البقاء، وقد جاء حرف {إنَّ} على استعماله المشهور، إذا جيء به لمجرد الاهتمام دون رد الإنكار، فإنَّه يفيد مع ذلك تعليلاً وتسبباً [٥].

---

١ - ينظر: التَّحرير والتنوير لابن عاشور /٢٧٢/٣٠.
٢ - ينظر: السَّابق بتصرف.
٣ - ينظر: تفسير السعدي /٩٢٣.
٤ - ينظر: ابن عاشور/٣٠/ ٢٧٣.
٥ - ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشر/٢٧٣/٣٠.

والإياب: الرُّجوع إلى المكان الَّذي صدر منه، فشبهت إعادة الخلق وإحضارهم لديه ﷻ برجوع المسافر إلى مقرِّه. وتقديم خبر {إنَّ} على اسمها يظهر في: {إنَّ إلينا إيابهم} الاهتمام تحقيقاً لهذا الرَّجوع؛ لأنهم ينكرونه وتنبيهاً على قدرته على رجوعهم؛ لأنَّه هو الَّذي أنشأهم أول مرة [1] تبارك وتعالى.

ونلاحظ نقل الكلام من أسلوب الغيبة في قوله تعالى: {فيعذبه الله} [الغاشية: ٢٤] إلى أسلوب التَّكلم بقوله {إلينا} على طريقة الالتفات، ونكتته حاجة المقام لحضور نون العظمة في: {إلينا}. لَمَّا في أسلوب التكلم من قوة المواجهة.

وعطفت جملة: {علينا حسابهم} بحرف العطف {ثمَّ} لتصوِّر المدَّة الزَّمنيَّة بين الحياة الأولى والرُّجوع إلى الله ﷻ ، كما أنَّ لها بُعداً آخر في المعنى؛ حيث دلَّت على أنَّ ذلك الرُّجوع هو الحالة الأعظم، والمدَّة الأطول من زمن الحياة الدُّنيا مهما طالت، فهو رجوع أبدي، ويعظِّمُه ضمير المتكلم في الخبر المقدَّم: {علينا} الَّذي يدل على المولىّ ﷻ بما يصوِّر العظمة ولذا سمي نون العظمة.

ثمَّ يأتي المبتدأ المؤخر: {حسابُهم} ليولد دفقة شعوريَّة تهز نفس المتأمل بما يحمل من معنى، وبما تؤكده الجملة الإسمية من حدث عظيم ترتعد له فرائص المؤمن إلا أن يتغمَّدنا الله برحمته ويدخلنا جنَّته بفضله العظيم آمين

والله أعلم وأحكم وصلى الله على نبي الهدى "محمد بن عبد الله" وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الفجر

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤

هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ

[1] ـ السَّابق/٢٧٣/ ٢٧٤.بتصرف

ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ
ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾
فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ
لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ
رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ
﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ
ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ
حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ
صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۢ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ
ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ
عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ
﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾
وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ .

بين يدي السُّورة المباركة:

لم يختلف في تسمية هذه السُّورة المباركة "سورة الفجر" بدون الواو في المصاحف والتَّفاسير وكتب السنَّة.

وقد حوت من الأغراض ضرب المثل لمشركي أهل مكة في إعراضهم عن قبول رسالة ربِّهم بمثَل عاد وثمود وقوم فرعون، وإنذارهم بعذاب الآخرة.

يربطها الإمام البقاعي بما قبلها قائلاً: لما ختمت تلك بأنَّه لا بد من الإياب والحساب وكان تغيير الليل والنهار وتجديد كل منهما دالاً على القدرة على البعث، وكان الحج قد جعله الله في شرعه له على وجه التَّجرد عن المخيط ولزوم التَّلبية والسير إلى الأماكن المخصوصة آية مذكرة بذلك قال تعالى: {والفجر} أي الكامل في هذا الوصف لِمَا له من العظمة حتَّى كأنَّه لا فجر غيره، وهو فجر يوم النحر ، {وليلٍ عشر} وهي أعظم ليالي العام.... [١]

<u>الدِّراسة البلاغيَّة التحليليَّة:</u>

بدأت السُورة بالقسم، يقسم الله ﷻ بهذه الأزمان من حيث أَّنها دالَّة على بديع صنعه فيما أوجد من نظام هذا الكون المبهر تعظيماً لقدرته، وسعة علمه، وقوة سلطانه [٢]. والمقصود من هذا القسم تحقيق المقسم عليه وتأكيده، وتطويله بعِدَّة أشياء أحدث تشويقاً إلى المقسم عليه [٣]. والكلام موجه بصورة أوَّليَّة إلى النَّبي ﷺ .

فنجد أنَّه ﷻ أقسم أولاً بالفجر الَّذي هو أخر الليل ومقدمة النَّهار لِمَا في إدبار الليل وإقبال النَّهار من الآيات الدَّالة على كمال قدرته ﷻ فلا تنبغي العبادة إلا له ﷻ ولِمَا يقع في الفجر من صلاة فاضلة معظَّمة يحسن أن يقسم الله بها [٤].

وقد خصصه ابن كثير بفجر يوم النَّحر، وقال: وهو خاتمة الليالي العشر وأسند هذا الرَّأي لكثيرٍ من الصَّحابة والتَّابعين منهم "على بن أبي طالب" و "ابن عبَّاس" و من التابعين "مجاهد" "وعكرمة " و "السَّدِّي" وقال: المراد بذلك الصَّلاة الَّتي تُفعل عنده، ثمَّ قال: وقيل: المراد به جميع النَّهار [٥].

ثمَّ جاء العطف عليه بقسمٍ أخر لا يقل تعظيماً عن سابقه فقال تعالى: {وليالٍ عشر} هذه الليالي لابد أن تكون معلومة عند السَّامعين موصوفة بأنَّها عشر واستغني عن تعريفها بتوصيفها بعشر متتابعة، وقد ترك التَّعريف إلى التَّنوين المفيد للتَّعظيم، ليتجه الذِّهن إلى عشر ذي الحجَّة؛ لأنَّه ليس في السنة ليالٍ أعظم منها [٦].

---

١ ـ ينظر: نظم الدُّرر/٢٢/ ٢١. وما بعدها
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٧٦/٣٠. بتصرف شديد.
٣ ـ ينظر: السَّابق بتصرف شديد.
٤ ـ ينظر: تفسير السِّعدي /٩٢٣. بتصرف.
٥ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم/ ٤١٠/٦.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٧٧/٣٠. بتصرف شديد.

يقول الشيخ السَّعدي: هي على الصحيح ليالي عشر رمضان، أو عشر ذي الحجَّة فإنَّها ليالٍ مشتملة على أيامٍ فاضلة [1].

وأقوال المفسرين محصورة في عشر ذي الحجَّة، وعشر محرم، والعشر الأواخر من رمضان [2].

ويعطف عليه سبحانه قسماً آخراً بقوله تعالى: {والشَّفع والوتر} (الشَّفع): ما يكون ثانياً لغيره و(الوتر): الشَّيء المفرد، وهما صفتان لمحذوف، فعن جابر بن عبد الله عن النَّبي ﷺ : أنَّ الشَّفع يوم النَّحر؛ ذلك لأنَّه عاشر ذي الحجَّة، ومناسبة الابتداء بالَّشفع أنَّه اليوم العاشر فناسب {ليالٍ عشر} وأنَّ الوتر يوم عرفة رواه أحمد بن حنبل والنسائي [3]. و قال ابن كثير: (وقاله ابن عبَّاس، وعكرمة والضَّحاك" أيضاً)[4].

لكنَّ صاحب أضواء البيان بعد استقراء أقوال المفسرين يقول: قالوا: إنَّما الوتر هو الله للحديث: "إنَّ الله وترٌ يُحِبُّ الوتر" [5]. وما سواه شفع، كما في قوله تعالى: {ومن كُلِّ شيءٍ خلقنا زوجين}. ولم أجد في تفسير السَّعدي أي كلام عن الشَّفع والوتر [6].

وفي قوله تعالى: {واللَّيل إذا يسر} عُطف (الليل} على {ليالٍ عشر} عطف الأعم على الأخص، أو عُطف على الفجر بجامع التَّضاد، والقسم به؛ لأنَّه مظهر من مظاهر قدرة الله، وتقييد (الليل} بظرف: {إذا يسر}؛ لأنَّه وقت تمكن ظلمة الليل فحينئذ يكون النَّاس أخذوا حظهم من النَّوم واستطاعوا التَّهجد [7].

ثمَّ يأتي الاستفهام التَّقريري بقوله تعالى: {هل في ذلك قسمٌ لذي حجر} جملة معترضة بين القسم وما بعده من جوابه، أو دليلٌ جوابه [8].

و قوله تعالى: {هل في ذلك} أي المذكور سابقاً {قسمٌ لذي حجر} أي الَّذي يعقل ؟ نعم بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد [9].

---

١ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٣.
٢ ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/١١٣/٩.
٣ ـ انظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٧٨/٣٠.
٤ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم /٤١١/٦.
٥ ـ أخرجه البخاري (٦٤١٠) ومسلم (٦٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه
٦ ـ ينظر: تفسير السِّعدي (٩٢٣).
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٢٧٩/٣٠. بتصرف.
٨ ـ ينظر: المرجع السابق/٣٠/ ٢٨٠.
٩ ـ انظر: تفسير السِّعدي/ ٩٢٣.

فاسم الإشارة "ذلك" عائد على المذكور مما أقسم به، وعليه جاء تنكير {قسمٌ} للتَّعظيم، أي: قسمٌ كافٍ ومقنع للمقسوم له؛ إذا كان عاقلاً أن يتدبَّر بعقله [١].

فالحجر: هو العقل؛ لأنَّه يحجر صاحبه عن ارتكاب ما لا ينبغي، كما سميَّ عقلاً؛ لأنَّه يعقل صاحبه عن التفاهات، ولام الجر في {لذي} لام التَّعليل، أي أقسم لأجل ذي عقل فيمنعه من المكابرة [٢].

وجاء دليل الجواب بعِدة الآيات من قوله تعالى: {ألم تر كيف فعل ربُّك بعاد. إرمَ ذات العماد. الَّتي لم يُخْلَق مثلُها في البلاد. وثمودَ الَّذين جابوا الصَّخرَ بالواد. وفرعونَ ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصبَّ عليهم ربُك سوطَ عذاب. إنَّ ربَك لبالمرصادِ}.

يبدأ هذا المقطع بجملة استفهاميَّة الاستفهام فيها تقريري [٣]: {ألم تر كيف فعل ربُّك بعاد} قيل: إنَّها جملة استئنافية لا محل لها من الإعراب، وقد سدَّت جملة: {كيف فعل ربُّك بعاد} مسد مفعولي (رأى) [٤]؛ لأنَّ رأى -هنا- علميَّة لا بصريَّة، والمعنى: ألم تعلم ما فُعل بقوم عاد، وثمود، وفرعون، لتواتر أخبارهم مما يفيد العلم وحصوله [٥]. يؤيده الشِّيخ السِّعدي قائلاً: (بقلبك وبصيرتك كيف فُعل بهذه الأمم الطاغية) [٦]. وأجاز ابن عاشور أن تكون الرُّؤية بصريَّة لوجود آثار تلك الأمم شاهداً عليها [٧].

ولا شك أنَّ المخاطب الأول فيها رسول الله ﷺ ثمَّ من بعده لكُلِّ متأمل في الآية الكريمة، فهو عام لكُلِّ أحد [٨].

وفي توجيه الخطاب له ﷺ تعريض بالمكذبين المعاندين، فإنَّ ما أوقعه الله بالأمم السَّابقة قد يقع لهم؛ لاشتراكهم جميعاً في التَّكذيب، ويزيد من تلك الدَّلالة إضافة (الرَّب) إلى ضمير المخاطب إشعارٌ بتأييده لرسوله وإعزازه له [٩]. وذلك من وحي لفظ الرَّب الَّذي لا يذكر إلا في باب الرَّحمة والنِّعمة والقرب والتَّفضل.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠ /٢٨٠. بتصرف.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٢٨١/٣٠. بتصرف.
٣ ـ ينظر: تفسير النسفي/ ٣٥٤/٤.
٤ ـ ينظر: حدائق الروح والريحان الشافعي /٤٣٤/٣١.
٥ ـ ينظر: حاشية الشيخ محي الدين زاده /٤ /٦٥٦.
٦ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٢٣.
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٢٨١/٣٠. بتصرف.
٨ ـ ينظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري /٩٠/٣٠. وكذا تفسير الخازن /٣٧٦/٤.
٩ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٢٨٠/٣٠، ٢٨١.

وقد ابتدأ ﷻ بـ"عاد"؛ لأنَّها أقدم الأمم الثَّلاث المذكورة، و أعتاها [١]. وجاء وصفها بقوله تعالى: {إرم ذات العماد} وصفت قبيلتهم (إرم) بـ(ذات العماد) على الحقيقة، أو كناية عن قوَّتهم وشِدَّتهم [٢]. أو على تشبيه طول قامتهم بالأعمدة [٣] أو استعارة (العماد) للوقار، أو الثَّبات أو طول العمر [٤].

يقول ابن عاشور: وهو هنا مستعار للقوة تشبيهاً للقبيلة القوية بالبيت ذات العماد، فوصفت عاد بـ(ذات العماد) لقوتها وشدَّتها، أي أهلك الله قوماً هم أشد من القوم الَّذين كذَّبوك [٥].

وتأكيداً لوصف (إرم) الأول وصفت ثانياً بقوله تعالى: {الَّتي لم يُخلق مثلُها في البلاد} قيل: المقصود بالتَّعريف في (البلاد): الجنس، أو العهد، أي البلاد المعهودة في زمنهم [٦] ولعل الأول أولى [٧]. ونلاحظ حذف متعلق الفعل: {لم يُخلق} وذلك لإرادة التَّعميم [٨].

ثمَّ جاء العطف عليه قوله تعالى: {وثمود الَّذين جابوا الصَّخر بالواد} لاشتراك القبيلتين في التَّكذيب والطُّغيان والقوة، وعليه وصفهم ﷻ بقوله: {الَّذين جابوا الصخر بالواد}. ونلاحظ مجيء الكلمة ممنوعة من الصَّرف. قيل: مُنع {وثمود} من الصَّرف؛ لأنَّ المراد به الأمَّة المعروفة، ووصفت باسم الموصول لجمع المذكر في قوله تعالى: {الَّذين جابوا} دون الَّتي جابت الصَّخر بتأويل القوم فلمَّا وُصف عدل عن تأنيثه تفنناً في الأسلوب [٩].

ويقول ابن إسحاق: كانوا عرباً، وكان منزلهم بوادي القُرَى [١٠]. نحتوا بقوتهم الصُّخور؛ فاتخذوها مساكن [١١]؛ وذلك لأنَّ معنى (جابوا): قطعوا وخرقوا، وقد قيل إنَّ ثمود أول أمم البشر نحتوا الصَّخر والرُّخام [١٢].

وحرف (الباء) في قوله تعالى: {بالواد} للظرفيَّة والواد علم بالغلبة على منازل ثمود، وسمي أيضاً (الحِجر) وهو وادي بين خيبر وتَيماء في طريق الماشي من المدينة المنوَّرة إلى الشَّام، نزله اليهود بعد ثمود، ونزله بعض قبائل العرب وغزاه

---

١ ـ ينظر: روح المعاني للألوسي /٤٧١/٣٠، ٤٧٢.
٢ ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة /٢٩٥/١٦. والبحر المحيط لأبي حيان/ ٤٦٩/٨.
٣ ـ ينظر: تفسير إرشاد العقل السَّليم أبي السَّعود/(١٥٤/٩. وكذا روح المعاني للألوسي /٤٧١/٣٠.
٤ ـ ينظر: المراجعان السابقان.
٥ ـ انظر: التَّحرير والتَّنوير٢٨١/٣٠، ٢٨٢. بتصرف. وانظر: تفسير السِّعدي/ ٩٢٣.
٦ ـ ينظر: السَّابق/ ٢٨٢/٣٠، ٢٨٤.
٧ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ.. أناهيد جمال حريري/٥٨٠/١.
٨ ـ ينظر: نظم الدرر للبقاعي/ ٣١/٢٢. بتصرف.
٩ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢٨٢ ،٢٨٣.
١٠ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/٦/ ٤١٥.
١١ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٢٣.
١٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٨٣/٣٠.

النَّبي ﷺ وفتحه سنة سبع فأسلم من فيه من العرب وصُولحت اليهود على الجزيَّة [1].

وتستمر الموعظة الَّتي جاءت بقوله تعالى: {ألم ترى} بذكر نموذج ثالث بقوله تعالى: {وفرعونَ ذي الأوتاد} جاء العطف لاسم فرعون وصفته وحده قيل: لانفراده في التَّكبر حين أدَّعى الرُّبوبيَّة [2]، ووصفه بـ{ذي الأوتاد} أريد به جنوده؛ لكثرة مضاربهم وخيامهم إذا نزلوا [3].

يقول الشيخ السِّعدي: أي الجنود الَّذين ثبَّتوا ملكه كما تثبِّت الأوتاد ما يراد إمساكه بها[4]. وعليه يجوز أن يكون الأوتاد مستعاراً للتَّمكين والثَّبات، أي ذي القوة [5]. فالمراد ذي الملك الرَّاسخ، وذلك على المجاز [6].

وذكرت هذه الأقوام الثَّلاثة لاشتهارهم عند المخاطبين [7]. فجاء تفسير طغيانهم بقوله تعالى: {الَّذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد} قيل: ما فعلوه من طغيان في بلدانهم [8]. وقيل: في الأرض جميعاً على سبيل المبالغة [9].

وقد عُبِّر بالطغيان وهو تجاوز الحد: عن العلوِّ والتَّكبر في الأرض على سبيل الاستعارة، بجامع الاستعلاء المفرط في كلٍّ منها [10]. فكان طغيانهم شدِّة العصيان للخالق وشِدَّة الظلم للمخلوقين، ولم يقتصر هذا على بلدانهم وإن كانت متفرقاً متباعداً ؛ بل انتشر في كافة البلدان؛ لأنَّ بلدانهم من جملة البلاد؛ فكان طغيانهم في بلدهم قد أوقع الطُّغيان في البلاد عامة؛ لأنَّ فساد البعض يؤدي مع مرور الزَّمن إلى فساد الكل [11].

وجاءت نتيجة هذا الطغيان إكثار الفساد في الأرض عامة يؤكد ذلك قوله تعالى: {فأكثروا فيها الفساد} يدل على ذلك حرف التعقيب (الفاء) الَّتي عطفت بها الآية، فجاء العقاب العادل بقوله تعالى: {فصبَّ عليهم ربُّك سوط عذاب} كُلُّ كلمة في هذا الجزاء تصور بعمق عظم هذا العذاب لعظم غضب الرَّب ﷻ على هؤلاء الطُّغاة

[1] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٨٣/٣٠..
[2] ـ ينظر: روح البيان للبروسوي /٥٠٧/١٠.
[3] ـ ينظر: تفسير الخازن /٣٧٧/٤. وكذا روح البيان للبروسوي /٥٠٧/١٩.
[4] ـ ينظر: تفسير السِّعدي /٩٢٣.
[5] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٢٨٣/٣٠.
[6] ـ ينظر: تفسير الخازن /٣٧٧/٤.
[7] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٢٨١/٣٠. بتصرف.
[8] ـ ينظر: التَّفسير الكبير للرازي /١٥٤/١١. وكذا فتح القدير للشُّوكاني /٥٥١/٥. بتصرف.
[9] ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري /٩٢/٣٠.
[10] ـ ينظر: البلاغة القيمة، د. عبد القادر حسين/٩٣.
[11] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٢٨٤/٣٠.

الظُّلمة، فربط المقطع بـ(فاء) التَّعقيب يحكي العدل المطلق لله ﷻ وكلمة {صبَّ} تدور مادَّتها حول: الإراقة والسَّكب [١]

كما أنَّ الصبُّ يقتضي السُّرعة [٢]. والكثرة والقوة [٣]. والتتابع، وتظهر المناسبة بين أصوات الكلمة وما تدلُّ عليه من حيث مناسبتها لأجزاء الحدث، فـ(الصَّاد) بصفيرها وإطباقها...تحكي صوت السَّكب، تليها (الباء) المشددة الَّتي تمثل عين ولام الكلمة لتصور قوة انصباب العذاب وسرعته وكثرته على المعذبين، وما يصاحبه من ألم الصَّب [٤].

ويؤيد هذا الإمام البروسوي بقوله: (والتَّعبير عن إنزاله بالصَّب للإيذان بكثرته واستمراره وتتابعه، فإنَّه عبارة عن إراقة شيء مائع أو حار مجراه في السَّيلان وإفراغه بشِدَّة وكثرة واستمرار...) [٥].

ويأتي المتعلق: {عليهم} ليصوِّر مشهد الصَّب الَّذي أتاهم من فوقهم حتَّى غشَّاهم أجمعين، وقد قُدِّم على الفاعل {ربُك} لهذا الغرض. ولا يزال الخطاب للنَّبي ﷺ تكريماً له، ثمَّ لكُلِّ متأملٍ لهذه المشاهد الَّتي ترسمها هذه الآيات الكريمات، وأحسب أن هذا التَّكريم هو سبب حضور كلمة (رب) الَّتي تأتي في معرض الإنعام منه ﷻ على الصَّالحين. ومنه الانتقام من الطغاة المتجبرين.

وتأتي كلمة: {سوط} الَّتي تدور مادتها حول: خلط الشَّيء بعضه ببعض مع شِدَّة واضطراب، وقيل: سمي السَّوط سوطاً؛ لأنَّه يخلط الدَّم باللحم [٦].

قال أبو حيان: (وخُصَّ السَّوط فاستعير للعذاب؛ لأنَّه من التِّكرار والتَّردد ما لا يقتضيه السَّيف ولا غيره) [٧].

فتأتي (السَّين) بصفيرها وهمسها لتصوِّر سرعة انقضاض العذاب على المعذبين، و(الواو) تقابل سيطرة العذاب وإحاطته بهم و (الطَّاء) بقوتها وضخامتها لتقابل قوة العذاب واختلاطه بالأم [٨].

---

[١] ـ ينظر: تهذيب اللغة للأزهري مادة "صبَّ"

[٢] ـ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان /٤٦٥/٨.

[٣] ـ ينظر: روح البيان للبروسوي /٥٠٩/١٠.

[٤] ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ، أ أناهيد عبد الحميد جمال حريري /١/ ٥٧٠.

[٥] ـ ينظر: روح البيان /١٠/ ٥٠٩. وكذا التَّصوير القرآني في جزء عمَّ، أ. أناهيد جمال حرير /٥٧٠/١.

[٦] ـ ينظر. لسان العرب لابن منظور مادة "سوط"

[٧] ـ ينظر: البحر المحيط /٤٦٥/٨.

[٨] ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ لأناهيد جمال حرير /٥٧٠/١ /٥٧١. بتصرف.

و إضافة {سوط} إلى {عذاب} في قوله تعالى: {سوط عذاب} من إضافة الصِّفة إلى الموصوف، أي صبَّ عليهم عذاباً سوطا، أي كالسَّوط في سرعته؛ فهو تشبيه بليغً[١].

وذهب الفرَّاء إلى أنَّ التَّعبير بالسَّوط دلالة على شِدَّة ما نزل بهم؛ لأنَّ السَّوط كان عند العرب نهاية ما يُعذَّب به[٢]. وإطلاقه هنا كناية عن التَّعذيب المتواتر، أو عذاب الدُّنيا بالنِّسبة إلى عذاب الآخرة [٣]. فجاء تنكير: {عذابِ} ليصوِّر شِدَّته وتنوعه.

ويأتي تعليل وتذييل إصابتهم بسوط عذاب بقوله تعالى: {إنَّ ربك لبالمرصاد} [٤] جملة مؤكدة بعدَّة مؤكدات (إنَّ، وأسميَّة الجملة، واللام الدَّاخلة على الخبر). جار حرف الجر (الباء) ليصور الظرفيَّة.

وجاءت كلمة "مرصاد": على صيغة (مفعال) وهي صيغة للمكان، أو الزَّمان الَّذي يَترقب فيه الرَّصد [٥].

يقول ابن عاشور عن هذه الجملة: إذا قُدِّر جواب القسم محذوفاً، فتكون الجملة تثبيتاً للنَّبي ﷺ بأنَّ الله ﷻ ينصر رُسلَه وتصريحاً للمعاندين بما عَرَّض لهم به من توقع معاملته إياهم بمثل ما عامل به المكذِّبين الأولين؛ أي إنَّ الله بالمرصاد لكُلِّ طاغٍ مفسد. وكونها جواب القسم تكون كناية عن تسلط العذاب على المشركين إذ لا يراد من الرَّصد إلا دفع المعتدي وهو المقسم عليه[٦].

وتعريف "المرصاد" تعريف جنس ليفيد عموم المتعلق، أي بالمرصاد لكُلِّ فاعل فهو تمثيل لعموم علم الله ﷻ بما يكون من أعمال العباد وحركاتهم وهذا كناية عن مجازاة كُلِّ عامل بما عمِله وما يعمله، إيماءً إلى أنَّ الله لم يظلمهم فيما أصابهم به[٧].

ويستوقفنا للتأمل ربط مصير تلك الأمم الثَّلاثة على تباعد أماكنهم وأزمانهم بهذه النِّهاية الَّتي يقف عندها الذِّهن متأملاً مقدماتها ونتائجها لتكون عبرة لمن يعتبر على مر الدهور.

ويأتي القسم الثاني من السُّورة المباركة مرتبطاً بالأول أشد الارتباط فقال تعالى: {فأمَّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن. وأمَّا إذا ما ابتلاه

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٢٨٥/٣٠.
٢ ـ ينظر: معاني القرآن /٢٦١/٣.
٣ ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري /٩٢/٣٠.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير ٢٨٥/٣٠. إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/ ١٥٥/٩. روح البيان للبروسوي /٥٠٨/١٠، ٥٠٩.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٨٥/٣٠. وقد تكون صيغة (مفعال) للآلة لكنها هنا غير واردة.
٦ ـ ينظر: لسَّابق. بتصرف.
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢٨٦.

فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن. كلا بل لا تكرمون اليتيم. ولا تحاضون على طعام المسكين. وتأكلون التراث أكلاً لمًّا. وتحبون المال حباً جماً}.

جاء هذا المقطع من السُّورة المباركة بأسلوب خبري، قال تعالى: {فأمَّا الإنسانُ إذا ما ابتلاه ربُه فأكرمه ونعمه...} وقد دلت (الفاء) على أنَّ الكلام الواقع بعدها متصل بما قبلها ومتفرع عليه لا محالة، فـ(فاء) التَّفريع مرتبطة بجملة: {إنَّ ربك لبالمرصاد} [الفجر:١٤] بما فيها من العموم الَّذي اقتضاه كونها تذيلاً [١].

يقول البقاعي: ولمَّا كان المقصود التَّعريف بحال الإنسان عند الابتداء قُدِّم الظرف (إذا) الدَّال على ذلك الخبر [٢].

ويستوقفنا للتأمل ارتباط الابتلاء بالإكرام والنِّعم لقوله تعالى: {ابتلاه ربُه فأكرمه ونعمه} فقد ربط الجملتان بـ(الفاء) التفسيريَّة؛ فالإكرام والتَّنعم عين الابتلاء [٣]؛ فدلَّ ذلك أنَّ هذا الإكرام والتَّنعم إنَّما هو ابتلاء واختبار ليقف الإنسان على حقيقة نفسه ومقدار طاعة الله فيهما؛ لأنَّهما ابتلاء وامتحان منه [٤] ﷻ كما قال تعالى: {أيحسبون أنَّما نمدهم به من مالٍ وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون} [المؤمنون:٥٥-٥٦].

وتأتي المقابلة الجميلة [٥] بقوله تعالى: {وأمَّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن} تقدير الرِّزق: إعطاؤه بقدر محدود وهو كناية عن القلَّة، ويقابله بسط الرزق [٦].

يستوقفنا عدم ذكر الإنسان في هذا المقطع اكتفاءً بذكره سابقاً، والمعنى: يعتقد الإنسان إذا ابتلاه فامتحنه، وضيَّق عليه في الرِّزق أنَّ ذلك من الله إهانة له.

ونقف متأملين دِقَّة اختيار صيغ هذه الأفعال؛ فالفعل: {ابتلاه} المكرر مرتين مزيد بـ(الهمزة، والتاء) للدَّلالة على قوة الابتلاء في الاختبار [٧]. والأفعال: (أكرمه، أكرمن، أهانن) مزيدة بالهمزة؛ للدَّلالة على الاستحقاق، والفعل: (نعَّمه) مزيد بالتَّضعيف للدَّلالة على التَّكثير في هذا التَّنعيم [٨].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢٨٦.
٢ ـ ينظر: نظم الدُّرر للبقاعي/٣٢/٢٢.
٣ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٥٦/٩، وروح البيان للبروسوي/٥١١/١٠.
٤ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/٦ / ٤١٦. بتصرف.
٥ ـ ينظر: الدَّر المصون للسمين الحلبي/ ٥٢/٧. وفتح القدير للشوكاني /٥٥٤/٥. بتصرف
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٦٠١/٣٠.
٧ ـ ينظر: في المجالات الدلاليَّة في القرآن الكريم صيغة: (افتعل) د. زين الخويسكي /١٦٤..
٨ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ ، أ / أناهيد جمال حريري/٥٩٨/١. بتصرف.

كما نلاحظ تقديم الإكرام بالنِّعم على الإهانة في هاتين الآيتين؛ للإيذان بأنَّ الإكرام ابتلاء واختبار على عكس السَّائد بأنَّه تكريم [١]. وعليه لم يصرح بالإهانة في الآية الثانية، بعكس تصريحه بالإكرام في الآية الأولى [٢].

وفي تقديم المسند إليه في جملة القول بقوله تعالى: {ربي أكرمن} وكذا: {ربي أهانن} تقوية لحكم الإسناد حيث قدّم الفاعل {ربي} على الفعل: {أكرمَن} وكذا {أهاننِ} فأتت الجملة اسميَّة وفي هذا قوة تأكيد لِمَا تحمله الجملة الاسميَّة من خصائص؛ فذكر الفاعل مبتدأ وأخبر عنه بجملة فعليّة بها فاعل مستتر وهذا مما يقوي إسناد الحكم لفاعله. (أي: يقول ذلك جازماً غير متردد)[٣].

ويأتي الرَّد على هذا الاعتقاد الخاطئ بقوله تعالى: {كلّا بل لا تكرمون اليتيم} فحرف {كلّا} يحمل زجراً عن قول الإنسان: {ربي أكرمن} عند حصول النّعمة وقوله: {ربي أهاننِ} عندما يناله تقتير. أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا؛ فإنَّ الله يعطي المالَ من يُحب ومن لا يُحب، ويضيّق على من يُحب ومن لا يُحب، وإنَّما المدار في ذلك على طاعة الله في كلٍّ من الحالين [٤].

وحرف {بل} للإضراب الانتقالي. والمناسبة بين الغرضين المنتقل منه والمنتقل إليه مناسبة المقابلة للمضمون، وفي ضمن هذا الزجر أمرٌ بالإكرام لليتيم [٥].
وإكرامه أمرٌ جامع لكُلِّ خير يحتاجه اليتيم مادياً ومعنوياً، ولأهميَّته جاء الالتفات من ضمير الغائب إلى المخاطب قصداً للتَّوبيخ والتَّقريع[٦]. وتأكيداً على حصول إكرامه

ويعطف عليه ﷻ جناية أخرى لا تقل أهميَّة عن الأولى بقوله تعالى: {ولا تحاضُّون على طعام المسكين} (تحاضُّون) تدور مادتها حول: الحث والتَّحريض في السَّير والسَّوق وكلِّ شيء [٧]. لما في الصيغة من معنى المفاعلة والمبالغة والتَّكثير، ولما توحي به من الحركة[٨].

يقول ابن كثير: (يعني: لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ويحث بعضهم على بعض في ذلك) [٩]. أي: تتمالؤون على ترك الحض على الإطعام[١٠].

---

[١] ـ ينظر: تفسير أبي السَّعود /٩/ ١٥٩، روح البيان للبروسري /٥١٠/١٠.
[٢] ـ ينظر: الكشاف للزمخشري /٧٤٩/٤، ٧٥٠.
[٣] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٩٢/٣٠.
[٤] ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/٦ /٤١٦.
[٥] ـ ينظر: السَّابق.
[٦] ـ ينظر: روح البيان للبروسوي /٥١١/١٠، وروح المعاني للألوسي/٤٧٧/٣٠.
[٧] ـ ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (حضَّ) ولسان العرب لابن منظور(حضَّ).
[٨] ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ / أناهيد جمال حريري/٥٩٨/١. بتصرف.
[٩] ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم /٤١٧/٦). معالم التَّنزيل للبغوي /٢٥١/٥. وزاد المسير لابن الجوزي/٤٤٣/٤، والتَّفسير الكبير للرَّازي/ ١٥٧/١١.
[١٠] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٩٥/٣٠.

ولأسلوب الخطاب حظٌ وافر من الجدِّية في الأمر لعظم أهميته. وقد حذف مفعول الفعل: (حض) لعلم السَّامعين به أي: ولا تحاضُّون النَّاسَ [1]. وذلك لأجل الشُّح على الدُّنيا ومحبتها الشَّديدة المتمكنة من القلوب [2].

ويُستنتج منه أنَّ حض بعضنا بعضاً على البر وسد حاجة المحتاجين من أعظم القربات إلى الله، وهو باب من أبواب الخير لِمَا فيه من التَّكافل الاجتماعي الَّذي أمر به ديننا الحنيف وحث عليه.

ثمَّ سُرِدَتْ باقي الأفعال المذمومة لهذه الفئة الضَّالة فقال تعالى: {وتأكلون التُّراث أكلاً لمَّا. وتحبون المالَ حُباً جماً} قيل في قوله: {تأكلون التُّراث} مجاز، حيث أكَّد الفعل بالمصدر: (أكلاً) لتظهر صورة جشعهم الشَّديد بصورة الأكل الحقيقي [3].

و {التُّراث} المال الموروث، والأكل: مستعار للانتفاع بالشَّيء انتفاعاً لا يُبقي منه شيئاً[4]، وذلك لأنَّ الأكل انتفاع ذاتي، و المأكول إلى خفاء وبوار.

يقول ابن عاشور: وأشعر قوله: {تأكلون} بأنَّ المراد التُّراث الَّذي لا حق لهم فيه، ومنه يظهر وجه إيثار لفظ التُراث دون أن يقال: وتأكلون المال؛ لأنَّ التُّراث مال مات صاحبه، وأكلُه يقتضي أنَّ مستحق ذلك المال عاجزٌ عن الذَّب عن ماله لصغر أو أنوثة [5].

ووصف الأكل بقوله تعالى: {أكلاً لمَّا} أي: أكلاً ذريعاً لا تبقون على شيء منه[6]. لأنَّ كلمة {لمَّا} ترسم صورة تتبع بقايا الأجزاء الصَّغيرة وجمعها ثمَّ إخفاءها.

وعليه عطف قوله تعالى: {وتحبون المال حباً جماً} الجمُّ أصله من جَمَّ الماء في الحوض إذا كَثُرَ، وهو مستعار -هنا- للحُبِّ الشَّديد؛ لأنّ الحبَّ من المعاني النَّفسيَّة الَّتي لا تُوصف بالكثرة، الدَّالة على وفرة عدد أفراد الجنس، ووصف الأكلِ، والحبِّ بالمصدر:(أكلاً، وحباً) للمبالغة في الصِّفة [7]. لما للمصدر من سعة في المعنى.

ويأتي القسم الثَّالث من السُّورة المباركة مفتتح بـ{كلا} أداة تحمل الزَّجر والردع عن الأعمال المعدودة قبله فقال تعالى: {كلا إذا دُكَّت الأرضُ دكَّاً دكَّاً وجاء ربُّك والملك صفاً صفاً. وجاىءَ يومئذٍ بجهنَّم يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنى له الذِّكرى. يقول

---

[1] ـ ينظر: إعراب القرآن للنحاس /٥/٢٢٣.
[2] ـ ينظر: تفسير السِّعدي /٩٢٤.
[3] ـ ينظر: البلاغة القيمة لعبد القادر حسين/٩٦. بتصرف شديد
[4] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٢٩٥.
[5] ـ ينظر: المرجع السَّابق الصفحة نفسها.
[6] ـ ينظر: تفسير السَّعدي/٩٢٤.
[7] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٢٩٥.

يا ليتني قدمتُ لحياتي. فيومئذٍ لا يُعَذِّبُ عذابه أحدٌ ولا يوثق وثاقه أحد} فقوله تعالى: {دُكَّتْ الأرضُ دكَّاً دكَّاً} (الدَّكُ) الهدم الَّذي ينتج ذِلَّة [١].

والمراد بدكِّ الأرض يومئذ دكَّاً دكَّاً: أي دكَّاً متتابعاً حتَّى يذهب كُلُّ ما على وجهها[٢]. وحتَّى تكون بمنزلة الأرض اللَّينة [٣].

وتظهر المناسبة بين أصوات الكلمة وما تدلُّ عليه من حيث قوَّة أصواتها المناسبة لمعنى الدَّك القوي [٤]. كما إننا نجد تنكير (دكَّاً دكَّاً) قد زاد في تعظيم أمر الدَّكِ [٥]، ولا يخفى جناس الاشتقاقي بين (دُكَّت) و(دكَّاً).

وقد جاء هذا المقطع استئناف ابتدائي؛ فهو انتقال من التَّهديد بعذاب الدُّنيا الَّذي في قوله تعالى: {ألم تر كيف فعل ربك بعاد}[الفجر:٦] إلى الوعيد بعذاب الآخرة، فإن استخفوا بما حلَّ بالأمم قبلهم، أو أمهلوا فأخر عنهم العذاب في الدُّنيا، فإنَّ عذاباً لا محيص لهم عنه ينتظرهم يوم القيامة، حتَّى يتذكَّرون قسراً فلا ينفعهم التَّذكر، ويندمون ولا ت ساعة مندمٍ[٦].

وفي قوله تعالى: {وجاء ربُّك والملكُ صفاً صفاً} تأويلات عِدَّة لعل من أوفقها ما قيل: أنَّها آية من آيات الصِّفات الَّتي سكت عنها وعن مثلها عامَّة السَّلف وبعض الخلف، فلم يتكلموا فيها وأجروها من غير تكييف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تأويل، بل أجروها على ظاهرها [٧].

وزيد في تهويل ذلك اليوم بقوله تعالى: {وجِيء يومئذٍ بجهنَّم} وهو مجيء على الحقيقة [٨]. أو المجيء -هنا- بمعنى الإظهار [٩]. وأجد في اختيار هذه المفردة معنى عظيم حيث إنَّ المجيء ينبئ بالقرب المكاني والزَّماني ليدفع الإنسان أكثر إلى التَّذكر. وفي اختيار ذكر النَّار بلفظة جهنَّم دقَّة عظيمة لِمَا لمعنى الكلمة من صورة غليظة بشعة تنبىء عن تغيظها من الكفرة والعصاة وقد قال ﷻ عنها {إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيُّظاً وزفيراً} [الفرقان:١٢] والله أعلم وأحكم.

١ ـ ينظر: تهذيب اللغة للأزهري مادة "دكَّ" ولسان العرب لابن منظور "دكَّ"
٢ ـ ينظر: التَّفسير الكبير للفخر الرازي /١٥٨/١١.
٣ ـ ينظر: بصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي /٦٠٤/٢.
٤ ـ ينظر: التصوير القرآني في جزء عمَّ، أناهيد عبد الحميد جمال حريري/ ٦١٢/٢.
٥ ـ ينظر: الكشاف للزمخشري/٧٥١/٤. وكذا التَّفسير الكبير للفخر الرَّزي/١٥٨/١١. بتصرف.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنور لابن عاشور٠٣٠/٢٩٦). بتصرف.
٧ ـ ينظر: تفسير الخازن /٣٧٨/٤.
٨ ـ ينظر: تفسير النسفي/٣٥٦/٤.
٩ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٢٩٨/٣٠.

وعليه يأتي قوله تعالى: {يومئذٍ يتذكَّر الإنسانُ وأنى له الذِّكرى}. وقد جاء زمن الفعل {يتذكر} مضارع ليدل على كثرة المتذكِّر وتكرار هذا الفعل، يصور زمن المضارع صورة هذه المشاهد حيَّة للمتأمل وذلك من خصائص زمنه.

وقد ظهر لفظ (الإنسان) وكان من الممكن إضمار ذكره؛ لبعد معاد الضمير[١]. وأحسب أنَّ ظهور هذه اللفظة فيها الكثير من الأهداف إضافة لما ذكر منها إرادة الجنس حيث يتذكر كُلُّ من صحت عليه هذه التَّسمية، وبذلك تحدد مسئوليَّة كُلِّ فرد لمواجهة نتيجة أعماله في الُّدنيا.

ويؤكده جملة: {وأنى له الذكرى} المعترضة بين {يتذكر الإنسان} وجملة {يقول}الخ. وابتدئها بأداة الاستفهام: {أنى} التي تجمع في معناها بين معانى"أين" و"متى" و "كيف" دقة إعجازيَّة لتصوير تشتت بال ذلك الإنسان فيما يتذكر من مواقف مر بها في حياته الدُّنيا.

قيل: (هو استفهام مستعمل في الإنكار والنفي) [٢]. ولكن أنى لهذه الذِّكرى أن تنفعه، ولذلك قيل: الكلام على تقدير مضاف أي: أنى له منفعة الذِّكرى [٣].

عندئذ: {يقول يا ليتني قدمْتُ لحياتي} هذه الجملة قيل: في موقعها عِدَّة احتمالات: يجوز أن يكون قولاً باللسان تحسراً وتندماً، فتكون الجملة حالاً من {الإنسان} - ولو كانت كذلك فهي حال كاشفة لِمَا وصل إليه تحسُّره على ما فرط في الأولى- أو بدل اشتمال من جملة: {يتذكَّر} فإنَّ تذكُّره مشتمل على تحسره وندمه. ويجوز أن يكون قوله في نفسه فتكون الجملة بياناً لجملة {يتذكر} [٤].

وحرف النِّداء في {يا ليتني} للتَّنبيه اهتماماً بهذا التَّمني في يوم وقوعه.

وقد حذف مفعول الفعل: {قدَّمْتُ} قيل: (حُذف للعلم به، يتمنى الإنسان لو قدَّم أعمالاً صالحة في حياته الدُّنيوية؛ لأجل حياته الأخرويَّة) [٥]. والأولى في حذفه إرادة العموم. والمعنى: (أي: وكأنَّ هذا الإنسان لم يعش قبل ذلك حياة، فحياة الآخرة هي حياة سالمة من العذاب، وما عداها لا يُعدُّ حياة مقارنة بها) [٦].

---

[١] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٣٠/ ٢٩٩/٣٠.
[٢] ـ ينظر: المرجع السَّابق بتصرف.
[٣] ـ ينظر: الكشاف للزمخشري/٤/ ٧٥٢، ومجاز القرآن للعز بن عبد السلام/٤٧٤. بتصرف.
[٤] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٢٩٩/٣٠. بتصرف
[٥] ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/٣٠٠/١٦. وكذا إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٥٨/٩.
[٦] ـ ينظر: المحرر الوجيز١٦/ ٣٠٠. وكذا روح البيان للبروسوي/٥١٤/١٠.

و"اللام" في قوله: {لحياتي} تحتمل معنى التَّوقيت، أي: قدمت عند أزمان حياتي؛ فيكون المراد الحياة الأولى الَّتي قبل الموت، ويحتمل أن يكون "اللام" للعلَّة، أي: قدَّمت الأعمال الصَّالحة لأجل أن أحيا في هذه الدَّار [١].

ويأتي قوله تعالى: {فيومئذٍ لا يعذِّب عذابَه أحدٌ. ولا يُوثِقُ وثَاقَه أحدٌ} (الفاء) في قوله تعالى: {فيومئذ} رابطة لجملة: {لا يعَذِّب} الخ بجملة: {إذا دكَّت الأرضُ} لِمَا في "إذا" من معنى الشَّرط [٢].

يفسرها ابن كثير بقوله: أي: ليس أحدٌ أشدَّ عذاباً من تعذيب الله مَنْ عصاه، وليس أحدٌ أشد قبضاً ووثقاً من الزَّبانية لمَنْ كفر بربِّهم ﷻ ، هذا في حق المجرمين مِنْ الخلائق والظَّالمين [٣].

وقد جاء فيه جناس الاشتقاق بين قوله تعالى: {يعذِّب} و {عذابه} وكذا {يوثق} و: {وثاقه}، و قبله: {يتذكر} و {الذِّكرى} ليتحقق مزيد من الانسجام والمواءمة بين اللفظ و المعنى [٤].

ثمَّ جاء النِّداء لنفوس المؤمنين على الخصوص [٥]. في قوله تعالى: {يا أيَّتُها النَّفسُ المطمئنَّة} وهذه صفت النَّفس بوصف جامع لصفات كثيرة: {المطمئنَّة}؛ فالاطمئنان نتيجة قبول ورضى، وينتج عنه راحة و سعادة.

يقول الشيخ السَّعدي: المطمئنَّة إلى ذكر الله السَّاكنة إلى حبَّه الَّتي قرَّت عينُها بالله[٦]. واطمئنان النَّفس مجاز لطبيعتها من حيث الاعتقاد والعمل [٧].

ومقصور هذا النِّداء نعمة كبرى تتلخَّص في قوله تعالى: {ارجعي إلى ربك راضية مرضيَّة. فادخلي في عبادي. وادخلي جنَّتي}.

وقوله تعالى: {ارجعي} فعل أمر يحمل معنى الأوبة إلى الموطن الأول الَّذي خلق الإنسان فيه مع خلق أبي البشر، هناك في جنَّات النَّعيم. ويعزز معنى النَّعيم قوله تعالى: {إلى ربِّك} بما تحمل كلمة رب من معاني تسع الكون بما فيه. أي: إلى

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٢٩٩/٣٠.
٢ ـ ينظر: المرجع السَّابق /٣٠٠/٣٠.
٣ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم /٤١٨/٦.
٤ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ، أناهيد جمال حريري (٦٢٣/٢).
٥ ـ ينظر: الكشاف للزمخشري /٧٥٢/٤. وكذا الجامع لأحكام القرآن للقرطبي/٥٨/٢٠.
٦ ـ ينظر: تفسير السّعدي/٩٢٤.
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٠٣.

جوارِه وثوابِه وما أعد لعباده في جنَّته ويزيد من نعمه بقوله تعالى: {راضية} أي: في نفسها وكذا {مرضيَّة} أي: قد رضيت عن الله ورضي عنها وأرضاها [١].

وهكذا قُيِّد هذا الرُّجوع بهذين الحالين {راضيةً مرضيَّةً}

يقول ابن عاشور: لما استوعب ما اقتضاه المقام من الوعيد والتَّهديد والإنذار ختم الكلام بالبشارة للمؤمنين الَّذين تذكَّروا بالقرآن واتبعوا هديه على عادة القرآن في تعقيب النَّذارة بالبشارة والعكس؛ فإنَّ ذلك مما يزيد رغبة النَّاس في فعل الخير ورهبتهم من أفعال الشَّر [٢].

ويأتي الأمر الَّذي تتشوف إليه نفوس المؤمنين بقوله تعالى: {فادخلي في عبادي. وادخلي جنَّتي} و عليه جاء الالتفات فيه من أسلوب الغيبة في {ربِّك} إلى أسلوب التَّكلم دلالة على عظمة هذه المنَّة من الله والتَّشريف لصاحبها [٣] في قوله : {عبادي} و{جنتي}. وهذه الإضافة تزيد حسن الالتفات [٤]. كما جاء فعل الدُّخول مرتين {ادخلي في عبادي} و{ادخلي جنتي} لتحقيق مسرَّة المؤمنين [٥].

يقول ابن كثير: هذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أنَّ الملائكة يُبشرون المؤمن عند احتضاره، وعند قيامه من قبره، وكذلك ها هنا[٦] والله أعلم وأحكم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة البلد

الحمد لله ربِّ العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾

لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾

---

١ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/٦/٤١٨.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٣٠١.
٣ ـ ينظر: حاشية محي الدين زادة /٤/٦٥٩.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٣٠٤.
٥ ـ ينظر: المرجع السَّابق
٦ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/ ٦/ ٤١٨.

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

<u>بين يدي السُّورة المباركة:</u>

سميت هذه السُّورة في ترجمتها عن " صحيح البخاري" " سورة لا أقسم"، وسميت في المصاحف وكتب التفسير "سورة البلد". وهو إمَّا على حكاية اللفظ الواقع في أولها ؟ن وإمَّا لإرادة البلد المعروف وهو مكة.

قد حوت من الأغراض التنويه بمكة وبمقام النَّبي ﷺ بها. وبركته فيها وعلى أهلها ، والتنويه بأسلاف النبي ﷺ من سكانها الذين كانوا من الأنبياء مثل إبراهيم ، وإسماعيل أو من أتبع الحنيفيَّة مثل عدنان ومضر، والتخلص إلى ذم سيرة أهل الشرك، ووعيد الكافرين وبشارة الموقنين [١].

ربطها الإمام البقاعي قائلاً: لمَّ ختم كلمات الفجر بالجنَّة الَّتي هي أفضل الأماكن الَّتي يسكنها الخلق، لاسيما المضافة إلى اسمه الأخص المؤذن بأنَّها أفضل الجنان بعد ختم آنها بالنفس المطمئنَّة افتتح هذه بالأمارة مقسماً في أمرها بأعظم البلاد وأشرف أولي الأنفس المطمئنَّة فقال مؤكداً بالنفي من حيث أنَّه ينفي ضد ما ثبت من مضمون {لا أقسم:} [٢].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور:٣٠٥/٣٠ وما بعدها بتصرف.
٢ ـ ينظر: نظم الدُّرر/٢٢/ ٤٥ وما بعده بتصرف.

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة.

بدأت السُّورة الكريمة بالقسم تشويقاً لِمَا يرد بعده وأطيلت جملة القسم زيادة في التشويق [١].

{لا أقسم} معناه أقسم و {لا} زائدة وزيادتها جارية في كلام العرب [٢]، قيل: لا للنفي؛ ولكن لا لنفي الإقسام؛ بل لنفي ما ينبئ عنه من إعظام المقسوم به، وتفخيمه؛ كأنَّ المعنى: لا أعظمه بقسمي فإنَّه حقيق بأكثر من ذلك [٣]. فهو مستعمل في معناه كناية عن تعظيم أمر المقسم به [٤].

ويقول العلامة السَّعدي: ليست {لا} هاهنا نافية ولا زائدة؛ وإنَّما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح [٥].

والإشارة بقوله: {هذا البلد} مع بيانه بكلمة {البلد} إشارة إلى حاضر في أذهان المتلقين كأنَّهم يرونه؛ لأنَّ رؤيته متكررة لهم وهو مكة، ولإفادة المقسم به لأكمل تمييز لقصد التنويه به [٦]. وهو البلد الأمين "مكة المكرمة"[٧].

ويأتي قوله تعالى: {وأنت حلٌ بهذا البلد} جملة معترضة بين المتعاطفات المقسم بها، و (الواو) اعتراضيَّة. والمقصود من الاعتراض يختلف باختلاف محمل معنى {وأنت حلٌ} فيجوز أن يكون {حلٌ} اسم مصدر "أحلَّ" أي: أباح، فالمعنى وقد جعلك أهلُ مكة حلالاً بهذا البلد الذي يحرم أذى صيده وعضُدُ شجره؛ فيكون المقصود من هذا الاعتراض التعجب والمعنى التعريض بالمشركين في عداوتهم وظلمهم الرسول ﷺ في بلد لا يظلمون فيها أحداً.

ويجوز أن يكون {حلٌ} اسماً مشتقاً من الحِل وهو ضد المنع، أي الذي لا تبعة عليه فيما يفعله، أي: ما صنعت من شيء فأنت في حلٍّ [٨].

وقد جاء هذا الاعتراض تسلية للرسول ﷺ قُدِّمت له قبل ذكر إعراض المشركين عن الإسلام ووعِد بأنَّه سيمكنه منهم، فكان على محمل الوجهين صفة خاصة للنَّبي ﷺ وقد خصصه النَّبي ﷺ بيوم الفتح فقال: " وإنَّما أحلت لي ساعة من نهار" الحديث

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٣٠٦/٣٠.
٢ ـ ينظر: السابق الصفحة نفسها. وكذا في معرض تفسيره لسورة القيامة /٣١٣/٢٩. بتصرف يسير.
٣ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود /٦٤/٩/ في معرض تفسيره لسورة القيامة. بتصرف.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠٦/٣٠.
٥ ـ ينظر: تفسير السَّعدي /٨٣٠/في معرض تفسير سورة القيامة.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور ٣٠٦/٣٠. بتصرف.
٧ ـ ينظر: تفسير السِّعدي /٩٢٥.
٨ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٣٠٧/٣٠. بتصرف

[1]. والأرجح أنَّ تعظيم هذا البلد الحرام بهذا القسم يزداد قدراً عند حلول النَّبي ﷺ فيه، هذا ما نوه إليه السَّعدي – رحمه الله- حين قال: مكة المكرمة أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصاً وقت حلول الرسول ﷺ فيها [2]. وعليه كرر قوله تعالى: {بهذا البلد} لقصد تجديد التَّعجب، وتأكيد فتح ذلك البلد العزيز عليه والشَّديد على المشركين أن يخرج عن حوزتهم [3].

ويأتي قوله تعالى: {ووالدٍ وما ولد} معطوفاً على القسم فهو في حيز القسم تعظيماً له، كما أنَّه ازداد تعظيماً بتنكير كلمة {والد}، (فهو تنكير تعظيم إذ لا يحتمل غير ذلك في سياق القسم، فتعين أن يكون المراد والداً عظيماً ليناسب القسم بهذا البلد)[4]. واختلف المفسرون في المقصود بالمقسوم به فقال السَّعدي: أي أدم وذريته [5].

وقال ابن عاشور [6]: المراد بـ{والد} "إبراهيم عليه السلام فإنَّه اتخذ ذلك البلد لإقامة ولده "إسماعيل" وزوجه هاجر قال تعالى: {وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام} [إبراهيم:٣٧] ثمَّ قال: {ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم}. و "إبراهيم" عليه السلام والد سُكَّان ذلك البلد الأصليين قال تعالى: {ملَّة أبيكم إبراهيم} [الحج:٧٨]. ولأنَّه والد محمد ﷺ . وقوله تعالى: {وما ولد} موصول وصلة، والضمير المستتر في {ولد} عائد إلى {والد} والمقصود: ما ولده إبراهيم من الأبناء والذرية، وذلك مخصوص بالذين اقتفوا هديه فيشمل محمداً ﷺ .

وجيء باسم الموصول{ما} في قوله تعالى: {وما ولد} دون "من" لأنَّ "ما" أشد إيهاماً، لإرادة تفخيم أصحاب هذه الصلة [7].

ويأتي جواب القسم بقوله تعالى: {لقد خلقنا الإنسان في كبد} وهو الغرض الأساسي للسورة المباركة.

بدأ هذا الجواب بأسلوب التقرير الإخباري، بأداة تعطي تأكيداً جديداً للقسم وهي: (لام) التحقيق الداخلة على (قد). وجاء الفعل: {خلقنا} بزمنه الماضي لدلالته على التأكيد أيضاً، وإسناد الفعل {خلقنا} لنون العظمة يضفي على المشهد الهيبة والإجلال مع التعظيم، وليدل على تكريم المخلوق.

---

[1] ـ ينظر: المرجع السَّابق بتصرف.
[2] ـ ينظر: تفسير السّعدي /٩٢٥.
[3] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٣٠٨/٣٠. بتصرف
[4] ـ ينظر: السَّابق
[5] ـ ينظر: تفسير السّعدي /٩٢٥.
[6] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠٨/٣٠. وما بعدها بتصرف.
[7] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠//٣٠٩/٣٠.

ويأتي المفعول به: {الإنسان} تسبقه (أل) الجنسيَّة دلالة على دخول كافة جنس الإنسان في كل زمان ومكان تحت هذا الوصف. وقيل: قد يراد به خصوص أهل الشرك لأنَّ قوله تعالى: {أيحسب أن لن يقدر عليه أحد} إلى آخر الآيات لا يليق إلا بأحوال غير المؤمنين (١).

ثمَّ تأتي المفاجأة شديدة التَّعجب بقوله تعالى: {في كبدٍ} بحرف يدل على الظَّرفيَّة (مما يكشف عن تلبُّس الكبد بخلق الإنسان) (٢). فكلمة {كبد} تدور مادتها حول الشِدَّة والمشقة والمعاناة (٣). الَّتي يتعرض لها الإنسان في الحياة، وأصله من: كبد الرَّجل فهو أكبد: إذا وَجِعَت كبدُه وانتفخت، ثمَّ اتسع في استعماله، فأطلق على كل تعب ومشقة، ومنه أُشتقت المكابدة (٤). وتنكير كلمة: {كبدٍ} دلَّ على تعظيم شأن المكابدة وبيان شِدَّتها (٥). ولتشمل جميع صور المكابدة ودرجاتها المتفاوتة بين البشر (٦).

ونلحظ التوافق العجيب بين أصوات الكلمة وما تدلُّ عليه من حيث جهر أو شِدَّة؛ فجميع أصوات هذه الكلمة مما يتلأم مع قوة معنى: الكبد (٧).

يقول السَّعدي: يحتمل أنَّ المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد، فينبغي أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد ويوجب له الفرح والسُّرور الدَّائم، وإن لم يفعل فإنَّه لا يزال يكابد العذاب الشَّديد أبد الآباد (٨).

ويأتي قوله تعالى: {أيَحْسَب أن لن يقدر عليه أحدٌ} بدل اشتمال من الجملة الَّتي قبلها، والاستفهام الَّذي بدأت به الآية مستعمل في التوبيخ والتخطئة (٩). والتَّعجب (١٠). والإنكار (١١). والآية الكريمة صوَّرت الحالة النَّفسيَّة الَّتي كان عليها هذا الجاحد المغرور فـ(يطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه) (١٢)، فـ{يقول أهلكت مالاً لبداً}.

ويستوقفنا لفظ الإهلاك الَّذي يشعر بضياع المال في الحقيقة، إذ لا ينتفع به أحدٌ حتَّى الإنسان نفسه، لا في دنياه ولا في آخرته. مع ما دلَّ عليه تنكير كلمة {مالاً} من

---

١ ـ ينظر: السَّابق.
٢ ـ ينظر: التَّفسير الكبير للإمام الرَّازي/١/١٦٦.
٣ ـ ينظر: تهذيب اللغة للأزهري مادة "كبد" ولسان العرب لابن منظور "كبد"
٤ ـ ينظر الكشاف للزمخشري/٤/٧٥٤,
٥ ـ ينظر البلاغة القيمة للدكتور عبد القادر حسن/١٠٠.
٦ ـ ينظر التَّصوير القرآني في جزء عمَّ لأناهيد جمال حريري/٢/ ٦٣٨.
٧ ـ ينظر السَّابق /٢/٦٣٤. بتصرف
٨ ـ ينظر: تفسير السِّعدي /٩٢٥.
٩ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٣١١.
١٠ ـ ينظر روح المعاني للألوسي/٣٠/٤٩١.
١١ ـ ينظر التَّفسير الكبير للرَّازي/١١/١٦٧.
١٢ ـ تفسير السِّعدي/٩٢٥.

الكثرة، ويصوّر مقدار كثرته وصفه بـ{لبداً} أي: كثير متراكم بعضه على بعض. فيقول المولى متوعداً إياه: {أيحسبُ أن لم يره أحد} هذه الجملة بدل اشتمال من الجملة الَّتي قبلها، واستفهام الذي بدأت به استفهام إنكار وتوبيخ، أتى كناية عن علمه تعالى بالسَّرائر [1].

هكذا أعقبت مساوي نفسه بمذام أقواله، وهو التَّفخر الكاذب والتَّمدح بإتلاف المال في غير صلاح [2].

ويأتي تعليل الإنكار والتَّوبيخ بقوله تعالى: {ألم نجعل له عينين. ولساناً وشفتين. وهديناه النجدين} أي هو غافل عن قدرة الله ﷻ

وعن علمه المحيط بجميع الكائنات؛ فهو الخالق لمشاعر الإدراك الَّتي منها العينان، واقتصر على العينين لأنَّهما أنفع المشاعر ولأن المعلَّل إنكار ظنه إن لم يره أحد، و خلق آلات الإبانة وهي اللِّسان والشفتان، فكيف يكون مفيض العلم على النَّاس غير قادر وغير عالم بأحوالهم قال تعالى: {ألا يعلم من خلق وهو اللَّطيف الخبير} [الملك:١٤].

وأعقب ﷻ ما به اكتساب العلم وما به الإبانة عن المعلومات، وبما يرشد الفكر إلى النَّظر والبحث، وذلك قوله تعالى: {وهديناه النَّجدين}.

الهداية: الدلالة على الطريق المبلِّغة إلى المكان المقصود السير إليه [3].

والنَّجد: الأرض المرتفعة ارتفاعاً دون الجَّبل، فالمراد هنا طريقان نجدان مرتفعان [4].

فبذلك استكمل الكلام أصول التَّعلُّم؛ فإنَّ الإنسان خُلق محباً للمعرفة محباً للتَّعريف فبمشاعر الإدراك يكتسب المشاهدات وهي أصول المعلومات اليقينيَّة، وبالنُّطق يفيد ما يَعْلَمه لغيره، وبالهدى إلى الخير والشَّر يميز بين معلوماته ويمحصها [5]. فقد أبان له طريقي الخير والشَّر؛ فوضح له الهدى من الضَّلال، والرُّشد من الغي [6].

---

[1] ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور ٣١٢/٣٠.
[2] ـ ينظر: السَّابق ٣١١/٣٠. بتصرف.
[3] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور ٣١٣/٣٠.
[4] ـ ينظر: السَّابق.
[5] ـ ينظر: السَّابق. بتصرف شديد.
[6] ـ ينظر: تفسير السِّعدي ٩٢٥/. بتصرف.

واستعير النَّجدين للخير والشَّر لصعوبة اتباع كُلِّ واحد منهما؛ فطريق الخير صعوبته في سلوكه، وطريق الشَّر صعوبته في عواقبه؛ ولذلك عبر عنه بعد ذلك بـ{العقبة} [١].

ويأتي قوله تعالى: {فلا أقتحم العقبة} تفريع على الآية السَّابقة تفريع إدماج والمراد: هديناه الطريقين فلم يسلك النَّجد الموصل للخير.

والاقتحام: الدُّخول العسير في مكان أو جماعة كثيرين وصيغة (افتعال) للدلالة على التَّكلف، ويقع ترشيح لاستعارة {العقبة} لطريق الخير، وهو في نفس الوقت استعارة لأنَّ تزاحم النَّاس إنَّما يكون في طلب المنافع، وقد أفاد نفي الاقتحام أنَّه عدل عن الاهتداء إيثاراً للعاجل على الأجل؛ ولو عزم وصبر لاقتحم العقبة [٢].

لذا قيل: قد عُبِّر بالعقبة عن العمل الشَّاق على النَّفس تشبيهاً له بعقبة الجبل المرتفعة والوعرة [٣].

ويأتي الاستفهام عن العقبة في قوله تعالى: {وما أدرك ما العقبة} دليلاً على تفخيم أمرها وتهويلها [٤]. ونجد أنَّ العقبة فُسِّرت بعِدَّة أمور أولها قوله تعالى: {فكُّ رقبة} والفكُّ أصله الفصل بين الشَّيئين المتلاحمين، وقد تجوز به هنا عن العتق [٥].

وعليه أعتبر ذكر: الرَّقبة هنا مجاز علاقته الجزئية؛ لأن المراد تحرير الشَّخص بكامله؛ فذكر بأهم جزء فيه حساً ومعنى [٦].

يقول السَّعدي أي فكها من الرِّق بعتقها، أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فك الأسير المسلم عند الكفَّار [٧].

وهكذا أتت جملة: {فكُّ رقبة} بيان للعقبة وبتقدير: هي فكُّ رقبة، فحذف المسند إليه (هي) حذفاً لمتابعة الاستعمال. وتبيين العقبة بأنَّها: {فكُّ رقبة* أو إطعام} مبني على استعارة العقبة للأعمال الصَّالحة الشَّاقة على النَّفس، وهي من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس [٨].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتنوير لابن عاشور /٣١٣/٣٠. بتصرف شديد.
٢ ـ ينظر: السَّابق/٣١٥/٣٠. بتصرف شديد.
٣ ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/٣٠٦/١٦. والبحر المحيط لأبي حيان /٤١٧/٨.
٤ ـ ينظر: الفوائد الجمَّة لأبي النجا/١٨. وكذا التَّصوير القرآني. أ / أناهيد حريري/٦٤٩/٢.
٥ ـ ينظر: أساس البلاغة للزمخشري (مادة "فكك)
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٣١٦/٣٠. بتصرف.
٧ ـ تفسير: السِّعدي/٩٢٥.
٨ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣١٥/٣٠.وما بعدها بتصرف.

وتأتي جملة: {أو إطعامٌ في يومٍ ذِي مسغبةٍ} معطوفة بحرف التَّخيير {أو} أي إن لم يوجد الأول فهذا أمر يوازيه بالأجر والمثوبة؛ لأنَّ فيه إنقاذ لأرواح المحتاجين عند وجود المسغبة. لأنَّ المسغبة: الجوع أو التَّعب المؤدي إلى الهلاك[1]. ولا يخفى على متأمل مناسبة أصوات حروف الكلمة لِمَا تحمله من حدث.

وذكر {يوم} في قوله تعالى: {يوم ذي مسغبة} ليعبر عن الزَّمان؛ لأنَّ الزَّمان ما هو إلا يوم بعد يوم، أي زمن مجاعة، ووجه اختصاص ذلك أنَّ النَّاس في زمن المجاعة يشتد شُحُّهم بالمال خشية امتداد زمنها، فكان الإطعام في ذلك الزَّمن أفضل، وهو العقبة، ودون العقبة مصاعب متفاوتة[2].

بهذا يرشد ﷻ بأن يكون إطعامه وقت الحاجة لأشد النَّاس حاجة[3]. ذلك ما يحمله قوله تعالى: {يتيماً ذا مقربة * أو مسكنيناً ذا متربة} وعليه جاءت (يتماً) و (مسكنيناً) منصوبتين على المفعول به للمصدر إطعام؛ لأنَّه يعمل عمل فعله.

ونقف متأملين لوصف اليتيم بقوله تعالى: {يتيماً ذا مقربة} وما ذلك إلا لأنَّه ألزم في باب البر والوصل، والألفة العائليَّة؛ وقد قيل: الأقربون أولى بالمعروف. ونسجد خاشعين تعظيماً الله ﷻ لوصف المسكين بقوله تعالى: {أو مسكيناً ذا متربة} لتظهر صورة هذا المسكين والتُّراب يغطي كُلَّ ما حوله بل؛ حتَّى جسده.

يقول ابن عاشور: المتربة مصدر بوزن مفْعلة وفعله "ترب" يقال: ترب إذا نام على التُّراب، وهو في الأصل كناية عن العُروِّ من الثياب الَّتي تحول بين الجسد والأرض عند الجلوس والاضطجاع[4].

ويُعطف عليه قوله تعالى: {ثمَّ كان من الذين آمنوا ...} قيل: عطف على جملة: {فلا اقتحم العقبة}. جاء العطف بـ{ثمَّ} الَّتي تفيد التَّراخي الرُّتبي؛ فتدل على أنَّ مضمون الجملة المعطوفة بها أرقى رتبة في الغرض المسوق له الكلام من مضمون الكلام المعطوف عليه؛ فيصير الكلام: فلا اقتحم العقبة بفك رقبة أو إطعام بعد كونه مؤمناً. وفي الفعل {كان} إشعار بأنَّ إيمانه سابق على اقتحام العقبة المطلوبة فيه بطريقة التَّوبيخ على انتفائها عنه[5]. وذلك يدلُّ على أنَّ إيمانه شرط في الاعتداد بالأعمال.

---

[1] ـ ينظر: تهذيب اللغة للأزهري مادة "سغب" وكذا لسان العرب لأبن منظور "سغب"
[2] ـ ينظر: السَّابق بتصرف شديد.
[3] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٥. بتصرف.
[4] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣١٧/٣٠. بتصرف..
[5] ـ ينظر: السَّابق/ ٣١٨/٣٠.

وإن حُملت {ثمَّ} على التَّراخي الزَّمني يكون المعنى: لا اقتحم العقبة واتبعها بالإيمان، أي: اقتحم العقبة في الجاهليَّة، وأسلم لمَّا جاء الإسلام [١].

وقد جاء قوله تعالى: {ثمَّ كان من الَّذين آمنوا} دون أن يقول: ثمَّ كان مؤمناً؛ لأنَّ كونه من الَّذين آمنوا أدلَّ على ثبوت الإيمان؛ لأنَّ صفة الجَّماعة أقوى من أجل كثرة الموصوفين بها، وجعله بالموصول المشعر بأنَّهم عرفوا بالإيمان، وقد حذف متعلق {آمنوا} للعلم به، أي: آمنوا بالله ﷻ وحده وبرسوله محمد ﷺ وبدين الإسلام. فجعل الفعل كالمستغني عن المتعلق اعتماداً على ظهوره؛ وإيجازاً للكلام [٢].

وجاء من ذكر الَّذين آمنوا التَّخلص إلى الثَّناء عليهم بقوله تعالى: {وتواصوا بالصَّبر وتواصوا بالمرحمة} وهكذا خص بالذِّكر من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصَّبر وتواصيهم بالمرحمة؛ لأنَّ ذلك أشرف صفاتهم بعد الإيمان، فالصَّبر ملاك الأعمال الصَّالحة كلها؛ لأنَّها لا تخلو من كبح الشَّهوة النَّفسانيّة وذلك من الصبر.

والتَّواصي بالمرحمة فضيلة عظيمة؛ فكان تواصيهم بالرَّحمة كناية عن اتصافهم بها؛ لأنَّ من يوصي بالرَّحمة هو الَّذي عرف قدرها فعمل بها؛ وعليه أتت بشارتهم بأنَّهم أصحاب الميمنة، وفيه تعريض بأنَّ أهل الشِّرك ليسوا من أهل الصَّبر ولا من أهل المرحمة [٣]. و عليه يأتي قوله تعالى: {أولئك أصحاب الميمنة} بدأت الآية باسم الإشارة لتميزهم أكمل تميز بإحضارهم بصفتهم في ذهن المتلقي مع ما في اسم الإشارة من معنى البعد تعظيماً لمكانتهم الَّتي أكرمهم الله بها في الدُّنيا والآخرة[٤].

والميمنة جهة اليمين، أي: على جهة يده اليمنى، قيل سميت اليد يميناً ويُمنى؛ لأنَّها أعود نفعاً على صاحبها في يسر أعماله، ولمَّا كانت جهة اليمين جهة مكرمة، سمي أهل الجنَّة: {أصحاب الميمنة} و{أصحاب اليمين}[الواقعة:٢٧] ، وسمي أهل النَّار {أصحاب المشأمة} و{أصحاب الشمال} في سورة الواقعة [٤١]. فيكون قوله تعالى: {أولئك أصحاب الميمنة} أي أصحاب الكرامة عند الله ﷻ .

ويأتي التَّقابل العجيب بقوله تعالى: {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} بدأت الآية بالاسم الموصول لإحضار صورة الكافر الَّذي سبق ذكره بدءً من بالآية الخامسة في ذهن المتلقي بكل أقواله وأفعاله فيكون ذكره مرة ثانية بهذا التَّقرير الَّذي يحمل الكثير من المؤكدات، بدأً بالفعل الماضي {كفروا} ووصولاً إلى ضمير الشأن {هم} وتأكيداً بالجملة الاسميَّة {أصحاب المشأمة}.

---

١ ـ ينظر: السَّابق..
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣١٩. بتصرف شيد.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣١٩/٣٠. بتصرف.
٤ ـ ينظر: السابق (٣٢٠/٣٠) بتصرف شديد.

يقول ابن عاشور مؤكداً على ذلك: هذه الآية تتميم لِمَا سبق من ذمِّ الإنسان المذكور آنفاً، إذ لم يعقِّب ذمه هناك بوعيده عناية بالأهم وهو ذكر حالة أضداده ووعدِهم فلمَّا قضى حقَّ ذلك ثني العنان إلى ذلك الإنسان فحصل من هذا النَّظم البديع محسن رد العجز على الصَّدر، ومحسن الطِّباق بين الميمنة والمشأمة[1].

ونتج عن هذه المقابلة أنَّ المشأمة منزلة الإهانة والغضب ولذلك أتبع بقوله تعالى: {عليهم نارٌ مؤصدة}. الَّتي أتت بدل اشتمال من قوله تعالى: {هم أصحاب المشأمة} أو استئناف بياني ناشئ عن الإخبار عنهم بأنهم أصحاب المشأمة. ونلاحظ تقديم {عليهم} على متعلقة {مؤصدة} وذلك تعجيلاً للتَّرهيب بإبراز صورة هذه النَّار المؤصدة الَّتي تدور مادتها حول الإطباق والإغلاق [2] وهي مستعلية عليهم بما في معنى الاستعلاء من الشُّمول والتَّمكين والقهر. ويعزز ذلك ويقويه تنكير كلمة {نارٌ} المسند إليها الخبر: {مؤصدة} ليصور معنى الحبس والاستسلام التام. يقول ابن عاشور: وإسناد المؤصدة إلى {نارٌ} مجاز عقلي، والمؤصد هو موضع النَّار أي جهنَّم[3] نعوذ بالله من سوء المصير.

وصل اللهم وسلم على نبينا محمد بن عبد الله وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

سورة الشَّمس

الحم لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا
﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفۡسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا
فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ

---

[1] - ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/٣٢٧-٣٢١) بتصرف يسير.
[2] - ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (أصد) وكذا لسان العرب لأبن منظور (أصد).
[3] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابننا شور ٣٠/٣٢١) بتصرف.

بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣
فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥

بين يدي السُّورة المباركة

سميت هذه السُّورة المباركة في المصاحف و معظم كتب التَّفسير "سورة الشَّمس" بدون (واو) و بهذا عنونها التِّرمذي في جامعه، وعنونها البخاري سورة "والشمس وضحاها" بحكاية لفظ الآية ، وكذلك سميت في معظم كتب التَّفسير [١].

وجاء من أهم أغراضها تهديد المشركين أن يصيبهم عذاب بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمد ﷺ كما أصاب ثمود بإشراكهم وعتوهم على رسول الله ﷺ الذي دعاهم إلى التوحيد [٢].

وربطها الإمام البقاعي بقوله: لما أثبت في سورة البلد أنَّ الإنسان في كبد وختمها بأنَّ من حاد عن سبيله كان في أنكد النكد، وهو النَّار المؤصدة، أقسم أول هذه على أنَّ الفاعل لذلك أولاً وآخراً هو الله سبحانه لأنَّه يحول بين المرء وقلبه وبين القلب ولبه؛ فقال مقسماً بما يدل على تمام علمه وشمول قدرته في الآفاق علويها وسفليه والأنفس سعيدها وشقيها وبدأ بالعالم العلوي وذلك أقصى درجات القوى النظرية ليحمل على الاستغراق في شكر نعمائه [٣].

الدِّراسة البلاغيَّة التحليليَّة:

بدأت السُّورة الكريمة بالقَسَمِ الَّذي تكرر سبع مرات بأشياء معظَّمة، وذكر من أحوالها ما هو دليل على بديع صنع الله الَّذي لا يشاركه فيه غيره ﷻ دليلاً على تفرده بالألوهيَّة، وقد حمل في طياته تهديداً للمشركين بأنَّهم يوشك أن يصيبهم عذاب بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمد ﷺ الَّذي دعاهم إلى التَّوحيد فالفوز بالجنَّة والنَّجاة من النَّار [٤].

وقد بدأ ﷻ بأعظم آية ظاهرة للعيان على قدرته فقال تعالى: {والشَّمس وضحاها} أي نورها ونفعها الصَّادر منها [٥]. وابتداؤه ﷻ بالشَّمس لمناسبة المقام إيماء للتنويه

---

[١] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠ /٣٢١ بتصرف.
[٢] ـ ينظر: السَّابق
[٣] ـ ينظر: نظم الدرر /٢٢/ ٦٩ وما بعدها بتصرف
[٤] ـ ينظر: السَّابق بتصرف.
[٥] ـ ينظر: تفسير السَّعدي/ ٩٢٦.بتصرف.

بالإسلام؛ لأنَّ هديه كنور الشَّمس لا يترك للضَّلال مسلكناً، وفيه إشارة إلى الوعد بانتشاره في العالم كانتشار نور الشَّمس في الأفق.

وجاء العطف عليه بقوله تعالى: {وضُحاها}، الضُّحى: وقت ارتفاع الشَّمس عن أفق مشرقها، وظهور شعاعها [١]. وهو الوقت الَّذي تدبُّ فيه حياة الخلائق من جديد بعد سكون الليل الطَّويل، وفيه من آيات الله العظمى الشَّيء الكثير بتبدل الكون كُلِّه من حالة إلى حالة بما فيه من تغير طبقات الجو مما يدلُّ على عظمة صنع العليم الحكيم.

ويأتي القسم الثَّاني بقوله تعالى: {والقمر إذا تلاها} صورة تقابل الصُّورة الأولى لوقت يقابل الأول، (والتلوُّ: التَّبع وأريد به خَلف ضوئه في الليل ضوء الشَّمس، أي: إذا ظهر بعد مغيبها فكأنَّه يتبعها في مكانها) [٢]. يقول السَّعدي: فقد تبعها في المنازل والنُّور [٣].

ويقول ابن عاشور: وفي الآية إشارة إلى أنَّ نور القمر مستفاد من نور الشَّمس أي: من توجه أشعة الشَّمس إلى ما يقابل الأرض من القمر، وليس نيراً بذاته، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن [٤].

وتأتي المقابلة بقوله تعالى: {والنَّهار إذا جلَّاها} قال بعض المفسرين: تجلية الظُّلمة؛ لأنَّ الكلمة تدور مادتها حول: الكشف والظُّهور والوضوح [٥]. فجاز الكناية عن الظلمة وإن لم يجر لها ذكر؛ لأنَّ معناها معروف [٦].

وهكذا قال كثيرٌ من المفسرين: تجلية الظلمة [٧]. ولكن قيل أيضاً: تجلية الشّمَس؛ لأنَّ الشَّمس تظهر إذا انبسط النَّهار [٨]. وإسناد التجلية للشمس من قبيل إسناد الفعل لزمانه؛ لأنَّ انجلاء الشمس يقع حين ينبسط النَّهار، وليس انبساطه مجلياً لها [٩].

---

١ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٢٣/٣٠.
٢ - ينظر: السَّابق.
٣ - ينظر: تفسير السَّعدي/٩٢٦.
٤ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٢٣/٣٠.
٥ - ينظر: لسان العرب لابن منظور "جلى"
٦ - ينظر: معاني القرآن للفراء /٦٦/٣.
٧ - ينظر: معاني القرآن للفراء/٣٠/ ٢٦٦. وجامع البيان للطبري/٢٥٣/٣٠. والنكت والعيون للماوردي/٢٨٢/٦.
٨ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج/٣٣٢/٥. والنكت والعيون للماوردي/٢٨٢/٦. وزاد المسير لابن الجوزي/٤٥٠/٤.
٩ - ينظر: النكت والعيون للماوردي/ ٦/ ٢٨٢.

أو تجلية النَّهار لِمَا على الأرض من الموجودات [١] ونلحظ أن القسم بالنَّهار قُيِّد بقيد التَّجلية إدماجاً للمنة في القسم [٢]. وقد قُيِّد القسم بوقت النَّهار إدماجاً للمنَّة في القسم [٣].

وقد صوَّرت أصوات حروف الكلمة حركة هذه التَّجلية لِمَا لحرف "الجِّيم" من قوة تلائم بداية التجَّلية و"اللام" المشدَّدة القويَّة مع "الألف" الممتدَّة تقابلان البروز والوضوح، ثمَّ تأتي "الهاء" ومعها "الأف" لتقابلا اكتمال الوضوح وتمام التَّجلية [٤]

ولا يخفى ما بين (الشَّمس) و (القمر) من طباق يستحضر صورة كُلٍ منهما في الذِّهن بأشد ما يكون الوضوح.

ويعطف ﷻ قسماً رابعاً يحمل صورة أخرى مقابلة لما قبلها تحكي قدرته في ملكه وملكوته بقوله تعالى: {والليل إذا يغشاها} أي يغشى وجه الأرض؛ فيكون ما عليها مظلماً، وهكذا نجد أنَّ تعاقبُ الظُّلمة والضِّيّاء، والشَّمس والقمر، على هذا العالم، بانتظام وإتقان؛ لقيام مصالح العباد؛ أكبرَ دليلٍ على أنَّ الله بكُلِّ شيء عليم، وهو على كُلِّ شيءٍّ قدير، وأنَّه ﷻ المعبود الحق وحده، الَّذي كلُّ ما سواه باطل [٥].

ولا يخف هذا الطِّباق الرائع بين (النَّهار) و(الليل)، والمقابلة بين قوله تعالى: {والنَّهار إذا جلَّاها} وقوله تعالى: {والليل إذا يغشاها} [٦].

ثمَّ جاء القسم الخامس بقوله تعالى: {والسَّماءِ وما بناها} يقول الشيخ السِّعدي: يحتمل أن "ما" موصولة؛ فيكون الإقسام بالسَّماء وبانيها الَّذي هو الله تبارك وتعالى[٧]. ويفضل ذلك أبو السعود بقوله وأي ومن بناها إثار "ما" على "من" لإرادة الوصفيَة تفخيماً كأنَّ قيل: والقادر العظيم الشأن الَّذي بناها [٨].

ولكن السِّعدي يقول: يحتمل أن تكون "ما" مصدرية فيكون الإقسام بالسَّماء وبنيانها، الَّذي هو غاية ما يقدَّر من الإحكام والإتقان والإحسان [٩].

---

[١] ـ ينظر: النكت والعيون للماوردي/ ٨٢٨/٦. والكشاف للزمخشري/٧٥٨/٤. وقد رجحه ابن كثير في تفسير القرآن العظيم/٤٦٨/٤.
[٢] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٣٢٤/٣٠.
[٣] ـ ينظر: السَّابق.
[٤] ـ ينظر: التَّصوير القرآني لجزء عمَّ / أناهيد جمال حرير.٢/ ٦٦٢.
[٥] ـ ينظر: تفسير السَّعدي /٩٢٦. بتصرف
[٦] ـ ينظر: صفوة التفاسير للصابوني/٥٦٧/٣. وكذا التفسير المنير للزحيلي/ ٣٠/ ٢٥٧.
[٧] ـ ينظر: تفسير السِّعدي:٩٦٦.
[٨] ـ ينظر: إرشاد العقل السليم/١٦٣/٩.
[٩] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٢٦.

ونلاحظ أنَّ مجيء ذكر السَّماء هنا مناسباً لذكر الشَّمس والقمر [١]. وفي تأخير ذكره مناسبة للحديث عن الأرض بعده، حتَّى تتم المقابلة بينهما [٢].

وعليه جاء قوله تعالى: {والأرض وما طحاها} أي: مدَّها ووسعها فتمكن الخلق حينئذ من الانتفاع بها، بجميع وجوه الانتفاع [٣]. والحكيم العليم الَّذي طحاها؛ قيل إنَّ {طحاها} مثل {دحاها}، أي: بسطها من كل جانب.

يقول الإمام الشنقيطي: وقالوا إبدال الدَّال طاء مشهور، وطحا تأتي بمعنى خلق، وبمعنى ذهب في كل شيء ... ولا منافاة في ذلك بأنَّه تعالى خلقها ومدَّها، وذهب بأطرافها كُلَّ مذهب، أي: في مدها [٤].

ثمَّ جاء العطف بقسمٍ آخراً يمس كُلَّ مخاطب بقول تعالى: {ونفسٍ وما سواها}، فيكون القسم بها وتسويتها؛ لأنَّها مظهر الهُدى والضَّلال، وهو المقصود من كلِّ القسم السَّابق [٥].

وقد جاء تنكير {نفسٍ} للنوعية؛ أي: جنس النَّفس فيعم كلَّ نفسٍ، حتَّى قال بعضهم يحتمل أن يدخل فيها سائر المخلوقات الحيوانية ويؤيده العموم، ويحتم أنَّ المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف، بدليل ما يأتي بعده؛ وعلى كُلٍ فالنَّفس آية كبيرة من آياته الَّتي هي حقيقةٌ بالإقسام بها [٦]. لِمَا أودع فيها الخلَّاق العظيم من أسرار لا يعلم كنهها إلا من خلقها وسواها.

يقول ابن عاشور: ولا شك أنَّ تسويتها خلقها سواء، أي: غير متفاوتة الخَلق. ولكنِّي أجزم أنَّ الأمر أعظم بكثير من ذلك. ويؤكده قوله تعالى: {فألهمها فجورها وتقواها} لتتضح بعض تلك المنن منه ﷻ على النَّفس؛ فهو مقسم به لِمَا يقتضيه العطف بحرف(الفاء) الَّتي تدل على التَّرتيب مع التَّعقيب.

قيل: العطف بـ(الفاء) لأنَّ الإلهام ناشئ عن التَّسويَّة فضمير الرَّفع في "ألهمها" عائد إلى التَّسوية وهي المصدر المأخوذ من {سواها}، ويجوز أن تكون (ما) في قوله تعالى: {وما سوَّاها} موصولة صادقة على فعل الله تعالى [٧].

---

١ ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٢٤.
٢ ـ ينظر: التفسير الكبير للرازي/١١٧٦.
٣ ـ ينظر: تفسير السَّعدي:٩٢٦.
٤ ـ ينظر: أضواء البيان/١٣١/٩.
٥ ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٢٤.
٦ ـ ينظر تفسير السِّعدي/ ٩٢٦. بتصرف
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٢٥.

والمعنى هنا أنَّ من آثار تسوية النَّفس إدراك العلوم الأوليَّة والإدراك الضروري المدرَّج ابتداءً من الانسياق الجبلي نحو الأمور النَّافعة [١]

ويستوقفنا للتأمل تقديم الفجور على التَّقوى في القول الكريم السَّابق!

قيل في ذلك: قُدِّم لخطورته، إضافة إلى مراعاة الفاصلة القرآنيَّة [٢]. أو موافقة لقوله تعالى: {وما أكثر النَّاس ولو حرصت بمؤمنين} [يوسف:١٠٣] والله أعلم بمراده.

ويـأتي جواب القسم لكُلِّ ما سبق بقوله تعالى: {قد أفلح من زكَّاها. وقد خاب من دسَّاها}. يقول الإمام الشِّنقيطي: هذا هو جواب القسم فيما تقدَّم، وقد حُذفت منه اللَّام: لطول ما بين المقسم به والمقسوم عليه [٣].

وجاء هذا الجواب يحمل مقابلة عجيبة تستوجب وقفة تأمل لتصحيح المسار كُلَّمَا حاد عن الطَّريق المستقيم. ولذا قيل: إنَّ المقصود به التَّعريض بالتَّهديد والوعيد بالاستئصال [٤].

وأول ما يستوقفنا هنا حرف التَّحقيق والتَّأكيد: {قد} الَّذي بدأ به المقطع، ثمَّ فعل: {أفلح} بمعناه وزمنه الماضي ليدلَّ على شِدَّة تَّأكيد الخبر، وجاء الاسم الموصول: {مَنْ} مصوراً عموم البشرى لكُلِّ من تتحقق فيه هذه الصفة.

وكذا قوله تعالى: {زكَّاها} بما يحمل من مفهوم التَّطهر والنَّماء والزِّيادة [٥] في كُلِّ ذلك؛ لأنَّ كلمة {زكَّاها} هنا تعني أولاً طُهرها من دنس الكفر والشِّرك ورجسه، ثمَّ بعد ذلك كما قال الشيخ السَّعدي: أي: طهَّر نفسه من الذُّنوب ونقاها من العيوب، ورقَّاها بطاعة الله ﷻ ، وعلاها بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح [٦].

نجد أنَّ كُلَّ ما دلَّت عليه الأولى جاء نقيضه في الثَّانية بقوله تعالى: {وقد خاب من دسَّاها} فكانت المقابلة البلاغيَّة لها عظيم الأثر في إبراز تفاصيل الصورتين بأوضح ما يكون عليه المعنى؛ لأنَّ معنى قوله تعالى: {وقد خاب من دسَّاها} أي: أخفى نفسه الكريمة الَّتي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها بالتَّدنِس بالرَّذائل والدُّنو من العيوب والاقتراف للذنوب، وترك ما يكمِّلها وينميها، واستعمل ما يشينها ويدنسها.

---

١ ـ ينظر: السَّابق. وما بعدها بتصرف.
٢ ـ ينظر: روح المعاني للألوسي/٣٠/ ٥٠٣.
٣ ـ ينظر: أضواء البيان/٩/ ١٣٣.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور: ٣٠/ ٣٢٨.
٥ ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور: "زكى"
٦ ـ ينظر: تفسير السَّعدي/٩٢٦.

وهكذا يخبرنا ﷻ أنَّه خلق النَّفس البشريَّة بقدرة إدراكيَّة كامنة عبَّر عنها القرآن الكريم بـ(الإلهام) ولم يتركها ﷻ غفلاً دون توجيه؛ بل أرسل الرَّسل، وأنزل الشَّرائع والكتب؛ ليلهمها؛ فإمَّا أن تقبل على هذه الهداية، وإمَّا أن تفر منها فرار الحُمر المستنفرة من القسورة؛ وعندها تلوم كُلُّ نفسٍ طائرها في عنقها، وتجزى بما اكتسبته. وبهذه القدرة الواعيَّة فُضِّل الإنسان على كُلِّ المخلوقات؛ بل فضِّل على من هو أشدَّ منه قوة، أي: السَّماء والأرض والجبال الَّتي أبت حمل الأمانة إشفاقاً منها؛ وحملها الإنسان؛ وعلى ذلك جاء امتداح الله ﷻ عباده المؤمنين على طول القرآن الكريم ووعدهم بعظيم الثَّواب يوم القيامة، وذمَّ الكافرين في مثل ذلك [1].

كما نجده ﷻ قدَّم الفلاح على الخيبة لمناسبته للتقوى، وأردف بخيبة من دس نفسه؛ لتهيئة الانتقال إلى الموعظة بما حصل لثمود من عقاب على ما هو أثر التَّدسية؛ فقال تعالى: {قد أفلح من زكَّاها وقد خاب من دسَّاها} لذا بدأت كلٍّ من الآيتين بحرف التَّحقيق والتَّوكيد (قد) وجاء الفعل (أفلح) مزيد بالألف تصويراً عظم ذاك الفلاح ويؤكده زمنه الماضي. وجاء فاعله الاسم الموصول (من) الدَّال على العموم، وجاء الفعل: {زكَّاها} بصيغة التَّضعيف الدَّال على الكثرة والتَّمكن، كل ذلك الحشد يصوِّر عظم ذلك الفلاح عند ربِّ العباد.

وتأتي المقابلة بقوله تعالى: {وقد خاب من دسَّاها} إظهاراً للبون الشَّاسع بين الحالتين ونتائجهما أي: الدَّنيا والآخرة.

يقول ابن عاشور: وجملة: {كذَّبت ثمود بطغواها} وقعت في موقع الدَّليل لمضمون جملة {وقد خاب من دسَّاها} أي: خاب كخيبة ثمود، والمقصود هنا بالفلاح والخيبة ما يؤل إليه في الآخرة [2].

وقد كثر مجيء محسن الطِّباق في هذه الآيات فقد ذكرت أشياء متقابلة متضادة مثل: الشمس والقمر لاختلاف ظهورهما، والفجور والتَّقوى، والفلاح والخيبة، والتَّزكية والتَّدسية؛ وذلك لما لهذا المحسن من قدرة على إبراز صورة كل حالة منهما بأوضح ما يكون عليه الإيضاح.

كما نلحظ أنَّ هذا القسم من السُّورة المباركة قد ابتدأ بالأسلوب الخبري حكاية لقصة ثمود قال تعالى: {كذَّبت ثمود بطغواها} قيل: قد خصوا بالذكر دون غيرهم من الأمم لأنَّ آيتهم كانت واضحة لا مراء فيها ولعلم العرب ومنهم قريش بقصتهم

---

[1] ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ / أناهيد جمال حرير/٢/ ٦٧٣. بتصرف شديد.
[2] ـ ينظر: التحرير والتنوير/٣٢٨/٣٠. بتصرف.

لما يرون من آثارهم الباقية، لأنَّهم أخف الأمم المكذبة ذنباً وعذاباً فعاقبهم الله تعالى هذا العذاب الأليم، فكيف بمن مثلهم أو أشد منهم تكذيباً [١].

وجاء حرف (الباء) في قوله تعالى: {بطغواها} يكشف عن سبب تكذيب ثمود لما لهذا الحرف من معنى السَّببيَّة [٢]. وقد حذف مفعول: {كذَّبت} لأنَّ الهدف تسليط الضَّوء على حدث التَّكذيب نفسه وطغيانهم كان سبب عذابهم.

وتبرز قمَّة تكذيبهم وطغيانهم بقوله تعالى: {إذ انبعث أشقاها} مع ما حذرهم به رسولهم حكاية بقوله تعالى: {فقال لهم رسولهم ناقة الله وسقياها}؛ وذلك لأنَّ (الفاء) الرَّابطة للمقطع عطفت: {كذَّبت} فأفادت التَّرتيب والتَّعقيب؛ فيكون معنى الكلام: كذَّبوا رسول الله فتحداهم بآية النَّاقة وحذرهم من التَّعرض لها بسوء ومن منعهم شربها في نوبتها من السُّقيا، وعطف على {فكذَّبوه} أي: فيما أنذرهم به فعقروها.

ويظهر للمتأمل إضافتان بليغتا المعنى عميقة الأثر: الأولى في قوله تعالى: {رسول الله} أضيفت كلمة "رسول" إلى الاسم العلم "لله" ﷻ . الجامع لكُلِّ الأسماء والصِّفات؛ فأظهرت هذه الإضافة فداحة جرمهم وتجرئهم على خالقهم ومولاهم لعدم اكتراثهم بما نهاهم عنه رسول الله ﷺ .

ثمَّ يعظم الخطب في الإضافة الثَّانية بقوله تعالى: {ناقة الله وسقياها} وكم في هذه الإضافة من التَّكريم وتشريف للناقة الَّتي أضيفت إلى لفظ الجلالة لاستحضار المهابة والإجلال؛ ولكن ثمود كفروا بربهم فعميت قلوبهم الَّتي في صدورهم. وعليه جاء نصب: {ناقةَ اللهِ وسقياها} على التَّحذير؛ أي: احذروا ناقة الله وسقياها. فما كان منهم إلاَ أن كذبوا نبيهم "صالح" عليه السلام . كذبوه بإرسال النَّاقة لهم آية مبصرة إذ لم يكن من المتوقع أن تصل بهم الجُرأة على الله تعالى إلى هذا الحد فيعقروا آية الله لهم الَّتي شاهدوا خروجها من الصَّخر بأم أعينهم فجاء نزول عذاب الله عليهم جزاءً وفاقاً فقال تعالى: {فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها}. والَّذي تولى هذه الفعلة المشينة أشقاهم؛ ولكن أسند العقر للجميع مجازاً؛ لأنَّهم رضوا به جميعاً.

ويستوقفنا للتأمل تصوير ذلك العذاب بصوته المتكرر في قوله تعالى: {فدمدم} بهذه الكلمة الَّتي تدور مادتها حول معنى التَّسوية والتغطية [٣]. فدمدمت الشيء: إذا أزلفته بالأرض وطحنته، ودمَّهم دماً: إذا طحنته فأهلكته [٤].

---

[١] ـ ينظر: التبيان في أقسام القرآن لابن القيم/ ٢٢/٢١. وكذا نظم الدرر للبقاعي/ ٢٢/ ٨٠-٨٢.
[٢] ـ ينظر: الكشَّف للزمخشري/ ٤/ ٧٦٠. وكذا الدر المصون للسمين الحلبي/٥٣٢/٦. بتصرف.
[٣] ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور "دمدم"
[٤] ـ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي/٧٩/٢٠. وكذا روح المعاني للألوسي/٢٠٧/٣٠.

ونلاحظ أنَّ تركيب الكلمة (دمدم) جاء من مقطعين (دم) (دم) وهذا التِّكرار المقطعي يوحي بتكرار عمليَّة الدَّمدمة ويحاكيها صوتاً مما يشبه الزلزلة [١].

قيل المراد بهذه الدمدمة صوت الصَّاعقة الرَّجفة الَّتي أهلكوا بها قال تعالى: في آية أخرة: {فأخذتهم الصَّيحة} [الحجر:٧٣]، وقال أكثرُ المفسرين: دمدم عليهم أطبق عليهم الأرض يقال دمَّم عليه القبر إذا أطبقه ودمدم مكرر "دم" للبالغة [٢].

وأجد في المقطع (دم) صورة دمائهم وخاصة عند تكرارها (دم دم) وكأن الكلمة ترسم دماء كثيرة متدفقة لهول ما وقع عليهم من العذاب.

وجاء قوله تعالى: {بذنبهم} احتراساً من التَّعاطف معهم وعليه كانت النَّتيجة الحتميَّة وقوع الفناء الشَّامل لتلك الأمَّة الَّتي أغواها الشَّيطان وغرَّها التَّكبر حتَّى وصلت بهم الجُرأة إلى عصيان ربِّهم الَّذي أوجدهم من عدم ورباهم بالنِّعم؛ فعصوا أمر ربِّهم فلا غرو أن تكون تلك نهايتهم.

يقول الشيخ السَّعدي: دمر عليهم بعقابه، وأرسل عليهم الصَّيحة من فوقهم والرَّجفة من تحتهم؛ فأصبحوا جاثمين على ركبهم، لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً [٣]. ويوجزها الحكيم العليم بقوله تعالى: {فسوَّاها}.

ثمَّ تختم السُّورة المباركة لهذا المشهد التَّصويري المعجز بقوله تعالى: {ولا يخاف عقباها}. أخبر الله ﷻ بأنَّه الغالب الَّذي لا يقدر مغلوبة على أخذ الثأر منه، وهذا كناية عن تمكن الله ﷻ من عقاب المشركين وكُلِّ طاغية، وإن تأخر العذاب عنهم إمهالاً لهم وليس عن عجز فقوله تعالى: {ولا يخاف عقباها} تذييل للكلام وإيذان بالختام [٤].

حتَّى يتقرر في الأذهان أنَّ الَّذي لا يخاف عاقبة ما يفعل، ولا يُسأل عمَّا يفعل يبلغ غاية البطش حين يبطش، وكذلك بطش الله: {إنَّ بطش ربك لشديد} فهو إيقاع يراد إحياؤه وظِله في النَّفوس [٥].

والله أعلم وأحكم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.-

---

١ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ / أناهيد جمال حريري/ ٢/ ٦٨٢.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٣١.
٣ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٦.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٣١/٣٠.
٥ ـ ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب/ ٣٩١٩/٦.

سورة الليل

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ
﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا
مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ
مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرۡتُكُمۡ
نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى
﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ
وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾ .

بين يدي السُّورة المباركة.

سُمِّيت هذه السَّورة المباركة في معظم المصاحف وبعض كتب التَّفسير "سورة الليل" بدون واو، وسُمِّيت في معظم كتب التَّفسير "سورة والليل" بإثبات الواو، وعنونها البخاري والتِّرمذي "سورة والليل إذا يغشى".

احتوت على بيان شرف المؤمنين وفضائل أعمالهم ومذمَّة المشركين ومساويهم، وأنَّه أرسل رسوله ﷺ للتذكير بالله وما عنده، من ثواب وعقاب، وأدمج في ذلك الإشارة إلى دلائل قدرة الله ﷻ وبديع صنعه [1].

وذكر الواحدي (....عن عبد الله: أنَّ أبا بكر اشترى بلالاً من أميَّة بن خلف ببردة وعشر أورق، فأعتقه، فأنزل الله تبارك وتعالى تعالى: {والليل إذا يغشى} إلى قوله: {إنَّ سعيكم لشتى} سعي أبي بكر وأميَّة، وأُبي بن خلف...) [2].

[1] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٣٣٣، وما بعدها بتصرف.
[2] ـ ينظر: أسباب النزول/٢٥٩.

وقال عطاء عن ابن عبَّاس في حديث طويل: إنَّ المشركين قالوا عندما أعتق أبو بكر بلالاً: ما فعل أبو بكر ذلك إلا ليدٍ كانت لبلال عنده، فأنزل الله تعالى: {وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى. إلا ابتغاء وجه ربِّه الأعلى} [1].

ويربطها الإمام البقاعي بقوله: لما بين في الشمس حال من زكى نفسه وحال من دساها، وقد أوضح في أخرها من مخالفة ثمود لرسولهم ما أهلكهم، فعُلم أنَّ النَّاس مختلفون في السَّعي، فمنهم من تغلب عليه ظلمة اللَّبس، ومنهم من يغلب عليه نهار الهدى.

ثمَّ قال: أقسم أول هذه بما يدلُّ على عجائب صنعه تنبيهاً على تمام قدرته فقال: {والليل} أي: الذَّي هو آية الظَّلام الَّذي هو سبب الخبط والخلط ....[2].

<u>الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:</u>

وعليه افتتح الكلام بالقسم تأكيداً على الخبر وتشريفاً لما يقسم به [3]؛ فهو قسمٌ من الله ﷻ بالزَّمان الَّذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم [4]. وذلك لأنَّ {إذا} في محل نصب على الظَّرفيَّة الزَّمانية متعلق بالفعل: {يغشى}. وكذا قوله تعالى: {والنَّهار إذا تجلى} لأنَّ عطف بحرف الواو الَّتي تفيد الاشتراك في الحكم.

ونلاحظ حذف مفعول الفعل {يغشى} المتعدي؛ قيل للعلم به؛ إذا كان المقصود به الشَّمس، أو للتعميم إذا كان المقصود به النَّهار، أو كُلُّ ما يواريه الليل بظلامه [5].

أو لتنزيل الفعل منزلة اللازم؛ لأنَّ العبرة بحدث الغشيان نفسه لا من يقع عليه هذا الحدث [6].

وكما أقسم ﷻ باليل في حالة غشيانه يقسم ﷻ بالنَّهار في حالة تجليته، فجاء العطف على القسم الأول بقسم ثانٍ بقوله تعالى: {والنَّهار إذا تجلى} مقابلة ليتأمل المرء ما بينهما من فروق تتناسب مع طبيعة الخلائق في كافة احتياجاتهم وذلك لأنَّهما آيتين من آيات الله الكبرى الدَّالة على قدرته المطلقة.

فالغشي: التَّغطية. فالمعنى عندما يعم الخلق بظلامه ويستريح العباد من الكد والتعب [7]. وذِكْرُ هذا الفعل بزمنه المضارع يُحدث بالتكرار اليومي عبر زمان

---

[1] ـ ينظر: أسباب النزول للواحدي/٢٥٩.
[2] ـ ينظر: نظم الدُّرر /٨٥/٢٢ وما بعدها. بتصرف.
[3] ـ ينظر: التحَّرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٣٤/٣٠. بتصرف.
[4] ـ تفسير السِّعدي /٩٢٧. بتصرف
[5] ـ ينظر: حاشية محي الدين شيخ زادة/٤/ ٦٦٦، وكذا روح البيان للبروسوي/٥٣٤/١٠.
[6] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/ ٣٣٥.
[7] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/ ٣٣٥.

الدنيا ويصور منظر الغشي بكلِّ ما فيه من هيمنة على كل الموجودات في الإقليم الَّذي يكون به.

ويأتي عكسه التجليَّة: هو الظهور والتَّكشف. يقول أبو السَّعود في قوله تعالى: {والنَّهار إذا تجلى} أي: ظهر بزوال الليل أو تبين وتكشف بطلوع الشمس [1]. ويقول ابن عاشور: التجلِّي الوضوح، وتجلي النَّهار: وضوح ضيائه [2]؛ ولكنَّ الكلمة تشعر بمعاني إيحائيَّة كثيرة تتراءى من خلالها قدرة خالق الأكوان. منها ما قيل: وأسند إلى النَّهار التَّجلي مدحاً له بالاستنارة الَّتي يراها كُلُّ أحد ويحس بها حتَّى البصراء [3].

كما أنَّ في القسم بالليل والنَّهار تنبيه على الاعتبار بهما في الاستدلال على حكمة نظام الله في هذا الكون وبديع قدرته، وخص حالة غشيان اللَّيل للموجودات فلا تبدو للناظرين؛ لأنَّ ذلك أقوى أحواله، وخص بالذِّكر من أحوال النَّهَار حالة تجليه عن الموجودات وظهوره على الأرض كذلك [4].

وجاء اختير القسم بالليل والنَّهار لمناسبته للمقام؛ لأنَّ غرض السُّورة بيان البون الشاسع بين حال المؤمنين والكافرين في الدُّنيا والآخرة.

وبدء السُّورة بالليل ثمَّ ذكر النَّهار عكس السُّورة الَّتي قبلها "الشمس" لأنَّ هذه السُّورة نزلت قبل سورة الشَّمس بمدة، وهي سادسة السُّور، وحينها كان الكفر مخيماً على النَّاس إلا نفراً قليلاً، وقد كان الإسلام قد أخذ في التَّجلي فناسب تلك الحالة بالإشارة إلى تمثيليها بحالة الليل حين يعقبه ظهور النَّهار، ويتضح هذا في جواب القسم بقوله تعالى: {إنَّ سعيكم لشتى} إلى قوله: {إذا تردى} [الليل:٤- ١١] [5].

ثمَّ يُعطف عليه قسمٌ ثالثٌ بقوله تعالى: {وما خلق الذَّكر والأنثى}. قيل: إنَّ {ما} مصدريَّة [6]. أقسم الله بأثر من آثار قدرته وهو خلق الزوجين وما يقتضيه من التناسل [7]. وفائدة الطِّباق بين (الذكر) و (الأنثى) الدَّلالة على الشُّمول فالخلق جميعه لا يخرج عن كونه إمَّا ذكراً وإمَّا أنثى [8].

---

[1] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم/١٦٦/٩.
[2] ـ بنظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٣٣٥.
[3] ـ ينظر: السَّابق بتصرف.
[4] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٣٤/٣٠. بتصرف شديد.
[5] ـ ينظر: السَّابق. وما بعدها.
[6] ـ ينظر: معاني القرآن للفراء ٢٧٠/٣. وإعراب القرآن للنَّحاس/٢٤١/٥، ومشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب /٨٢٢/٢.
[7] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٣٥/٣٠.
[8] ـ ينظر: البلاغة القيمة د. عبد القادر حسن/١٠٩.

ويفصِّل الشيخ السَّعدي قائلاً: إن كانت (ما) موصولة – أي بمعنى الذي- كان إقساماً بنفسه الكريمة الموصوفة بأنَّه خالق الذُّكور والإناث، وإن كانت مصدريَّة كان قسماً بخلقه للذكر والأنثى، - أي خلق الذكر والأنثى- وكمال حكمته في ذلك أن خلقَ من كُلِّ صنفٍ من الحيوانات الَّتي يريد بقاءها ذكراً وأنثى؛ ليبقى النَّوع ولا يضمحل، وقاد كلاهما إلى الآخر، وجعل كلاهما مناسباً للآخر فتبارك الله أحسن الخالقين [١]. ويدخل فيهم دخولاً أولياً "آدم" و "حواء" وذريتهما [٢].

وجاء المقسوم عليه بقوله تعالى: {إنَّ سعيكم لشتَّى} قيل: مناسبة المقسوم به للمقسوم عليه أنَّ سعي النَّاس منه خير ومنه شر، وهما يمثلان النُّور والظُّلمة، وسعي النَّاس ينبثق عن نتائج منها النَّافع ومنها الضَّار، كما ينتج الذَّكر والأنثى ذريَّة صالحة وغير صالحة وشتان بينهما [٣]

وقد جاء جواب القسم كناية عن صفة، هي: اختلاف سعي النَّاس ومصيرهم وهو إجمالاً ليفيد التَّشويق: إلى تفضيله بقوله: {فأمَّا من أعطى} [الليل:٥] الآية ليتمكن تفصيله في الذهن فضل تمكن.

وحقيقة السَّعي: المشي القوي الحثيث، وهو مستعار هنا للعمل والكدِّ. وشتَّى: مشتق من الشتِّ وهو التَّفرق الشَّديد يقال: شتَّ جمعهم، إذا تفرقوا، وأريد به هنا التَّنوع والاختلاف في الأحوال [٤]. والخطاب لكافة النَّاس مؤمن وكافر.

يقول السَّعدي فيه: إنَّ سعيكم أيها المكلفون لمُتفاوت تفاوتاً كثيراً؛ وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقارها والنَّشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلى الباقي؟ فيبقى السَّعي له ببقائه، وينتفع به صاحبه، أم هي غاية مضمحلَّة فانية، فيبطل السَّعي ببطلانها، ويضمحل باضمحلالها [٥]. فجاء جواب القسم كناية عن صفة: وهي اختلاف سعي النَّاس ومصيرهم ثم جاء تفصيل ما أجمله الجواب وبيان شتات المساعي بقوله تعالى: {فأمَّا من أعطى وأتقى. وصدَّق بالحسنى. فسنيسره لليسرى}.

بدأ المقطع بـ(فاء) التَّفريع لتفصيل ما أُجمل في قوله تعالى: {إنَّ سعيكم لشتى} وحرف (أمَّا) يفيد الشَّرط والتَّفصيل، وهو يتضمن أداة شرط وفعل شرط؛ لأنَّه بمعنى: مهما يكن من شيء، والمحتاج للتفصيل هنا هو السَّعي المذكور؛ ولكن جعل

---

١ ـ ينظر: تفسير السّعدي :٩٢٧. بتصرف. وينظر معاني القرآن للفراء/٣/٢٧٠.
٢ ـ ينظر: أيسر التَّفاسير/٣/٧٠٨.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٣٣٤/ بتصرف.
٤ ينظر: السَّابق٣٠/٣٣٦.
٥ ـ ينظر: تفسير السَّعدي/٩٢٧.

التفصيل ببيان الساعين بقوله: {فأمَّا من أعطى}؛ لأنَّ المهم هو اختلاف أحوال السَّاعين، وهذا تفنن من أفانين الكلام الفصيح يحصل منه معنيان [1].

و {من} في قوله: {من أعطى} يعم كُلَّ من يفعل الإعطاء ويتقي ويصدِّق بالحسنى. وحذف مفعول: {أعطى}؛ لأنَّ فعل الإعطاء إذا أريد به إعطاء المال بدون عوض يُنزل منزلة اللازم لاشتهار استعماله في إعطاء المال والمقصود إعطاء الزَّكاة. وكذلك حُذف مفعول {اتقى}؛ لأنَّه يعلم أنَّ المقدر اتقى الله. ويعطف عليه قوله تعالى: {وصدق بالحسنى}. وهذه الخلال الثَّلاث من خلال الإيمان، فالمعنى: فأمَّا من كان من المؤمنين.

ونجد أنَّه ﷻ خصَّ الإعطاء بالذِّكر في قوله: {فأمَّا من أعطى واتقى} مع شمول {اتقى} ومفاده تحريض المسلمين على الإعطاء؛ فالإعطاء والتَّقوى شعار المسلمين مع التَّصديق بالحسنى، وضدَّ الثَّلاثة من شعار المشركين [2].

ومن الملاحظ حذف مفاعيل الأفعال مع أنَّها متعدية. يقول أبو حيان: حذف مفاعيل الأفعال: (أعطى، واتقى، وبخل، واستغنى) لأنَّ المعول عليه هو الحدث لا من وقع عليه [3]. وأجد أن حذف هذه المفاعيل يوسع دائرة المعنى لكُلِّ فعل منها.

وجاء قوله تعالى: {فسنيسره لليسرى} جواباً لـ{أمَّا} السَّابقة لما فيها من معنى الشَّرط بدليل لزوم (الفاء) في جوابها في: {فسنيسره لليسرى} والتَّقدير: مهما يكن من شيء [4].

فهي لتفصيل الشَّرط. يفسر ذلك الشَّيخ السَّعدي بقوله: أي: أعطى ما أُمر به من العبادات الماليَّة كالزكوات والكفارات، والنَّفقات، والصَّدقات، والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنيَّة كالصَّلاة، والصَّوم ونحوها [5].

وكُلُّ تلك الأعمال منبثقة عمَّا عطف عليه بقوله تعالى: {وصدَّق بالحسنى}.

قيل: {الحسنى} صفة لموصوف مقدَّر وتأنيثها مشعر بأنَّ موصوفها المقدر مؤنث اللفظ ويحتمل أموراً كثيرة منها المثوبة أو العافية. وقد يصير هذا الوصف علماً بالغلبة فقيل: الحسنى الجنَّة: وقيل: كلمة الشهادة وقيل: غير ذلك، فالتصديق بها الاعتراف بوقوعها، ويكنى به عن الرَّغبة في تحصيلها، وحاصل الاحتمالات يحوم

[1] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٣٦/٣٠. وما بعدها.
[2] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٣٤١/٣٠. بتصرف.
[3] ـ ينظر البحر المحيط /٨/ ٤٧٨.
[4] ـ انظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ لأناهيد جمال حرير/٧٠٩/٢/ نقلاً عن الجني الذاتي للمرادي/٥٢٢/ والبرهان في علوم القرآن للزركشي/٢٤٢/٤. بتصرف شديد.
[5] ـ ينظر: تفسير السَّعدي/٩٢٧.

حول التَّصديق بوعد الله ﷻ بما هو حسن من مثوبة، أو نصر، أو إخلاف ما تلف فيرجع هذا التَّصديق إلى الإيمان، ويتضمن عمل الأعمال الَّتي يحصل بها الفوز بالحسنى [١]. وعليه جاء قوله تعالى: {فسنيسره لليسرى} التَّيسير: جعل الشَّيء يسير الحصول ومفعوله الشَّيء الَّذي جُعل يسيراً.

واليسرى: هي ما لا مشقَّة فيه وتأنيثها إمَّا للحالة الَّتي لا تشق عليه في الآخرة، وهي حالة النَّعيم، أو على تأويلها بالمكانة، وقد فُسِّرت اليسرى بالجنَّة، واللفظ يحتمل معاني كثيرة تندرج في معاني النَّافع الَّذي لا يشق على صاحبه، أي: الملائم. فالأعمال اليسرى هي الأعمال الصَّالحة التي يعملها المؤمن في حياته الأولى، وصفت باليسرى باعتبار عاقبتها لصاحبها [٢].

وجاءت الصُّورة المقابلة بقوله تعالى: {وأمَّا من بخل واستغنى. وكذَّب بالحسنى. فسنيسره للعسرى}؛ أي: ترك الإنفاق الواجب، واستغنى عن الله، فترك عبوديته، وكذَّب بما أوجب الله على العباد التَّصديق به من العقائد الحسنة [٣]: فجاء جزاؤه من جنس عمله بقوله تعالى: {فسنيسره للعسرى}. أي: للحالة العسيرة والخصال الذَّميمة، بأن يكون ميسراً للشر أينما كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي [٤]. وهذا ما يخص حياته الدنيا.

وقد تكون العسرى الأعمال السَّيئة باعتبار عاقبتها على صاحبها، فتأنيثها باعتبار أنَّها صفة للأعمال، وحرف التَّنفيس على هذا التَّفسير يكون مراداً منه الاستمرار من الآن إلى آخر الحياة. وقد يكون المقصود بالعسرى: مكانته في جهنَّم؛ لأنَّها مكان العسر والشَّدائد على أهلها [٥].

كما جاء التَّعريف بال في (اليسرى) وفي (العسرى) لتعريف الجنس أو للعهد على اختلاف المعاني.

فيكون في هذا المقطع من السَّورة المباركة محسن الجمع مع التَّقسيم، ومحسن الطِّباق، أربع مرات بين {أعطى} و {بخل}، وبين {اتقى} و {استغنى} وبين و{صدق} و {كذَّب} وبين "اليسرى" و "العسرى" وقد قامت تلك المحسنات البديعيَّة بإظهار المعاني بوضوح تام لتتمكن في ذهن المتلقي كمال تمكن.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور:٣٣٨/٣٠.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٣٣٨/٣٠. بتصرف
٣ ـ ينظر: تفسير السِعدي /٩٢٧.بتصرف.
٤ ـ ينظر: السَّابق.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور:٣٠/ ٣٣٩. بتصرف شديد.

قيل: قد يتبادر للذهن أنَّ التَّيسير يكون في اليسر، لا في العسر، وهذا صحيح، إلا أنَّه يُجَوِّزه المشاكلة بينهما [1].

يقول الإمام الشنقيطي: ولكن لا يبعد أن يكون معنى التيسير للعسر موجود بالفعل، إذ يستمرئ العصاة المحرمات ويجدون لها لذَّة خاصة [2].

ويستوقفنا للتأمل نون العظمة التي كنَّت عنه ﷻ وما يتبع ذلك من عظيم اليسر وبالمقابل عظيم العسر.

كما يستوقفنا للتأمل التشديد في كُلٍّ من (صدَّق) و (كذَّب) مما يدل على كثرة هذا الخلق واستمراره حتى أصبح سجيَّة فيه.

وجاءت الحقيقة المرَّة بجملة: {وما يغني عنه ماله إذا تردى} عطف على جملة: {فسنيسره للعسرى} أي: أيُّ شيء يغني عنه ماله الَّذي بخل به إذا هلك [3].

فـ{ما} الَّتي بدأت بها الآية: يجوز أن تكون نافية. والتَّقدير: وسوف لا يغني عنه ماله إذا سقط في جهنَّم. ويحتمل أن تكون استفهاميَّة وهو استفهام إنكار وتوبيخ: (لتوبيخ الأشقى، وإنكار اعتقاده الفاسد بأنْ تكون مقاييس الدُّنيا هي نفس ما عليه الحال في الآخرة، فإذا كان المال هو المخلِّص لكثير من أزمات الدُّنيا فالحال أنَّ التَّقوى هي المخلصة لكربات الآخرة) [4].

والتَّردي: السُّقوط من علوٍّ إلى سفل، وقد صوَّر هذا الفعل صورة مرعبة تهز قلب المتلقي الفطن. قيل: عبر عن الموت بالتَّردي على سبيل الكناية [5]. وعلى هذا الوجه يجوز أن تكون (الواو) للاستئناف، والمعنى وما يغني عنه ماله الَّذي بخل به[6] (إذا تردى في النَّار)[7].

ويأتي الاستئناف المقرر لمضمون الكلام السَّابق بقوله تعالى: {إنَّ علينا للهدى. وإنَّ لنا للآخرة والأولى} وذلك لإلقاء التَّبِعَة على من صار إلى العسرى بأنَّ الله أعذر إليه؛ إذ هداه بدعوة الإسلام إلى الخير؛ فأعرض عن الاهتداء باختياره اكتساب السيئات، فإنَّ التَّيسير لليسرى يحصل عند ميل العبد إلى عمل الحسنات، والتيسير للعسرى يحصل عند ميله إلى عمل السيئات. وذلك لأنَّ الله وضَّح للإنسان

---

١ ـ ينظر: معاني القرآن للفراء/٣/ ٢٧٠، ٢٧١. وكذا جامع البيان للطبري/٢٧٠/٣٠.
٢ ـ ينظر: أضواء البيان/٩/٢٦٠، ٢٦١.
٣ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٩٧/٩.
٤ ـ التصوير القرآني في جزء عمَّ أ أناهيد عبد الحميد جمال حريري/ ٧١٤/٢.
٥ ـ ينظر: روح المعاني للألوسي/ ٣٠/ ٥١٢.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٤٢/٣٠/ بتصرف.
٧ ـ ينظر: إعراب القرآن للنَّحاس/٢٢٣/٥.

كل سبيل وعاقبة سلوكه فيه، وخلق فيه العقل وجعل له قوة إرادة، وعليه كان جزاؤه عدل ﷻ

ويؤكده قوله تعالى: {إنَّ علينا للهدى} فجاء استئناف مقرر لما قبله، أي: إنَّ علينا بموجب قضائنا المبني على الحكم البالغة حيث خلقنا الخلق للعبادة أن نُبيِّن لهم طريق الهدى وما يؤدي إليه من طريق الضلال وما يؤدي إليه، وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه [١].

وعليه جاءت الآية: {إنَّ علينا للهدى} مؤكدة بـ{إنَّ} ولام الابتداء وهذا يومئ إلى أنَّه جواب عمَّا يجيش في نفوس أهل الضَّلال عند سماع الإنذار السَّابق من تكذيبه بأنَّ الله لو شاء منهم ما دعاهم إليه لألجأهم إلى الإيمان؛ فقد حكى عنهم في الآية الأخرى: {وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم} [الزخرف:٢٠] [٢].

وقُدِمَ الخبر: {علينا} لإفادة القصر، أي: علينا الهدى، فلا يملكه غيرنا [٣].

وحرف (على) في: {علينا} إذا وقع بين اسم وما يدل على فِعل يُفيد معنى اللزوم، أي لازم لنا هُدى النَّاس، وهذا التزام من الله اقتضاه فضله وحكمته فتولى إرشاد النَّاس إلى الخير قبل أن يؤاخذهم بسوء أعمالهم، وقد خلق الله تعالى الإنسان قابلاً للتمييز بين الصَّلاح والفساد، ثمَّ عزز ذلك بأن أرسل إليه رُسلاً مبينين لِمَا قد يخفى أمره عليهم فليس لهم بعد ذلك حجَّة [٤].

وجاء تتميم المعنى بالتَّنبيه على تعهد الله عباده بالهدى فضلاً منه بقوله تعالى: {وإنَّ لنا للآخرة والأولى} مؤكداً على أنَّ الدَّار الآخرة ملكُه والدَّار الأولى ملكُه بما فيهما؛ فله التَّصرف فيهما كيف يشاء؛ فلا يحسبوا أنَّ عليهم حقاً على الله تعالى إلا ما تفضل به عليهم. وفي الآية إشارة عظيمة إلى أنَّ أمور الجزاء في الآخرة تجري على ما رتبه الله وأعلم به عباده، وأنَّ نظام أمر الدُّنيا وترتيب مسبباته على أسبابه أمر قد وضعه الله تعالى، وأمر بالحفاظ عليه، وأرشد وهدى؛ فمن فرط في شيء من ذلك فقد استحق ما تسبب فيه [٥].

---

١ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٦٧/٩.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٤٣/٣٠.
٣ ـ ينظر: البلاغة القيمة/ د عبد القادر حسن/١١١.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٤٣/٣٠.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٤٣/٣٠.

ويستوقفنا للتأمل تقديم الآخرة على الأولى مع أنَّ الدُّنيا سابقة في الوجود! قيل: للتنويه بفضل الآخرة وأنَّها المعوَّل عليه [١]. كما قُدِّم الخبر: (لنا) لإفادة القصر أيضاً والاختصاص، أي: لنا الآخرة والأولى لا لغيرنا [٢]

ولذا جاء المقطع الأخير بقوله تعالى: {فأنذرتكم ناراً تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الَّذي كذَّب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الَّذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى}.

حرف (الفاء) الَّذي رُبط به المقطع للتفريع المعنوي؛ فيكون "أنذرتكم" مراداً به الحال؛ وإنَّما جاء بصيغة الماضي لتقريب زمان الماضي من الحال كما في: قد قامت الصَّلاة، ومثل صيغ العقود كـ(بعتُ) وذلك لما يدل عليه زمن الماضي من قوة التَّأكيد. وهو تفريع على جملة: {إنَّ علينا للهدى} والمعنى: هديتكم فأنذرتكم إبلاغاً في الهدى [٣].

وجاءت كلمة: {ناراً} منكره زيادة في التهويل، ونعتت بجملة: {تلظى} لتصوير شِدَّة اشتعالها، وأصل الكلمة تتلظى حذفت إحدى التاءين اختصاراً. وذلك يصور سرعة تلظيها، ثمَّ تؤكد بصفة ثانية كاشفة أو حال من {ناراً} بقوله تعالى: {لا يصلاها إلا الأشقى} بأسلوب الحصر والقصر بعد أن وصفت بالشدَّة.

وقد خصَّ الأشقى بصلته لتلك النَّار العظيمة دون غيره ووصف بأنَّه: {كذَّب وتولى} عن الحق والخير احتراساً من التعاطف معه؛ لأنَّ الله ﷻ ليس بظلامٍ للعبيد، وقد أعذر من أنذر.

والقرينة على اختصاصه بتلك النَّار قوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى} الآية.

أُتبعت كلمة {الأشقى} بصفة كاشفة بقوله تعالى: {الَّذي كذَّب وتولى} لزيادة التَّنصيص على أنَّهم المقصودون بذلك؛ فإنَّهم يعلمون أنَّهم كذَّبوا الرَّسول ﷺ وتولوا أي: أعرضوا عن القرآن، وقد انحصر ذلك الوصف فيهم؛ ولذلك عطف: {وسيجنبها الأتقى} الخ تصريحاً بمفهوم القصر وتكميلاً للمقابلة [٤].

---

[١]- ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم / د. عائشة عبد الرحمن/١١٢/٢.
[٢] - ينظر: البلاغة القيمة / د. عبد القادر حين/١١١.
[٣] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٤٤.
[٤] - ينظر: السَّابق/٣٠/٣٤٥. بتصرف.

ويأتي بالمقابل وصف: {الأتقى} بصلة {الَّذي يؤتى ماله يتزكى} (وهو وصف مقيد) [١]. كسابقه مع {الأشقى} قيد موصوفهما غاية التَّقييد؛ للإيذان بأنَّ لجملة الصِّلة تسبباً في الحكم. ولا يخفى ما بينهما من الجناس والمقابلة. وطباق.

ولا يخفى أنَّ {الأشقى} و {الأتقى} مراد بهما الشَّديد الشَّقاء، والشَّديد التَّقوى لِمَا هم عليهم من صيغة اسم التَّفضيل، فيظهر بذلك الطباق الجميل الذي يستدعي الانتباه لتبرز الموازنة بينهما يقول الفراء: (لقد جعل الأول مختصاً بالصِّلى؛ كأنَّ النَّار لم تخلق إلا له. وجعل الثَّاني مختصاً بالنَّجاة؛ ولأنَّ الجنَّة لا تكون إلا له) [٢].

وتأتي جملة: {يتزكى} حال من ضمير {يؤتي}، وفائدة الحال التنبيه على أنَّه يؤتي ماله لقصد النفع والزيادة من الثَّواب، لما في صيغة التَّزكي من معنى تكلف الزَّكاء وهو النَّماء من الخير. "لا رياء وسمعة" [٣]

فحمل المقطع تعريضاً بالمشركين الَّذين يؤتون مالهم للفخر والرِّياء والمفاسد والفجور والفساد في الأرض.

ونجد أنَّ الآيات السَّابقة قائمة على الاحتباك، فقد ذكر التَّكذيب أولاً دليل على حذف ضِدَّه ثانياً، وذكر إيتاء المال ثانياً دليل على حذف ضِدَّه أولاً [٤]

وفي قوله تعالى: {وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى} اتفق أهل التأويل على أنَّ أول مقصود بهذه الصلة "أبو بكر الصديق" ﷺ لمَّا أعتق بلالاً قال المشركون ما فعل ذلك إلا ليد كانت لبلال عنده [٥].

و {عنده} ظرف مكان مستعمل هنا مجازاً في تمكين المعنى من المضاف إليه. وقوله تعالى: {من نعمة} "نعمة" اسم ما النَّافية جر بـ{من} الزَّائدة لتأكيد النَّفي، فوجودها هنا أفاد معنى التَّقليل لدرجة العدم من وجود أي نعمة لأحد على المتقي[٦].

وجاء تعظيم المقصد بهذا الاستثناء المنقطع بقوله تعالى: {إلا ابتغاء وجه ربه} أي: لكنه ابتغاءٌ لوجه الله، فوقعت كلمة: {ابتغاء} مفعول لأجله، عبر عنه بالمصدر {ابتغاء} لِمَا للمصدر من قوة تصوير الجد في مجاهدة الأتقى في طلب رضا ربه ﷻ

---

١ ـ ينظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري /٣٩١. وكذا البحر المحيط لأبي حيان/٨/٤٧٨.
٢ ـ ينظر: معاني القرآن /٣/ ٢٧٢.
٣ ـ ينظر: تفسير أبي السَّعود /١٦٨/٩.
٤ ـ ينظر: نظم الدرر للبقاعي/ ٩٦/٢٢.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٤٥.
٦ ـ ينظر: التصوير القرآني في جزء عمَّ لأناهيد جمال حريري / ٧١٣/٢). بتصرف.

فالابتغاء: الطَّلب بجد. وهو السَّبب الَّذي دفع الأتقى إلى إعطاء ماله وهذا الَّذي تترقبه وتتطلع إليه الأذهان من أول هذا التَّصوير [١].

وعليه جاءت الجائزة الكبرى بقوله تعالى: {ولسوف يرضى} جواب قسم مضمر تقديره وبالله لسوف يرضى ذلك الأتقى الموصوف بالصِّفات الطَّيبة السَّابقة لذلك[٢]. بدليل لام القسم، وقد جاء حرف (سوف) لتحقيق الوعد في المستقبل أي: يتغلغل رضاه في أزمنة المستقبل المديد.

وعد بالثَّواب الجزيل الَّذي يرضي صاحبه. وهذا من باب التتميم لقوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى}؛ فتمم هنا بذكر ما أعد له من الخيرات [٣].

فكانت هذه الآية من جوامع الكلم؛ لأنَّه يندرج تحتها كُلُّ ما يرغب فيه الرَّاغبون تفضلاً من الكريم المنان.

والله أعلم وأحكم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الضحى

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ
ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ
ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ
فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾

---

١ ـ ينظر: التصوير القرآني في جزء عمَّ / أ. أناهيد جمال حريري
٢ ـ ينظر: الدُر المصون للسمين الحلبي /٦/ ٥٣٥.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٣٤٦.

بين يدي السُّورة المباركة:

سميت هذه السَّورة المباركة في أكثر المصاحف وفي كثير من كتب التَّفسير وفي جامع الترمذي "سورة الضحى" بدون واو. وسميت في كثير من التفاسير وفي "صحيح البخاري" "سورة والضحى".

وجاء في الصحيحين أنَّ سبب نزولها أنَّه "دميت إصبعُ رسول الله ﷺ فاشتكى فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت زوج أبي لهب فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أرَه قربك منذ ليلتين أو ثلاث. فأنزل الله: {والضحى. والليل إذا سجى. ما ودَّعك ربك وما قلى} [الضحى:١-٣] (١).

فالسَّورة الكريمة تحمل إبطال لقول المشركين إذ زعموا أنَّ ما يأتي من الوحي للنبي ﷺ قد انقطع عنه، وزاده بشارة بأنَّ الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى، وأنَّه سيعطيه ربُّه ما فيه رضاه. وذلك يغيظ المشركين (٢).

ربطها الإمام البقاعي قائلاً: لما حكم في آخر الليل بإسعاد الأتقياء، وكان النبي ﷺ أتقى الخلق مطلقاً وكان قد قطع عنه الوحي حيناً ابتلاء لمن شاء من عباده وكان به ﷺ صلاح الدِّين والدنيا والآخرة أقسم بهما على أنَّه أسعد الخلائق دنيا وأخرى؛ فقال مقدماً ما يناسب حال الأتقى الذي قصد به أبو بكر - رضي الله عنه- فساق النَّهار عند الإسفار فقال تعالى: {والضحى} (٣).

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

فالقسم الَّذي بدأت به السَّورة لتأكيد الخبر رداً على زعم المشركين أنَّ الوحي انقطع عن النبي ﷺ حين رأوه لم يقم الليل بالقرآن بضع ليالٍ فجاء القسم تأكيداً لإبطال تلك الدعوة.

ومناسبة القسم بـ{الضُّحى} أنَّ الضُّحى وقت انبثاق نور الشَّمس؛ فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء به، وأنَّ الليل وقت قيام النبي ﷺ بالقرآن.

ولذلك قيد {الليل} بظرف {إذا سجى} (٤). فالكلمة تدور مادتها على السُّكون والدَوام والتَّغطية والظَّلام (٥).

---

١ ـ ينظر: لباب النُّقول في أسباب النزول للسيوطي/٣٦١. وكذا التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/٣٤٧.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٣٤٧. وما بعدها بتصرف.
٣ ـ ينظر: نظم الدُّرر /٢٢/١٠٠ وما بعدها بتصرف.
٤ ـ ينظر السَّابق/٣٠/٣٤٨.
٥ ـ ينظر: لسان العرب "سجى"

ولحروف الكلمة تصوير دقيق لهذا الحث: فتدرج ظلام الليل وسكونه منذ أوله إلى أن يصل لدرجة الاستقرار يقابله هسيس (السين) وصفيرها المتصاعد، وتراكم هذا الظلام أو السُّكون يقابله ثُقل (الجيم) وعلقها وانفجارا، واستمرار الألف يقابل ذلك السجو فترة زمنيَّة معينة قبل أن يبدأ الليل في الرحيل [١].

وقد بدأ القسم بـ{الضحى}، ثمَّ تلاه ذكر: {الليل إذا سجى} إشارة إلى أنَّ ما حدث بسبب فتور الوحي بمثابة ليل ينقشع بواسطة الضُّحى، أي نور الوحي [٢].

كما جاء القسم بالضحى مناسباً لغرض انشراح الصدر النَّبي ﷺ بعد ما ضاق صدره لتأخر نزول الوحي فترة من الزمن.

وجاء الطباق بين جنس: {الضُّحى} وجنس: {الليل} ليتضح الفرق بين الزَّمنين المتضادين وما يمثلهما في الآية الكريمة.

وعليه يأتي جواب القسم بقوله تعالى: {ما ودعك ربك وما قلى} ولم يقترن بلام القسم لأنَّه جملة منفيَّة.

قيل: المعنى: ما قطعك قطع المودع، وقيل: التوديع بالتشديد وهي قراءة الجمهور: ترك مع أمل الرُّجوع، وهو أدنى درجة من قراءة التَّخفيف، وحتى هذا النوع تنفيه الآية تكريماً لرسول الله ﷺ [٣].

{وما قلى} أي: وما أبغضك لأنَّ: (القلى) البغض الشَّديد مما يستوجب التَّرك، والمقطع كله كناية عن المفارقة [٤].

وعليه جاء حذف مفعول: {قلى} احتراساً من نسبة معناه إلى الحبيب المصطفى ﷺ لّمَا علم من معناه، وقيل: لدلالة ضمير الخطاب في: {ودعك} عليه. وإن كان منفياً في الكلام لطفاً به وشفقة عليه [٥]، أو لقصد نفي صدور الفعل عنه تعالى بالكليَّة مع ما فيه من مراعاة الفواصل [٦].

وتأتي الجملة الخبرية قوله تعالى: {وللآخرة خيرٌ لك من الأولى} عطفاً على جملة {والضحى} فهو كلام مبتدأ به، فلمَّا نفى القلى بشَّر بأنَّ آخرته خير من أولاه، وأنَّ

---

[١] ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ / لأناهيد جمال حريري/٧٢٨/٢. بتصرف يسير.
[٢] ـ ينظر التَّفسير الكبير للرازي/١٩١/١١. وكذا غرائب القرآن ورغائب الفرقان/ للنيسابوري/١١٤/٣٠، ١١٥.
[٣] ـ ينظر: أضواء البيان للشِّنقيطي/٩/ ٢٧٥.
[٤] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور:٣٤٩/٣٠. بتصرف.
[٥] ـ ينظر: روح المعاني للألوسي/ ٥٢٣/٣٠، أضواء البيان/ الإمام الِّشنقيطي/٢٧٦/٩.
[٦] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّالم لأبي السَّعود /١٦٩/٩.

عاقبته أحسن من بدأته، وأنَّ الله ختم له بأفضل مما قد أعطاه في الدُّنيا والآخرة. (اللام) في بداية الآية لام التَّأكيد. أو لام القسم [1].

و(اللام) في تعريف (الآخرة) و(الأولى) لام الجنس، أي: كُلّ آجل أمره هو خير من عاجله في الدُّنيا وفي الآخرة، وهي تحمل معنى التَّعميم؛ وذلك يجعل هذه الجملة في معنى التَّذييل الشَّامل لاستمرار الوحي وغير ذلك من الخير [2].

وفي قوله تعالى: {لك} اللام لام الاختصاص، أي خير مختص بك وهو شامل لكل ما له تعلق بنفس النبي ﷺ في ذاته وفي أمَّته فهذا وعد من الله بأن ينشر دين الإسلام وأن يمكن أمَّته من الخيرات الَّتي يأملها النَّبي ﷺ لهم. [3].

ثمَّ عطف على جواب القسم قوله تعالى: {ولسوف يعطيك ربك فترضى} وفي هذا الخبر المؤكد وعد من الله ﷻ لرسوله بالعطاء الجزيل من النَّصر والظَّفر... [4].

وحرف الاستقبال يفيد أنَّ هذا العطاء الموعود به مستمر لا ينقطع، وقيل: إن الجملة وقعت جواب لقسم محذوف تقديره: والله لسوف يعطيك ربك فترضى [5]. ويستوقفنا للتأمل وظهور كلمة (رب) وإضافتها لضمير خطاب النَّبي ﷺ ، و في ذلك إيحاء بالنِّعمة العظيمة الَّتي تليق بمقام النَّبي ﷺ ومن أعظمها نعمة النُّبوة والرسالة.

ولذا حذف المفعول الثَّاني للفعل {يعطيك} ليعم كُلَّ ما يرجوه النَّبي من خير لنفسه وأمته [6]. وكذلك حُذف مفعول الفعل: (ترضى) [7]. ليصور عموم الرضا وسعته.

وقد دلَّت (فاء) التَّعقيب على سرعة هذا العطاء وعاجل نفعه، فكان مفاد هذه الجملة تعميم العطاء وتعميم الرضا، كما أفادت الجملة قبلها تعميم الأزمنة.

ويجيء قوله تعالى: {ألم يجدك يتيماً فأوى} استئنافاً مسوقاً مساق الدليل على تحقق الوعد، أي: هو وعد جارٍ على سَنن ما سبق من عناية الله بك من مبدأ نشأتك ولطفه بك في الشدائد باطراد [8]. وعليه جاء الاستفهام التقريري [9] التذكيري [10]

---

[1] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٥٠.
[2] ـ ينظر: البلاغة القيمة/ د. عبد القادر حسين/١١٦.
[3] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٥١.
[4] ـ ينظر الكشاف للزمخشري/ ٤/ ٧٦١، ٧٦٦.
[5] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٧٠/٩. بتصرف.
[6] ـ ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري/ ٢/ ٤٣٨.
[7] ـ ينظر: البلاغة القيمة د. عبد القادر حسين/ ١١٦.
[8] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٥٢.
[9] ـ ينظر إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/ ١٧٠، وكذا روح المعاني للألوسي/٥٣٠/٣٠. بتصرف.
[10] ـ ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي/٣٤٠/٢.

في: {ألم}؛ لتقرير النِّعم الَّتي أفاضها الله تعالى على رسوله، ليشهد بالحاضر الموجود على المترقب الموعود فيطمئن قلبه [1].

وفعل: {يجدك} مضارع وجد بمعنى ألفى وصادف، ومفعوله ضمير الخطاب المتصل بالفعل [2]. جاء قوله تعالى {يتيماً} حالاً لتصوير حال ضعفه؛ لما لليتم من ذلك التأثير.

ثمّ يُعطف عليه منَّة أخر قوله تعالى: {وَوَجدك ضالاً فهدى} وهو حال ثانية.

وليس المقصود بالضَّلال اتباع سبيل الباطل فإنَّ الأنبياء معصومون من الإشراك قبل النُّبوة باتفاق العلماء؛ لكنَّه تصوير لما كان عليه من حال الحيرة لاختلاف ما فطر عليه لما يراه ويسمعه من قومه؛ فكان يطلب الهادية إلى الطريق المستقيم بتعبد لربه [3].

يفسره الشيخ السَّعدي بقوله: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق [4].

وتتتابع ذكر مننه ﷺ بقوله تعالى: {ووجدك عائلاً فأغنى}.

والعائل: الَّذي لا مال عنده، وقد أغناه الله غناءين: أعظمهما غناء القلب.

وقد حذفت مفاعيل الأفعال: {فأوى}، {فهدى}، {فأغنى} للعلم بها من ضمائر الخطاب قبلها وحذفها إيجاز ولرعاية الفواصل.

يشرح ذلك الشيخ السِّعدي بقوله: أي: وجدك فقيراً {فأغنى} بما فتح الله عليك من البلدان الَّتي جبيت لك أموالها وخراجها، فالَّذي أزال عنك هذه النقائص سيزيل عنك كلَّ نقص، والَّذي أوصلك إلى الغنى، وآواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران[5].

فقابله بقوله تعالى: {فأمَّا اليتيمَ فلا تقهر. وأمَّا السائل فلا تنهر. وأمَّا بنعمة ربك فحدث} (الفاء) الَّتي بدأ بها المقطع من نوع (الفاء) الفصيحة، وهي الَّتي تفصح عن كلام مقدَّر.

---

١ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/١٧٠.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٥٢. بتصرف.
٣ ـ ينظر: السَّابق/٣٠/ ٣٥٣.
٤ ـ ينظر: تفسير السَّعدي/٩٢٨.
٥ ـ ينظر: السَّابق

و (أمَّا) تفيد شرطاً مقدراً تقديره مهما يكن من شيء، فكان مفادها مشعراً بشرط آخر مقدر هو الَّذي اجتلبت لأجله فاء الفصيحة، وتقدير الكلام: إذا كنت تعلم ذلك وأقررت به فعليك بشكر ربِّك، وهكذا وبيَّن له ﷻ الشكر بتلك الأفعال في الجمل الثلاثة. وقد جعل الشُّكر هنا مناسباً للنعمة المشكور عليها [١].

ومما يستوقفنا للتأمل تقديم اليتيم الَّذي جاء مفعول لفعل المنهي عنه: {فلا تقهر} وقد قدم للاهتمام بشأنه، لأنَّه أحوج ما يكون للرحمة من كافة المؤمنين ولذا جعل الله ﷻ جزاء كفالته ورعايته بما هو خير له مجاورة نبيه الكريم في جنان الخلد.

وقهره يصدر بالكلام وبالأفعال أو بالحركات مثل العبوس له أو عدم رعايته بالتي هي أحسن وغيره. وقد يكون تذكرة الرسول ﷺ بذلك من باب اللف والنَّشر كأنَّ ﷻ يذكِّره بيتمه، وكيف هيأ له الحماية من القهر.

ويأتي العطف عليه بقوله تعالى: {وأمَّا السائل فلا تنهر}. يستوقفنا للتأمل تَّعريف كلمة السائل بلام الجنس، وعليه فهي تعم أنواع كثيرة، ولا تتوقف على من يسأل المال فقط، فكُلٌّ من يسأل ما أحله الله، وجعله عون للخير، فقد نهي عن نهره في هذه الآية، أوجبت التلطف معه في المنع قبل العطاء.

وذلك ما يصدقه معنى النهر: فهو الزجر بالقول ويستفاد من النَّهي عن القهر، والنَّهر: النَّهي عمَّا هو أشد منهما في الأذى كالشتم والضرب والاستيلاء وترك السائل محتاجاً.

وتختم السَّورة المباركة بقوله تعالى: {وأمَّا بنعمة ربك فحدث} التَّحديث الإخبار، أي: أخبر بما أنعم الله عليك اعترافاً بفضله، وذلك من الشُّكر [٢].

والقول في تقديم المجرور وهو: {بنعمة ربك} على متعلقه يفيد الاهتمام بالمقدم كالقول في تقيم: {فأمَّا اليتيم فلا تقهر. وأمَّا السائب فلا تنهر} ولا شك في أنَّ الخطاب للنَّبي ﷺ ثمَّ من بعده لكُلِّ مؤمن يخاف الله ويرجو رحمته

والله أعلم وأحكم. صلى الله على نبينا "محمد" وعلى آله وصحبه وسلم.

---

١ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٥٤/٣٠. بتصرف.
٢ ـ ينظر: السَّابق /٣٥٦/٣٠. بتصرف.

سورة الشرح

والحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾
وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ
فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴿١﴾

بين يدي السُّورة المباركة:

سميت في معظم التَّفاسير وفي صحيح " البخاري" و" جامع الترمذي" "سورة ألم نشرح"، وسميت في بعض التفاسير " سورة الشرح" وفي بعضها "سورة انشراح"

احتوت على ذكر عناية الله تعالى لرسوله ﷺ فمضمونها شبيه بأنَّه حجَّة على مضمون سورة الضحى تثبيتاً له بتذكيره سالف عنايته به وإنارة سبيل الحق وترفيع الدرجة ليعلم أنَّ الذي ابتدأه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله [١].

ربطها الإمام البقاعي قائلاً: لما أمره ﷺ أخر الضحى بالتحدث بنعمته الَّتي أنعمها عليه فصَّلها في هذه السُّورة فقال مثبتاً لها في استفهام إنكاري مبالغة في إثباتها عند من ينكرها والتقرير بها، مقدماً المنَّة بالشرح في صورته قبل الإعلام بالمغفرة كما فعل ذلك في سورة الفتح الَّذي هو نتيجة الشَّرح؛ لتكون البشارة بالإكرام أولاً، لافتاً القول إلى مظهر العظمة تعظيماً للشَّرح فقال تعالى: {ألم نشرح} أي شرحنا شرحاً يليق بعظمتنا .... [٢].

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

بدأت السُّورة المباركة بأسلوب التَّقرير لماضٍ يعلمه ﷺ ، فقال تعالى: {ألم نشرح لك صدرك} وتبع ذلك الآيات المعطوفة إلى الآية، الرابعة. فالاستفهام الَّذي بدأت به السُّورة استفهام تقريري على النَّفي. والمقصود التَّقرير على إثبات المنفي [٣].

---

١ - ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٣٥٩. بتصرف.
٢ - ينظر: نظم الدُّرر :١١٥/٢٢. بتصرف.
٣ - ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٥٩/٣٠.

فيكون قوله تعالى: {ألم نشرح} بمعنى شرحنا على المبدأ المعروف، من أنَّ نفي النَّفي إثبات، وذلك لأنَّ همزة الاستفهام؛ وهي فيها معنى النَّفي دخلت على (لم) وهي للنفي فترافعا فبقي الفعل مُثبتاً [١].

وهذا التَّقرير مقصود به التَّذكير لأجل أن يراعى هذه المنَّة عندما يخالجه ضيق صدر مما يلقاه من أذى قومٍ يريدُ صلاحهم وإنقاذهم من النَّار ورفع شأنهم بين الأمم، وذلك ليدوم على دعوته العظيمة نشطاً غير ذي أسفٍ ولا كمَدٍ [٢].

و: {نشرح} تدور مادة الكلمة حول: الكشف والإيضاح والفتح والاتساع [٣].

والشَّرح حقيقته: فصل أجزاء اللَّحم بعضها عن بعض، ومنه الشريحة والتَّشريح، ويطلق على انفعال النَّفس بالرِّضى بالحال المتلبس بها، قيل أصله استعارة ناشئة عن إطلاق لفظ الضِّيق وما تصرف منه على الإحساس بالحزن والكمد [٤].

وقد ذهب المفسرون في تفسير شرحه ﷻ لصدر النَّبي ﷺ تفسيرات عِدَّة تدخل تحت قسمين: الأول: (حسي) وهو شق صدره وقت صغره، ووقت الإسراء [٥].

والثَّاني: (معنوي) وهو تليين قلبه ﷺ ليتسع للإسلام والعلم والحكمة، وحفظ القرآن، وأداء حقوق النُّبوَّة [٦].

وعليه قيل: الصَّدر مراد به الإحساس الباطني الجامع لمعنى العقل والإدراك، فشرح صدره كناية عن الإنعام عليه بكُلِّ ما تطمح إليه نفسه الزَّكيَّة من الكمالات وإعلامه برضى الله ﷻ عنه وبشارته بما سيحصل للدين الَّذي جاء به من النَّصر. كما يجوز أن يكون الشَّرح شرحاً بدنياً لِمَا روي عن "ابن عباس" رضي الله عنهما أنَّه فسَّر به؛ ذكره التِّرمذي إذ أخرج حديث شق الصَّدر الشَّريف في تفسير هذه السُّورة؛ فتكون الآية إشارة إلى مرويات في شق صدره ﷺ شقاً قدسياً، وهو المروي بعض خبره في الصَّحيحين، والمروي مطولاً في السِّيرة والمسانيد [٧].

يعلق أبو السَّعود تعليقاً لطيفاً على هذه الآية بقوله: لما كان الصَّدر محلاً لأحوال النَّفس ومخزناً لسرائرها من العلوم والإدراكات وغيرها عبَّر بشرحه عن توسيع

---

١ ـ ينظر أضواء البيان للشِّنقيطي/١٦٣/٩.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٥٩/٣٠ ـ٣٦٠) بتصرف.
٣ ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور/ (شرح)
٤ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٦٠/٣٠.
٥ ـ ينظر: أحكام القرآن لابن العربي/ ١٩٤٩/٤. والمحرر الوجيز لابن عطيَّة/٣٢٥/١٦، وروح المعاني للألوسي/٥٣٨/٣٠.
٦ ـ ينظر: أحكام القرآن لابن العربي/١٩٤٩/٤. والنكت والعيون للماوردي/٢٩٦/٦. والمحرر الوجيز لابن عطيَّة/ ٣٢٥/١٦.
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور: ٣٦٠/٣٠-٣٦١. بتصرف.

دائرة تصرفاتها بتأييدها بالقوة القدسيَّة، وتحليتها بالكمالات الأنسية، أي: ألم نفسحه حتَّى حوى عالمي الغيب والشَّهادة، وجمع بين ملكتي الاستفادة والإفادة ...[١].

وحروف كلمة: {نشرح} تظهر معناها بأوضح ما يكون عليه الإيضاح: فالنون القويَّة وبعدها الشين بتفشيها وانتشارها تصوران بداية الشَّرح والفتح والتوسعة. والراء بتكرارها وجهرها تصوِّر تكرار هذا الشرح لرسول الله ﷺ سواء كان حسياً أو معنوياً، ثمَّ تأتي الحاء ببحتها وصحلها لتصور بلوغ عمليَّة الشرح غايتها [٢].

ومما يستوقفنا للتأمل مجيء إسناد الفعل: {نشرح} إلى نون المتكلم التي يسمونها العلماء نون العظمة إذا دلت على المتكلم الواحد؛ وذلك دلالة على عظمة هذا الفعل لعظمة من أسند إليه؛ وهو الله ﷻ .

كما جاء حرف اللَّام في: {لك} بما يحمل من اختصاص وتعليل؛ ليفيد معنى التَّكريم للنبي ﷺ بأن الله فعل ذلك لأجلك وهو شيء خاص به ﷺ .

ونلحظ تقديم الجار والمجرور: {لك} قبل ذكر المشروح وذلك بسلوك طريقة الإيهام للتشويق؛ فإنَّه لَمَّا ذُكر فعل الشَّرح علم السَّامع أنَّ ثمَّ مشروحاً؛ فلمَّا وقع قوله: {لك} قوي الإيهام؛ فازداد التَّشويق المترقب؛ فلما ذكر المشروح: {صدرك}. تمكن في الذِّهن كمال تمكن [٣].

وجاءت الآية الثَّانية تحمل بشرى أخرى بقوله تعالى: {ووضعنا عنك وزرك} معطوفةً بحرف (الواو) الَّذي يفيد اشتراك الحدث لما عطف عليه دون تراخي.

يقول أبو السَّعود: عطف على ما أشير إليه مدلول الجملة السَّابقة كأنَّه قد شرحنا ووضعنا [٤] في وقت واحد.

ونلاحظ إفراد لفظ (الوزر) هنا وأطلق، ولم يُبين ما هو وما نوعه، فاختلف فيه اختلافاً كثيراً:

فقيل: الوزر: الحرج ووضعه حطَّه عن حامله، والكلام تمثيل لحال إزالة الشدائد والكرب بحال من يحط ثقلاً عن حامله ليريحه من عناء الثُّقل [٥].
ويفسره السَّعدي بقوله: أي: ذنبك [٦].

---

١ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم :١٧٢/٩.
٢ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ / أناهيد جمال حريري /٧٤٨/٢. بتصرف شديد.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٦١. بتصرف.
٤ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم :٩/ ١٧٢.
٥ ـ ينظر: السَّابق/١٧٢/٩.
٦ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٩.

وقال أبو حيان: هو كناية عن عصمته ﷺ من الذُّنوب وتطهيره من الأدناس [١]. وقال ابن جرير: وغفرنا لك ما سلف من ذُنُوبك، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهليَّة الَّتي كنت فيها.

وقال ابن كثير: هو بمعنى: {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر}

فكلام أبي حيان يدلُّ على العصمة، وكلام ابن جرير على شيء في الجاهليَّة، وكلام ابن كثير مجملٌ [٢]

وجاء الجار والمجرور: {عنك} متعلق بالفعل: {وضعنا} وتقديمه على المفعول الصريح مع أنَّ حقه التأخير؛ لتعجيل البشرى، وفي الوقت نفسه التشويق للمؤخر [٣]

يقول ابن عاشور [٤]: وأمَّا وضع الوزر عنه فحاصلٌ بأمرين: بهدايته إلى الحق الَّذي أزالت حيرته بالتَّفكر في حال قومه، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: {ووجدك ضالاً فهدى} [الضحى:٧]. وبكفايته مؤنة كُلف عيشه الَّتي قد تشغله عمَّا هو فيه من الأنس بالفكرة في صلاح نفسه، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: {ووجدك عائلاً فأغنى} [الضحى: ٨].

ثمَّ اتَّضح مقدار المشقة الَّتي عاناها رسول الله ﷺ بقوله تعالى: {الَّذي أنقض ظهرك}.

(النَّقض): تدور مادة الكلمة حول: إفساد ما أبرم [٥]. قال الطبري: أنقضه: أثقله وأجهده، كما ينقض البعير حمله الثَّقيل [٦]. وقيل: جعل الشَّيء ذا نقيض وهو صوت صرير المحمل والرَّحْل، وصوت عظام المفاصل، وفرقعة الأصابع [٧]. وهكذا نلمس من تجاور صوتي القاف والضاد: (قض) حكاية لصوت النقض.

قيل: الكلام على سبيل الاستعارة التمثيليَّة، والوضع ترشيح لها [٨].

وقيل: جاء إسناد: {أنقض} إلى الوزر مجاز عقلي، وتعديته إلى الظَّهر تبعاً لتشبيه المشقة بالحمل، فالتَّركيب تمثيل لمتجشم المشاق الشَّديدة بالحمولة المثقَّلة بالأحمال تثقيلاً شديداً حتَّى يسمع لعظام ظهره فرقعة وصرير، وهو تمثيل بديع؛ لأنَّه تشبيه

---

١ ـ ينظر البحر المحيط/٨/٤٨٤.
٢ ـ ينظر: أضواء البيان للشِّنقيطي/ ١٦٦/٩.
٣ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم :١٧٢/٩.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٦٣/٣٠.
٥ ـ ينظر: تهذيب اللغة للأزهري: (نقض) وكذا لسان العرب لابن منظور(نض).
٦ ـ ينظر: جامع البيان/ ٢٨٥/٣٠.
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٦٢/٣٠.
٨ ـ ينظر: روح المعاني للألوسي/٣٠/ ٥٤٢.

مركب قابل لتفريقه على أجزاء. ووصف الوزر بهذا الوصف تكميل بأنَّه وزر عظيم [١].

وثمَّ ملحظ جميل في الإعجاز الصَّوتي لتتابع الحرفين (ض) و(ظ) في كلمتين متجاورتين بقوله تعالى: {أنقض ظهرك} وهما قريبي المخرج؛ فربما يحصل من النُّطق بهما شيءٌ من الثُّقل على اللسان. ولم يزل أهل التَّجويد يحذرون من أبدال أحد الحرفين بالآخر. وتتابعهما لا ينافي الفصاحة؛ ولكنَّ ثقل النُّطق بهما مع توخي شديد الحذر في ذلك مما يساعد على تصور ثقل الحدث نفسه [٢]. فسبحان رب القرآن.

وجاءت تكملة البشر بقوله تعالى: {ورفعنا لك ذكرك} أي بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة [٣]. بدليل نون العظمة الَّتي أسند إليها الفعل.

(ورفع الذكر) دون تحديد كيفيته إيهام يفيد العموم لكُلِّ ما يرفع به الذِّكر من الأمور الحسيَّة والمعنويَّة [٤].

لذا فسره المفسرون بأمور كثيره منها: أي" جعل ذكره بين النَّاس بصفات الكمال، وذلك بما نزل من القرآن ثناء عليه وكرامة، وإلهام النَّاس التَّحدث بما حباه الله عليه من المحامد منذ نشأته [٥].

وقال السِّعدي: أي: أعلينا قدرك وجعلنا لك الثَّناء الحسن العالي الَّذي لم يصل إليه أحدٌ من الخلق؛ فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله ﷺ كما في الدُّخول في الإسلام، وفي الآذان والإقامة والخطب، وغير ذلك من الأمور الَّتي أعلى الله ﷻ بها ذكر رسوله ﷺ ، وله في قلوب أمَّته من المحبة والإجلال والتَّعظيم ما ليس لأحدٍ غيره بعد الله - تبارك وتعالى- فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبياً عن أمته [٦].

وقيل: رفع الذَّكر: مجاز في إلهام النَّاس ذكره بالخير حتَّى في الجاهليَّة، وذلك بإجاد أسباب تلك السُّمعة. وأستعير الرَّفع؛ لأنَّه يجعل الشَّيء عالياً لا تناله جميع الأيدي، ولا تدوسه الأرجل، ومن عظيم رفع ذكره أنَّ اسمه مقترن باسم الله تعالى في كلمة الإسلام وهي كلمة الشَّهادة [٧].

---

[١] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور: ٣٦٢/٣٠.
[٢] - ينظر: السَّابق. بتصرف شديد.
[٣] - ينظر: نظم الدُّرر للبقاعي/ ٢٢/ ١٢٠.
[٤] - ينظر: أضواء البيان للشِّنقيطي/٩/ ٣١٦، وما بعدها. وكذا الفوائد الجمَّة لأبي النَّجا/٢١١.
[٥] - ينظر: البقاعي في نظم الدُّرر/١٢٠/٢٢.
[٦] - ينظر: تفسير السَّعدي/ ٩٢٩.
[٧] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٦٤/٣٠.

ونلاحظ عطف الفعلين: {ووضعنا} و{رفعنا} بصيغة الماضي على الفعل {نشرح} بصيغة المضارع؛ وذلك لأنَّ (لم) قلبت زمن الحال في الفعل {نشرح} إلى زمن المضي؛ فعُطِفَ عليه الفعلان بصيغة المضي؛ لأنهما داخلان في حيز التَّقرير؛ فلما لم يقترن بهما حرف (لم) صيَّر بهما إلى ما تفيده (لم) من معنى المضي [١].

وتجليات هذا الشَّرح الَّذي منَّ اللهُ ﷻ به على نبيِّه ﷺ هي عديدة وكما إنَّها سر بين الله ﷻ وبين رسوله ﷺ المخاطب بالآية الكريمة.

وعليه جاء قوله تعالى: {فإنَّ مع العسر يسراً * إنَّ مع العسر يسراً}. يقول البقاعي: رابطاً لهذا المقطع بما قبله: فقال مؤكداً ترغيباً في حمل مثل ذلك، رجاء في الإثابة بما يليق من المعالي، مبالغاً في الحث على تحملهن بذكر المعيَّة إشارة إلى تقارب الزمنين؛ بحيث أنَّهما كالمتلازمين، مسبباً عما مضى ذكره من حاله الضحى: {فإن} أي: أنَّه قضى في الأزل قضاء لا مرد له ولا معقب لشيء منه أنَّ {مع العسر يسراً} أي: عظيماً جداً [٢].

وتوضيح ذلك: أنَّ حرف (الفاء) الَّذي بدأ به المقطع من (الفاء) الفصيحة؛ وهي الَّتي تفصح عن كلام مقدر يدلُّ عليه الاستفهام التَّقريري الَّذي بدأت به السُّورة المباركة، أي: إذا علمتَ هذا وتقرر عندك، تعلم أنَّ اليسر مصاحب للعسر، وهذه المصاحبة تقتضي نقض تأثير العسر ومبطلةً لعمله؛ فهو كناية عن إدراك العناية الإلهيَّة به فيما سبق، وهو كذلك تعريض بالوعد باستمرار ذلك في كُلِّ أحواله [٣].

وذلك من خصائص كلمة (مع) الدَّالة على المصاحبة والمعية دالة على القرب.

وحرف (إن) للاهتمام بالخبر ولم يستغن بها عن بـ(الفاء) لحاجة السِّياق لكليهما فـ(الفاء) لدلالتها على الكلام المقدر. والتَّعريف في العسر (تعريف العهد أي: العسر الَّذي عهدته وعلمته).

روى ابن جرير عن يونس ومعمر عن الحسن عن النَّبي ﷺ أنَّه لمَّا نزلت هذه الآية: {فإنَّ مع العسر يسراً، إنَّ مع العسر يسراً} قال رسول ﷺ : "ابشروا أتاكم اليسر لن يغلب عسر يسرين" [٤]؛ فاقتضى ذلك أنَّ الآية غير خاصة بالنَّبي ﷺ .

والعسر: المشقة في تحصيل المرغوب والعمل المقصود. واليسر: ضده وهو: سهولة تحصيل المرغوب، وعدم التَّعب فيه، وإعادتها في وقوله تعالى: {إنَّ مع

---

١ ـ ينظر: السَّابق/٣٠/٣٦٢. وما بعدها.
٢ ـ ينظر: نظم الدُّرر للبقاعي/ ٢٢/١٢١.
٣ ـ ينظر: السَّابق
٤ ـ ينظر: المستدرك على الصَّحيحين للحاكم/ ٣/٣٨١.، وكذا المقاصد الحسنة للسخاوي/٩٠٢.

العسر يسراً} مؤكدة لجملة: {فإنَّ مع العسر يسراً} الأولى، وفائدة هذا التأكيد تحقيق اطراد هذا الوعد وتعميمه لأنَّه خبر عجيب [١].

قيل: والمراد بتكرير الجملة على أحد إعرابيها تأكيد المعنى وتقويته [٢].

وليس هذا فقط؛ بل يوجد سرٌ عظيمٌ في تعريف كلمة (العسر) وتنكير كلمة (يسراً) يفصِّل في ذلك النِّيسابوري قائلاً: إنَّ (اللام) إن أريد بها الجنس في (العسر)، وكانت الجملة الثَّانية تكريراً للأولى، كان العسر واحداً، وكذلك اليسر.

فإن كانت الجملة على الاستثناء، كان العسر واحداً أيضاً؛ لكن كان هناك يسران، فإن أريد بـ(اللام) العهد الواحد، وكانت الجملة تكريراً للأولى، كان العسر واحداً؛ لكن هناك يسرين؛ لأنَّه لم يعرَّف بـ(ال) في الآية فدلَّ على أنَّه يسران [٣]. وزيادة على ما قال: فإنَّ تنكير كلمة (يسراً) وتنوينها دلَّ على أنَّه يسر لا حدود له.

ويتفرع عنه قوله تعالى: {فإذا فرغت فانصب} فهو تفريع على ما تقرر من التَّذكير باللطف والعناية، ووعده وبتيسير ما عسر عليه في طاعته الَّتي أعظمها تبليغ الرِّسالة دون ملل ولا ضجر.

والفراغ خلو باطن الظرف، وفعل فرغ يفيد أنَّ فاعله كان مملوءاً بشيء. وفراغ الإنسان مجاز في إتمامه ما شأنه أن يعمله. ولم يُذكر هنا متعلق: {فرغت} وسياق الكلام يقتضي أنَّه أعمال يعلمها؛ ففحو الكلام إذا أتممت عملاً من الأعمال فأقبل على آخر؛ بحيث يعمر أوقاته كلها بالأعمال العظيمة [٤].

والنَّصب: التَّعب بعد الاجتهاد، كما في قوله تعالى: {وجوهٌ يومئذٍ خاشعة. عاملةٌ ناصبة} [الغاشية:٣] ولم يبينه ﷻ في أي شيءٍ؛ فاختلف فيه فقيل: في الدُّعاء بعد الصَّلاة. وقيل في النَّافلة من الفريضة، والَّذي يشهد له القرآن أنَّه توجيه عام للأخذ بحظ الآخرة بعد الفراغ من عمل الدَّنيا [٥].

فالمقصود بالأمر هو الفعل: {فانصب} وما قبله تمهيد له وحذف المتعلق هنا يعطي معنى العموم. وجاء تقديم {إذا فرغت} على {فانصب} للاهتمام بتعليق العمل بوقت الفراغ من غيره لتتعاقب الأعمال. وإعطاء كُلَّ عملٍ كامل الأهميَّة، وهذه الآية من جوامع الكلم القرآني لما احتوت عليه من كثرة المعاني [٦].

---

[١] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور:٣٦٦/٣٠.
[٢] ـ ينظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة/٢٣٦. وكذا البرهان في علوم القرآن للزركشي/٩٨/٤.
[٣] ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان/ ١٢٥/٣٠.
[٤] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٦٨/٣٠. بتصرف.
[٥] ـ ينظر: أضواء البيان للشِّنقيطي/ ١٦٩/٩ وما بعده.
[٦] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٣٦٧. وما بعدها

وتختم السُّورة المباركة بعطف قوله تعالى: {وإلى ربك فارغب} على ما قبلها عطف تفريع الأمر بالشُّكر على النِّعم لطلب استمرار نعم الله تعالى عليه؛ كما قال تعالى: {لئن شكرتم لأزيدنَّكم} [إبراهيم:٧]

والرَّغبة: طلب حصول ما هو محبوب، وأصله أن يعدى إلى المطلوب منه بنفسه ويعدى إلى الشَّيء المطلوب حرف (في)؛ أمَّا تعدية الفعل: {فارغب} هنا بحرف {إلى} فتضمينه معنى الإقبال والتَّوجه تشبيهاً بسير السائر إلى من عنده حاجته؛ كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام :{وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين} [الصَّافات: ٩٩].

وعليه جاء تقديم: {وإلى ربك} على {فارغب} وذلك لإفادة الاختصاص أي إليه لا إلى غيره. ومجيء حرف (الفاء) في فعلي الأمر: {فانصب} و {فارغب} صوَّر المسارعة في ذلك، وقيل تتضمن معنى الشَّرط والتَّقييد لتقديم المعمول عليها [١].
ويستوقفنا للتأمل حذف مفعول، (ارغب) قيل: لشمول الرَّغبة في كُلِّ عملٍ يرضي الله سبحانه وتعالى. [٢].

والله أعلم وأحكم. وصلى الله على ونبينا وإمامنا "محمد" وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة التِّين

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا
ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ
ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨

---

[١] ـ ينظر: السَّابق/٣٠/ ٣٦٩.
[٢] ـ ينظر: السَّابق.

بين يدي السُّورة المباركة:

سمِّيتْ هذه السُّورة المباركة في معظم كتب التَّفسير ومعظم المصاحف "سورة والتِّين" بإثبات "واو القسم" تسمية بأول كلمة فيها، وسمَّاها بعضُ المفسرين "سورة التين" لأن فيها لفظ "التين" [1].

ومن أغراضها: احتوت هذه السُّورة على التَّنبيه بأنَّ الله خلق الإنسان على الفطرة المستقيمة ليعلموا أنَّ الإسلام هو الفطرة، والتعريض بالوعيد للمكذبين بالإسلام، والإشارة بالأمور المقسم بها إلى أطوار الشرائع الأربعة.

وإيماءً إلى أنَّ الإسلام جاء مصدقاً لها وأنَّها مشاركة أصولها لأصول دين الإسلام لأمور [2]

ويربطها الإمام البقاعي بقوله: لما ذكر سبحانه وتعالى في تلك السُّورة أكمل خلقه وما كمله وختمها بالأمر بتخصيصه سبحانه بالرغبة إليه فكان صلى الله عليه وسلم يقوم حتى تورم قدماه ويبذل الجهد لمولاه...

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

ابتداءُ الكلامِ بالقسم المؤكد يؤذن بأهميَّة الغرض المسوق له الكلام؛ فقد أقسم ﷻ بأربعة أشياء معظمة تدلُّ في فحواها على أطوار الشَّرائع الأربعة إيماءً إلى أنَّ الإسلام جاء مصدقاً لها، وأنَّها مشاركة في أصولها لأصول دين الإسلام. وفي ذلك براعة استهلال لغرض السُّورة [3].

قيل: التِّين: من أحسن الثِّمار صورةً وطعماً وفائدة فحالتها دالة على دقَّة صنع الله ومؤذنة بعلمه وقدرته، والقسم بها لأجل دلالتها على صفات إلهيَّة كما يقسم بالاسم لدلالته على الذَّات مع الإيذان بالمنَّة على النَّاس [4].

وقد قالوا: إنَّه أشبه ما يكون من الثِّمار بثمرة الجنَّة، إذ لا عَجَمَ له ولا قشرة [5].

١ ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ٣٠/ ٣٧٠. وكذا إرشاد العقل السليم لأبي السَّعود:٩/ ١٧٧.
٢ ـ ينظر: السَّابق. بتصرف.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٣٠.
٤ ـ ينظر: السَّابق.
٣ـ ينظر: أضواء البيان للشِّنقيطي/١٧٣/٩.

وذكر المفسرون وابن القيم " في "زاد المعاد" وصاحب "القاموس للتين خواص، وقالوا إنَّها ممَّا تجعله محلاً للقسم به، وجزم ابن القيم أنَّه المراد في السُّورة. [١].

والزَّيتون: القسم به كالقسم بالتِّين من حيث إنَّ الثمرة دالَّة على صفات الله، مع الإشارة إلى نعمة خلق هذه الثَّمرة النَّافعة الصَّالحة الَّتي تكفي النَّاس حوائج طعامهم وإضاءتهم [٢]

قال السِّعدي: أقسم المولى بهتين الشَّجرتين لكثرة منافع شجرهما وثمرهما؛ ولأنَّ سلطانهما في أرض الشَّام، محل نبوة "عيسى ابن مريم" عليه السلام [٣].

وعلى ظاهر الاسمين للتين والزَّيتون حملهما جمع من المفسرين الأولين كابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعكرمة، والنَّخعي، وغيرهم وذلك لما في هتين الثَّمرتين من المنافع للنَّاس المقتضية الامتنان عليهم بأن خلقها الله عز وجل لهم [٤].

وجاء العطف عليه بقوله تعالى: {وطور سنين. وهذا البلد الأمين} عقَّب ابن عاشور قائلاً: مناسبة ذكر هذين مع {طور سنين} ومع {البلد الآمين} تقضي أن يكون لهما محمل أوفق بالمناسبة فروي عن ابن عبَّاس بأنَّ فسر التَّين بأنه: مسجد نوح الَّذي بني على الجُودي بعد الطُّوفان. ولعل تسمية هذا الجبل التِّين لكثرته فيه إذ تسمى الأرض باسم ما يكثر فيها من الشجر.

والزَّيتون: يطلق على الجَّبل الَّذي بُني عليه المسجد الأقصى؛ لأنَّه ينبت الزَّيتون، ولعل القسم بهاتين الثَّمرتين لشرف المكانين [٥].

إضافة لِمَا لهما من فوائد جمَّة لايزال العلم الحديث يكتشف جوانب مهمَّة فيهما.

وأمَّا {طور سنين} فهو الجبل المعروف "بطور سينا". والطور: الجبل بلغة النَّبط وهم الكنعانيون، وعُرِفَ هذا الجبل بـ(طور سينين} لوقوعه في صحراء "سينين" وهي صحراء بين مصر وبلاد فلسطين [٦]. و ذكره السِّعدي بقوله أي: محل نبوة "موسى". عليه السلام .

ويأتي المقسوم به الرَّابع بقوله تعالى: {وهذا البلد الأمين}: مكة المكرمة سمي الأمين؛ لأنَّ من دخله كان آمناً. والأمين على صيغة "فعيل" لدوام الصِّفة وثبوتها.

---

١ ـ ينظر: أضواء البيان للشِّنقيطي/١٧٣/٩.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور:٣٠/ ٣٧١.
٣ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٢٩.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٧١.
٥ ـ ينظر: السَّابق
٦ ـ ينظر: السَّابق.

قال تعالى في سورة "قريش" {فليعبدوا رب هذا البيت الَّذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف}. فجاء القسم به للتعظيم [1].

ويقول السَّعدي: وهي مكَّة المكرمة، محل نبوَّة محمد ﷺ فأقسم ﷻ بهذه المواضع المقدَّسة الَّتي اختارها وابتعث منها أفضل النبوات وأشرفها [2].

والإشارة إليه في قوله تعالى: {وهذا البلد الأمين} لأنَّ نزول السُّورة في ذلك البلد؛ فهو حاضرٌ بمرأى ومسمع من المخاطبين [3]. وأجد أنَّه حاضر أمام ناظري كُلِّ مصلٍ لاتجاه القبلة إليه في كافة أنحاء العالم إليه.

يشرحه السِّعدي قوله تعالى: {الأمين} قائلاً: أي الآمن من أمن الرَّجل أمانة فهو آمن، وهي مكة شرفها الله تعالى وأمانتها أنها تحفظ من دخلها كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه، ويجوز أن تكون (فعيل) بمعنى مفعول من أمنه لأنَّه مأمون الغوائل كما وصف بالآمن في قوله تعالى: {حرماً آمناً} بمعنى ذي أمن [4].

ويأتي جواب القسم بعد طول انتظار بقوله تعالى: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} هو وما عطف عليه، ولهذا بدأت الجملة بلام القسم وحرف التَّحقيق.

ونجد الفعل في قوله تعالى: {خلقنا} أسند إلى نون العظمة العائدة على الله ﷻ. دلالة على عظم ذلك الخلق. وجاءت: (أل) في: {الإنسان} لتعريف الجنس أي: كافة جنس الإنسان.

وتستوقفنا كُلُّ كلمة في قوله تعالى: {في أحسن تقويم}؛ لما لها من دلالة عميقة على عظمة الخالق: فجيء بحرف الجر: {في} ظرف لدلالته على الإحاطة والشُّمول.

ويقول ابن عاشور: حرف الجر {في} يفيد الظرفيَّة المجازيَّة المستعارة لمعنى التَّمكين والمِلك؛ فهي مستعملة في معنى (باء) الملابسة، أو لام الملك، وإنَّما عدل إلى الظرفيَّة لإفادة قوة الملابسة [5].

وكلمة: {أحسن} بما فيها من معنى التَّفضيل تصوِّر أنَّ البارئ خلق الإنسان على أكمل خلقة شكلاً ونفساً وعقلاً. فأفادت الآية أنَّ الله كوَّن الإنسان تكويناً ذاتياً متناسباً لِمَا خُلق له نوعه، وليس تقويم صورة الإنسان الظاهرة فقط، مع ما فيها من منَّة

---

[1] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٧١.
[2] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٢٩.
[3] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٧٢/٣٠. بتصرف
[4] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم/١٧٥/٩.
[5] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٣٧٤. بتصرف.

عظيمة وصورة بديعة تدل على عظم الخالق؛ ولكنَّ المعتبر عند الله ﷻ والأجدر بأن يقسم عليه؛ ليس الشكل الخارجي فقط فإنَّه لا أثر له في إصلاح النَّفس، وإصلاح الغير، والإصلاح في الأرض؛ وإنَّما هو متِّم لتقويم النَّفس قال النبي ﷺ : "إنَّ الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم؛ ولكن ينظر إلى قلوبكم" [١].

أي: خلقه ﷻ على الفطرة السَّليمة مدركاً بفطرته أدلَّة وجود الخالق ووحدانيته. وفي ذلك إيماء إلى أنَّ ما خالف ذلك من النِّحل والملل قد حاد عن أصول شرائع الله كُلِّها بقطع النَّظر عن اختلافها في فروعها.

ويظهر هذا كمال الظهور في قوله تعالى: {ثمَّ رددناه أسفل سافلين}

قال ابن عاشور والقسم على ذلك يدلُّ أنَّ التَّقويم تقويم خفي وأنَّ الرَّد رد خفي يجب التَّدبر لإدراكه.

ثم قال: والَّذي يتضح من هذه السُّورة أنَّ الإنسان مخلوق على حالة الفطرة السليمة؛ فكلما لاحت له فكرة ضالة استطاع دفعها بدلائل الحق والصَّواب ليجري في جميع شؤنه على الاستقامة؛ ولكنَّه قد يتعثر؛ فترمي به الشَّهوات في الضلالات. أو يتغلب عليه دعاة الضَّلال بعامل التَّخويف؟، أو الإطماع؛ فيتابعهم طوعاً أو كرهاً، ثمَّ لا يلبث أن يستحكم فيه ما تقلده فيعتاده، وينسى الصَّواب والرشد [٢].

ويؤكد هذا المعنى قول النَّبي ﷺ ما من مولود إلا يولد على الفطرة ثمَّ يكون أبواه هما اللذان يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه" [٣].

والملفت في جملة: {ثمَّ رددناه أسفل سافلين} عطفها على جملة {خلقنا الإنسان في أحسن تقويمْ} فهي في حيز القسم، وحرف العطف {ثمَّ} صوَّر المهلة بين الخلقة في أحسن تقويم، وبين الردَّة إلى أسفل سافلين، وهذه المدَّة الزمنيَّة كفيلة بالتَّغيير. ولأنَّ "ثم" لإفادة التَّراخي الرُّتبي كما هو شأنها في عطف الجمل. أي أنَّ هذا الرَّد من أموله ﷻ وضمير العظمة في: {رددناه} يصور ذلك.

يقول السِّعدي في ذلك: المقسوم عليه قوله تعالى: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} أي: تام الخلق، مناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهراً أو باطناً شيئاً، ومع هذه النِّعم العظيمة الَّتي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر النِّعم، منشغلون باللهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل

---

[١] ـ الرَّاوي: أبو هريرة، المحدث الألباني، المصدر: صحيح التَّرغيب: الصفحة أو الرقم: ١٥. خلاصة حكم المحدث: صحيح، موقع الدرر السنية. الشَّبكة العنكبوتيَّة.

[٢] ـ ينظر: التحرير والتنوير: ٣٧٦/٣٠ بتصرف شديد..

[٣] ـ المحدث: ابن القيم، المصدر: طريق الهجرتين، الصفحة أو رقم الحديث: ٣٤٥. خلاصة حكم الحديث: صحيح. الدرر السنُّية.

الأمر، وسفاسف الأخلاق، فردهم الله في أسفل سافلين أي: أسفل النَّار، موضع العصابة المتمردين على ربهم، إلا من منَّ اللهُ عليه بالإيمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة العالية [١].

ويستثني منهم بقوله تعالى: {إلا الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات فلهم أجرٌ غير ممنون} استثناء متصل من عموم الإنسان أي: رجعوا إلى الفطرة الَّتي فُطروا عليها. وقد عُطف على الإيمان ما يحقق ويؤكد صحته بقوله تعالى: {وعملوا الصَّالحات} وذلك دليل الإيمان الرَّاسخ؛ وهو ـ والله أعلم وأحكم ـ يزيد الفطرة رسوخاً ويقوي الإيمان إن رافقه الإخلاص لله ﷻ.

وصيغة الجمع فيها تعم كُلَّ عمل يرضاه الخالق ﷻ ، وذلك العمل الصَّالح أصدق دليل على صحة العقيدة ورسوخها.

ويأتي جزاؤهم العظيم بقوله تعالى: {فلهم أجرٌ غير ممنون} تفريع على معنى الاستثناء بدلالة (فاء) العطف الَّتي بدأت بها جملة. وذلك يدلُّ على عظم الأجر والمثوبة؛ لتنوين كلمة: {أجرٌ} الواقعة مبتدأ مؤخراً لهذه الجملة الاسميّة مع دلالتها على التَّأكيد والدَّوام، وتقديم الخبر {لهم} للعناية به كما إنَّه تعجيلاً بالبشرى، وأفضل من ذلك ما أحدثه التَّقديم من معنى الاختصاص. أي هم خاصة لهم أجر غير ممنون.

وقيل في: {غير ممنون} أي غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم.

وعلى الأول: فالأجر هو الثَّواب، إما بدوام أعمالهم لِكمال عقولهم، وإمَّا بأنَّ الله يأمر الملائكة أن تكتب لهم أجر ما كانوا يعملونه في حال قوتهم من صيام وقيام، وتصدُّق من كسبهم ونحو ذلك والله أعلم أحكم.

وعلى الثاني: فيكون الأجر هو النِّعيم في الجنَّة يُعطونه ولا يُمنُّ به عليهم، ولا يقطع عنهم [٢].

وتختم السُّورة المباركة بآيتين تحمل الشَّيء الكثير من التَّقريع والتَّبكيت وذلك بقوله تعالى: {فما يكذبك بعدُ بالدِّين. أليس الله بأحكم الحاكمين}. تقريع على جميع ما ذكر من تقويم خلق الإنسان، ثمَّ رده أسفل سافلين، لأنَّ الـ(فاء) دلَّتْ على أنَّه كلام مسبَّب عن البيان الَّذي قبل الـ(فاء)، أي فقد بان لك أن غير الَّذين أمنوا هم الَّذين رُدوا إلى أسفل سافلين، فمن يكِّذب منهم بالدِّين الحق بعد هذا البيان[٣] .

[١] ـ ينظر: تفسير السَّعدي/ ٩٢٩.
[٢] ـ ينظر: أضواء البيان الشِّنقيطي/٩ /١٧٧. بتصرف
[٣] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ عاشور/٣٠/٣٨٠.

و(ما) الَّتي بدأ بها المقطع قد تكون استفهاميَّة، والاستفهام توبيخي، والخطاب للإنسان المذكور في قوله تعالى: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} فإنَّه بعد أن استثنى منه الَّذين آمنوا بقي الإنسان المكذِّب [١].

ونلاحظ أنَّ ضمير الخطاب في {يكذبك} جاء على طريقة الالتفات ومقتضى الظاهر أن يقال: فما يكذبه. ونكتة الالتفات هنا أنَّ الخطاب أصرح في مواجهة الإنسان المكذِّب بالتَّوبيخ؛ لأنَّ معنى: {يكذبك} يَجعلك مُكذِباً، أي: لا عذر لك في تكذيبك بالدِّين، ومتعلق التَّكذيب محذوف لظهوره.

و {الدِّين} يجوز أن يكون الملَّة والشَّريعة، وعليه تكون الـ(باء) للسببية، أي: ينسبك للكذب بسبب ما جئت به من الدِّين.

ويجوز أن تكون (ما) موصولة وبمعنى (من) وهي في محل مبتدأ والخطاب للنبي ﷺ أي ينسبك إلى الكذب بسبب ما جئت به من أحكام الإسلام أو من إثبات البعث والجزاء.

وجاءت جملة: {أليس الله بأحكم الحاكمين} مبتدأة بالاستفهام التقريري لتقرير ما حملته من حكم. ليأتي جوابها " بلى إنَّ الله أحكم الحاكمين".

قيل إنَّ قوله تعالى: {بأحكم} يجوز أن يكون مشتق من الحكم أي: حكمه أسد وأنفذ، أو من الحكمة، أي: أنَّه أقوى الحاكمين حِكمة في قضائه؛ بحيث لا يخالط حكمه تفريط في شيء من المصلحة؛ فيأتي بإصابة الحق، وقطع دابر الباطل [٢].

وقد روى الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : "من قرأ منكم: {والتِّين والزَّيتون} فانتهى إلى قوله: {أليس الله بأحكم الحاكمين} فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين".

والله أعلم وأحكم. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

---

١ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ عاشور/٣٠/٣٨٠.
٢ - ينظر: السَّابق. /٣٠/٣٨١.

سورة العلق

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾
ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن
رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ
﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾
أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ
﴿١٦﴾ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

بين يدي السُّورة المباركة:

اشتهرت تسمية هذه السُّورة المباركة في عهد الصَّحابة والتَّابعين باسم: "سورة اقرأ باسم ربك"، وسميت في المصاحف ومعظم التَّفاسير "سورة العلق" لوقوع لفظ "العلق" في أوائلها، وهي أول سورة نزلت في القرآن كما في الأحاديث الصَّحيحة الواضحة، ونزل أولها بغار حراء على النَّبي ﷺ (١).

ومما جاء فيها من أغراض: تلقين محمد ﷺ القرآن وتلاوته مع الإيماء إلى ذلك ميسر بقدرة الله هو وأمَّته مع توجيه النَّظر إلى خلق الله لكافة الموجودات وخاصة الإنسان، وتهديد من كذَّب النَّبي ﷺ ، وتثبيته على ما جاءه من الحق ولا يعبأ بقوة أعدائه لأنَّ قوة الله تعالى تقهرهم. (٢).

يربطها الإمام البقاعي بقوله: لما أمره ﷻ في الضحى بالتَّحدث بنعمته، وذكره بمجامعها في الشَّرح فأنتج ذلك إفراده بما أمره به في ختمها من تخصيصه بالرَّغبة

---

١ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٣٨٢.
٢ ـ ينظر: السَّابق.

إليه، فتشوف السَّامع إلى ما يوجب حسن الجزاء في ذلك اليوم فأرشد إلى ذلك في هذه السُّورة [1].

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

افتتاح السُّورة الكريمة بفعل الأمر: {اقرأ} إيذاناً بأنَّ رسول ﷺ قارئٌ، أي: تالياً كتاباً بعد أن لم يكن قد تلا كتاباً من قبل؛ قال تعالى: {وما كنت تتلو من قبله من كتاب} [العنكبوت:٤٨] وهذا فيه براعة استهلال. وصيغة الأمر تدل على حصول المأمور به في الحال أو المستقبل القريب من الحال، فهو كما يقول المعلم لتلميذه اكتب ليتأهب للكتابة. والمقصود اقرأ ما سنلقيه عليك من القرآن [2]. والمثل الأعلى لله تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: {باسم ربك} قيل (الباء) للمصاحبة؛ ويكون المجرور في موضع الحال من ضمير {اقرأ} الثَّاني مقدماً على عامله للاختصاص أي اقرأ ما سيوحى إليك مصاحباً قراءتك (اسم ربك) فالمصاحبة مصاحبة فهم والملاحظة لجلاله، ويكون هذا إثباتاً لوحدانية الله بالألوهيَّة وإبطالاً للنداء باسم الأصنام الَّذي كان يفعله المشركون [3].

وقد عدل ﷻ عن اسم الله العلم إلى وصف: (الرَّب) إشعاراً بَرأفته ﷻ بمربوبه [4] وكذلك تطمين للرَّسول ﷺ أنَّ الَّذي ربَّاه لن يضيعه [5]، وهو ما توضحه الإضافة في قوله تعالى: {ربك} [6] إلى ضمير النَّبي ﷺ فكانت هذه الآية أصلاً للتوحيد في الإسلام [7].

ثمَّ وصف نفسه بصفة كاشفة، هي قوله تعالى: {الَّذي خلق} وقد حُذِفَ مفعول {خلق} للدلالة على العموم، أو لتنزيل الفعل منزلة اللازم؛ للاهتمام بالحدث ذاته [8].

قيل: خُصَّت صفة: (الخلق) دون غيرها من صفاته تعالى؛ لأنَّ المشركين لا ينكرونها، وفي ذلك حمل لهم على الاعتراف بإلهيته دون سواه [9].

---

١ ـ ينظر: نظم الدُّرر /٢٢/ ١٥٠ وما بعدها. بتصرف.
٢ ـ ينظر: السَّابق /٣٠/٣٨٥.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠٣٨٥.
٤ ـ ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة/٣٠٤/٢.
٥ ـ ينظر: التَّفسير الكبير للفخر الرَّازي/٢١٦/١١.
٦ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٧٧/٩
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٨٥/٣٠.
٨ ـ ينظر: حاشية محي الدِّين شيخ زادة/٦٧٥/٤.
٩ ـ ينظر: روح البيان للبروسوي/٥٦٨/١٠.

وجيء في وصف الرَّب بطريق الموصول: {الَّذي خلق} للاستدلال على انفراد الله ﷻ بالإلهيَّة؛ ليكون ذلك دليلاً قاطعاً على وجوب الإقبال عليه دون سواه. وكونه هو خالق كُلَّ البشريَّة؛ بل كُلُّ الخلائق، يعترف بذلك المشركون سواءً طوعاً أوجبراً ويؤكده قوله تعالى: {ولئن سألتهم من خلق ﷻ [1].

وتأتي جملة: {خلق الإنسان من علق} تفصيلاً لما أجمل في الآية [١] ليزول الإبهام؛ إذ لم يذكر المفعول به في الآية الأولى، أو بدل بعض من كل؛ لأنَّ به حدد نوع من المخلوق وهو الإنسان.

وإعادة الفعل {خلق} للاهتمام بهذا الأمر، وهي جملة معطوفة على الجملة السَّابقة، ولها حكم الاستئناف.

وخُصَّ خلقُ الإنسان بالذِّكر من بقيَّة المخلوقات؛ لأنَّه هو المكلَّف. والَّذي وهبه الله النَّجدين وفضَّله على غيره من المخلوقات، وفي هذا تعريض بالمشركين الَّذين ضلوا عن توحيد الله تعالى مع أن دليل الوحدانيَّة قائم في أنفسهم [2].

وفي قوله: {من علق} (من) دلت على الابتداء. وفي هذا تصوير دقيق لبدء خلق الإنسان، وفيه الكثير من لفت نظره إلى أصله وقدرة الرَّب في إجاده وتكميله؛ مع أنَّه كان قطعة دم صغيرة عالقة ثمَّ صوَّره، وأحسن صورته؛ فلما استوى نسي أكثرهم أصله وتكبَّر وتجبَّر. وعليه جاء لفظ: {علق} مُنكَّراً؛ للإشعار بحقارته وضعفه [3].

يقول ابن عاشور: ومعنى: {خلق الإنسان من علق} أنَّ نطفة الذَّكر ونطفة المرأة بعد الاختلاط ومضي مدَّة كافية تصيران علقة؛ فقد أخذت في أطوار التَّكوين، فجُعلت العلقة مبدأ الخلق ولم تُجعل النُّطفة مبدأ الخلق؛ لأنَّ النُّطفة اشتهرت في ماء الرَّجل؛ فلو لم تخالطه نطفة المرأة لم تصر العلقة فلا يتخلق الجنين [4].

وعليه جاء الجناس النَّاقص بين (خلق، وعلق) وكان له دورٌ فاعل في تحقق التَّوافق والتَّجانس اللفظي إضافة إلى التَّجانس المعنوي [5].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٣٨٥. وما بعدها بتصرف.

٢ ـ ينظر: الكشاف للزَّمخشري/٤/٧٧٥، وكذا الحرير والتنوير/٣٠/٣٨٦.

٣ ـ ينظر: البلاغة القيمة / لعبد القادر حسين /١٢٤. بتصرف شديد.

٤ ـ ينظر: التَّحرير والتنوير/٣٠/ ٣٨٧.

٥ ـ ينظر: التصوير ًالقرآني/٢/٧٨٤. بتصرف شديد.

ثمَّ جاء الإطناب بتكرار الفعل: {اقرأ} تأكيداً للإيجاب، وتمهيداً لِمَا يعقبه من قوله تعالى: {وربك الأكرم} [1].

وقد عُدِلَ فيه عن الإضمار إلى ذكر الاسم الظاهر: {ربك} لتأكيد ما يُشعر به هذا اللَّفظ من العناية، وليجري عليه وصف: {الأكرم}.

وعليه فإنَّ (الواو) الرَّابطة في قوله تعالى: {وربك} حالية، و {ربك} مبتدأ، والأكرم صفة، وخبر المبتدأ إما {الَّذي علم بالقلم} وإمَّا جملة: {علَّم الإنسان ما لم يعلم}؛ وهذا استئناف بياني أي: جواب قد يكون جاش في صدر النَّبي ﷺ أي: كيف أقرأ وأنا لا أحسن القراءة والكتابة، أو إجابة عمَّا قاله لجبريل ما أنا بقارئ؛ فالمعنى لا عجب في أن تقرأ وإن لم تكن من قبل عالماً بالقراءة؛ إذ العلم بالقراءة سيحصل بوسائل أخرى مثل الإملاء والتَّلقين والإلهام؛ وقد علَّم الله ﷻ آدم الأسماء كلها ولم يكن آدم عليه السلام قارئاً [2].

ووصف {الأكرم} مصوغ للدلالة على قوة الاتصاف بالكرم، وليس مصوغاً للمفاضلة. والكرم: التَّفضل بعطاء ما ينفع المعطى، ونعم الله على العبد لا تعد ولا تحصى.

وقد جمعت هذه الآيات الخمس من أول السُّورة أصول الصِّفات الإلهيَّة: فَوصْفُ الرَّب يتضمن الوجود، والوحدانيَّة. ووصف {الَّذي خلق} ووصف {الَّذي علم بالقلم} يقتضيان الأفعال. ووصف {الأكرم} يتضمن صفات الكمال والتَّنزيه عن النقائص [3]

ثمَّ أردف ﷻ وصفاً آخر له بقوله تعالى: {الَّذي علَّم بالقلم} لإزالة ما قد يكون خطر ببال الرَّسول ﷺ من تعذر القراءة عليه، ومفعولا: {علَّم بالقلم} محذوفان دلَّ عليهما قوله: {القلم} وتقديره: علم الكاتبين الكتابة، وكان العرب يعظمون علم الكتابة ويعدونها من خصائص أهل الكتاب [4].

يقول الألوسي: وفي الكلام إدماج إذ لولا الكتابة لم يُعَلَّم دين ولم يَصْلح عيش [5]

وتأتي جملة: {علَّم الإنسان ما لم يعلم} خبر عن قوله تعالى: {وربك الأكرم} وما بينهما اعتراض. وينطق بالواقع تضعيف الفعل: {علَّم} الدَّال على التِّكرار والممارسة

---

[1] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/١٧٨.
[2] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٣٨٧. بتصرف.
[3] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور /٣٠/٣٨٨. بتصرف شديد.
[4] ـ ينظر: السَّابق. بتصرف.
[5] ـ ينظر: روح المعاني/٣٠/٥٦٠.

وفي حذف مفعولي: {علَّم} في الآية السَّابقة، ثمَّ إيرادهما في (علَّم) في هذه الآية دليلٌ على فضل الله تعالى على الإنسان فقد أنعم عليه بتعليمه كُلَّ شيء [1].

وتعريف الإنسان تعريف الجِّنس. وطرق العلم: إمَّا تكون بالأخذ من الغير، أو بالدَّرس والتَّلقي من الأفواه أو بما تنقدح به العقول من استنباطات ومخترعات، وكُلُّ ذلك من الله ﷻ .

وقد أشعر قوله تعالى: {ما لم يعلم} بأنَّ علم الإنسان مسبوق بالجهل. فلا يؤيِّسك من أن تصير عالماً بالقرآن والشَّريعة أنَّك لا تعرف قراءة ما يكتب بالقلم [2].

وهنا يظهر طباق السَّلب بين قوله تعالى: {علَّم} و {ما لم يعلم} للتَّفاوت الشَّاسع بين العلم والجهل [3].

وفي الآية إشارة إلى الاهتمام بعلم الكتابة. وبأنَّ الله يريد أن يُكتب للنَّبي ﷺ ما ينزل عليه من القرآن؛ فمن أجل ذلك اتخذ النَّبي ﷺ كتَّاباً للوحي من بدأ بعثته [4].

كما إنَّ فيه إشارة إلى استمرار صفة الأُميَّة للنَّبي ﷺ ؛ لأنَّها مكملة لإعجاز القرآن قال تعالى: في سورة أخرى: {وما كنت تتلوا من قبله من كتابٍ ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون} [العنكبوت:٤٨]

ويأتي القسم الثَّاني من السُّورة المباركة مُبْتَدِأ بقوله تعالى: {كلا إنَّ الإنسان ليطغى. أن رأه استغنى. إنَّ إلى ربِّك الرُّجعى} ردع وإبطال، وليس في الجملة الَّتي قبله ما يحتمل الإبطال والردع، ووجوده هنا يدلُّ على أنَّ الآتي بعدها حقيق بالإبطال ويُردع قائله، وهو كناية عن شِدَّة تعدِّيه.

قيل: إنَّ هذه الآيات من (٦-١٠) لم تنزل بعد الخمسة الأولى مباشرة؛ بل كان هناك فترة لم تنزل فيها آيات، وكذا كان بينهما نزول سور أخرى. وجاءت هذه الآيات رداً على ما قاله أبو جهل المذكور في سبب النُّزول.

وذلك ما رواه مسلم عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل:" هل يعفر محمد وجهه (أي: يسجد في الصَّلاة) بين أظهركم؟ فقيل: نعم فقال: والَّلات والعُزَّى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنَّ على رقبته، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته؛ فما فَجَأهم منه إلا وهو يَنكص على عقبيه ويتقي بيده، فقيل: له ما لك يا

---

[1] ـ ينظر: تفسير أبي السَّعود/١٧٨/٩. بتصرف

[2] ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٨٩/٣٠

[3] ـ ينظر: التَّصوير القرآني لأناهيد جمال حريري/٧٨٥/٢.

[4] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٩٠/٣٠.

أبا الحكم؟ قال: إنَّ بيني وبينه لخندق من نار وهولاً وأجنحة فقال الرَّسول ﷺ : لو دنا مني لاختطفته الملائكة عُضواً عضواً [1].

والتَّعريف في كلمة الإنسان للجنس وإن كان المقصود به أبا جهل وهو استغراق عرفي مفيد أنَّ أغلب النَّاس في ذلك إلا من عصمه الله تعالى.

وتأكيد الخبر بحرف التَّأكيد ولام الابتداء المزحلقة للخبر{ليطغى} لقصد تحقيقه لغرابته؛ حتَّى كأنَّه مما يتوقع أن يشك السَّامع فيه [2].

ولا يخفى أنَّ الطغيان: التَّعاظم والكبر. والاستغناء: شدة الغنى فـ(السِّين والتاَّء) فيه للمبالغة في حصول الفعل مثل استجلب واستقرَّ، والمعنى إنَّ لإنسان ليطغى لرؤيته نفسه مستغنياً، وذكرها هنا للحذر من هذا الخلق [3].

ثمَّ جاء تذكير الإنسان الطَّاغي بمصيره؛ تنبيهاً وتهديداً في قوله تعالى: {إنَّ إلى ربك الرجعى} وعلى طريقة الالتفات من أسلوب الغيبة إلى الخطاب [4].

وهذه جملة معترضة بين المقدمة والمقصد والخطاب للنَّبي ﷺ أي: مرجع الطَّاغي إلى الله، وفيها موعظةٌ وتهديدٌ على سبيل التَّعريض لمن يسمعه من الطغاة، وتعليمٌ للنَّبي وتثبيتٌ له، أي: لا يحزنك طغيان الطَّاغي؛ فإن مرجعه إليَّ، وكذا يدلُّ على أنَّ الاستغناء غير حقيقي؛ لأنّهَ مفتقر إلى الله في أهم أموره ولا يملك مصيره لحظة واحدة [5].

وفي تقديم خبر {إنَّ} على اسمها {الرُجعى} قُصِرَ الرجوع إليه وحده [6]. وكذا للاهتمام بذلك. وقد أضيفت كلمة:(رب) إلى ضمير النَّبي صل ﷺ ومن بعده إلى كُلِّ واقف على الآية. استئناساً وتلطفاً بما تدل عليه هذه الكلمة.

وبضم حرف الرَّاء في {الرُجعى} يكون مصدر (رجع) على زنة فُعلى مثل (بُشرى) مستعملة مجازاً في الاحتياج إلى المرجوع إليه، ومادة الكلمة تدل على الانصراف والمراد المنتهى والمرجع في القيامة، أو الرُّجوع إلى النقصان بعد الكمال والموت بعد الحياة، وذكرت دون تقييد؛ لأنَّه حدث عام على كل الأحياء.

---

[1] ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ٣٠/ ٣٩٠. بتصرف

[2] ـ ينظر: (السابق).

[3] ـ ينظر: السَّابق/ ٣٠/ ٣٩٢.

[4] ـ ينظر: الكشَّاف للزمخشري/ ٧٧٧/٤.

[5] ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٩٣. بتصرف

[6] ـ ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السَّعود/ ١٨٠/٩/

وفي كلِّ الآيات السَّابقة إدماج للتَّنبيه على مذمَّة المال وعلى مدح العلم [1].

ثمَّ يجاء الاستفهام التَّعجبي الإنكاري التَّقبيحي في قوله تعالى: {أريت الَّذي ينهى عبداً إذا صلى} لحال النَّاهي عبداً عن عبادة الله والصَّلاة له، والخطاب موجه لرسول الله [2]. وقيل الخطاب لغير معين لأن قوله تعالى: {أرأيت} كلمة تعجب من حالٍ [3].

وهذه الآية هي المقصودة من الرَّدع الَّذي أفاده {كلا} وقيل: الخطاب فيه لغير معين. والرُّؤية علميَّة أي: أعلمت [4].

وفي قوله تعالى: {الَّذي ينهى} اتفقوا على أنَّه أريد به أبو جهل؛ إذ قال قولاً يريد به نهي النَّبي ﷺ أن يصلي في المسجد الحرام؛ فقال في ناديه: لئن رأيت محمداً يصلي في الكعبة لأطأنَّ على عنقه، فإنَّه أراد بقوله ذلك أن يبلُغ إلى النَّبي ﷺ ؛ فهو تهديد يتضمن النَّهي عن أن يصلي في المسجد الحرام، ولم يروَ أنَّه نهاه مشافهةً.

فيكون المراد بالعبد النَّبي ﷺ وإطلاقه هنا على معنى الواحد من عباد الله، وعدل عن التَّعبير عنه بضمير الخطاب؛ لأنَّ التَّعجب من نفس النَّهي عن الصَّلاة بقطع النَّظر عن خصوصيَّة المصلي؛ فشموله أوقع، وصيغة المضارع في: {ينهى} لاستحضار الحالة العجيبة وإلا فإنَّ نهيه قد مضى [5].

وقد عُدل عن التَّعبير بضمير المخاطب: (ينهاك) إلى الغيبة: {ينهى عبداً}؛ لأنَّ الفعل نفسه هو المتعجب منه [6]. وذلك احترم لقدره ﷺ حتَّى لا ينسب فعل النَّهي له مباشرة؛ ولعل هذا السِّر أيضاً في التَّكنية عنه -عليه الصَّلاة والسَّلام- بـ{عبداً} [7].

وقوله تعالى: {أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتَّقوى} تعجب آخر من حالٍ مفروض وقوعه، أي سينهى عبداً متمكناً من الهدى فتعجب من نهيه. ومن أمره بالتَّقوى. قيل المراد: أرأيت إن صار هذا الكافر على الهدى أو أمر بالتقوى بدل النَّهي عن عبادة الله، أمَّا كان ذلك أليق به [8].

---

[1] - ينظر: روح المعاني للألوسي/٣٠/٥٦٢.

[2] - ينظر: التفسير الكبير للرازي/ ١١/.٢٢١.

[3] - ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/٣٠/٣٩٤ بتصرف..

[4] - ينظر: السَّابق.

[5] - ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/٣٠/٣٩٣.

[6] - ينظر السَّابق.

[7] - ينظر: صفوة التفاسير للصابوني/ ٣/٥٨٣.

[8] - ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري/٣٠/١٣٧.

واستخلص معنى متمكناً من حرف الجر {على} لإفادة الاستعلاء ومن فعل: {كان} فهي في حق العبد للتَّمكن، وفي حق الله ﷻ تدلُّ على الأزليَّة.

و(إنْ) حرف شرط الغالب فيه عدم الجزم بوقوع فعل الشَّرط؛ مجاراة لحال الَّذي ينهى، وجواب الشَّرط محذوف تقديره أينهاه أيضاً.

والضميران المستتران في {كان على الهدى* أو أمر بالتقوى} عائدان إلى {عبداً} وكانت الضمائر الحافة به عائدة إلى {الَّذي ينهى*عبداً إذا صلى}؛ فإنَّ السِّياق يرد كُلَّ ضمير إلى معاده [1].

ويستمر التَّعجب بقوله تعالى: {أرأيت إن كذَّب وتولى* ألم يعلم بأنَّ الله يرى} هذه جملة مستأنفة للتَّهديد والوعيد على التَّكذيب والتَّولي، والمعنى أتظنه غير عالم بأنَّ الله مطلع عليه، فالمفعول الأول لـ{أرأيت} محذوف وهو ضمير عائد إلى {الَّذي كذَّب وتولى} أي: أرأيته، إذ الأول (تاء) الخطاب المتصلة بالفعل وقيل لغير معين، والثَّاني (الهاء) ضمير الغائب.

وجاء جواب الشَّرط: بقوله تعالى: {ألم يعلم بأنَّ الله يرى} والتَّقدير: إن كذَّب وتولى؛ فالله أعلم به كناية عن التَّوعد والعقاب [2]. وهو وعيد موجز دالٌّ مغنٍ [3]. وقد ضمَّن: {يعلم} معنى يوقن، كما حذف مفعول {يرى} لتعم رؤية الله تعالى كُلَّ موجود لتعلق علمه بكُلِّ شيءٍ ﷻ ، وحذف مفعول كذَّب لدلالة ما قبله عليه؛ والتَّقدير: إن كذَّبه، أي العبد الَّذي صلى. وقد كُرِرَ فعلُ الرؤية ثلاث مرات: للتأكيد والتَّقرير [4].

وجاء قوله تعالى: {كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة}. مُؤكداً الرَّدع الأول بحرف الرَّدع الثَّاني، وهو الموقع الحقيق لحرف الردع؛ إذ كان تقديم نظيره في أول الجملة لِما دعا إليه من التَّشويق.

ويجيء تعقيب الردع بالوعيد بقوله: {لئن لم ينته} وذلك على فعله؛ إذا لم يرتدع وينته عنه. و(اللام) في {لئن} موطئة للقسم، وجملة: {لنسفعنْ} جواب القسم، وأمَّا جواب الشَّرط (إن) فمحذوف دلَّ عليه جواب القسم.

والسَّفع: القبض الشَّديد بجذب، والنَّاصية مقدِّمة شعر الرَّأس، والأخذ من النَّاصية أخذُ من لا يُترك له تمكن من الانفلات؛ فهو كناية عن أخذه إلى العذاب، وفيه إذلال

---

[1] ـ ينظر: ابن عاشور/٣٠/٣٩٥.
[2] ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٩٦.
[3] ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/ ٣٣٦/١٦، وكذا البحر المحيط لأبي حيان/٤٩٠/٨.
[4] ـ ينظر: البلاغة القيمة/د عبد القادر حسين/١٢٧.

لأنهم كانوا لا يقبضون على شعر رأس أحدٍ إلا لضربه أو جره. وأكدت ذلك (الباء) الداخلة على المفعول {بالناصية} لتأكيد اللصوق [1]. ولذا قيل: قد يكون السَّفع شاملاً للجسد كله [2].

والنُّون الَّتي جات في {لنسفعاً} نون التَّوكيد الخفيفة يكثر دخولها في القسم المثبت وكتبت في المصحف ألفاً رعياً للنطق بها في الوقف. والتَّعريف في: {الناصية} للعهد التَّقديري أي: بناصيته

و{ناصية} بدل من الأولى وتنكيرها باعتبار الجنس {ناصية كاذبة خاطئة}.

وكلمة: {خاطئة} اسم فاعل من خطِئ من باب علم وأهل البلاغة يقولون وصف النَّاصية بالكاذبة والخاطئة مجاز عقلي والمراد: كاذب صاحبها خاطئ صاحبها أي: آثم، ومحسن هذا المجاز أنَّ فيه تخييلاً بأنَّ الكذب والخطأ باديان من ناصيته فكانت ناصيته جديرة بالسَّفع [3]. وقيل أيضاً: مجاز مرسل علاقته الجزئيَّة. وقال الطبري مجاز عن ذكر الوجه [4] وأضاف: أو الكلام على الحقيقة فالسَّفع على النَّاصية نهاية في الإذلال والتَّحقير عند العرب [5].

والعلم الحديث يقول إنَّ أول الدِّماغ في الرَّأس مسؤول مسؤوليَّة تامة عن أخذ القرار. وعليه هو جديرٌ بالعقاب. والله أعلم وأحكم.

ثمَّ ذكرت صفات تلك النَّاصية في قوله تعالى: {ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ} قيل: وصف النَّاصية بالمذنب والخطئة على سبيل الإسناد المجازي [6]. وفي هذا التَّعبير من الجزالة ما ليس في قوله: ناصية الكاذب المخطئ [7]. كأنَّ الكافر قد بلغ في الذَّنب والخطأ مبلغاً عظيماً حتَّى ظهر على ناصيته [8].

وقوله تعالى: {فليدعُ ناديه * سندعُ الزبانية} هذا تفريع على الوعد، ومناسبة ذلك ما رواه التِّرمذي والنِّسائي عن ابن عبَّاس قال: "كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمر أبو جهل فقال: يا محمد ألم أنهك عن هذا وتوعده، فأغلظ له رسول الله، فقال أبو جهل: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر أهل هذا الوادي نادياً، فأنزل الله تعالى: {فليدعُ ناديه*سندعُ الزبانية}. فالنَّادي اسم للمكان الَّذي يجتمع فيه

---

[1] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٣٧٩.
[2] ـ ينظر: النكت والعيون للماوردي/٣٠٨/٦.
[3] ـ ينظر: ابن عاشور/٣٩٧/٣٠.
[4] ـ ينظر: جامع البيان /٣٠٩/٣٠.
[5] ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة: ٣٣٦/١٦.
[6] ـ ينظر: معاني القرآن وإعرابه/ للزجاج/٣٤٥/٥.
[7] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/ د/١٨٠/٩.
[8] ـ ينظر: روح البيان للبروسوي/٥٧٣/١٠.

القوم والنَّدوة الجماعة، وقد اتخذ "قُصي" لندوة قريش داراً تسمى (دار النَّدوة) حول المسجد الحرام وجعلها للتَّشاور، ويطلق النَّادي على الَّذين ينتدون فيه وهو معنى قول أبي جهل: إني لأكثر أهل هذا الوادي نادياً [١].

ويستوقفنا للتأمل مجيء جملة: {فليدعُ ناديه} مرتبطة بما قبلها بـ(فاء) التَّعقيب والمسارعة، ولام الأمر في الفعل: {فليدع} للتَّعجيز؛ لأنَّ أبا جهل هدد النَّبي ﷺ بكثرة أنصاره؛ فإنه إن دعاهم ليسطو على النَّبي ﷺ دعا الله ملائكة فأهلكوه. فقوله: {سندعُ الزَّبانية} جواب لأمر التَّعجيز، وفيه من التَّهديد والوعيد ما لا يقدر قدره [٢] إلا الله ﷻ.

والزَّبانية: اسم جمع لا واحد له مشتق من الزَّبن؛ وهو الدَّفع بشِدَّة، والمراد بهم هنا ملائكة العذاب. والعرب تطلق اسم (الزَّبانية) على من أشتد قهره، حيث شُبه الزَّبانية برجال الأمن والشُّرط على سبيل الاستعارة المكنيَّة [٣]

ولكن شتان بين هذا وذلك؛ لأنَّ الزَّبانية كما يقول الشَّيخ السَّعدي: خزنة جهنَّم ودعوتهم لأخذه وعقوبته فلينظر أي الفريقين أقوى وأقدر [٤].

وجاء مسك الختام لهذه السُّورة المباركة قوله تعالى: {كلا لا تطعه واسجد واقترب}

فجاءت {كلَّا} ردعاً لإبطال ما تضمنه قوله: {فليدع ناديه} أي: وليس بفاعل، وهذا تأكيد للتَّحدي والتَّعجيز.

وقوله تعالى: {لا تطعه واسجد واقترب} يحمل النَّهي والأمر، ويتوجه فيه الكلام للنَّبي ﷺ أي: لا تترك صلاتك في المسجد الحرام ولا تخش منه.

وقد أُطلِقت الطَّاعة على الحذر الباعث على الطَّاعة على طريق المجاز المرسل؛ والمعنى لا تخف ولا تحذر فإنَّه لا يضرك. وأكد ذلك بقوله أسجد اهتماماً بالصَّلاة. وعطف عليها: {واقترب} للتنويه بما في الصَّلاة من مرضاة الله تعالى بحيث جعل المصلي مقترباً من الله تعالى بهذا العمل العظيم [٥].

وجاء التَّعبير بفعل أمر على صيغة الافتعال في: {اقترب} لِمَا في الصَّلاة من معنى التَّكلف والتَّطلب أي اجتهد في القرب إلى الله بالصَّلاة. ومجاهدة للنَّفس الأمارة

---

١ ـ ينظر: ابن عاشور/٣٠/ ٣٩٨.
٢ ـ ينظر: السَّابق /٣٩٩/٣٠.
٣ ـ ينظر: البلاغة القيمة/د عبد القادر حسين /١٢٨.
٤ ـ ينظر: تفسير السّعدي/٩٣٠.
٥ ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور:٤٠٠/٣٠. بتصرف.

بالسُّوء والشَّيطان. وتلك نعمة عظيمة خص بها الله عباده الموحدين، وعليه فهي موضع سجدة.

أوالله أعلم وأحكم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة القدر

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥ .

بين يدي السُّورة المباركة:

سميت هذه السُّورة في المصاحف وكتب التَّفسير وكتب السُّنَّة "سورة القدر".

وجاء من أغراضها التَّنويه بفضل القرآن الكريم بإسناد إنزاله إلى الله تعالى، والرد على الَّذين جحدوا ذلك، ورفع شأن الوقت الَّذي أنزل فيه، ونزول الملائكة في ليلة إنزاله من كل عام، واستتبع ذلك تحريض المسلمين على تحيّن ليلة القدر بالقيام والتصدق [١]

يربطها الإمام البقاعي بقوله: لما ذكر ﷻ كتابه في الذكر العربي المعجز، ذكر إنزاله مستحضراً في كُلِّ قلب، كان ذلك مغنياً عن إعادته بصريح اسمه فكان متى أضمره علمه المخاطب بما في السِّياق من القرائن الدالة عليه وبما له في القلب من العظمة، وفي الذِّهن من الحضور لاسيما في هذه السورة لافتتاح العلق بالأمر بقراءته، وختمها بالصلاة التي هي أعظم أركانها؛ فكانت دلالتها عليه دلالة هي في غاية الوضوح، فكأنه قال: واقترب بقراءة القرآن في الصلاة. [٢].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور:٣٠/ ٤٠١.
٢ ـ ينظر: نظم الدَّرر للبقاعي/ ٢٢/ ١٧٧.

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

وهكذا بدأت بقوله تعالى: {إنّاَ أنزلناه في ليلة القدر} فاشتملت هذه الآية المباركة على تنويه عظيم بالقرآن وافتتحت بحرف التَّوكيد (إنَّ) المشدَّدة وجاء اسمها نون العظمة المدغمة في نون التَّوكيد الدالة على الله ﷻ، وقد أحدث هذا الإدغام صوتاً قوياً ينبه العقل.

ويتكرر ضمير العظمة كفاعل في جملة خبر (إنّ) بقوله تعالى: {أنزلناه} فإسناد الإنزال لهذا الضَّمير تشريفاً عظيماً للقرآن الكريم، ويحقق التأكيد كون الخبر {أنزلناه} جملة فعليَّة فعلها بالزَّمن الماضي، وأسند أيضاً لنون العظمة وكلاهما من طرق التَّأكيد والتَّقوي زيادة في تأكيد التَّشريف. وقد أفاد تقديم الضمير في {إنَّا} قصراً للحكم الَّذي تحمله الجملة، إضافة على التَّوكيد الَّذي تحمله الجملة الإسميَّة مع تقوية حكم الإسناد فيه لله ﷻ لتكرار ذكر الفاعل مرتين؛ مرة بالضمير المتصل بـ{إنَّا} الواقع اسم لها، ومره بالضَّمير المتصل بالفعل {أنزلناه} أي: نحن لا غيرنا أنزلناه، وفي ذلك إثباتان: أولهما: أنَّ القرآن كلام الله ﷻ.

وثانيهما: أنَّ ﷺ نبيٌ مرسلٌ من الله ﷻ وهذا القصر قصر قلب للرد على المشركين الَّذين نفوا أن يكون القرآن من الله تعالى [١].

ونلحظ أنَّ ذكر القرآن جاء بإضماره المؤذن بغاية نباهته المغنية عن التصريح به بذكر إيماءٌ إلى أنَّه حاضر في أذهان المسلمين لشدَّة إقبالهم عليه؛ لأنَّ ذكر الضَّمير دون سبق ذكر صاحبه إماءً إلى شهرته بينهم[٢].

وجاء قوله تعالى: {في ليلة القدر} تشريفاً لتلك الليلة الَّتي كان ابتداء إنزال القرآن فيها، وهذا يقتضي تشريفاً آخر للقرآن الكريم بتشريف زمان ظهوره تنبيهاً على أنَّه ﷻ اختار لابتداء إنزاله وقتاً شريفاً مباركاً؛ ذلك لأنَّ عظم قدر الفعل يقتضي أن يختار لإيقاعه أفضلُ الأوقات والأمكنة [٣].

وقد مدح الله ﷻ شهر رمضان كُلَّه بإنزال القرآن فيه بقوله تعالى: {شهر رمضان الَّذي أُنزل فيه القرآن هدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان.......} [البقرة:١٨٥].

ومُيّزت ليلة نزوله بهذه الكرامة من الله تعالى في آية أخرى: {إنَّا أنزلناه في ليلة مباركة} [الدخان:٣].

---

[١] ـ انظر: التَّحرير والتَّنوير لأبن عاشور /٤٠٢/٣٠. بتصرف شديد.
[٢] ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/١٨٢/٩. وكذا التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٤٠٢/٣٠.
[٣] ـ ينظر: السَّابق بتصرف شديد.

وقد سميت تلك الليلة الَّتي أنزل فيها القرآن العظيم بليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله؛ ولأنَّه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدريَّة [١].

جاء في تفسير ابن كثير [٢] "قال ابن عبَّاس وغيره: أنزل الله القرآن جُملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزَّة من السَّماء الدُنيا، ثمَّ نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ .

ثمَّ فخَّم شأن هذه الليلة وعظَّم قدرها [٣] بقوله تعالى: {وما أدرك ما ليلةُ القدر} الـ(واو) الرَّابطة (واو) الحال، والجملة بعده تنويه بطريق الإيهام المراد به أنَّ إدراك كنهها ليس بالسهل لما ينطوي عليه من الفضائل الجمَّة [٤].

ومع أنَّ مقتضى الظَّاهر الإضمار إلا إنَّه أعيد اسم: {ليلة القدر} قصداً لتعينها؛ فحصل تعظيم ليلة القدر صريحاً، وبهذا حصلت كناية عن تعظيم ما أنزل فيها فتتطابق الشريفان [٥].

ثمَّ تأتي الآية المستأنفة استئنافاً بيانياً بقوله تعالى: {ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر} والاستئناف البياني يأتي ليجيب على سؤال أوجده الكلام السَّابق، ليزيل الغموض الَّذي قد يكون حصل في ذهن المتلقي.

يقول أبو السَّعود: استئناف مبين لمناط فضلها على تلك المدَّة المتطاولة [٦].

وجاء إظهار الاسم: {ليلة القدر} في مقام إضماره للاهتمام به، وقد تكرر هذا اللفظ: {ليلة القدر} ثلاث مرات، والمرة الثَّالثة ينتهي عندها التِّكرار غالباً كقوله تعالى: {وإنَّ منهم لفريقاً يلون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب} [آل عمران:٧٨] وهذا مع ما يحمل من تأكيد واهتمام بالمذكور إلا إنَّه كذلك يتمشى مع طريقة العرب في التِّكرار فالقرآن أُنزل بلسان عربي مبين.

وهكذا جاءت الآية بجملة اسميَّة لِمَا تحمله الجملة الاسميَّة من معنى التَّأكيد. ويصاغ الخبر: {خيرٌ} بصيغة اسم تفضيل منون لتصوير سعة ذلك الفضل وعمومه في عاجل أمر المؤمن وآجله فسبحان ربَّنا رب القرآن العظيم.

---

١ - ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٣١.
٢ - ينظر: تفسير القرآن العظيم /٤٥٣/٦.
٣ - ينظر: تفسير السِّعدي/٩٣١.
٤ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٤٠٤/٣٠
٥ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٤٠٤/٣٠.
٦ - ينظر: إرشاد العقل السَّليم/١٨٣/٩.

وتفضيل تلك الليلة باسم التَّفضيل: {خير} على ألف شهر؛ إنَّما هو بتضعيف فضل ما يحصل فيها من الأعمال الصَّالحة، واستجابة الدُّعاء، ووفرة ثواب الصَّدقات والبركة للأمَّة فيها. والله أعلم وأحكم.

يؤكد ذلك السِّعدي بقوله: أي تعادل من فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها خيرٌ من العمل في ألف شهر خالية منها، وهذا مما تتحير فيه الألباب، وتندهش له العقول حيث منَّ الله تبارك وتعالى بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر عمر رجلٍ معمر عمراً طويلاً، نيفاً وثمانين سنة [١].

ثمَّ يذكر ﷻ شيئاً من فضل تلك الليلة وشرفها بقوله تعالى: {تَنَزَّلُ الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} وهذا بيان ثاني لِمَا في قوله تعالى: {وما أدرك ما ليلة القدر}.

وأصل: {تَنَزَّلُ} تتنزل فحذفت إحدى التاءين اختصاراً، والتَّعبير بالفعل المضارع في {تَنَزَّلُ} مؤذن بأنَّ هذا التَّنزل متكررٌ في المستقبل بعد نزول هذه السُّورة، مما يدلُّ دلالةً بيِّنةً على أنَّ الله ﷻ جعل مثل هذه الفضيلة لكُلِّ ليلة من ليالي الأعوام تقع في مثل الليلة من شهر نزول القرآن كرامة للقرآن، ولمن نزل عليه، وللدِّين الَّذي نزل فيه، وللأمَّة الَّتي تتبعه، كُلُّ ذلك تأكيدٌ لفضيلة ليلة القدر.

يفسرها السِّعدي: {تَنَزَل} أي: يكثر تنزلهم فيها [٢].

فجاء نزول الملائكة في تلك الليلة؛ لأجل البركات الَّتي تحفهم دليلاً على تعظيم هذه الليلة لِمَا فيها من فضل الله العظيم.

يقول ابن عاشور: ما هو إلا تحريض على طلب العمل الصَّالح فيها، لكونها خيراً من ألف شهر هذا ما بينته الأخبار الصَّحيحة [٣].

والظرف: {فيها} صوَّر امتداد ذلك الفضل على مدى ساعات تلك الليلة كُلِّها، حثاً على عدم التَّفريط في تلك السَّاعات الفاضلة.

ويستوقفنا للتأمل ذُكر تنزُّل الملائكة، ثمَّ ذكر الرُّوح وهو "جبريل" عليه السلام ، مع أنَّه من الملائكة؛ لكن عطف على الملائكة من عطف الخاص على العام لما للخاص من مزيَّة [٤].

---

١ ـ ينظر: تفسير السَّعدي ٩٣١.
٢ ـ ينظر:السَّابق..
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور (٤٠٦/٣٠) بتصرف.
٤ ـ ينظر: أضواء البيان للشِّنقيطي/ ٩/ ٢٠٦.

خصَّ عليه السلام بالذِّكر وبهذه التَّسمية؛ لأنَّه رسول الله إلى أنبيائه بما يوحي به إليهم، وهو أمين الوحي؛ فتكرار ذكره مع تلك التَّسميَة جاء دلالةً على عظم منزلته عند خالقه جل جلاله وفي ذلك منَّة عظيمة من الله سبحانه وتعالى على جبريل عليه السلام .

ويأتي قوله تعالى: {بإذن ربِّهم} احتراساً من أن يتوهم عمل الملائكة ذاتي خالي من الإذن وحاشاهم؛ فهم عباد الله المسخرون لعبادته المطيعون لحكمه المنفِّذون لأمره؛ فقد نزلوا متلبسين بما أمرهم خالقهم عز وجل

وعليه جات إضافة الإذن لقوله تعالى: {ربِّهم} الَّتي بدورها مضافة لضميرهم. فتكون (الباء) في: {بإذن} سببيَّة أي: بسبب إذن ربِّهم لهم فالإذن بمعنى المصدر، إمَّا بمعنى المصاحبة، أي مصاحبين لِمَا أذن به ربَّهم لهم، الإذن بمعنى المأذون به من إطلاق المصدر على المفعول [١].

وجاءت: {من} في قوله تعالى: {من كلِّ أمر} بيانيَّة تبيِّن إذن ربهم؛ أي بإذن ربهم الَّذي هو في كُلِّ أمر [٢]

وقيل: يجوز أن تكون: {من} بمعنى الـ(باء) في قوله تعالى: {من كل أمر} أي تتنزل بكُلِّ أمر، مثل ما في قوله تعالى: {يحفظونه من أمر الله}[الرعد:١١] أي: بأمر الله.

و (كل) في قوله تعالى: {من كُلِّ أمرٍ} مستعملة في معنى الكثرة، ولها شواهد في القرآن مثل: {ولو جاءتهم كُلُّ آية} [يونس:٩٧]. وقوله تعالى: {يأتوك رجالاً وعلى كلِّ ضامر} [الحج:٢٧]. وقوله تعالى: {واضربوا منهم كُلَّ بنان} [الأنفال:١٢].

وتنوين كلمة: {أمرٍ} تعظيماً له أي: بأنواع الثَّواب على الأعمال في تلك الليلة. كما جاء الأمر المذكور هنا مطلقاً وما ذكر في "سورة الدُّخان" في قوله تعالى: {فيها يفرق كُلُّ أمرٍ حكيم} مقيداً لوصفه بحكيم.

وتختم السُّورة المباركة بقوله تعالى: {سلامٌ هي حتَّى مطلع الفجر} جاءت هذه الآية الكريمة بياناً لمضمون قوله تعالى: {من كُلِّ أمرٍ} [٣].

---

١ ـ ينظر: التحَّرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٤٠٨

٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٤٠٨

٣ ـ ينظرالسَّابق:٣٠/ ٤٠٩.

قيل: {سلامٌ هي} أي: إنَّ الملائكة تُسلم على كُلِّ مؤمن لقيته. وقيل: {سلامٌ هي} أي: كُلُّ أمر فيها فهو سلامٌ، ولا يصابُ أحدٌ فيها بسوء، ولا تعارض بين القولين لأنَّ من الخير العظيم سلامُ الملائكة [1].

وعليه جاء: {سلامٌ} خبر مقدَّم على المبتدأ: {هي} فأصل الجملة "هي سلامٌ" لكنَّه مصدرٌ جامعٌ لمشتقاته؛ فيعطي معنى التَّعظيم، وقد زاده تعظيماً التَّنكير، فتقديمه أفاد الاختصاص، أي: ما هي إلا سلامٌ.

وقيل: يجوز أن يراد بالمصدر: {سلامٌ} الأمر، والتَّقدير" سلِّموا سلاماً" فالمصدر بدل من الفعل وعدل عن نصبه إلى الرَّفع ليفيد التَّمكين مثل قوله تعالى: {قالوا سلاماً قال سلامٌ} [الذاريات:٢٥]. لما تحمله الجملة الاسميَّة من معنى التأكيد والثبات والدَّوام [2].

وقوله تعالى: {حتَّى مطلع الفجر} غاية لما قبله من قوله {تنزَّلُ الملائكة} إلى {سلامٌ هي}؛ فالمقصود أن جميع أوقات تلك الليلة معمورٌ بنزول الملائكة والسَّلام

وجيء بحرف {حتَّى} لإدخال الغاية لبيان أنَّ ليلة القدر تمتد بعد مطلع الفجر بحيث أنَّ صلاة الفجر تعتبر واقعة في تلك الليلة لئلا يتوهم أنَّ نهايتها كنهاية الفطر بأخر جزء من الليل وهذا توسعة من الله في امتداد الليلة إلى ما بعد طلوع الفجر [3]

ومع ما تحمل هذه الآية من بشرى الخير بالأمن والسَّلامة من كُلِ سوء جاءت آخر آياتها احتراساً عن فهم العكس؛ لأنَّ تنزلَ الملائكة يكون للخير ويكون للشَّر لعقاب مكذبي الرُّسل قال تعالى: {ما ننزِّل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين} [الحجر:٨] وقال في سورة الفرقان: {وقال الَّذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربَّنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً * يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً} [الفرقان: ٢١، ٢٢] . فأخبرهم ﷻ أنَّ تنزيل الملائكة ليلة القدر أتٍ تنفيذاً لأمر عظيم الخيرِ للمسلمين الَّذين صاموا رمضان وقاموا ليلة القدر إيماناً واحتساباً؛ فهذه بشارة لهم، قد خُصَّتْ بها أمَّة محمد ﷺ القائمين بتكاليف دينهم طاعة وحباً وتعظيماً لله ﷻ .

والله أعلم أحكم. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

[1] ـ ينظر: لأضواء البيان للشنقيطي/٩/ ٢٠٧.
[2] ـ ينظر: التحرير والتنوير /٣٠/٤١٠. بتصرف
[3] ـ ينظر: التحرير والتنوير /٣٠/٤١٠.

سورة البيِّنة

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾
رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ
حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ
عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ
خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ .

<u>بين يدي السُّورة المباركة:</u>

وردت تسمية هذه السُّورة المباركة في كلامه ﷺ : "لم يكن الذين كفروا" وسُمِّيتْ في معظم كتب التَّفسير وكتب السُّنَّة (لم يكن)، وفي أكثر المصاحف "سورة القيِّمة" كذلك في بعض كتب التَّفسير. وسُمِّيتْ في بعض المصاحف "سورة البيِّنة [١]".

يربطها الإمام البقاعي بقوله: لما أخبر ﷺ أنَّ الليلة الشَّريفة الَّتي صانها بنوع خفاء لا تزال قائمة على مالها من تلك الصفة حتَّى يأتي الفجر الَّذي يحصل به غاية البيان، أخبر أنَّ أهل الأديان سواء كان لها أصل من الحق أم لم يصح، لن يتحولوا عمَّا هم فيه إلا بسبب عظيم يكون بيانه أعظم من بيان الفجر، وهو القرآن المذكور في القدر، والرسول المنزل عليه فقال تعالى: {لم يكن....} [٢].

١ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير ٣٠/٤١٢ بتصرف
٢ ـ ينظر: نظم الدُّرر :٢٢/١٨٥ وما بعدها.

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

بدأت السُّورة الكريمة بحكاية ما كان عليه أهل الكتاب والمشركين من أحوال مستغربة مضطربة دالة على عدم ثبات آراء أصحابها، وتخبطهم في متاهات عمياء لا قرار لها؛ فذكر ﷻ الَّذين كفروا، ثمَّ جاءت {مِنْ} وجاء بعدها {أهل الكتاب والمشركين} مما يشعر بأنَّ وصف الكفر يشمل كُلاً من أهل الكتاب والمشركين، كما يشعر العطف بـ(الواو) أنَّهم فئتين متغايرتين؛ لكنَّهم يجمعهم الكفر بالله وبرسوله [١].

كما يجمعهم الشِّرك أيضاً؛ فقد جاءت آياتٌ كثيرةٌ تدلُّ على أنَّ مسمى الشِّرك يشمل أهل الكتاب أيضاً، كما في قوله تعالى: {وقالت اليهود عُزيرٌ ابن الله وقالت النَّصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الَّذين كفروا من قبلُ قاتلهم الله أنى يؤفكون. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عمَّا يشركون} [التوبة:٣٠، ٣١]. فجعل مقالة كُل من اليهود والنَّصارى إشراكاً [٢].

وجاءت تكملة الآية بقوله تعالى: {منفكين حتَّى تأتيهم البينة} (منفكين) اسم فاعل من (انفك) والانفكاك: الإقلاع وهو مطاوع فكَّه إذا فصله وفرَّقه ويستعار لمعنى أقلع عنه، ونفيه عنهم بقوله تعالى: {لم يكن الَّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين} دلَّ على أنهم لا يزالون في غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور السنين إلا كفراً.

وقد نقل الشِّنقيطي قولاً عن ابن تيميَّة في معنى {منفكين} قال: (أي لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم، يفعلون ما يهوونه لا حَجر عليهم كما أنَّ المنفك لا حجر عليه، وهو لم يقل: مفكُكين؛ بل قال: منفكين وهذا أحسن...إلى أن قال: والمقصود أنَّهم لم يكونوا متروكين ولا يُنهون ولا تُرسل إليهم رُسُلٌ [٣].

وشيوعه عن الفريقين قرينة على أن المراد من سياقه دمغهم بالحجَّة وبذلك كان التَّعبير بالمضارع المستقبل في قوله: {حتَّى تأتيهم البينة} مصادفاً المحزَّ؛ فإنَّهم كانوا يقولون ذلك قبل مجيء الرَّسول ﷺ كأنَّه قيل: كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه حتَّى تأتينا البيِّنة، وقد جاءتكم البينة الواضحة، والبرهان السَّاطع؛ وذلك قوله تعالى: {رسولٌ من الله يتلوا صُحُفاً مطهَّرة}. فأجمل أولاً، ثمَّ فصَّلها فيما بعدها وهذا تعريض بالتَّوبيخ بأسلوب الإخبار المستعمل في إنشاء التَّعجب أو الشِّكاية من صَلَف المُخبر عنه، وهو استعمال عزيز بديع [٤].

---

١ - ينظر: تفسير السِّعدي /٩٣١.
٢ - ينظر: أضواء البيان للشِّنقيطي/٢٠٨/٩.
٣ - ينظر: أضواء البيان/٢١١٩/٩. وانظر: مجموع الفتاوى /٤٩٥/١٦.
٤ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٤١٦/٣٠. بتصرف شديد.

وعليه يأتي تنوين كلمة: {رسولٌ} للتعظيم، تأتي الحجَّة الدامغة بقوله تعالى: {من الله} بتعلق هذا الجار والمجرور بكلمة: {رسولٌ} وكان هذا المتعلق تشريفاً له وتعظيماً لما تحمله رسالته الشَّاملة لصلاح الدُّنيا والآخرة ﷺ.

والفعل: {يتلو} بزمنه المضارع يصوِّر الحدث، ويدلُّ على استحباب استمرار التلاوة لِمَا لها من أجر عظيم عند الله ﷻ وكذلك للالتزام بما جاء فيه من أحكام؛ لأنّ ذات الفعل: {يتلو} يصوِّر معنى الاتباع أيضاً.

لذا قيل: {رسولٌ من الله يتلوا صُحفاً مطهَّرةً} صفة ثانية أو حال، والجملة إدماج بالثَّناء على القرآن بعد الثَّناء على الرَّسُول [١].

والتلاوة: إعادة الكلام دون زيادة عليه ولا نقصان منه؛ فالفعل {يتلو} مؤذن بأنَّه يقرأ عليهم كلاماً لا تُبدَّل ألفاظه؛ وهو الوحي المنزَّل عليه من الله ﷻ [٢].

أي: أرسله الله، يدعوا النَّاس إلى الحق وأنزل عليه كتاباً يتلوه، ليُعَلِّمَ النَّاس الحكمة ويزكيهم، ويخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور، فمعنى: {يتلوا صحفاً مطهَّرة} أي: محفوظة عن قربان الشَّياطين، لا يمسها لا المطهَّرون؛ لأنَّها في أعلى ما يكون من الكلام [٣].

ولذا جاءت صفة الصُّحف: بقوله تعالى: {مطهَّرة} على وزن (مفعَّلة) بزيادة التَّضعيف الدَّال على كثرة التَّطهير.

يقول ابن عاشور [٤]، وتسمية ما يتلوه الرَّسُول {صحفاً} مجاز بعلاقة ما يؤول إليه، ودلَّ على أنَّه ﷺ مأمور بكتابته؛ فهو عند تلاوته سيكون صُحفاً؛ فهذا المجاز كقوله تعالى: {إني أراني أعصر خمراً} [يوسف:٣٦].

وتأتي الجملة الاسميَّة تحمل تأكيداً جديداً بقوله تعالى: {فيها كتبٌ قيمة} فالظرف: {فيها} وهو الخبر قُدِّم للاهتمام به؛ أي في الصُّحف المطهَّرة {كتبٌ قيمةٌ} فضمير الغائب عائدٌ على الصُّحف القيّمة. (والقيّمة المستقيمة، أي شديدة القيام وهو هنا مجاز في الكمال والصَّواب، هذا من تشبيه المعقول بالمحسوس تشبيهاً بالقائم لاستعداده للعمل النَّافع) [٥].

---

١ ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/٣٠/٤٢٠ بتصرف
٢ ـ ينظر: السَّابق .بتصرف.
٣ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٣١.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٤٢١. بتصرف
٥ ـ ينظر: السَّابق.

ويأتي تنكير المبتدأ المؤخر: {فيها كتبٌ} وكذلك صفته بقوله تعالى: {قيمةٌ} لزيادة التَّعظيم. يقول عنها السعدي: أي: أخبار صادقة، وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فإذا جاءتهم هذه البيِّنة فحينئذٍ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه؛ فيهلك من هلك عن بيِّنة، ويحي من حيَّ عن بيِّنة [1].

وعليه جاء قوله تعالى: {وما تفرق الَّذين أُوتوا الكتابَ إلا من بعدِ ما جاءتهم البيَّنةُ}

هذه الآية الكريمة جاءت ارتقاء لإبطال مزاعمهم؛ إبطالاً مشوباً بالتَّكذيب وبشهادة ما حصل في الأزمان الماضيَّة، فيجوز أن تكون (الواو) عاطفة إبطالاً على إبطال، ويجوز أن تكون (واو) الحال.

والمعنى: كيف يزعمون أنَّ تمسُّكهم بما هم عليه من الدِّين مغياً بوقت أن تأتيهم البيِّنة والحال أنَّهم جاءتهم بيِّنة من قبل ظهور الإسلام وهي بيِّنة "عيسى" عليه السلام فتفرقوا في الإيمان به؛ فنشأ من تفرُّقِهم مِلَّتين: اليهود، والنَّصارى، فلا يطمع في صدقهم فيما زعموا من انتظار البيِّنة بعد "عيسى" عليه السلام ؛ وهم قد كذَّبوا بيِّنة "عيسى"، فتبين أنَّ الجحود والعناد شنشنة فيهم معروفة.

فأُستُعمِلَ التَّفرق في صريحه وكنايته لقصد إدماج مَذَمتهم بالاختلاف بعد ظهور الحق. فالتَّعريف في {البيِّنة} المذكورة ثانياً يجوز أن يكون للعهد الذِّهني، وهي بيِّنة أخرى غير الأولى. [2].

ويأتي قوله تعالى: {وما أُمروا إلا لِيعبدوا الله مخلصين له الدِّين حُنفاءَ} إبطالاً ثالثاً لتنصُّلِهم من متابعة الإسلام بعلة أنَّهم لا يَتركون ما هم عليه حتَّى تأتيهم البيَّنة وزعمهم أنَّ البيِّنة لم تأتهم. وهو إبطال بطريق القول بالموجَب في الجدل [3].

والحال أنَّ الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد؛ فما أمروا في سائر الشَّرائع إلا أن يعبدوا: {الله مخلصين له الدين} أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظَّاهرة والباطنة وجه الله ﷻ وطلب الزلفى لديه: {حنفاء} أي مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التَّوحيد [4].

ولنا أن نجعل (الواو) الَّتي بدأت بها الآية عاطفة على جملة: {وما تفرق الَّذين أوتوا الكتاب} [البيِّنة:٤]، ويمكن أن تكون (الـواو) للحال فتكون الجملة حالاً من

---

[1] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٣١.
[2] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٤٢٢/٣٠.
[3] ـ ينظر: المرجع السَّابق /٤٢٣/٣٠
[4] ـ ينظر: تفسير السِّعدي ٩٣١، ٩٣٢. بتصرف يسير.

الضَّمير في قوله تعالى: {حتَّى تأتيهم البيِّنة} [البيّنة:١] والمعنى والحال أنَّ البيِّنة قد أتتهم إذ جاء الإسلام بما صدَّق قول الله ﷻ لموسى عليه السلام في التوراة[1].

ومن بلاغة القرآن الكريم أن جاء الفعل {أُمروا} مُسند للمجهول وذلك ليفيد معنيين، أي ما أمروا في كتابهم إلا بما جاء به الإسلام: فالمعنى: وما أمروا في التَّوراة والإنجيل إلا ليعبدوا الله مخلصين، وتلك هي أصول دين الإسلام الحق

أو يكون المعنى: وما أُمروا في الإسلام إلا بمثل ما أمرهم به كتابهم، فلا معذرة في الإعراض عن الإسلام على كلا التَّقديرين، وقد حذف نائب الفاعل للعموم أي ما أمروا بشيء إلا بأن يعبدوا الله وحده لا شريك له.

وتأتي تكملة الآية الكريمة بقول تعالى: {ويقيموا الصَّلاة ويؤتوا الزَّكاة وذلك دين القيمة} نجده ﷻ قد خص الصَّلاة والزَّكاة بالذِّكر مع أنَّهما داخلان في قوله تعالى: {ليعبدوا الله مخلصين} وذلك تنويهاً على فضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللَّتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين [2].

فالصَّلاة: صلة وثيقة بين العبد وربِّه بكُلِّ ما فيها من توجه، وتلاوة، ودعاء وخضوع، وإخلاص؛ وعليه جاء قوله: {يقيموا الصَّلاة} أي يؤدوها كاملة خالصة لوجه الله تبارك وتعالى.

وزمن المضارع في {يقيموا} يدلُّ على الاستمرار، ويصوِّر مشهد إقامة الصَّلاة على الوجه الصَّحيح، الَّذي يتقبله ﷻ - أعاننا الله وإياكم على ذلك بتوفيقه - آمين.

والزَّكاة: طاعةٌ لله ونماءٌ في الخير والأجر في الدُّنيا وللآخرة وصلة بين العبد المخلص وعباد الله المستحقين. والفعل {يؤتوا} بزمنه المضارع صوَّر الاستمرار والتَّواضع مع السَّعي بنفس راضية لإيصال هذا المال المستحق بالزَّكاة لمن يستحقه. وعليه جاءت الإشارة بقوله تعالى: {وذلك دينُ القيِّمة}.

فالقيِّمة: الشَّديدة الاستقامة، أي: دين الأمَّة القيّمة، أو دين الكتب القيّمة، وفيه إلزام لهم بأحقيَّة الإسلام، وأنَّه الدِّين القيّم، فالمراد به دين الإسلام [3]. المهيمن على جميع الأديان السَّابقة والنَّاسخ لها. قال تعالى: {إنَّ الدِّين عند الله الإسلام} [آل عمران:١٩]. وقال تعالى: {ومن يتَّبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه} [آل عمران:٨٥] وبذلك تبطل دعوة وحدة الأديان [4].

---

[1] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٤٢٤) بتصرف.
[2] - ينظر: تفسير السّعدي /٩٣٢. بتصرف يسير
[3] - ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/٤٢٥. بتصرف.
[4] - ينظر: أضواء البيان /٩/٢١٦.

ثمَّ يأتي الاستئناف الابتدائي بقوله تعالى: {إنَّ الَّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نارِ جهنَّم خالدين فيها أولئك هم شرٌّ بريَّة}.

ويستوقفنا للتأمل تقديم ذكر أهل الكتاب على المشركين في الوعيد استتباعاً لتقديمهم عليهم في سببه؛ فلو أمن أهل الكتاب وهم العالمون بحقيقة صدق نبوَّة "محمد" ﷺ لقامت الحجَّة على أهل الشرك.

وعليه جاءت: {من} في قوله تعالى: {من أهل الكتاب} بيانيَّة. وتأكيد الخبر بـ{إنَّ} للرد على أهل الكتاب الَّذين يزعمون أنَّهم لا تمسَّهم النَّار إلا أياماً معدودة. وذلك ما أخبر به الظرف: {في} الَّذي دلَّ على أنَّها محيطةٌ بهم إحاطة الظرف بالمظروف، وأنَّهم غير خارجين منها. لقوله تعالى: {خالدين فيها}، أمَّا المشركون فقد أنكروا الجزاء رأساً[1].

يقول الشَّيخ السِّعدي: قد أحاط بهم عذابُها، وأشتد عليهم عقابُها لا يفتَّر عنهم العذابُ وهم فيها مبلسون؛ لأنَّهم عرفوا الحقَّ وتركوه فخسروا الدُّنيا والآخرة [2].

وتختم الآية الكريمة بجملة اسميَّة تحمل في معناها التأكيد والثَّبات بقوله تعالى: {أولئك هم شرُ البريَّة}.

ولذا جاءت الإشارة إليهم بأداة البعد: {أولئك} لتظهر صورة بعدهم في الغي، حتى تجعل منهم نموذجاً بارزاً للعيان في الكفر. ثمَّ كان لضمير الفصل: {هم} أكبر الأثر في تأكيد شرهم واختصاصهم به.

ويستوقفنا للتأمل مجيء خبر الجملة الإسميَّة الَّتي من طبيعتها تحمل الثَّبات والتأكيد بقوله تعالى: {شرُ البريَّة} بصيغة اسم التَّفضيل في: {شر} لتعني أنَّه لا أحد في البرية أشدُ منهم شراً.

والبريَّة الخليقة والله ﷻ بارئ النِّسم، وهو الخالق البارئ المصوِّر سبحانه، ومن البريَّة الدَّواب والطُّيور، وهنا النَّص على عمومه، فأفهم ذلك أنَّ أُولئك شرٌّ من الحيوانات والدَّواب؛ بل أنَّ الدَّواب تعلم وتؤمن بوحدانيَّة الله، كما جاء في "هُدهُد سليمان"، وما نصه مالك في "الموطأ" في فضل يوم الجمعة: " أنَّه ما من دابةٍ إلا تُصيخ بأذنها من فجر يوم الجُمُعة إلى طلوع الشَّمس خشية الساعة" [3]. وهذا كُلُّه ليس عند الكافر منه شيءٌ [4].

---

[1] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/٤٢٦) بتصرف.
[2] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٣٢.
[3] ـ الحديث الشريف أخرجه مالك (٣٦٤) من حديث أبي هريرة وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب/١/١٧٠.
[4] ـ ينظر: أضواء البيان للشِّنقيطي /٩/ ٢١٨.

وجرياً على عادة القرآن في تعقيب النَّذارة بالبشارة وما ترتب على ذلك من الثنَّاء عليهم يأتي قوله تعالى: {إنَّ الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات أُولئك هم خيرُ البريَّةِ. جزاؤهم عند ربهم جنَّاتُ عدنٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً رضي اللهُ عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربَّهُ}.

جاءت المقابلة بين الفريقين استيعاباً لأحوالهما في الدَّنيا والآخرة ونجده ﷻ قَدَّم الثَّناء عليهم قبل بشارتهم على عكس نظم الكلام المتقدم في ضدِّهم؛ ليكون ذكر وعدهم كالشكر لهم على إيمانهم وأعمالهم؛ فإنَّ الله شكور [١].

واسم الإشارة والجملة المخبر بها عنه جميعها خبر عن اسم: {إنَّ} الَّذي بدأت به الآية [٧]. وهو الاسم الموصول في: {إنَّ الَّذين} والجملة الفعليَّة بعده: {أمنوا وعملوا الصَّالحات} صلة لهذا الموصول.

ويستوقفنا للتأمل مجيء الأفعال (آمنوا، وعملوا) بالزمن الماضي لتأكيد إيمانهم وقبوله عند ربهم ﷻ بدليل زمن الأفعال السَّابقة. وفي ذلك بشرى عظيمة لهم - جعلنا الله والمسلمين أجمعين منهم -

إلا الفعل في الجملة الَّتي أتت صفة لجنات عدنٍ: {تجري من تحتها الأنهار} ؛ وذلك تصوير لمشهد الجريان المستمر لهذه الأنهار مما يضفي على تلك الجنات مزيد من الرَّوعة والجمال والنَّماء المستمر؛ فما عند الله في جنَّته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر - جعلنا الله ممن وعدهم بها - آمين.

وجاء خبر هذه الجمل الاسميَّة الأولى قوله تعالى: {أولئك هم خير البريَّة} بكُلِّ ما فيها من مواقع تأكيد.

وجملة: {جزاؤهم عند ربهم جنَّاتُ عدنٍ} إلى آخرها جملة مبيِّنة لجملة {أولئك هم خير البريَّة}.

وقوله تعالى: {جنات عدنٍ} أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل عنها ولا طلب لغاية فوقها [٢]. وعليه يأتي قوله تعالى: {خالدين فيها أبداً}.

ويستوقفنا للتأمل الظرف: {عند ربِّهم} الَّذي وقع اعتراضاً بين {جزاؤهم} وبين {جناتُ عدنٍ} للتنويه بعظم الجزاء المدَّخر عند ربِّهم تكرمة لهم لِمَا في {عند} من الإيماء إلى الحظوة والعناية، وما في لفظ {ربِّهم} من الإيماء إلى إجزال الجزاء بما

---

١ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٤٢٨.
٢ - ينظر: تفسير السَّعدي/٩٣٢.

يناسب عظم المضاف إليه: {عند} وما يناسب من يَرب أن يبلغ بمربوبه عظيم الإحسان[1].

والمتعارف عليه في القرآن الكريم؛ أنَّ كلمة رب تذكر في مقام الإحسان والتَّفضل والإكرام على المربوبين.

وتختم هذه السُّورة المباركة بأعظم منَّة منه ﷻ على عباده الموحدين المخلصين: بقوله تعالى: {رضي الله عنهم ورضوا عنه} هذه الجملة جاءت حال من ضمير {خالدين} أي خالدين خلوداً مقارناً لرضى الله عنهم، فهم في مدَّة خلودهم محفوفون بآثار رضى الله ﷻ عنهم، وذلك أعظم مراتب الكرامة قال تعالى: {ورضوان من الله أكبر} [التوبة:٧٢]. ورضى الله تعلق إحسانه وإكرامه لعبده [2].

وأما الرِّضَى في قوله تعالى: {ورضوا عنه} فهو كناية عن كونهم نالهم من إحسان الله ما لا مطلب لهم، وزاده حُسناً ما وقع فيه من المشاكلة.

وعليه ختمت السُّورة بخلاصة جامعة لكُلِّ ما ورد فيها من أخبار بقوله تعالى: {ذلك لمن خَشِي ربه} ولذا قيل: تذييل آتٍ على ما تقدم من الوعد للَّذين أمنوا والوعيد للذين كفروا بُيّن به سبب العطاء وسبب الحرمان وهو خشية الله تعالى بمنطوق الصلة ومفهومها.

بدأت هذه الجملة باسم الإشارة: {ذلك} فهو إشارة إلى الجزاء المذكور في قوله تعالى: {جزاؤهم عند ربهم} أي: أنَّ السبب الَّذي أنالهم ذلك الجزاء هو خشيتهم الله، و(اللام) في: {لِمَنْ} للملك، أي ذلك الجزاء للمؤمنين الَّذين خشوا ربهم، فإذا كان ملكاً لهم لم يكن شيءٌ منه ملكاً لغيرهم؛ فأفاد حرمان الكفرة منه، وذلك لأنَّ الكفرة لم يرعوا حق الربوبيَّة [3]. وعليه ساغ ذكر الرَّب هنا دون غيره من الأسماء الحسنى.

والله أعلم وأحكم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

[1] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/ ٤٢٨. بتصرف.
[2] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٤٢٩.
[3] ـ ينظر: السَّابق/٣٠/ ٤٣٠. بتصرف.

سورة الزلزلة

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا
﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ
أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ .

<u>بين يدي السُّورة المباركة:</u>

سميت هذه السُّورة في كلام الصحابة سورة: {إذا زلزلت} روى الواحدي في "أسباب النزول" عن عبد الله بن عَمرو: "نزلت إذا زلزلت " وأبو بكر قاعد فبكى الحديث. وفي حديث أنس بن مالك مرفوعاً عند الترمذي: "إذا زلزلت" تعدل نصف القرآن" وكذلك عنونها البخاري والتِّرمذي. ومن أهم أغراضها إثبات البعث [١].

يربطها الإمام البقاعي بقوله: لما كان المخوف الزلزلة ولو لم يعلم فاعلها، وكان البناء للمفعول يدل على سهولة الفعل ويسره، بني للمفعول: {زُلزلتِ الأرضُ} وقد وردت بعد سورة البيّنة ليبين بها حصول جزاء الفريقين ومآل الصِّنفين المذكورين، وللتعريف بأحوالهم فأعقب ذلك بمآل الصِّنفين واستيفاء جزاء الفريقين فقال تعالى: {يومئذٍ يصدر النَّاس أشتاتاً ليروا لأعمالهم} إلى آخر السُّورة [٢].

<u>الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:</u>

وعليه افتتحت السُّورة الكريمة بظرف زمان يفيد المستقبل، مع إطالة الجمل المضاف إليها الظَّرف تشويقاً إلى متعلق الظَّرف، لتنزيل وقوع البعث منزلة الشَّيء المحقق لاهتمام النَّاس به؛ فلا يهم النَّاس إلا معرفته وأشراطه؛ فيكون التَّوقيت كناية عن تحقيق وقع الموت [٣] .

---

١ ـ انظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/٤٣١.
٢ ينظر نظم الدُّرر /٢٢/ ٢٠٣. بتصرف.
٣ ـ انظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور (٤٣٢/٣٠) بتصرف شديد.

ومعنى زُلْزِلَتْ حُرّكت تحريكاً شديداً [1]. حتَّى يخيل أنَّها خرجت من حيزها؛ لأنَّ فعل (زلزل) مأخوذ من الزلل وهو زلق الرِّجلين؛ فلمَّا عنوا شِدَّة الزَّلل ضاعفوا الفعل للدلالة بالتَّضعيف على شِدَّة الفعل كما قالوا كبكبه، أي كبَّه ولملم بالمكان من اللَّمِّ[2].

وتبرز المناسبة بين أصوات الكلمة وما تدلُّ عليه من جهتين: الأولى: أنَّ الأصوات القويَّة للكلمة تدلُّ على معنى الزَّلزلة القويَّة، والثَّاني: أنَّ الكلمة مكونة من مقطعين متشابهين: (زلْ، زلْ) كأنَّهما يحكيان صوت الحدث بتكرارهما [3].

وعليه بُنيَ فعل (زُلزلت) بصيغة النائب عن الفاعل تحقيقاً لعلم الجميع به وهو الله ﷻ وتصويراً لزيادة الفزع.

وجاء التَّأكيد بقوله تعالى: {زِلْزَالَها} على طريقة المفعول المطلق والمقصود به (زلزالاً) لكن أضيف إلى ضمير الأرض؛ لإفادة تمكنه منها وصلته بها وكأنَّ الأرض تعهده قبل ذلك الحدث.

وفي قوله تعالى: {وأخرجت الأرض أثقالها} أعيد ذكر الأرض وهو من الإظهار في مقام الإضمار لقصد التَّهويل، وكأنَّها تنوء بحمل ثقيل منذ أن استخلف الله عليها ذرية "أدم" عليه السلام، وقد كانت نِعْمَ المهد لهم بتسخير من الله، فإذا كان يوم القيامة الَّذي يرتعد فيه كل جرم، وكل مخلوق فرقاً من غضب الجبَّار زُلزلت زلزالاً شديداً، وأطاعت الله فيما أمرها به، فأخرجت ما أثقل كاهلها من الموتى وغيرهم من المعادن والمياه ونحوه؛ وذلك من تكرار الانفجارات الناشئة من اضطراب داخل طبقاتها.

ويُقذف كلُ شيءٍ إلى ظهرها ومنهم الأموات؛ فإذا بهم يبهتون مفجوعين من هول ما يرون وما يسمعون؛ فأقدامهم لا تكاد تثبت على ظهر أمهم الَّتي طالما حملتهم؛ عندئذ يتوجهون بالسُّؤال مالها. فجاءت جملة {مالها} كناية عن الفزع وهو استفهام عن الشَّيء الَّذي ثبت فعله للأرض؛ لأنَّ ا(للام) تفيد الاختصاص ويتوجه السُؤال عمَّا سيكون عاقبته.

وتأتي الإجابة بقوله تعالى: {يومئذ تحدث أخبارها} زمن الفعل {تُحدِّثُ} يصور المشهد ويدل على التِّكرار؛ فذلك من خصائص الفعل المضارع.

---

[1] ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور مادة زلل.
[2] ـ التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور (٤٣٢/٣٠) بتصرف.
[3] ـ ينظر التَّصوير القرآني في جزء عمَّ أ: أناهيد عبد الحميد جمال حريري.(٨٠٠).

قيل: مجاز عن إحداث الله فيها من الأحوال ما يؤدي إلى تحديثها باللسان، أو ينطقها الله حقيقة، فتخبر بما عمل كل إنسان على ظهرها من خير أو شر [١]

وكلمة أخبارها مفعول ثانٍ، وحذف المفعول الأول للعلم به وللتركيز على الحدث المهول. ويقدر: تحدث السائل أخبارها.

والتَّحديث حقيقته أن يصدر كلام يخبر عن حَدث. وورد في التِّرمذي عن أبي هريرة قال: "قرأ رسول الله هذه الآية: {يومئذ تحدث أخبارها} قال: "أتدرون ما أخبارها؟ قالوا الله ورسوله أعلم! قال: "فإنَّ أخبارها أن تشهد على كُلِّ عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول: عَمل كذا وكذا فهذه أخبارها"[٢].

وانتصب أخبارها على نزع الخافض وهو باء تعدية الفعل {تحدث} الَّذي أسند إلى الأرض بدليل تأنيث الفعل وما بعده من الضَّمائر. أي: نحدث عن أخبارها أو تحدث بأخبارها.

وقوله تعالى: {بأنَّ ربك أوحى لها}: (الباء) الَّتي ربطت الآية: {بأنَّ ربك أوحى لها} سببيَّة أي بسبب أنَّ الله أمرها أن تُحَدِثْ أخبارها.

وزمن الماضي في الفعل {أوحى} يدلُّ على أنها أمرت به مسبقاً؛ لكن بتوقيت معين من عنده سبحانه وتعالى. وهذا الحدث يؤكد شهود المكان على ما أحدثه الإنسان فيه. لكن لم يذكر الموحى به لظهوره بما قامت به من فعل.

وقد عدي فعل {أوحى} بالـ(لام) لتضمن {أوحى} معنى (قال) كقوله تعالى: {وقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً} [فصلت:١١] وإلا فإنَّ حق {أوحى} أن يتعدى بحرف إلى. قيل عُدل عن فعل قال لها إلى فعل {أوحى} لأنَّه حكاية عن تكوين لا عن قول لفظي ([٣]). والله أعلم وأحكم.

وقوله تعالى: {يومئذ يَصدر النَّاس أشتاتاً} بدل من جملة {يومئذ تحدث أخبارها} والجواب هو فعل {يصدر النَّاس}. وأيضاً جاء بزمن المضارع لتصوير الحدث للمتلقي، مع إعطائه فتره تدلُ على تكرار زمني الله أعلم به.

---

[١] - ينظر: جامع البيان للطبري /٣٢٢/٣٠. والكشاف للزمخشري /٧٨٤/٤، والمحرر الوجيز لابن عطيَّة /٣٤٨/١٦.
[٢] - ينظر: التَّحير والتَّنوير لابن عاشور /٤٣٤/٣٠. بتصرف يسير.
[٣] - ينظر: السَّابق /٤٣٥/٣٠.

وقوله: {يومئذ} متعلق بالفعل {يصدر} وقد قُدِّم على متعلقه للاهتمام به؛ لأنَّه هو المقصود من الكلام المسوق لإثبات الحشر والتَّذكير به والتَّحذير من أهواله، فإنَّ عند حصوله يعلم النَّاس أنَّ الزلزال كان إنذار بهذا الحشر ([1]).

وجاء سبحانه بـ{يصدر} الدَّال على الصُّدور بعد الورود إشارة إلى قصر الحياة الدُّنيا، فكأنَّها بمثابة من ذهب ليرد ثمَّ عاد [2]

قال ابن عاشور: فأطلق سبحانه هنا فعل {يصدر} على خروج النَّاس إلى الحشر جماعات، أو انصرافهم من الحشر إلى مآلهم من الجنَّة أو النَّار تشبيهاً بانصراف النَّاس عن الماء بعد الورود [3].

وكلمة: {أشتاتاً} حال وأشير به إلى أنَّ تفرقهم يناسب كُلَّ جماعة في أعمالها من مراتب الخير ومنازل الشر.

ويأتي تعليل ذلك بقوله تعالى: {ليُروا أعمالهم} بني الفعل لِمَا لم يسمى فاعله؛ لأنَّ المقصود رؤيتهم أعمالهم لا تعيين من يريهم إياها.

ونرى أنَّه وقع اسم العمل على الجزاء؛ لأنَّ الجزاء من جنسه، والمجاز في ذلك أدخل من الحقيقة، وقد يكون ليروا صحائف أعماله[4]. فالرؤية مستعملة في البصر والمرئي هو منازل الجزاء، ويجوز أن تكون الرؤية مستعملة في العلم بجزاء الأعمال؛ فإنَّ الأعمال لا ترى؛ ولكن يظهر لأهلها جزاؤها [5]. والله أعلم.

وقد فصِّلت الرؤية بقوله تعالى: {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره} هتين الآيتين تفريع على قوله تعالى: {ليُروا أعمالهم} انتقالاً للتَّرغيب والتَّرهيب بعد الفراغ من إثبات البعث والجزاء، وهو قاضي بأنَّ هذا يكون عقب ما يصدر النَّاس أشتاتاً. ويُبرز هذا الموقف المقابلة وهي من وسائل دقَّة تصوير المعنى وإيضاحه. وما زال زمن المضارع يرافق هذه الأحداث لاستحضار المشهد في ذهن المتلقي لِمَا للمضارع من قدرة على ذلك.

كما نجده سبحانه قدَّم التَّرغيب على التَّرهيب تنويهاً بأهل الخير، وإيثاراً للجانب الأول على الثاني [6] كما إنَّه حثٌ لنا ونحن في هذه الدَّار على الجد في العمل بما يرضي الله ﷻ.

---

[1] ـ ينظر: ا السابق.
[2] ـ ينظر: التَّفسير البياني للقرآن الكريم أ. د. عائشة عبد الرحمان ٩٣/١.
[3] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٤٣٥/٣٠/.
[4] ـ ينظر مجاز القرآن للعز بن عبد السلام/٤٧٦). وكذا والتَّفسير الكبير للرازي/٢٥٦/١١.
[5] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٤٣٥/٣٠.
[6] ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ أ أناهيد عبد الحميد جمال حريري/ ٨١٣/٢.

وجاء ذكره للوزن بقوله تعالى: {مثقال الذَّرة} مثلاً في أقل القلة من الخير؛ وذلك للمؤمنين بين ظاهر؛ أمَّا بالنسبة للكفَّار فالمقصود من شر؛ لأنَّ أعمالهم في الخير لا ينتفعون بها البتَّة، قال تعالى: {والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتَّى إذا جاءه لم يجده شيئاً} [النور:٣٩].

وقد كرر سبحانه قوله تعالى: {ومن يعمل} دون الاكتفاء بالأولى؛ لأنَّ الأولى كناية عن السُعداء، والثَّانية: كناية عن التُّعساء [١]؛ لتكون كُلُّ جملة مستقلَّة الدلالة على المراد بها.

ويأتي المصدران: (خيراً، شراً) تميزاً لِمَا في كلمة مثقال ذرة من معنى العدد؛ ولأنَّ المصدر أصل التَّصريف فيحمل قوة زائدة في تصوير الحدث.

وقد جاء: عن عبد الله بن مسعود ﵁ أنَّه قال عن هذه الآية: أحكم آية في القرآن، وقال كعب الأحبار: " لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التَّوراة والإنجيل والزَّبور والصُّحف: {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره}

فالسُّورة على قصرها صوَّرت هذه المشاهد من يوم القيامة أبلغ تصوير في قوة وجزم بما يُلقي في نفس السَّامع جدِّية الموقف الحاسم، وخطره بحيث لا يحتمل الإطالة والتَّأني. وعُرض هذا التَّصوير في مشهدين الأول: زلزلة الأرض وإخراجها لموتاها (١-٥).

والثَّاني: مشهد صدور النَّاس من قبورهم أشتاتاً متفرقين للجزاء (٦ -٨) [٢] وعليه فإنَّ هذه الآية معدودة من جوامع الكلم والله أعلم وأحكم.

وصلى الله على نبينا وحبيبنا "محمد بن عبد الله" وعلى آله وصحبه وسلم.

---

[١] ـ ينظر: البلاغة القيمة د. عبد القادر حسين /١٣٩.
[٢] ـ ينظر: التَّصوير البياني لجزء عمَّ /٨١٤/٢.

سورة العاديات

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

بين يدي السُّورة المباركة:

في هذه السُّورة المباركة ذكر الواحدي في "أسباب النُّزول" عن مُقاتل وعن غيره أنَّ رسول الله ﷺ بعث خيلاً سريَّة إلى كنانة وأمَّرَ عليها "المنذر بن عَمرو" وتأخر خبرهم شهراً؛ فأرجف المنافقون، وقالوا: قتلوا جميعاً؛ فأخبر اللهُ عنهم بقوله: {والعاديات ضبحاً} الآيات إعلاماً بأنَّ خيلهم قد فعلت ما في تلك الآيات [١].

ويربطها الإمام البقاعي بقوله: لما ختم الزلزلة بالجزاء لأعمال الشَّر يوم الفضل افتتح هذه ببيان ما يجر إلى تلك الأعمال من الطَّبع، وما ينجر إليه ذلك الطَّبع مما يتخيله من النَّفع، موبخاً من لا يستعد لذلك اليوم بالاحتراز التَّام من تلك الأعمال و معنفاً من آثر دنياه على أُخراه، مقسماً بما لا يكون إلا عند أهل النِّعم الكبار الموجبة للشكر فقال: {والعاديات} [٢].

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

وهكذا بدأت السُّورة المباركة بأسلوب القسم حيث أقسم ﷻ إمَّا بخيل الغزاة – على أرجح الأقوال [٣]. إظهاراً لشرفها وفضلها، أو أقسم ﷻ بالإبل لعظم شأنها وكثرة منافعها، ومنها حمل مواكب الحجيج في كل عام [٤].

---

١ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٤٣٨/٣٠. بتصرف
٢ - ينظر: نظم الدرر /٢٢/ ٢١٠، وما بعدها بتصرف.
٣ - ينظر: الكشاف للزَّمخشري/٧٨٦/٤. وكذا التِّبيان في أقسام القرآن / ابن القيم٥٢، ٥٣.
٤ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٤٤٠. بتصرف

والعاديات: جمع العادية وهو اسم فاعل من العدو وهو السَّير السَّريع يطلق على سير الخيل والأبل خاصة، وتأنيث هذا الوصف هنا؛ لأنه من صفات ما لا يعقل، وقد يوصف به سير الإنسان (١). والكلمة مؤلفة من أصوات قويَة لتناسب ما تدل عليه من قوة العدو (٢).

وجاءت كلمة: {ضبحاً} مصدراً دالاً على التَّقوية والتَّأكيد، منصوب في موضع الحال (٣). تدور مادة الكلمة حول: التَّلويح وتغير اللَّون أو الصَّوت؛ ضبحت الخيل في عَدوها ضبحاً: أسمعت من أفواهها صوتاً ليس بصهيل ولا حَمحَمة، والضبح شِدَّة النَّفس عند العدو. قال عطاء: سمعت ابن عبَّاس يصفُ الضَّبح فيقول: أح أح (٤)

وتظهر المناسبة بين أصوات الكلمة وما تدلُّ عليه من حيث مناسبتها لأجزاء الحدث، فـ(الضَّاد) بقُوتها وضخامتها تقابل تلك القوة الهائلة الَّتي تبذلها الخيل في عدوها، وتظهر بشكل ظاهر في قوة النَّفس الَّذي تدخله الخيل والإبل إلى رئتها، وتأتي (الباء) بغلقها لتقابل حبس الهواء الَّذي يعطيها القوة، كما تقابل بانفجارها بعد غلقها انفجار الهواء من رئتيها، وتأتي بعدهما (الحاء) بصحلها وبحتها ومعها الألف الممتدَّة؛ لتصوِّرا لنا خروج آخر الهواء من الرئتين مع ما يرافقه من صدور صوت وهو ما عبَّر عنه ابن عبَّاس رضي الله عنهما بقوله: أح أح. وهكذا تحكي الكلمة معناها (٥).

وجاءت الآية الثَّانية بقوله تعالى: {فالموريات قدحاً} عطفت على ما قبلها بحرف (الفاء) الَّتي تقتضي ترتيب الحدث.

وكلمة: {الموريات} جاءت على صيغة اسم الفاعل، وتدور مادة الكلمة: (وَرَى وأورى) ومشتقاتهما حول: إخراج النَّار (٦)؛ فالخيل توري بحوافرها ناراً خفيفة كالشرَر (٧).

ومناسبة أصوات الكلمة لأجزاء الحدث تظهر في (الميم) القويَّة وبعدها (واو) المد القويَّة تناسبان قوة وري النَّار وخروجها، وتكرار (الرَّاء) يناسب تكرار حدث الإيراء مرة تلو أخرى، وقوة صوتي (الباء) و(الألف) يناسبان القوة في تكرار حدث الإيراء، وتختم الكلمة بـ(التاء) المقابلة بانفجارها تطاير شرر النَّار (٨).

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لبن عاشور/٣٠/ ٤٤٠..
٢ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ أناهيد جمال حريري/٨٢٤/٢ بتصرف
٣ ـ ينظر: إعراب القرآن للنحاس/٢٧٨/٥
٤ ـ ينظر: جامع البيان للطبري/ ٣٠/ ٣٣١. وكذا الكشَّاف للزَّمخشري/ ٤/ ٧٨٦.
٥ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ أناهيد جمال حريري/٨٢٤/٢.
٦ ـ ينظر لسان العرب لابن منظور/ مادة " ورى ، وأورى"
٧ ـ ينظر: معاني القرآن للفرَّاء/٢٨٤/٣.بتصرف
٨ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ/٨٢٥/٢.

وعليه تأتي كلمة {قدحاً} الَّتي تدور مادتها حول محاولة إخراج النَّار بواسطة [١].

وحقيقة القدح: حك جسم على آخر ليقدح ناراً، يقال: قدح فأورى.
وانتصب المصدر: {قدحاً} على أنَّه مفعول مطلق مؤكد لعامله. وكون الكلمة مصدر دلت على تَّقوية المعنى وتأكيده؛ لإفادة وقوع الحدث وقوعاً مطلقاً غير مقيد بزمن. وكُلٌّ من سنابك الخيل، ومناسم الإبل تقدح إذا صَكت الحجر الصوَّان ناراً تسمى نار الحُباب [٢].

وتظهر المناسبة بين أصوات الكلمة وما تدلُ عليه من حيث مناسبتها لأجزاء الحدث، فـ(القاف) و (الدال) القويتان تناسب قوة اصطدام حوافر الخيل بالأرض أو الحجارة، و(الحاء) بصحلها وبعدها (الألف) الممتدَّة يقابلان شرر النَّار النَّاتج عن هذا الاصطدام [٣].

وتأتي الآية الكريمة الثَّالثة بقوله تعالى: {فالمغيرات صُبحاً} بدأت الجملة بحرف العطف (الفاء) لإفادة التعقيب مع الترتيب والمسارعة.

و {المغيرات} اسم فاعل من أغار، والإغارة تطلق على غزو الجيش فإسناد الإغارة إلى ضمير {العاديات} مجاز عقلي؛ فإنَّ المغيرين راكبوها؛ ولكنَّ الخيل أو إبل الغزو هي أسباب للإغارة ووسائلها. وتطلق الإغارة على الاندفاع في السير. وإذا فُسِّرتْ المغيرات بالإبل المسرعات في السَّير، فالمراد: دفعها من مزدلفة إلى منى صباح يوم النَّحر [٤]؛ وعليه يأتي الظَّرف: {صبحاً} ليحدد وقت الإغارة للدلالة على المفاجأة والمباغتة. أو الاندفاع من مزدلفة إلى منى يوم النَّحر تشوقاً لتكميل أركان الحج.

وتتابع الصُّور الدَّالة على المسارعة لتصوير جو المعركة بقوله تعالى: {فأثرنَ به نقعاً} عطفت الجملة بحرف (الفاء) الَّذي يفيد التَّرتيب وعطف هذه الجمل على بعض يدلُّ على أنَّها صفات لموصوف واحد [٥].

وقد عطف: {فأثرنَ} على الفعل الَّذي وضع اسم الفاعل موضعه في قوله تعالى: {والعاديات} لوقوعه صلة للموصول، - وذلك لأنَّ الاسم المشتق إذ سبق بال

---

١ ـ ينظر: تهذيب اللغة للأزهري، وكذا لسان العرب "قدح"

٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٤٤٠/٣٠. بتصرف. وانظر جامع البيان للطبري/٣٣٣/٣٠. بتصرف.

٣ ـ بنظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ، أناهيد جمال حرير/٨٢٥/٢).

٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٤٤١/٣٠

٥ ـ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان/٨/. ٥٠١

التَّعريف أُعتبر اسم موصول – وعليه جاء تقدير الكلام: واللاتي عدون فأورين، وأغرنَ فأثرنَ (١).

ومعنى: {فأثرن به نقعاً} أصعدنَ الغبار من الأرض من شِدَّة عدوهنَّ، والإثارة: الإهاجة والنقع: الغبار. و (الباء) في: {به} يجوز أن تكون سببيَّة، والضَّمير المجرور عائد إلى العدو المأخوذ من {العاديات}. ويجوز كون (الباء) ظرفية والضَّمير عائداً إلى {صبحاً} أي: أثرن في ذلك الوقت، وهو وقت إغارتها.

يقول أبو السَّعود: وتخصيص إثارته بالصبح لأنَّ لا يثور أو لا يظهر ثورانه بالليل وبهذا ظهر أنَّ الإيراء الذي لا يظهر في النَّهار واقع في الليل؛ ولله در شأن التنزيل (٢).

ويأتي إتمام الإخبار بقوله تعالى: {فوسطنَ به جمعاً} أي كنَّ وسط الجمع، يقال: وسط القوم إذا كان بينهم.

و {جمعاً} مفعول: (وسطنَ) وهو اسم لجماعة النَّاس، أي صِرن في وسط القوم المَغزون (٣). وفي هذا كناية عن القوة والشَّجاعة والسُّرعة المباغتة.

وأما بالنسبة إلى الإبل فيتعين أن يكون قولة: {جمعاَ} بمعنى المكان المسمى {جمعاً} وهو المزدلفة؛ فيكون إشارة إلى حلول الإبل في مزدلفة قبل أن تغير صبحاً منها إلى منى (٤).

ونلاحظ التَّخالف في عطف الأفعال (فأثرن، ووسطنّ) على الأسماء؛ وذلك لتصوير هذه الأحداث في النَّفس أبلغ تصوير (٥). بما فيها من حركة متجددة فجاءت بأسلوب الحكاية المحببة إلى القلوب وبزمنها الماضي الَّذي يفيد التأكيد..

وقد أسهم القسم المتقدم {والعاديات ضبحاً} وآثاره في تشويق النُّفوس وتطلعها لمعرفة جواب القسم الَّذي جاء قوياً قوَّة القسم (٦) فقال تعالى: {إنَّ الإنسانَ لربه لكنودٌ}.

بدأت الجملة بحرف التوكيد: {إنَّ} لشِدة تأكيد هذه الخصلة في عموم جنس الإنسان. ثمَّ قُدِمَ الجار والمجرور {لربه} على متعلقه {كنود} بيان مقدار الجرم؛ لأنَّ

---

١ ـ ينظر: الكشاف/٤/٧٨٨.
٢ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم/ ٩/ ١٩٠.
٣ ـ ينظر: التَحرير والتَّنوير/٣٠/٤٤١.
٤ ـ ينظر السَّابق. بتصرف.
٥ ـ ينظر: روح المعاني/٣٠/٦١٤.
٦ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ/ أناهيد جمال حريري/ ٢/ ٨٤١.

مرتبط بالله ﷻ أحق الموجودات بالشُّكر والثَّناء و لإفادة الاهتمام به حيث دلَّ تقديمه على أنَّ في طبع الإنسان الكُنود لربِّه، وظهور كلمة: {رب} دون غيرها من الأسماء لِمَا تحمل هذه الكلمة من معاني نِّعم الرُّبوبيَّة ومن أجلها الخلق والرزق والتَّدبير، وحيث وجدت هذه الكلمة الشريفة دلَّت على النِّعم.

والكنود: وصفٌ من أمثلة المبالغة من (كند) ولغات العرب مختلفة في معناه فهو في لغة "مُضر، وربيعة": الكفور بالنعمة: البخيل، وفي لغة "كِندة وحضرموت" العاصي. والمعنى: الشديد الكفران لله. وهو عارض يعرض لكُلِّ إنسان على تفاوت فيه والعزائم متفاوتة في استطاعة مقاومته [١].

وقد سُبق هذا الوصف بلام الابتداء المزحلقة للخبر لإفادة التَّوكيد، وذلك لبدء الجملة بحرف التَّوكيد {إنَّ}. وهكذا حمل هذا الخبر عدَّة مواطن إعجازيَّة تؤكد هذه الصِّفة في جنس الإنسان، ولا يسلم منها إلا الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام ومن عصمه الله ﷻ.

وتظهر المناسبة بين أصوات الكلمة وما تدلُّ عليه من حيث قوَّة أصوات الكلمة المناسبة لقوَّة معنى الكَنَد [٢].

وعُطف على جواب القسم حقيقة أخرى تؤكده؛ ذلك ما يحمله قوله تعالى: {وإنَّه على ذلك لشهيد. وإنَّه لحب الخير لشديد} يحمل هذا المقطع تلك الخصائص الَّتي جاءت فيما قبله في التَّرتيب والتأكيد؛ فجاء تقديم، الضمير في {إنَّه} عائد على الإنسان حسب الظاهر الَّذي يقتضيه اتساق الضمائر واتحاد المتحدث عنه، وهو قول الجمهور [٣].

وقُدِمَ: {على ذلك} على متعلقه: {شهيد} للدلالة على الاهتمام والتَّعجب من هذا العيب الَّذي لا ينكره الإنسان.

وحذف متعلق {شهيد} لدلالة المقام عليه، أي: إن الإنسان لشهيد على نفسه بالكنود، ورجَّح غير واحد هذا التقدير؛ لأنَّ الضمير بعده في قوله تعالى: {وإنَّه لحب الخير لشديد} يعود على الإنسان كذلك، فيجب أن يعود ما قبله على الإنسان أيضاً، وقيل: تقدير الكلام في الآية أنَّ الله شهيد على كنود الإنسان؛ لأنَّ الضمير يعود على

---

١ ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/٣٠/٤٤٣.
٢ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ/٢/٨٢٦.
٣ ـ ينظر: السَّابق.

(الرَّب) وهو أقرب مذكور [1]. وضعَّف ابن القيم هذا التَّقدير الأخير؛ لأنَّ سياق الضمائر لا يؤيد ذلك [2].

ويعطف على هذا الخبر خبرٌ أخر؛ ليؤكد ما فيه من حُكم، ويعلله؛ وذلك قوله تعالى: {وإنَّه لِحُبِ الخيرِ لشديدٌ} بدأت الآية بحرف التَّوكيد الَّذي جاء اسمه ضمير الغائب العائد على الإنسان في الآية السَّابقة، وقُدم التَّابع {لحب الخير} على خبر (إنَّ) للاهتمام به فهو السَّبب الرئيس في كنود الإنسان، لذا قيل: اللَّام في {لِحُبِ الخير} لام التَّعليل، والخير: المال، كما نجد أنَّ قوله تعالى {لِحب الخير} قُدِّم على متعلقه {لشديد} للاهتمام بغرابة المتعلق ومراعة الفاصلة [3].

ويأتي مكمن غرابة المتعلق من تقديم الإنسان لشهوة نفسه على رضا ربه [4].

ويستوقفنا للتأمل مجيء الخبر: {لشديد} مسبوقاً بلام التَّوكيد، زيادة في تأكيده. وقد جيء به على وزن (فعيل) الَّذي أضاف إلى معنى الشِّدة معاني جديدة فقد دلَّ على الكثرة؛ لأنه وزن مبالغة، وعلى الدَّوام؛ لأنَّه صفة مشبَّه باسم الفاعل. فسبحان منزِّل القرآن الكريم.

قال الشنقيطي: الخبر عام لكنَّه في الآية خاص بالمال، فهو من العام الَّذي قصد به الخاص، أو هو من قصر العام على بعض أفراده [5].

ويأتي الإنكار الشَّديد بقوله تعالى: {أفلا يعلم إذا بُعثرَ ما في القبور. وحصِّلَ ما في الصدور}. قيل: قد فُرِعَ هذا على الإخبار بكنود الإنسان وشُحِه، فإنَّه أمرٌ عجيب كيف يغفل عنه الإنسان، وقد قُدِمَتْ همزة الاستفهام على فاء التَّفريع؛ لأنَّ للاستفهام صدر الكلام [6].

يقول السِّعدي أي: هلا يعلم هذا المغتر {إذا بعثر ما في القبور} أي: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم [7].

وجاء انتصاب: {إذا} على الظرفيَّة لمفعول {يعلم} المحذوف اقتصاراً، ليذهب الذِّهن في تقديره، كُلَّ مذهب ممكن؛ وذلك قصداً للتهويل [8].

---

[1] ـ ينظر: التَّفسير الكبير لفخر الدِّين الرَّزي/٢٦٢/١١
[2] ـ ينظر: التِّبيان في أقسام القرآن/٥٥
[3] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٤٤٥/٣٠.
[4] ـ ينظر: السِّعدي/١١٢٤.
[5] ـ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي/ ٤٥٣/٩.
[6] ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/٤٤٦/٣٠. بتصرف.
[7] ـ ينظر: تفسير السِّعدي:٩٣٣.
[8] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٤٤٦/٣٠.بتصرف.

وما زاد في رهبة الموقف بناء الفعل {بُعْثِرَ} للمفعول الَّذي تدور مادته حول التَّفريق والإثارة والإخراج (١).

وتبرز المناسبة بين أصوات الكلمة وما تدل عليه من حيث مناسبتها لأجزاء الحدث، فـ(الباء) و (العين) القويتان تناسبان عمليَّة الإخراج، و(الثَّاء) برخاوتها وهمسها تناسب عمليَّة الإثارة والتَّفريق، وتكرار صوت (الرَّاء) يناسب تكرار هذين الحدثين [٢]. وقد عُبِّر عن العقلاء من النَّاس المدفونين في القبور بـ(ما) الموغلة في الإبهام؛ زيادة في التَّهويل.

ويأتي قوله تعالى: {وحُصِّلَ ما في الصدور} مبتدأ بالفعل: {حُصِّل} بالبناء للمفعول زيادة في تصوير الموقف الرَّهيب واندهاش النَّاس بتلك الأحداث المفزعة.

وكلمة {حُصِّل} تعني: جمع وأَحصي. وما في الصُّدور هو ما في النُّفوس من ضمائر. أي: جُمع عَدُّه والحساب عليه [٣]؛ فظهر وبان ما استتر في الصُّدور من كمائن الخير والشَّر، فصار السِّر علانية، والباطن ظاهر وبان على وجوه الخلق نتيجة أعماله [٤].

وقد ذُيِّلت السُّورة الكريمة بقوله تعالى: {إنَّ ربهم بهم يومئذٍ لخبير} جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن الإنكار، لتذكير الإنسان أنَّ مآله إلى الله ﷻ فيعمل لذلك اليوم، وقد جاء هذا الخبر كناية عن العقاب والثواب بقرينة تقييده بالظرف {يومئذٍ}[٥].

وتقديم قوله تعالى: {بهم} على عامله وهو: {لخبير} للاهتمام به ليعلموا أنَهم المقصودون بذلك ودخول الكافرين في علمه ﷻ [٦]. وقد خصَّ الوقت في قوله تعالى: {يومئذٍ} بالذِّكر للتأكيد على يوم المجازاة [٧]. ذلك اليوم الَّذي الملك فيه لله وحده لا شريك له ﷻ . يقول الفخر الرَّازي: أو لتوبيخ عباده، فمن كان عالماً في الأزل، كان خبيراً في الأبد [٨].

والله أعلم وأحكم وصلى الله على نبينا "محمد" وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

١ ـ ينطر: لسان العرب "بعثر" بتصرف
٢ ـ ينظر التَّصوير القرآني في جزء عمَّ /٢/٨٢٦.
٣ ـ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور/٣٠/٤٤٦.
٤ ـ ينظر: السعدي/٩٣٣.
٥ ـ ينظر التحرير والتنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٤٤٧.
٦ ـ ينظر السَّابق. بتصرف.
٧ ـ ينظر المحرر الوجيز لابن عطية /١٦/ ٣٥٥.
٨ ـ ينظر التفسير الكبير:١١/ ٢٦٣.

سورة القارعة

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ

بين يدي السُّورة المباركة:

اتفقت المصاحف وكتب التَّفسير وكتب السُّنة على تسمية هذه السُّورة "سورة القارعة" ولم يُروَ شيءٌ في تسميتها من كلام الصَّحابة والتَّابعين، وقد اتفق على أنَّها مكيَّة ومن أهم ما جاء فيها: إثبات البعث وما يسبقه من الأهوال وإثبات الجزاء بالأعمال صالحها وطالحها بنعيم أو بجحيم (١).

ربطها الإمام البقاعي قائلاً: لما كانت تفوق الوصف في عظم شأنها وجليل سلطانها عبر عن ذلك وزاده عظماً، بالاستفهام إلى أنَّها مما يستحق السُّؤال عنه على وجه التَّعجب والاستعظام فقال: {ما القارعة}. فلما قال ﷻ {أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور. وحصِّل ما في الصدور} كان ذلك مظنَّة لأن يسأل: متى ذلك؟ فقيل: يوم القيامة الهائل الأمر، والقيامة هي القارعة (٢)

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

بدأت السَّورة المباركة بأقوى كلمة فيها: {القارعة} وهي مشتقة من القرع؛ وهو الضَّرب بشدَّة على الأجسام حتَّى يحدث صوتاً شديداً، ثمَّ سُميت كُلُّ حادثة عظيمة بالقارعة (٣).

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٤٤٨. بتصرف

٢ ـ ينظر: نظم الدُّرر /٢٢/ ٢٢٠وما بعدها.

٣ ـ ينظر: التَّفسير الكبير لفخر الدِّين الرَّازي/١١/٢٦٥.

إذن تدور مادة الكلمة حول القوة والاضطراب والهول (١).

يقول الطَّبري: (القارعة هي ساعة القيامة الَّتي تقرع القلوب بوقعها وأهوالها) (٢). أو العذاب أو صيحة قيام السَّاعة (٣).

وتبرز المناسبة بين أصوات الكلمة وما تدلُّ عليه من حيث قوة أصواتها المناسبة لقوة القرع وهوله، هذا بالإضافة إلى مناسبة نصاعة حرف (العين) لنفاذ أمر القيامة، وتكرار حرف (الراء) لتكرار القرع، وتأتي (هاء) الوقف المنقلبة عن (التاء) وهي صوت ضعيف لتقابل نهاية القرع (٤). إذن كان الافتتاح بلفظ: {القارعة} افتتاح مهول، وفيه تشويق إلى معرفة ما سيخبر به.

وجاءت كلمة {القارعةُ} مرفوعة إمَّا على الابتداء، وقوله تعالى: {وما القارعةُ} خبر ويكون منتهى الآية فالمعنى: القارعة شيءٌ عظيمٌ. وإمَّا أن يكون: {القارعةُ} الأولى كلام مستقلاً بنفسه، فيقدر خبرٌ عنه محذوف نحو: القارعة قريبة، أو يقدر فعل محذوف نحو: أتت القارعة. ويكون قوله تعالى: {ما القارعة} استئناف للتَّهويل؛ لأن هولَ الشَّيءِ يستلزم تساؤل النَّاس عنه (٥).

وقد عُدِلَ عن الإضمار إلى الإظهار عندما أعيد ذكر: {القارعة} تأكيداً وتقريراً للتَّهويل (٦).

ثمَّ زاد في تفخيم شأنها بسؤال الدِّراية في وقوله تعالى: {وما أدراك ما القارعة} بصيغة الاستفهام المكرر مرتين زيادة تهويل أمر القارعة، فالاستفهام {ما أدراك} مستعمل في تعظيم حقيقتها وأهوالها. و {ما القارعة} استفهام آخر مستعمل في حقيقته، أي ما أدراك جواب هذا الاستفهام. وسد الاستفهام مَسدَّ مفعولي {أدراك} (٧). وقد اتضح بهذا السُّؤال أنَّها قارعة فاقت كُلَّ القوارع في شدَّة أهوالها.

ومن عجيب الإعجاز القرآني أن يتكرَّر هذا النَّسيج الصَّوتي المتجانس ثلاث مرات في ثلاث آيات متتاليات؛ ليضفي عليها جوّاً من الخشية والخوف، فيتولد الاستعداد لهذا اليوم (٨). وفيه تأكيد وإثبات ليوم البعث الَّذي أكثر النَّاس لاهون عنه. وعليه جاء

---

١ ـ ينظر: لسان العرب "قرع".
٢ ـ ينظر: جامع البيان/ ٣٤٠/٣٠.
٣ ـ ينظر: النكت والعيون للماوردي/٣٢٧/٦.
٤ ـ ينظر: التصوير القرآني في جزء عمَّ، لأناهيد جمال حريري. /٨٥٦/٢.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٤٤٨/٣٠. وما بعدها بتصرف.
٦ ـ ينظر: فتح القدير للشوكاني/٦١٨.
٧ ـ ينظر: فتح القدير للشوكاني/٦١٨.. بتصرف.
٨ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ/ أناهيد جمال حريري. /٢/ ٨٥٦.

تفصيل بعض أحوال القارعة في قوله تعالى: {يوم يكون النَّاس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش} وبذلك اتضح الإبهامان السَّابقان في قوله تعالى: {ما القارعة. وما أدرك ما القارعة} [١].

وقوله تعالى: {يوم يكون النَّاس كالفراش المبثوث} جملة وقعت في محل جر بإضافة الظرف (يوم) إليها [٢].

ويستوقفنا للتأمل تشبه النَّاس يومئذٍ بأضعف المخلوقات وأقلها دراية وأكثرها تخبطاً وحيرة؛ وعلاوة على ذلك سعيها الحثيث إلى هلاكها.

يؤكده الزمخشري بقوله: شبههم (النَّاس) بالفراش في: الكثرة والانتشار والضعف والذِّلة والتَّطاير إلى الداعي من كُلِّ جانب، كما يتطاير الفراش إلى النَّار [٣].

وقد رُسِمَت صفة الفراش بكلمة: {المبثوث} صورة واضحة متحركة في الأذهان لما تحمل من معنى التَّفرق والانتشار بأوضح ما يكون. ذلك ما أبرزته أصوات الكلمة بجانب معنها.

فـ(الميم) و(الباء)، بقوتهما تقابلان القوة الدَّافعة للبث والتَّفريق، و (الثاء) المتكرِّرة مرتين وبينهما (الواو) الَّتي تمثل امتداد – بما فيها من ضعف، كُلُّ ذلك يقابل ملمح الضَّعف في الذِّلة والانتشار والتَّطاير إلى الدَّاعي بلا نظام [٤].

وزاد في إبراز هول الصَّورة بالانتقال إلى قوله تعالى: {وتكون الجبال كالعهن المنفوش) أتت هذه الآية اعتراض بين جملة: {يوم يكون النَّاس كالفراش المبثوث} وجملة: {فأمَّا من ثقلت موازينه} وهو إدماج لزيادة التَّهويل.

وإعادة كلمة {تكون} مع حرف العطف للإشارة إلى اختلاف الكونين؛ لأنَّ أولهما كون إيجاد، والثَّاني كون اضمحلال، وكلاهما علامة على زوال عَالم وظهور آخر، ووجه الشَّبه تفرُّق الأجزاء؛ لأنَّ الجبال تندك دكاً [٥].

فالجبال بضخامتها وصلابتها تتحول إلى شيء خفيف ضعيف متطاير بقدرة الخاق العظيم؛ وذلك لأنَّ العهن الَّذي وصفت به هو: الصُّوف، ووصفه بالمنفوش زاد في

---

١ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠، ٤٥٠.
٢ - ينظر: حدائق الروح والريحان للشافي/٣٢/٢٧٤.
٣ - ينظر: الكشَّاف/٤/٧٨٩.
٤ - ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ. أناهيد جمال حريري/ ٨٥٦/٢.
٥ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٤٥١

تصوير ضعفه وخفته وتطايره؛ مما يزيد من هول ذلك اليوم الَّذي وصف بأنَّه مجموع له النَّاس ويوم مشهود.

وتبرز المناسبة بين أصوات الكلمة وما تدلّ ُعليه من حيث صوتي: (الميم) و(النُّون) القويتين المقابلة للقوة الَّتي تُحدِث النَّفش، كما برزت ملامح الضَّعف على صوت (الفاء) وبعدها (الواو) الَّتي هي بمثابة امتداد لها؛ لتقابلان الضعف المترتب على تلك القوة، ثمَّ تأتي (الشِّين) بتفشيها؛ لتقابل نهاية عملية النَّفش وانتشاره [١].

وهكذا أظهر هذا التَّشبيه حال الجبال يومئذ بالصُّوف المنفوش؛ لأنَّها تصير كالهباء بعد رزانتها [٢]. وجاء كلا التَّشبيهين السَّابقين تشبيه مرسل مُجمل [٣].

ويأتي تفصيل ما أجمل من حال النَّاس في يوم القارعة بقوله تعالى: {فأمَّا من ثقلت موازينه. فهو في عيشةٍ راضية. وأمَّا من خفت موازينه. فأمُّهُ هاوية} فتبين انقسام النَّاس إلى فريقين لا ثالث لهما، في مقابلة واضحة بينهما.

وكُني عن الفريق الأول: بثقل الموازين؛ لكثرة الحسنات والأعمال الصالحة [٤]. وعن الثَّاني بخفة الوزن لكثرة السَّيئات [٥]. وقد وصفت حياة من ثقلت موازينه بأنَّه: {في عيشة راضية} أي: منسوبة إلى الرِّضا، كأنَّ العيشة رضيت بمحلها، أو هو من قبيل الإسناد المجازي [٦].

وذهب الإمام الشِّنقيطي إلى أنَّ الإسناد على الحقيقة، وعلى هذا يكون المراد: عيشة راضية أهلها بما فيها من معاني النَّعيم [٧].

كما وصفت حال من خفت موازينه في قوله تعالى: {فأمُّهُ هاويَةٌ}، يقول فيه الطَّبري: المراد هاوٍ في نار جهنَّم: مأواه، أو هاوٍ على أمِّ رأسه، أو هاوية أمُّه لِمَا سيصيبه من شِدَّة وكرب [٨]؛ فسميت النَّار على التَّفسير الأول أُمَّاً؛ لأنَّها مأوى الكافر، كما أنَّ الأم هي مأوى الولد ومفزعه [٩].

---

١ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء همَّ/ أ أناهيد جمال حرير/ ٢/ ٨٥٦. بتصرف
٢ ـ ينظر: معاني القرآن للفراء/٣/٢٨٦. بتصرف
٣ ـ ينظر: صفوة التَّفاسير للصَّابوني/٣/٥٩٧
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٤٥٢
٥ ـ ينظر: صفوة التَّفاسير/٣/٥٩٧.
٦ ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري/٢٩.
٧ ـ ينظر: أضواء البيان/٩/٤٦٢.
٨ ـ ينظر: جامع البيان/٣٠/٣٤٢.
٩ ـ ينظر: تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة/١٠٤.

ولعل ذلك بالقول: لأنَّ نار جهنَّم تحيط بالكافر بعذابها ونيرانها إحاطة الأم بابنها، وفي ذلك وعيد للكافرين وتهكم وسخرية في ذات الوقت [1].

وأرى فوق ما قيل عن هذه الصُّورة التي تهز القلوب؛ أنّ هذه الآية تجسد تلهف الهاوية (النَّار) على عقاب الكافر تلهفاً شديداً؛ فقد قال عنها المولى ﷻ: {تكاد تميز من الغيظ} [الملك:٨] قال تعالى: {إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً} [الفرقان:١٢]. وكل ذلك تلهفاً على عقابهم، نسأل الله السَّلامة والعافية من سوء المصير.

وعليه سميت بالهاوية لِمَا ترسمه هذه الكلمة في ذهن المتلقي من صورة السُّقوط العنيف إلى عالم سحيق مليء بالأهوال التي لا يعلم كنهها إلا الله ﷻ. والله أعلم.

وعليه جاءت الآية التَّالية لها تحمل استفهاماً عن هذه الهاوية بقوله تعالى: {وما أدرك ماهيه} إمعاناً في تهويل شأنها [2].

وجاء تقرير ما كان مبهماً بقوله تعالى: {نارٌ حامية} وزيادة في الاهتمام حذف المسند إليه (المبتدأ)، إذ التَّقدير: هي نارٌ حامية، لافتتاح الجملة بكلمة {نارٌ} لما لهذه الكلمة من قوَّة رسم صورة هذا العذاب الشَّديد في ذهن المتلقي.

كما نجد نوعاً من المحسنات البديعيَّة في هذه السُّورة المباركة عند مقابلة حال الفريقين حيث حذف من الأول: (فأمُّه الجنَّة) وذكر بدل عنها: {فهو في عيشة راضية}، وحذف من الثَّاني: (فهو في عيشة ساخطة) وذكر: {فأمُّه هاوية} وبذلك حذف من كُلِّ نظير ما أثبته في الآخر [3].

كما يستوقفنا تسمية النَّار بإحدى صفاتها: {هاوية} زيادة في تصوير شِدَّة عذاب الكافر وهو يهوي إلى ذلك الجحيم البعيد القرار. نسأل الله اللطف والسلامة والعافية.

والله أعلم وأحكم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

١ ـ ينظر: الفوائد الجمَّة /أبو النَّجا/٢٥١. بتصرف.
٢ ـ ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي/٣٣٨/٢
٣ ـ ينظر: نظم الدُّرر للبقاعي/٢٢٣/٢٢، ٢٢٤.

سُورَة التَّكَاثُر

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝8

بين يدي السُّورة المباركة:

سميت في معظم المصاحف ومعظم التَّفاسير "سورة التكاثر" وكذلك عنونها التِّرمذي في "جامعه" وسُميت في بعض المصاحف "سورة ألهاكم" وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التَّفسير من "صحيحه" [١].

وجاء في سبب نزولها أنَّ حيَّين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم كان بينهما تفاخرا وتعادُّوا السَّادة والأشراف من أيهم أكثر عدداً [٢].

وقد اشتملت على التَّوبيخ على اللهو عن النَّظر في دلائل القرآن ودعوة الإسلام بإثار المال والتَّكاثر به والتَّفاخر بالأسلاف وعدم الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا في القبور، وحثهم على التَّدبر فيما ينجيهم من الجحيم. وأنَّهم مبعوثون ومسؤولون [٣].

يربطها الإمام البقاعي قائلاً: لما أثبت في القارعة أمر السَّاعة وقسم النَّاس فيها إلى شقي وسعيد وختم بالشقي افتتح هذه بعلة الشَّقاء ومبدأ الحشر ليزجر السَّامع عن هذا السبب ليكون من القسم الأول؛ فقال ما حاصله: انقسمتم فكان منكم هالكٌ؛ لأنَّه {ألهاكم} أي: أغفلكم إلا النادر منكم غفلة عظيمة عن الموت الَّذي هو وحده كافٍ في البعث على الزهد، فكيف بما بعده [٤].

ـ

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور:٣٠/ ٤٥٥.
٢ ـ ينظر: أسباب النزول للواحدي/٢٦٦، وكذا أسباب النزول للسيوطي/٣٦٨. بتصرف
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٤٥٦.
٤ ـ ينظر: نظم الدرر/ ٢٢/ ٢٢٥. بتصرف.

الدِّراسة البلاغية التَّحليليَّة:

تبدأ السُّورة الكريمة بجملة خبرية تصويريَّة بقوله تعالى: {ألهاكم التَّكاثر} فحملت هذه الجملة الفعليَّة أهم محاور السُّورة، وفي الوقت نفسه صوِّرت التِّكرار لِمَا تدلُّ عليه الجملة الفعلية من معنى؛ وفعلها: {ألهاكم} أتى بالزمن الماضي ليفيد تأكيد الحدث. والمعنى: (أي شغلكم عمّا يجب الاشتغال به؛ لأنَّ اللهو شغلٌ يصرف عن تحصيل أمرٍ مهم) [١] . ومادة هذه الكلمة تدور حول: اللَّعب والانشغال والنسيان [٢].

ولتصوير تلك القوة الصَّارفة عن الشَّيء المطلوب لصالح الدُّنيا والآخرة، بدأت الكلمة بـ(الهمزة) وتلتها الـ(لام)، وكلا الحرفين يحمل القوة، وتأتي بعدهما الـ(هاء) الضَّعيفة بهمسها ورخاوتها، والألف الَّتي تعد امتداداً لها فتمثلان حدث الانصراف والانزلاق في اللهو دون وعي [٣].

ويفاجئنا الفاعل بقوله تعالى: {التَّكاثرُ} بوزنه الثَّقيل: (التَّفاعل) وبما يحمل من الدَّلالة على نماء العدد ونقيض القِلَّة [٤].

وقد حُذِفَ المُتكاثر به للمبالغة في شأن المتكاثر؛ فدلَّ على عمومه في كُلِّ شيء المال، الأولاد، العشائر التِّجارة وكُلَّ ما يخص الحياة الفانية.

وأصوات حروف الكلمة تصوِّر هذا المعنى أدق تصوير، فالـ(تاء) المشدَّدة المغلقة الانفجارية، تليها الـ(كاف) بنفس صفاتها، والألف الَّتي تعدُّ امتداداً لقوَّتهما تصوِّر جميعها القوة الدَّافعة لهذا الحدث، ثمَّ يأتي صوت الـ(ثاء) بهمسها ورخاوتها ليمثل الانزلاق في التَّكاثر نفسه، وتختم الكلمة بالـ(رَّاء) المتكررة الَّتي تناسب تكرُّر هذا الحدث عبر الحياة، وإلى نهاية العمر [٥]. بدليل قوله تعالى: {حتَّى زرتم المقابر}.

بدأ هذا المقطع: {حتى زرتم المقابر} بحرف الغاية {حتَّى} فيحتمل أن يكون غاية الفعل {ألهاكم} أي: دام إلهاء التَّكاثر إلى أن زرتم المقابر، فالغاية هنا مستعملة في الإحاطة، أي حتَّى حللتم فيها. قيل: أريد بهذا القول التَّهكم من تكاثرهم بذكر موتاهم تفاخراً بهم وتكاثر لعددهم [٦].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٤٥٦/٣٠.
٢ ـ ينظر: لسان العرب/لابن منظور / مادة "لَه"
٣ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ أناهيد جمال حريري/ ٢ /٨٨٢، بتصرف شديد.
٤ ـ ينظر: (لسان العرب منظور "كثر"
٥ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ /٨٨٢/٢ بتصرف شديد
٦ ـ ينظر: الكشَّاف/٣٩٤/٤ بتصرف

أريد به: إلى أن مُتْم وقبرتم [1] فعبَّر عن الموت بالزيارة؛ لأنَّ أهل القبور مرتحلون عنها [2].

ويستوقفنا للتأمل التَّعبير بالفعل الماضي في: {زرتم} وذلك لتنزيل المستقبل منزلة الماضي؛ ليدل على تحقق وقوعه. وصيغة الخطاب في الفعل جاءت هزاً للمشاعر لتضع الشخص في مواجهة قويَّة مع نفسه لعله يرعوي ويعمل لآخرته.

وعليه فإنَّ في هذا الأسلوب تقريع وتوبيخ على إلهاء التَّكاثر عن طاعة الله، وقد قرئ: (أ ألهاكم التَّكثر) على الاستفهام [3].

والمراد من هذا الاستفهام - والله أعلم- التَّقرير [4]. أو التَّوبيخ [5]. أو الإنكار [6]. وقد رُجِّح الأسلوب الخبري على الإنشائي؛ لأنَّه أوقع في الزَّجر وأبلغ في الوعيد [7]

وهكذا اختزلت هاتان الآيتان (١، ٢) حياة الإنسان المليئة بالتَّكاثر مهما طالت، فإنَّها تنتهي، وتزول بموته [8]. وزيادة في تأكيد الحدث جاءت أفعال الآيتين بالزَّمن الماضي.

وهذا التَّوبيخ الَّذي استعمل فيه الخبر السَّابق أُتبع بالوعيد على ذلك بعد الموت، وبحرف الزجر والإبطال بقوله تعالى: {كلا سوف تعلمون} فأفادة {كلا} زجراً وإبطالاً لإنهاء التَّكاثر المذموم [9]

وجاءت: {سوف} لتحقيق حصول العلم. وحُذف مفعول {تعلمون} لظهور أنَّ المراد تعلمون سوء مغبَّة لهوكم بالتَّكاثر عن قبول دعوة الإسلام [10].

ولإرادة التَّغليظ في الزَّجر كُرِّر الرَّدعُ بقوله تعالى: {ثمَّ كلا سوف تعلمون} لتأكيد الزَّجر وتحقيقه، لعل القلوب القاسية والنُّفوس اللاهية تستيقظ من غفلتها.

---

١ ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة: ١٦/ ٣٥٩.

٢ ـ ينظر: نظم الدُّرر للبقاعي/٢٢/٢٢٦.

٣ ـ ينظر: إعراب القراءات السبع وعللها / ابن خلويه/ ٢/٥٢٤

٤ ـ ينظر: الكشَّاف/٤/٧٩٢. وكذا الدر المصون للحلبي/٦/٥٦٥. وكذا المحرر الوجيز /١٦/٣٥٨.

٥ ـ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان/٨/٥٠٦.

٦ ـ ينظر: الدُّر المصون للسمين الحلبي/٦/٥٦٥.

٧ ـ ينظر: التَّفسير البياني للقرآن الكريم عائشة عبد الرحمن/١/١٩٥.

٨ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ/٢/٨٩٥.

٩ ـ ينظر: جامع البيان للطبري/٣٠/٣٤٥. بتصرف.

١٠ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/٤٥٨.

حرف العطف: {ثمَّ} الَّذي بدأت به الآية أفاد أنَّ الإنذار الثَّاني أبلغ من الأول لتنزيل بُعد المرتبة منزلة البُعد الزماني [١].

ويستوقفنا متأملين إعادة الزَّجر لثالثَ مرة بقوله تعالى: {كلا لو تعلمون علم اليقين} قيل: زيادة في إبطال ما هم عليه من اللهو عن التَّدبر في أقوال القرآن الكريم لعلهم يقلعون عن انكبابهم على التَّكاثر [٢].

ونلحظ أنَّ جواب: {لو} في هذه الآية محذوف، وأحسب أنَّ حذفه يجعل النُّفوس تذهب في تقديره كلَّ مذهب ممكن [٣].

ومن ذلك ما قيل: أنَّه دلَّ عليه ما جاء في أول السُّورة، والمراد: لو تعلمون علم اليقن ما ألهاكم التَّكاثر [٤].

وقيل: أو محذوف على تقدير: لو تعلمون علم اليقين لفعلتم كلَّ خير، وتركتم ما أنتم عليه من الضَّلال [٥].

وإضافة {علم} إلى {اليقين} إضافة بيانيَّة فإنَّ اليقين علم، أي: لو علمتم علماً مطابقاً للواقع لبان لكم شنيع ما أنتم فيه، ولكن علمهم بأحوالهم جهل مركَّب من أوهام وتخيلات، وفي هذا نداء بالتَّقصير في اكتساب العلم الصَّحيح، وهو خطاب للمشركين الَّذين لا يؤمنون بالجزاء [٦].

والمقصود من هذه الإضافة التَّحقق والإدراك الواثق، وإزاحة كُلَ شك أو لبس. وفي هذا تهويل للعلم الَّذي سيعلمونه بعد فوات الأوان [٧].

ويتضح ما أبهم من الوعيد والإنذار بقوله تعالى: {لترونَّ الجحيم} تأكيداً للوعيد. وقد وقعت الجملة جواباً لقسم محذوف جيء به لتأكيد أنَّ ما وعدوا به لا مجال للشك فيه [٨].

يؤكد ذلك وجود (لام القسم، ونون التَّوكيد). وفي ذلك تفخيم بدليل صياغة الجملة واختيار كلمة الجَّحيم اسماً لمكان مصيره في الآخرة بما تحمل أصوات حروف الكلمة

---

١ ـ ينظر: روح البيان للبروسوي/١٠/٦٠٦.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٤٥٩).
٣ ـ ينظر: السَّابق بتصرف.
٤ ـ ينظر: معاني القرآن للكسائي/٢٥٩
٥ ـ ينظر: البحر المحيط/ لأبي حيان/ ٨/٥٠٦
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٤٥٩
٧ ـ ينظر: التَّصوير البياني لعائشة عبد الرحمن/ ١/٢٠٥.
٨ ـ ينظر: الكشَّاف للزمخشري/٤/ ٧٩٢.

من تصوير دقيق للمعاناة الشَّديدة لمن وقع فيها. نسأل الله السَّلامة والعافية من سوء المصير.

وجاء العطف بـ{ثم} في قوله تعالى: {ثمَّ لترونَّها عين اليقين} قصداً لتحقيق الوعيد بمعناه الكنائي [١]. وتغليظاً في التهديد [٢].

وهكذا عُطِفَ هذا التأكيد بـ{ثمَّ} الَّتي للتراخي الرتبي، وليس هناك رؤيتان تقع إحداهما بعد الأخرى [٣]. ولكنَّ العطف بـ(ثمَّ) صوَّر شِّدة وقع تلك الرؤية على النُّفوس الَّتي كانت لاهية في فترة حياتها الدُّنيا، وذلك من اختصاص عطف الجمل بـ(ثم) حيث إنَّ ما بعدها أقوى في المعنى وأمكن مما قبلها.

وعليه قيل: تكرار الفعل: (ترونَّ) إطناب، قصد به بيان شِدَّة الهول [٤]. وقد قيل: كُني برؤية الجَّحيم عن ذوق العذاب فيها، وهي من كنايات القرآن الشَّائعة[٥]

وفي قوله تعالى: {عين اليقين} قيل: اليقين الَّذي لا يشوبه تردد. وجاء لفظ {عين} مجاز عن حقيقة الشَّيء الخالصة غير الناقصة ولا المشابهة [٦].

ثمَّ أعقب التَّوبيخ والوعيد على لهوهم بالتكاثر عن النَّظر في دعوة الإسلام بقوله تعالى: {ثمَّ لتُسألُنَّ يومئذٍ عن النعيم} فجاء العطف بحرف {ثمَّ} الدَّال على التَّراخي الرُّتبي في عطف الجمل؛ من أجل أنَّ الحساب عن النَّعيم الَّذي هو نعمة من الله أشد عليهم؛ لأنَّهم ما كانوا يترقبونه، وتلبسهم بالإشراك وهم في نعيم أشد كفراً [٧].

وقد كُرِرَ القسم معطوفاً بقول تعالى: {لتسألنَّ} بدليل لام القسم، ونون التَّوكيد؛ وذلك لمحو اعتقادهم بأنهم لن يبعثوا ولن يسألوا. وعليه جاء الظَّرف: {يومئذٍ} مع حذف الجملة المضاف إليها لدلالة قوله تعالى السَّابق: {لترونَّ الجحيم} أي: يوم (إذ) ترون الجَّحيم فيغلظ عليكم العذاب [٨]. وفي ذلك زيادة في تعذيبهم لرؤيتهم مصيرهم الأبدي.

تستوقفنا كلمة: {النَّعيم} الَّذي هو أخص من النِّعمة بكسر النُّون، ومرادف للنَّعمة بفتحها. وقد ذهب عدد من المفسرين إلى أنَّ الخطاب مخصوص بمن عكف على

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٦٠.
٢ ـ ينظر: الكشَّاف/ ٧٩٢/٤.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٤٦٠.
٤ ـ ينظر: صفوة التَّفاسير للصابوني/٥٩٩/٣.
٥ ـ ينظر" تفسير جزء عمَّ لمحمد عبده/١١٤.
٦ ـ ينظر السَّابق.
٧ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير/٤٦١/٣٠. بتصرف.
٨ ـ ينظر: السَّابق. بتصرف.

استيفاء النِّعم، واللهو، لا يعبأ بسواهما؛ أمَّا من تمتع بنعمة الله تعالى وتقوى بها على طاعته، وكان ناهضاً بالشُّكر؛ فهو من ذلك بمعزل بعيد [1].

وأرجح الأقوال أنَّ النَّعيم المسؤول عنه أنَّه نعيمٌ عام؛ فيكون التَّعريف في الكلمة لاستغراق الجنس [2].

ومن الملاحظ أنَّ أفعال الآيات من [٣ـ ٨] جاءت بالزمن المضارع لِمَا له من قدرة على إحضار المشهد في ذهن المتلقي، إضافة إلى معنى استمرار الحدث الَّذي يحمله.

والله أعلم وأحكم. وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة العصر

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نسعين

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَفِى خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾

بين يدي السُّورة المباركة:

سُمِيتْ هذه السُّورة المباركة في عهد الصَّحابة الكرام " سورة العصر" وذلك ما ذكره الطَّبري في جامع البيان.

وكذلك سُميتْ في مصاحف كثيرة وفي معظم كتب التفسير، وسُميتْ في بعض كتب التَّفسير وفي "صحيح البخاري" "سورة والعصر" بإثبات الواو على حكاية أول كلمة فيها [3].

واشتملت على إثبات الخسران الشَّديد لأهل الشرك ومن كان مثلهم من أهل الكفر بالإسلام بعد أن بلغت دعوته، وكذلك من تقلد منها. وعلى إثبات نجاة وفوز الَّذين

---

[1] ـ ينظر: حاشية محي الدين شيخ زادة /٦٩٢/٤. وكذا حاشية الشِّهاب/ ٥/ ٨٣٩. وكذا إرشاد العقل السَّليم لأي السَّعود/٦٩/٩.
[2] ـ ينظر: التَّفسير الكبير للفخر الرَّازي/ ٢٧٥/١١. وكذا فتح القدير للشُّوكاني/٦٢٣/٥.
[3] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٦٣.

آمنوا وعملوا الصَّالحات والدَّاعين منهم إلى الحق وعلى فضيلة الصَّبر على تزكية النَّفس ودعوة الحق.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ اتخذوها شعاراً لهم في ملتقاهم، وعن الشَّافعي: لو تدبر النَّاس هذه السُّورة لوسعتهم. وفي رواية عنه: لو لم ينزل إلى النَّاس إلا هي لكفتهم. وقال غيره: إنَّها شملت جميع علوم القرآن [١]

ربطها البقاعي قائلاً: لما كانت لذَّة هذه الدُّنيا الظَّاهرة التَّنعم بما فيها من المتاع، وكان الإنسان مسؤولاً بما شهد به ختم التَّكاثر عن ذلك النَّعيم متوعداً برؤية الجحيم؛ فكان ساكن هذه الدَّار على غاية الخطر، وكان نعيمه في غاية الكدر، قال دالاً على ذلك بأنَّ أكثر النَّاس هالك، مؤكداً بالقسم والأداة لِمَا للأغلب من التَّكذيب لذلك إمَّا بالمقال أو بالحال: {والعصر} [٢].

<u>الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:</u>

بدأت الآية الكريمة بـ(واو) القسم في قوله تعالى: {والعصر} فهو المقسوم به. والقسم (يراد به تأكيد الخبر كما هو شأن أقسام القرآن الكريم) [٣].

قيل: العصر: الزَّمان الَّذي يقع فيه حَركات بني آدم، من خير وشر [٤]؛ لذا قيل: هو الدَّهر كُله، أقسم الله به لِمَا فيه من العجائب: أُمَّة تذهب وأُمَّة تأتي، وقدر ينفذ، وآية تظهر، وهو هو لا يتغير، ليلٌ يعقبه نهارٌ، ونهارٌ يطرده ليلٌ، فهو في نفسه عجبٌ [٥].

فالقسم به باعتبار أنَّه يذكِّر بعظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم وأحواله، وبأمور عظيمة مباركة مثل الصَّلاة المخصوصة. أو عصرٍ معين مبارك. وأشهر إطلاق لفظ العصر أنَّ ما بين آخر وقت الظهر وبين اصفرار الشَّمس، وفيه إيماء إلى التَّذكير بمثل الحياة حين تدنو آجال النَّاس بعد مضي أطوار الشَّباب والكهولة والهرم، وعليه أتى تعريفه بالـ(لَّام) على تعريف العهد الذِّهني أي كل عَصْر [٦].

ويجوز أن يكون المراد به عصر النَّبي ﷺ فالقسم به كالقسم بحياته في قوله تعالى: {لعمرك} [الحجر:٧٢]. فهو تعالى أقسم بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٦٣.
٢ ـ ينظر: نظم الدُّرر للبقاعي/٢٢ /٢٣٦.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٦٣
٤ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/ ٤٨٦/٦.
٥ ـ ينظر: أضواء البيان للشِّنقيطي/ ٢٥٢/٩,
٦ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٦٤.

تعالى: {وأنت حلٌ بهذا البلد} [البلد:٢]. وبعمره في قوله: {لعمرك}. ويجوز أن يراد به عصر الإسلام كُلِّه، وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالم (١).

وتأتي الآية الثَّانية جواباً للقسم تحمل في طياتها أقوى معنى ترتعد منه فرائص الموحدين بقوله تعالى: {إنَّ الإنسان لفي خُسر} التَّأكيد الَّذي بدأت به الآية أحدث في النَّفس رهبة من هذه النِّهاية المفزعة خاصة؛ إنَّه قيل: التعريف في كلمة: {الإنسان} تعريف الجنس، مراد به استغراق أفراد النَّوع الإنساني الموجودين زمن نزول الآية الكريمة. ولمَّا استثنى منه الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات بقي حكمه متحققاً في غير المؤمنين (٢).

وحرف الـ(لَّام) في قوله تعالى: {لفي خُسر} جاء لتأكيد لخبر (إنَّ) وأمَّا الظَّرف (في) شبَّه ملازمة الخسر للإنسان بإحاطة الظَّرف بالمظروف مع تصوير العمق في ذلك؛ فكانت ولا شك أبلغ من أن يقال: إنَّ الإنسان لخاسر (٣).

وقد جاءت كلمة الخُسر: بالمصدر، والمصدر يجمع كُلَّ تصاريف الكلمة. وهو أصل الحدث، ولا يخفى أنَّ معناه يأتي بضد الربح في التِّجارة استعير هنا لسُوء العاقبة لمن يظن لنفسه رَبِحَ العاقبة الحسنة تغافلاً أو استعلاءً أو كبراً.

ومجيء هذا الخبر على العموم مع تأكيده بالقسم وحرف التوكيد في جوابه، يفيد التهويل والإنذار بالحالة المحيطة بمعظم النَّاس (٤).

قيل: الخسار مراتب متعددة متفاوتة؛ قد يكون خاسراً مطلقاً؛ حال من خسر الدُّنيا والآخرة، وفاته النَّعيم واستحق الجَّحيم.

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض؛ ولهذا عمم الله الخسار لكُلِّ إنسان إلا من اتصف بأربع صفات:

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به. والعمل الصَّالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها الظَّاهرة والباطنة المتعلقة بحق الله، وحق العباد الواجبة والمستحبة. والتَّواصي بالحق، الَّذي هو الإيمان والعمل الصالح. والتَّواصي بالصَّبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله

١ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٦٤. بتصرف.
٢ ـ ينظر: السَّابق.
٣ ـ التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٦٦.
٤ ـ ينظر السَّابق/٣٠/٤٦٧.

المؤلمة؛ فبالأمرين الأولين يكمِّل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمِّل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون الإنسان قد سلم من الخسارة، وفاز بالربح العظيم [١].

و أعقبه ﷻ بالاستثناء بقوله: {إلا الَّذين آمنوا} الآية فيتقرر الحكم تاماً في نفس السَّامع مبيناً أنَّ النَّاس فريقان: فريق يلحقه الخسران، وفريق لا يلحقه شيء منه، فالَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، لا يلحقهم الخسران بحال، إذا لم يتركوا شيئاً من الصَّالحات بارتكاب أضدادها وهي السيئات.

وعليه يقول ابن عاشور: هذا الخبر {إنَّ الإنسان لفي خُسر} مراد به الحصول في المستقبل بقرينة الإنذار والوعيد. وتنكير كلمة {خُسر} يفيد التَّعظيم والتَّعميم في مقام التَّهويل وفي سياق القسم [٢].

ويستوقفنا للتأمل قوله تعالى: {إلا الَّذين آمنوا} لأنَّ ﷻ أولاً استثناهم من فئة الخاسرين بأداة الاستثناء الَّتي تقدمت الجملة. وثانياً: أثبت لهم إيماناً وأكده في حقهم، وذلك ما قام به زمن الفعل الماضي {آمنوا} وفي هذا بشرى عظيمة تحمل خبر قبول إيمانهم من لدُن العليم الخبير. وصيغة الجمع فيه تصور كثرتهم ولله الحمد والمنَّة.

ويأتي برهان إيمانهم بقوله تعالى: {وعملوا الصَّالحات} أيضاً بالزمن الماضي الَّذي يفيد التَّأكيد، كما أنَّ تعريف كلمة {الصَّالحات} بلام الجنس دلَّت على استغراق جميع الأعمال الصَّالحة الَّتي أمروا بها أو ندبوا إليها، ولا شك أنَّ عمل الصَّالحات يشمل ترك السَّيئات.

وعطف على عمل الصَّالحات التَّواصي بالحق والتَّواصي بالصَّبر وإن كان ذلك من عمل الصَّالحات، فهو من باب عطف الخاص على العام للاهتمام به؛ لأنَّه يُغفل عنه، فالتَّواصي بالحق يشمل تعاليم حقائق الهُدى وعقائد الصَّواب وإراضة النَّفس على فهمها بفعل المعروف وترك المنكر بالأعمال قبل الأقوال؛ لأنَّ القدوة من أكبر مقومات التَّربية وتأثيرها أقوى على للعامة والخاصة.

وأيضاً نجد أنَّ التَّواصي بالصَّبر عطف على التَّواصي بالحق عطف الخاص على العام وذلك؛ لأنَّ الصَّبر تحمل مشقَّة إقامة الحق وما يعترض المسلم من أذى في نفسه في إقامة بعض الحق. وإفادة صيغة التَّواصي بالحق وبالصَّبر أن يكون شأن حياة

---

١ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٣٤.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/٤٦٧.

المؤمن قائماً عليهما، فيوصي بعضهم بعضاً بما تحمل صيغة (التَّفاعل) من معنى المشاركة؛ وبذلك تستقيم حياة الفرد المسلم؛ بل والمجتمع المسلم بكامله.

وقد صوَّر تكرار حرف (الراء) ثلاث مرات تكرار هذا الحدث الَّذي تحمله كُلُّ كلمة ذكر فيها؛ فـ{العصر} متكررة أحداثه جيل بعد جيل.

وقوله تعالى: {لفي خُسر} صور حرف (الراء) بما فيه من صوت التكرار تكرار وقوعهم في الخسران.

وكذلك صور هذا الحرف في كلمة {الصَّبر} تكرار هذا الحدث بما يشمل حياة الإنسان من أولها إلى منتهاها.

وذلك لِمَا لهذا الحرف من خاصيَّة التِّكرار عند نطقه للمرة واحدة. فكيف إذا تكرر في هذه السُّورة المباركة على قصرها ثلاث مرَّات.

والله أعلم وأحكم. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

.

.

.

سُورَةُ الهُمَزَة

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

وَيۡلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحۡسَبُ أَنَّ
مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ
﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ
﴿٨﴾ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾

بين يدي السُّورة المباركة:

سُميت هذه السُّورة المباركة في المصاحف ومعظم التَّفاسير "سورة الهمزة" بلام التَّعريف، وجاء عنونها في "صحيح البخاري" "سورة الحطمة" لوقوع هذه الكلمة فيها [١].

وجاء سبب نزولها ما أخرجه ابن المنذر عن ابن إسحاق قال: كان أميَّة بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ هَمَزَه ولَمَزَه، فأنزل الله: {ويلٌ لكُلِّ هُمزةٍ لمزةٍ} السُّورة كلها[٢].

فغرض هذه السُّورة وعيد جماعة من المشركين كانوا أقاموا أنفسهم لهمز المسلمين ولَمزهم وسبهم ضرباً من ضروب أذاهم طمعاً في أن يُلجئهم الملل من أصناف الأذى إلى الانصراف عن الإسلام والرُّجوع إلى الشِّرك [٣].

يربطها الإمام البقاعي بقوله [٤]: لما بين النَّاجين في قسمي الإنسان في العصر، وختم بالصَّبر؛ حصل تمام التَّشوف إلى أوصاف الهالكين؛ فقال تعالى: مبيناً لأضلهم وأشقاهم الَّذي الصَّبر على أذاه في غاية الشِّدة ليكون ما أعده له من العذاب مسلاة للصابرين: فبدأ بقوله قال تعالى: {ويلٌ} أي هلاك عظيم جداً {لكل همزةٍ لمزةٍ}.

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

افتتحت السُّورة المباركة بالدُّعاء على كُلِّ من يقترف هذه المعصيَّة؛ فقال تعالى: {ويلٌ لكل هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ}. وهي جملة خبريَّة لفظاً إنشائيَّة معنى؛ لأنَّ (كلمة "ويلٌ له" دعاء بأن يناله الويلُ وهو سوء الحال، ومستعمل هنا في الوعيد بالعقاب، وكلمة "كُل" تشعر بأنَّ المُهَددين بهذا الوعيد جماعة؛ وهم الَّذين اتخذوا هَمز المسلمين ولَمزهم ديدناً لهم [٥].

وفي لسان العرب: (هُمَزَة) تدور مادتها حول: الغمز والعيب في الغيب. و(لُمَزَة) حول الغمز والعيب في الوجه [٦]. وكلا الكلمتين تحمل غيبة النَّاس والغض منهم [٧]

ويستوقفنا للتأمل مجيء: كلمة (هُمَزَة) بوزن (فُعَلَة) صيغة تدلُّ على كثرة صدور الفعل المُصاغ منه. وأنَّه صار عادة لصاحبه كقولهم: ضُحَكة لكثرة الضحك، ولُعَنَة لكثير اللعن، وأصلها: أنَّ صيغة فُعَل، فإذا أُريدتْ زيادة المبالغة في الوصف أُلحق به

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٤٧٠.
٢ ـ ينظر: أسباب النزول للسُّيوطي/٣٧٥.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٤٧٠/٣٠.
٤ ـ ينظر: نظم الدُّرر/٢٤٣/٢٢.بتصرف.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٤٧٠/٣٠.بتصرف.
٦ ـ لسان العرب لابن منظور/مادة" همز"
٧ ـ ينظر: جامع البيان للطبري/ ٣٠/ ٣٥٤.

وحرف (التَّاء) المربوطة كما أُلحقت في: علَّامة، ورحَّالة، لتفيد كثرة ذلك منه حتَّى صار عادة. فجاءت صيغة (فُعَلَة) لتدل على تمكن الوصف من الموصوف. وهاذان الوصفان من معاملة أهل الشِّرك للمؤمنين يومئذ، ومن عامَلَ من المسلمين أحداً من أهل دينه بمثل ذلك كان له نصيب من هذا الوعد (١).

وجاءت الآية الثَّانية حاملة صفة سيِّئة أخرى له وذلك بقوله تعالى: {الَّذي جَمَعَ ملاً وعدده} زيادة في تشنيع صفتيه الذميمتين بصفة الحرص على المال (٢). وقد كان وما زال الشُّح بالمال من أبغض الصِّفات عند الله ﷻ وعند جميع خلقه.

وذكره بالاسم الموصول: {الَّذي} أحضر في الَّذهن صفتيه السَّابقتين مع تلبسه بالصِّفة الجديدة التَّي تحملها جملة الصِّلة: {جمع مالاً وعدده}.

وجاء الفعل: {جمع} بزمنه الماضي دلالة على تأصيل هذه الصفة فيه فمن قادم عهده وهو هو معروف بها.

أمَّا مجيء كلمة {مالاً} نكرة صوَّر كثرته مع عِظم قدره في نفس صاحبه؛ فنُكِّرَ (إشعاراً بتعظيم أثر هذا المال في الخبث والفساد) (٣).

ويؤكد حرصه عليه، ولهفته على زيادته قوله تعالى: {وعدده}؛ لأن حرف العطف (الواو) يدلُّ على تزامن الحدثين في الوقت.

كما يدل معنى: {عدده} على أنَه أكثر من عَدِّه أي حسابه لشدَّة ولعه بجمعه؛ فالتَّضعيف في الكلمة للمبالغة في (عدَّ)

ويؤكد تعلق قلبه به قوله تعالى: {يَحْسَبُ أنَّ ماله أخلده} فقلد منَّاه المال الأماني البعيدة حتَّى ظنَّ لفرط غفلته أنَّ ماله يتركه مخلداً في الدُّنيا (٤).

وقد قيل: أو تكون الآية تعريضاً بالعمل الصَّالح المخلد لصاحبه الأجر والذِّكر الحسن (٥).

يقول ابن عاشور: يجوز أن تكون جملة: {يحسب أنَّ ماله أخلده} حالاً من "هُمَزَة"؛ فيكون مستعملاً في التَّهكم عليه في حرصه على جمع المال وتعديده؛ فيكون الكلام من قبيل التَّمثيل، أو تكون الحال مراداً بها التَّشبيه وهو تشبيه بليغ (٦).

---

١ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور:٣٠/ ٤٧١. بتصرف
٢ ـ ينظر: السَّابق بتصرف
٣ ـ ينظر: التَّفسير الكبير للرازي/١١/ ٣٨٤.
٤ ـ ينظر: الكشَّاف للزمخشري/٤/ ٧٩٥.
٥ ـ ينظر: غرائب القرآن للنيسابوري/١٧٦/٣٠.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٤٧٣.

ويستوقفنا إظهار كلمه {ماله} الواقعة اسم "أَنَّ" في مقام إضمارها لأنَّ ذلك في قوله تعالى: {جمع مالاً} فكان حق الساق أن يكون "يحسب أنَّه أخلد" لكن شتان بين ما ذكر في القرآن وهذا؛ لأنَّ ذكر {ماله} وما أضيف 'ليه من ضمير الغائب صوَّر كثرة تمسكه بهذا المال وعمق اعتزازه به وحرصه عليه؛ لذا قيل: إنَّ ذكره زيادة في التَّقرير[١]. أو للتَّقريع والتَّوبيخ على حب المال المفرط الملهي [٢].

وجيء بصيغة الماضي في الفعل: {أخلده} فنُزِّل المستقبل منزلة الماضي دليلاً على تحققه عند، وذلك فيه زيادة تهكم به بأنَّه موقن بأنَّ ماله يخلده حتَّى كانَّه حصل إخلاده وثبت؛ بما يدل عليه زمن الفعل الماضي.

وللهمزة في {أخلده} دور التَّعدية، أي: جعله خالداً. فشبِّه حال من جمعوا المال بمن يحسب أنَّ المال يقيهم الموت، ويجعلهم خالدين؛ لأنَّ الخلود في الدُّنيا أقسى متمناهم[٣].

وهكذا منَّاه المال الأماني البعيدة حتَّى ظنَّ لفرط غفلته أنَّ ماله سيتركه مخلداً في الدُّنيا، وذلك يصور شِدة انشغال قلبه بحب المال، فلا يجد متسعاً للتفكير في الآخرة.

يقول السِّعدي: فلذلك كان كدُّه وسعيه كُلُّه في تنمية ماله، الَّذي يظن أنَّه ينمي عمره، ولم يدرِ أنَّ البخلَ يقصف الأعمارَ، ويخرِّب الدِّيار، وأنَّ البر يزيد في العمر [٤].

وعليه يأتي إبطال هذا الوهم الخادع بالرَّدع القاطع بقوله تعالى: {كلا} وفيه مع ذلك زجر قوي عن التَّلبس بهذه الحالة الشَّنيعة، كما إنَّه إبطال للحرص في جمع المال جمعاً يمنع حقوق الله فيه [٥].

فجاء قوله تعالى: {كلا ليُنبَذنَّ في الحطمة} إضراب عن كُلِّ ما تضمنته الجمل السَّابقة [٦]. وموقع هذه الجملة استئناف بياني ناشئ عنمَّا تضمنته جملة: {يحسب أنَّ ماله أخلده}.

وعليه يأتي الفعل: {لينبذنَّ} تتقدمه لام القسم، وتتصل به نون التَّوكيد، وأمَّا زمن المضارع فيه فقد صوَّر استمرار هذا النَّبذ، ولحرف الجر: {في} دورٌ مهم في الدَّلالةَ على الظَّرفيَّة. والظَّرف المحيط بهم {الحطمة}-نسأل الله السَّلامة والعافية-

فما هو النَّبذ؟، وما الحطمة؟

---

١ - ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/ ١٩٨، ١٩٩. بتصرف.
٢ - ينظر: فتح القدير للشوكاني/ ٦٢٩/٥.
٣ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير:٤٧٣/٣٠، ٤٧٤. بتصرف.
٤ - ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٣٤.
٥ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير:٣٠/ ٤٧٤.
٦ - ينظر: روح المعاني للألوسي/٣٠/ ٦٣٩.

قيل النَّبذ: الإلقاء والطَّرح، وأكثر استعماله في إلقاء ما يكره، وقد قيل في قوله تعالى: {فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم} [القصص:٤٠] شبههم استحقاراً لهم بحصيات أَخَذهُن آخذ بكفه فطرحهنَّ [١]. وفي ذلك إشارة إلى الانحطاط عن مرتبة الإنسانيَّة إلى مرتبة الجماد [٢].

ويأتي التَّشويق إلى معرفة حقيقة الحطمة بقوله تعالى: {وما أدراك ما الحطمة} كما أثار هذا الاستفهام في الوقت نفسه التهَّويل والتَّخويف [٣].

فما الحُطمة؟ تدور مادة هذه الكلمة حول كسر الشَّيء اليابس كالعظم ونحوه [٤]. وذهب المفسرون إلى أنَّ الحطمة من أسماء النَّار [٥]. سميت بذلك لحطمها كُلَّ من يُلقى في داخلها [٦]

فجاءت هذه الكلمة صفة بوزن فُعَلة، مثل ما تقدم في الهُمزة، فهي هنا بدل موصوفها. أي ليُنبذنَّ في شيء يحطمه، أي يكسِّره ويدقه. وأريد بذلك "جهنَّم" وجملة {وما أدراك ما الحطمة} في موضع الحال من قوله: {الحُطمة} الأولى، والرّابط إعادة لفظ "الحطمة"، وذلك إظهار في مقام الإضمار للتهويل، و "ما" فيها من الاستفهام، وفعل الدراية يفيد تهويل الحطمة [٧].

ويلاحظ أنَّ التَّعبير بالنَّبذ والحطم مناسب للتعبير بالهُمزة واللُمزة، فلمَّا كان الهمز واللَّمز كسراً لأعراض النَّاس وقلوبهم؛ قوبل بتحطيم العظام في الحطمة، ولَمَّا كان الهامز اللَّامز يظن لنفسه كرامة بسبب كثرة ماله، وظنه أنَّه مخلده، قوبل بالنَّبذ المنبئ بالاستحقار [٨].

وتأتي جملة: {نارُ الله الموقدة} جواب عن جملة: {وما أدرك ما الحطمة} مفيدة بمجموعهما بيان الحطمة ما هي، وموقع الجملة موقع الاستئناف البياني، والتَّقدير هي، أي: الحطمة نار الله الموقدة، فحُذف المبتدأ من الجملة جرياً على تقديم الحديث عنه وأوصاف له [٩].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٤٧٤.
٢ ـ ينظر: روح المعاني للبروسوي/ ٦١٤/١٠.
٣ ـ ينظر: فتح القدير للشُوكاني/ ٥/ ٦٢٩.
٤ ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور/ مادة "حطم"
٥ ـ ينظر: معاني القرآن للفراء/٣٠/ ٢٩٠/ وكذا معاني القرآن وإعرابه للزجاج/٣٦٢/٥.
٦ ـ ينظر: جامع البيان للطبري/٣٠/ ٣٥٧، وكذا النكت والعيون للماوردي/ ٦/ ٣٣٧. وكذا معالم التنزيل للبغوي/ ٥/ ٣٠٤.
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٤٧٤. بتصرف
٨ ـ ينظر: التَّفسير الكبير لفخر الدين لرَّازي/١١/ ٢٨٥، ٢٨٦.
٩ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٧٥.

ولا شك أنَّ الإضافة في قوله تعالى: {نار الله} إلى لفظ الجلالة الجامع لأسمائه وصفاته؛ فهذه الإضافة تشعر بالتهويل بالرهبة والتَّعظيم [1]، (بأنَّها نار خلقها القادر على خلق كافة الأمور العظيمة) [2]. وفي وصفها بـ{موقدة} تصوير على اشتعالها الدائم من قبل العظيم الجَّبار.

قيل: مع كثرة ذكر النَّار في القرآن الكريم لم تضف إلى الله ﷻ إلا في هذه السُّورة الكريمة؛ مما يشعر بفداحة الإنكار لفتنة المال. [3].

ثمَّ زاد تهويل شأنها بقوله تعالى: {الَّتي تطَّلعُ على الأفئدة}. يستوقفنا للتأمل في هذه الجملة الفعل: {تطَّلعُ}، قيل: الاطلاع يجوز أن يكون بمعنى الإتيان السَّريع بقوة والاستيلاء؛ فيكون المعنى: الَّتي تنفذ إلى الأفئدة فتحرقها في وقت حرق ظاهر الجسد. وأن يكون بمعنى الكشف والمشاهدة فيفيد أنَّ النَّار تحرق الأفئدة إحراق العالم بما تحتوي عليه الأفئدة من الكفر فتصيب كُلَّ فؤاد بما هو كِفاؤه من شِدَّة الحرق، وذلك بتقدير من الله مُقدِّره [4]. وقد خصَّت الأفئدة بالذِّكر دون الصُّدور أو النُّفوس؛ لأنَّها موطن العقائد الفاسدة والنيَّات الخبيثة [5].

ويزداد تهويل شأن هذه النَّار مزيد من الوصف بقوله تعالى: {إنَّها عليهم مؤصدة. في عمدٍ مُمَدَّدة} لا شك أنَّ ما يحمله ذلك الوعيد الشَّديد يهز قلب كُلَّ واعي يقرأ، أو يسمع حيث يشاهد بعين قلبه عظم هذا العذاب الَّذي يصوره تركيب هذه الجملة المعجزة، ومنه: مجيء الخبر مؤكداً بـ(إنَّ) الَّتي تصور حتميَّة وقوع هذا الحدث، وتؤكد الوعيد الشَّديد بهذا المصير لكُلِّ من ارتكب تلك المعصية، فعود الضَّمير على الحطمة يحضرها في ذهن المتلقي الفطن، كما أنَّ (تقديم الجار والمجرور: {عليهم} على متعلقه: {مؤصدة} يؤكد على أنَّهم المقصودون بهذه الحالة [6].

كما دلَّ التَّعبير بالإيصاد على وجود الأبواب، مما يزيد من شعور المُوصَدين داخل نَّار الله بالحسرة والنَّدامة [7]؛ لأنَّ كلمة: {مؤصدة}: اسم مفعول من أوصد الباب، إذا أغلقه غلقاً مطبقاً، فدلَّ إيصادها عليهم: ملازمة العذاب واليأس من الإفلات [8].

---

[1] ـ ينظر: التَّفسير الكبير للفخر الرازي / ٢٨٦/١١. بتصرف يسير.
[2] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٧٥.
[3] ـ ينظر التَّفسير البياني للقرآن الكريم للدكتورة عائشة عبد الرحمن. / ١٧٧/٢.
[4] ـ ينظر التَّحير والتَّنوير/٣٠/ ٤٧٥.
[5] ـ ينظر: الكشَّاف للزمخشري/٤/ ٧٩٦.
[6] ـ ينظر: التَّفسير الكبير للفخر الرَّزي/ ٢٨٦/١١.
[7] ـ ينظر: السَّابق.
[8] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٧٦.

وهذا يصوِّر عظم التَّنكيل بهم، وقد ناسب التَّعبير بإصاد أبواب النَّار في قوله تعالى: {عليهم نارٌ مؤصدة} إيصاد الهُمَزَة اللُّمزة على المال عند تعداده حُباً له وبخلاً به [1].

ويجيء قوله تعالى: {في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ} حال: إمَّا من ضمير: {عليهم} أي: في حال كونهم في عَمَدٍ، أي موثوقين في عمدٍ كما يوثق المسجون المغلظ عليه. وإمَّا حال من ضمير{إنَّها}، أي: النَّار الموقدة في عمدٍ [2]. والأول أرجح والله أعلم وأحكم.

والممدَّدة: المجعولة طويلة جداً، وهو اسم مفعول من مدده، إذا بالغ في مدِّه أي: الزيادة فيه [3]. وجملة الحال هذه يقول عنها الطَّبري: (استيثاق بعد استيثاق إيصاد الأبواب) [4]. ويقول: أو هي عمد يعذبون بها [5].

وكُلُّ هذه الأوصاف تقوية لتمثيل شِدَّة الإغلاظ عليهم بأقصى ما يبلغه متعارف النَّاس من الأحول [6] والحق أنَّ عذاب جهنَّم أشد مما يبلغه تصوُّر العقول. فلا يقادر قدره إلا الله ـ عزَّ وجلَّ. نسأل الله اللطف والسلامة والعافية آمين يا رب العالمين.

والله أعلم وأحكم، وصلى الله على سيدنا وإمامنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

سورة الفيل

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ﴿٢﴾ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ﴿٥﴾.

---

[1] ـ ينظر: روح المعاني للألوسي/ ٣٠/ ٦٤١.
[2] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير: ٣٠/ ٤٧٦.
[3] ـ ينظر السَّابق.
[4] ـ ينظر: جامع البيان/ ٣٠/ ٣٥٩.
[5] ـ ينظر: السَّابق.
[6] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٤٧٦.

بين يدي السُّورة المباركة:

هذه السُّورة المباركة وردت تسميتها في كلام بعض السَّلف {ألم تر}، وكذلك عنونها البخاري، وسميت في جميع المصاحف وكتب التَّفسير: سورة الفيل [١].

وقد تضمنت من الأغراض التَّذكير بأنَّ الكعبة حرم الله، وأنَّ الله حَماه ممن أرادوا به سوءاً، كذلك تنبيه قريش أو تذكيرهم بما ظهر من كرامة النَّبي ﷺ إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته، ومن وراء ذلك تثبيت النَّبي ﷺ بأن الله يدفع عنه كيد المشركين[٢].

يربطها الإمام البقاعي قائلاً [٣]: لما قدَّم في الهمزة أنَّ كثرة الأموال المسببة القوة للرِّجال ربما أعقبت الوبال، دلَّ عليه في هذه بدليل شهودي مشيراً إلى أنَّها كلَّمَا عظمت زاد ضررها بما يكسبه من الطُّغيان؛ حتَّى ينازع صاحبها المَلِك الأعلى؛ فقال مقرراً منكراً على من يخطر له خلاف ذلك: {ألم ترَ}.

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

بدأت أول آية فيها باستفهام تقريري فقال تعالى: {ألم تر كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل}. ومن خواص هذا النَّوع من الاستفهام إثبات المنفي. يقول ابن عاشور: (الاستفهام التَّقريري هنا مجاز بعلاقة اللُّزوم، مستعمل مجازاً في التَّكريم إشارة إلى أنَّ ذلك كان إرهاصاً للنَّبي ﷺ

وفيه مع ذلك تعريض بكفران قريش نعمة عظيمة من نعم الله ﷻ عليهم، وبذلك فإنَّ الخطاب للنَّبي [٤] ﷺ في قوله {تَرَ}. (كما يقتضيه قوله تعالى: {ربَّك}.
وقيل: أو يكون الخطاب عام لكُلِّ من يصلح له [٥].

فتكون الإضافة على الوجه الأول في توجه الخطاب لبيان شرف مكانته ﷺ عند ربِّه ونصرته له [٦].

والرؤية المذكورة في: {ألم تر} قد تكون مستعملة للعلم البالغ من اليقين حد الأمر المرئي، لتواتر ما فعل الله بأصحاب الفيل بين أهل مكَّة، وبقاء بعض آثار ذلك

[١] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٤٧٧/٣٠.
[٢] ـ ينظر: السَّابق.
[٣] ـ ينظر: نظم الدُّرر /٢٢/ ٢٤٩. وما بعدها. بتصرف.
[٤] ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٤٧٨/٣٠.
[٥] ـ ينظر: اللباب الحنبلي/٤٩٦/٢٠.
[٦] ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري/ ١٨١/٣٠.

يشاهدونه. ويجوز أن تكون بصريَّة بالنسبة لمن تجاوز سنَّه نيفاً وخمسين سنة عند ممن شهد حادث الفيل وهو فتى [1].

وجاء الاستفهام الثَّاني بقوله تعالى: {كيف فعل ربُّك...} مراداً به التَّقرير كذلك [2] وإيثار: {كيف} دون غيره من أسماء الاستفهام، أو الموصول؛ فلم يقل: ألم تر ما فعل ربك أو الذَّي فعل ربك، للدلالة على حالة عجيبة يستحضرها من يعلم تفصيل القصة [3]. ذلك لما لاسم الاستفهام "كيف" من خاصيَّة السؤال عن الحال.

ويأتي المشهد المقرر بقوله تعالى: {كيف فعل ربَّك بأصحاب الفيل}. ولاختيار كلمة: {فعل} مغزى بلاغي لأنَّ: (فعل) (حيث أطلقت في كلام الله فهي محمولة على الوعيد الشَّديد) [4]. وقيل أُوثر (فَعَلَ) دون غيره؛ لأنَّ مدلول هذا الفعل يعم أعمالاً كثيرة لا يدل عليها غيره [5].

وجيء في تعريف الله ﷻ بوصف "رب" مضافاً إلى ضمير النَّبي ﷺ إيماءً إلى أنَّ المقصود من التَّذكير بهذه القصة تكريم النَّبي ﷺ إرهاصاً بنبوته إذ كان ذلك عام مولده [6].

وجاءت الإضافة في قوله تعالى: {أصحاب الفيل} تمييزاً لهم. وقيل: (تعريضاً بهم) [7]. وجاء التَّعريف في: {الفيل} للعهد، وهو فيل أبرهة قائد الجيش، والمعنى: ألم تعلم الحالة العجيبة الَّتي فعلها الله ﷻ بأصحاب الفيل؛ فهذا تقرير على إجمال يفسره ما بعده [8].

ويأتي التَّفصيل بشكل إجمالي أيضاً لِمَا وقع لأصحاب الفيل بقوله تعالى: {ألم يجعل كيدهم في تضليل} هذه الجملة بيان لِمَا في جملة: {ألم تر كيف فعل ربك}. ومن وظائف البيان في اللغة زيادة التَّوضيح والتَّأكيد.

والهمزة الَّتي بدأ بها المقطع في قوله تعالى: {ألم يجعل} للتقرير أيضاً، والفعل: {يجعل} جاء بزمن المضارعة لِمَا له من قدرة بيانيَّة في إحضار الحدث الماضي إلى العيان أمام المتلقي. وساعد على ذلك حرف النفي: (لم)

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لبن عاشور/٣٠/ ٤٧٩
٢ ـ ينظر: البلاغة القيمة د. عبد القادر حين/ ١٥٩.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٤٧٩.
٤ ـ ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي/ ٤/ ١٢١.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير:٤٧٩/٣٠.
٦ ـ ينظر: المرجع السَّابق.
٧ ـ ينظر: التَّفسير الكبير لفخر الدِّين للرَّزي/١١/ ٢٩٠.
٨ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٤٨١.

ويستوقفنا تسميةُ حربِهم كيداً، مع أنَّ فعل أبرهة كان ظاهراً؛ لأنَّ الَّذي كان في قلبه شرٌّ مما ظهر [١]. وأحسب أنَّ ما بأنفسهم من كيد كان هو الباعث القوي لهذه الحرب.

ويأتي قوله تعالى: {في تضليل} ليعبر عن عمق الضَّياع الَّذي أدخلهم فيه هذا الكيد، وقد ساعد على إبراز صورته حرف الجر: {في} الدال على الظَّرفيَّة، وكذلك معنى كلمة: {تضليل} الَّذي تدور مادتها حول: الضياع [٢].

أو ما هو ضد الهدى والرَّشاد [٣]. وذهب المفسرون إلى أنَّ معناه: الهلاك، والبطلان[٤].

وتبرز المناسبة بين أصوات الكلمة وما تدلُّ عليه من حيث قوَّة أصواتها المناسبة لمعنى الضَّلال، وتكرار صوت: الـ(لَّام) يقرِّر تكرار تضليله ﷻ لكيد أصحاب الفيل، فهو قوَّة ماضية في إبطال كُلَّ كيد يصدر عنهم [٥].

أوعن كُلِّ كايد؛ (فإنَّ كُلَّ من أراد الحقَّ بسوء فإنَّ الله ﷻ يجعل كيده في نحره، وسعيه إلى خُسران وتباب؛ فقد قال تعالى في سورة الطَّارق: {إنَّهم يكيدون كيداً. وأكيد كيداَ}) [٦].

وتأتي جملة {وأرسلَ عليهم طيراً أبابيل} موصولة بالعطف على ما سبق بقصد اتصال، الحدثين وتزمانهما فبعد أن غرقوا في الضَّلال والغي والتَّكبر جاء هذا العذاب مباغتاً لهم من فوقهم بدليل حرف الاستعلاء ومجروره في: {عليهم} يؤكد ضميرهم أن العذاب كان خاصاً بهم، لا يتعداهم إلى غيرهم من سكان المنطقة. الَّذين خرجوا فراراً من هذه الحرب الَّتي لا قبل لهم بها.

ويظهر قدر المعجزة في: أنَّ المرسل بهذا العذاب: {طيراً} مخلوق نموذجاً في الصِّغر والضَّعف؛ وقد كان ذلك تحقيراً لهم ولِمَا جاءوا به من عُدَّة وعتاد حتَّى قدموا بأكبر مخلوق عندهم (الفيل)، وعليه جاء التَّكير لكلمة: {طيراً}، قيل: (للتحقير، فإنَّ كلَّما كانت وسيلة العذاب أحقر كان صُنعُ الله أعجب وأكبر، أو التَّنكير للتَّفخيم، أي: طيراً ترميهم بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل) [٧]. ويأتي التَّنكير في اللغة العربيَّة لأحد هذين السببين حسب السِّياق.

---

١ - ينظر التَّفسير الكبير للإمام الرَّزي/ ٢٩١/١١.
٢ - ينظر: تهذيب اللغة للأزهري/ مادة "ضلل"
٣ - ينظر: لسان العرب لابن منظور مادة "ضلل"
٤ - ينظر: معاني القرآن للزَّجاج/ ٥/ ٣٦٣.
٥ - ينظر: التَّصوير القرآني لجزء عمَّ /أناهيد جمال حريري/٢/ ٩٢٨.
٦ - ينظر: تدبر المفصَّل: ٩٦. بتصرف
٧ - ينظر: التَّفسير الكبير لفخر الدين الرَّزي/ ١١/ ٢٩١.

وقد وصفت الطيور بقوله تعالى: {طيراً أبابيل} وذلك تشبيه لها بالحِزَمِ الكبيرة من الحطب [١]. وقيل: المراد به جماعات متتابعة [٢].

وقيل: متفرقة [٣]. وقيل: أقاطيع يتبع بعضها بعضاً [٤]. وقال النَّحاس: وحقيقته أنَّها جماعات عظام [٥]. غطت الأفق. وأمام هذا المشهد الرَّهيب من هذه الحرب الإلهية يقف العقل متأملاً قدرة الله التي لا تضاهيها قدرة أي مدَّعٍ لا في الأرض تبارك ربنا وتعالى وتقدس.

وجاءت الآية التالية توضح مهمة هذا الجيش من الطُّيور، وتذكر آلة الحرب العجيبة الَّتي قضت على هذا الجيش الجرار المؤلف من الحبشة واليمن مصطحبين معهم الفيلة لهدم بيت الله الحرام [٦].

ويبدأ مشهد المعركة بقوله تعالى: {ترميهم بحجارة من سجيل} لقد صوَّر زمن الفعل المضارع: (ترمي) مشهد الاستمرار، والضَّمير المتصل في الفعل يحدد العدو الَّذي يقع عليه هذا الهجوم الفريد من نوعه، وقد كان المهاجم طيراً والآلة (حجارة)؛ ولكن ليست ككل حجارة إنَّها حجارة من: {سجيلٍ}.

واختلف المفسرون في ماهيَّة ومعنى "سجيل". فقال: السِّعدي: (حجارة محماة من سجيل) [٧]. أي: من الماء والطِّين المطبوخ كالآجر [٨]. وقيل المراد من (السِّجيل): الشَّديد العذاب [٩]. وقيل: (التسجيل) هو: (السِّجين) الَّذي هو اسم جهنَّم أُبْدِلَتْ النُّون باللَّام، أو (السِّجيل): السَّماء [١٠]. وكانت النتيجة الحتميَّة ما جاء في قوله تعالى: {فجعلهم كعصفٍ مأكول}.

أول ما يستوقفنا للتأمل ربط الآية الكريمة بما قبلها بحرف الـ(فاء) الَّتي تفيد التَّعقيب والتَّرتيب والتَّسبب، والفعل (جعل) يُصور التَّحول من حالهم القويَّة العاتية الكائدة إلى حال أبسط ما يقال فيها الضَّعف والخزي، والعار والهلاك.

---

١ ـ ينظر: الكشَّاف للزَّمخشري/ ٤/ ٧٩٩.
٢ ـ ينظر: تدبر المفصَّل/٩٦.
٣ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٣٥.
٤ ـ ينظر: يفتح القدير للشُّوكاني/٤٩٥/٥.
٥ ـ ينظر: المرجع السَّابق.
٦ ـ ينظر: تفسير السَّعدي: ٩٣٥.
٧ ـ ينظر: السَّابق.
٨ ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/ ١٦: ٣٦٦.
٩ ـ ينظر: الكشَّاف للزَّمخشري/ ١٠٠/٤.
١٠ ـ ينظر التفسير الكبير للفخر الين الرَّازي/١١/ ٢٩٢.

كما يستوقفنا كذلك للتأمل تشبيههم بالعصف المأكول. فما هو العصف الَّذي وصف بالمأكول؟ نجد أنَّ مادة الكلمة تدور حول اليابس من الورق الَّذي يتفتت، فلا يصلح للأكل، أو هو التِّبن، أو قشور التِّبن، أو ما أكل من الحب، والريحان، وهو رطب [1].

وهكذا بدت صورة أصحاب الفيل عند إهلاك الله لهم شبه أوراق الزَّرع الَّذي أكله الدُّود، أو شبه التِّبن أكلته الدَّواب ثمَّ فرثته.

ولكنَّ لم يصرح بذلك، فجاء هذا التشبيه على ما عليه أدب القرآن الكريم مثل قوله تعالى: {... كانا يأكُلان الطعام} [المائدة:٧٥] ولذلك قال تعالى: {كعصفٍ مأكول}. لأنَّ؛ كل مأكول لا يظهر إلا بهذه الحال القبيحة.

قال عدد من المفسرين: المراد بالوجه الأول: تشبيههم في فنائهم وذهابهم بالكليَّة، أو ما أصابهم من الشُّقوق بالزرع الَّذي أكلته الدُّواب فرفثته، وفي ذلك مبالغة حسنة، فلم يكتف بجعلهم أهون شيء في الزَّرع؛ بل جعلهم رجيعاً [2].

وقيل: أو كعصف مأكول الحبِّ، أو تشبيههم في ذهاب أرواحهم وبقاء أجسادهم بورق الزرع الَّذي أُكِلَ حبُّه وبقي قشره [3].

وهكذا نجد مناسبة نهاية هذه السُّورة فاتحتها من خلال عود الضَّمير في: {فجعلهم} على {أصحاب الفيل} [4]. فسبحان من كاد أصحاب الفيل بعظيم قدرته؛ فهو قادر على أن يكد كُلَّ من أراد كيداً للإسلام والمسلمين.

والله أعلم وأحكم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

[1] ـ ينظر: تهذيب اللغة للأزهري مادة "عصف"

[2] ـ ينظر: الكشَّاف للزَّمخشري/٤/٨٠٠. وكذا إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/ ٩/ ٢٠١، وكذا فتح القدير للشُّوكاني/٤/ ٤٩٦.

[3] ـ ينظر: روح البيان للبروسوي/ ٦٢٥/١٠.

[4] ـ ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي/ ١/ ١٨٦.

سورة قريش

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴿٢﴾ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾

بين يدي السُّورة المباركة:

سُمِيَتْ هذه السُّورة في عهد السلف: "سورة لإيلاف قريش" وسميت في المصاحف وكتب التَّفسير: "سورة قريش" لوقوع اسم قريش فيها ولم يقع في غيرها. وبذلك عنونها البخاري في "صحيحه" [١].

من أغراضها أمر قريش بتوحيد الله تعالى بالربوبيَّة تذكيراً لهم بنعمة أنَّ الله مكَّن لهم السير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف لا يخشون عادياً يعدو عليهم لا في الحل ولا في السفر وفي ذاك نعمة الأمن ووفرة الرزق [٢].

ويربطها الإمام البقاعي قائلاً [٣]: لما كان ما فعله سبحانه من منع هذا الجيش العظيم الذي من قوته طاعة أكبر ما خلق الله من الحيوان البري فيما نعلمه من دخول الحرم الذي هو مظهر قدرته ومحل عظمته الباهرة وعزته والمذكر بخليله عليه السلام وما كان من الوفاء بعظيم خلته كرامة لقريش عظيمة ظاهرة عاجلة حماية لهم عن أن تستباح ديارهم وتسبى ذرياتهم لكونهم أولاد خليله وخدم بيته وقطان حرمه ومتعززين به ومنقطعين إليه ... ذكرهم سبحانه وتعالى ما فيه من النعمة الآجلة إكراماً ثانياً بالنظر في العاقبة فقال مشيراً إلى أنَّ من تعاظم عليه قصمه ومن ذلَّ له وخدمه أكرمه وعظمه : {لإيلاف قريش}.

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

بدأت السُّورة المباركة بقوله تعالى: {لإيلاف قُريش}. اختلف في (اللَّام) هل هي متعلقة بالفعل: {جعل} في قوله تعالى: {فجعلهم كعصفٍ مأكول} من سورة "الفيل"

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور:٣٠/ ٤٨٥.
٢ ـ ينظر: السَّابق /٤٨٦/٣٠ بتصرف شديد.
٣ ـ ينظر: نظم الدُّرر: ٢٢/ ٢٥٩. وما بعدها بتصرف.

قبلها، ويكون المعنى: لأجل إيلاف قريش يدوم، ويبقى تعظيم العرب إياهم، لأنَّهم أهل حرم الله [1].

أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش، وذلك أنَّ قريشاً كانت تخرج في تجارتها فلا يغار عليها في الجاهليَّة حتَّى جاء صاحبُ الفيل ليهدم الكعبةَ ويبني بيتاً في اليمن يحجُّ النَّاس إليه [2].

وقيل: الـ(لَّام) متعلقة بما بعدها، يقول الزَّمخشري: (متعلقة بقوله: {فليعبدوا} أمرهم أن يعبدوا لأجل إيلافهم الرحلتين، ودخول الـ(فاء) لِمَا في الكلام من معنى الشَّرط على معنى أنَّ نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوا لسائر نعمه فليعبدوا لهذه الوحدة الَّتي هي نعمة ظاهرة [3].

وقيل: إنَّ الـ(لَّام) للتَّعجب: أي اعجبُوا لإيلاف قُريش، حكاه القرطبي عن الكسائي والأخفش [4]. يؤكده ابن عاشور بقوله: يجوز أن تجعل الـ(لَّام) متعلقة بفعل (اعجبوا) محذوفاً ينبئ عنه الـ(لَّام) لكثرة وقوع مجرور بها بعد مادة التَّعجب. وتقديم هذا المجرور ـ في بداية السورة ـ للاهتمام به إذ هو أسباب أمرهم بعبادة الله الَّتي أعرضوا عنها بعبادة الأصنام [5].

والإيلاف: مصدر أألف بهمزتين بمعنى ألف، وصيغة "إفعال" فيه لزيادة المعنى ـ الَّذي يسمه البلاغيون ـ "مبالغة" لإفادة قوَّة الفعل [6].

وقريش قيل: علمٌ على القبيلة وهم بنو "النَّضر بن كنانة"، وسموا بذلك لتجمعهم بعد التَّفرقة والتَّقريش التَّجميع والالتِئام، وقيل غير ذلك؛ ولكن هذا أقربه إلى الصَّواب[7].

ويأتي قوله تعالى: {إيلافهم رحلةَ الشَّتاء والصَّيف} عطف بيان من "إيلاف قريش" وهو أسلوب الإجمال فالتَّفصيل للعناية بالخبر ليتمكن في ذهن السَّامع [8].

أي: ذُكر الإلاف مرَّتين مرة مجمل في بداية السُّورة ومرة ثانيه بالتَّفصيل؛ أنَّه رحلة الشِّتاء والصيف.

---

١ ـ ينظر: أضواء البيان للشّنقيطي/ ٩/ ٢٧٢.بتصرف.
٢ ـ ينظر فتح القدير للشُّوكاني/٥/ ٤٨٧.
٣ ـ ينظر: الكشَّاف للزَّمخشر/ ٤/ ٢٣٥.
٤ ـ ينظر: جامع الأحكام للقرطبي/٢٠/ ٢٠١
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٨٦.
٦ ـ ينظر: التحَّرير والتَّنوير لابن عاشور: ٣٠/ ٤٨٦.
٧ ـ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان/ ٨/ ٥١٣.
٨ ـ ينظر: التَّحرير والتنوير/٣٠/ ٤٨٨.

والرِّحلة بكسر الرَّاء: اسم للارتحال، وإضافة رحلة إلى الشِّتاء من إضافة الفعل إلى زمانه الَّذي يقع فيه، وظاهر الإضافة أنَّ رحلة الشِّتاء والصَّيف معروفة معهودة، وهما رحلتان. فعطف: {والصيف} على تقدير مضاف، أي: رحلة الصَّيف، وكان الَّذي سنَّ لهم هاتين الرِّحلتين "هاشم بن عبد مناف" ولم تزل الرِّحلتان من إيلاف قريش حتَّى جاء الإسلامُ وهم على ذلك (١).

فإنَّ قوله تعالى: {رحلة الشِّتاء والصَّيف} تفسير "لإيلاف" على ما كانوا يؤالفون بين الملوك في تلك الرَّحلات، أو ما كانوا يألفونه فيهما (٢).

قال ابن قتيبة: إنما كانت تعيش قريش بالتِّجارة وكانت لهم رحلتان في كل سنة: رحلة في الشتاء إلى اليمن. ورحلة في الصَّيف إلى الشَّام. ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام، ولولا الأمن بجوارهم البيت لم يقدروا على التَّصرف (٣).

وعليه يأتي قوله تعالى: {فليعبدوا رب هذا البيت} أمرهم ﷻ بعبادته بعد أن ذكَّرهم بما أنعم به عليهم (٤). ويؤكد ذلك العطف بـ(فاء) التعقيب والمسارعة، ولام الأمر التي تقدمت الفعل، وذكرهم بروبيته ﷻ للبيت الذي من أجله كانت تحترمه العرب ولا يتعرضون لهم بسوء. وقد حقق قدراً كبيراً من ذلك اسم الإشارة بقوله تعالى: {هذا البيت) يقول القرطبي: أي: ليألفوا عبادة ربِّ الكعبة، كما كانوا يألفوا الرحلتين (٥).

فنجد أنَّه ﷻ قد ربط بين النِّعمة وموجِبِها، كالربط بين السَّبب والمسبَّب؛ ففيه بيان لموجب عبادة الله ﷻ وحده، وحقه في ذلك على عباده جميعاً، وليس خاصاً بقريش وحدهم(٦)

فذلك وجه تعليل الأمر بتوحيدهم الله بخصوص نعمة هذا الإيلاف مع أنَّ لله عليهم نعماً كثيرة؛ لأنَّ هذا الإيلاف كان سبباً جامعاً لأهم النِّعم الَّتي بها قوام بقائهم (٧).

ويأتي: تعريف كلمة: {رب} بالإضافة إلى {هذا البيت} دون أن يقال: فليعبدوا الله لِمَا يومئ إليه لفظ {رب} من استحقاقه الإفراد دون شريك، كما أوثر إضافته {رب} إلى {هذا البيت} دون أن يقال: ربَّهم للإيماء إلى أنَّ البيت هو أصل نعمة الإيلاف

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٤٨٨.
٢ ـ ينظر: أضواء البيان للشِّنقيطي/ ٢٧٣/٩، ٢٧٤.
٣ ـ ينظر: فتح القدير للشُّوكاني/ ٥/ ٤٩٨.
٤ ـ ينظر: السَّابق.
٥ ـ ينظر: الجامع لأحكام القرآن/ ٢٠/ ٢٠٨.
٦ ـ ينظر أضواء البيان/ ٩/ ٢٧٤.
٧ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير/٣٠/٤٩١.

بأن أمر "إبراهيم " عليه السلام ببناء البيت الحرام؛ فكان سبباً لرفعة شأنهم بين العرب، وذلك إدماج للتَّنويه بشأن البيت الحرام وفضله [1].

وتأتي الآية الأخيرة تحمل تعريفاً قوياً ثانياً للرَّب جل جلاله بقوله تعالى: {الَّذي أطعمَهُم من جُوعٍ وآمنهم من خَوْفٍ}. ليذكِّرهم أنَّ رغد الرِّزق والأمن من المخاوف من أكبر النِّعم الموجبة لشكر الله تعالى [2].

وهكذا بدأت الآية الكريمة بالاسم الموصول لِمَا له من قوة بيان في إحضار صاحب الصِّلة في الذِّهن، وتأتي جملة الصِّلة تحمل منَّتين من أعظم منن الله على عباده: {أطعمَهُم من جوعٍ، وآمنهم من خوف}.

ففي قوله: {من جوع} احتراس من أن جاء إطعامهم للترفيه، أو هم في غنيٍ عنه، فقد أكد هذا المقطع على شِدَّة حاجتهم لهذا الإطعام، لقد كانوا قبله يتضوعون جوعاً فمنَّ اللهُ سبحانه وتعالى عليهم بأن رحمهم بعد عذاب الجُوع الشَّديد. وأغدق عليهم نعمه الظاهرة والباطنة.

ومثله قوله تعالى: {آمنهم من خوف}؛ بل ربَّما كان الخوف أشدَ فتكاً من الجُّوع في أكثر الأحوال؛ لأنَّ مع الخوف ينسى الإنسان جوعه. وفي هذا تذكير لهم بنعمٍ جمَّة لا حصر لها، ولا مقدرة لهم على شكرها بعد أن كانوا متفرقين فقراء غير آمنين على أنفسهم ورزقهم؛ فجمعهم الرَّحمن الرَّحيم في بيته الحرام، وألف بينهم، ويسر لهم سبل العيش وهم آمنون من كُلِّ عدو.

يقول الشنقيطي: (في الجمع بين إطعامهم من جوع، وأمنهم من خوف نعمة عُظمى، لأنَّ الإنسان لا ينعم ولا يسعد إلا بتحصيل النِّعمتين هاتين معاً؛ إذ لا عيش مع الجُّوع، ولا أمن مع الخوف، وتكمل النعمةُ باجتماعهما) [3].

ولهذا جاء الحديث الشَّريف: "من أصبح معافًى في بدنه، آمناً في سربه، عنده قوت يومه، فقد اجتمعت عنده الدنيا بحذافيرها" [4].

والله أعلم وأحكم وصلى الله على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

[1] ـ ينظر: السَّابق.
[2] ـ ينظر: تفسير السَّعدي/ ٩٣٥.
[3] ـ ينظر: أضواء البيان للشِّنقيطي/ ٢٧٥/٩.
[4] ـ أخرجه التِّرمذي /٢٣٤٦. وابن ماجة/٤١٤١. وابن حبان/٦٧١. وغيرهم وحسنه الألباني في السِّلسة الصَّحيحة.

سورة الماعون

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم ِاللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾
وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ
عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ.

بين يدي السُّورة المباركة:

سُميتْ هذه السُّورة المباركة في كثير من المصاحف وكتب التَّفسير "سورة الماعون" لورود لفظ الماعون فيها دون غيرها. وسميت في بعض التَّفاسير "سورة أرأيت" وكذلك عنونها في "صحيح البخاري" [١].

ومن أغراضها: التعجب من حال من كذَّبوا بالبعث، وتفظيع أعمالهم من الاعتداء عل الضعيف واحتقاره والإمساك عن إطعام المساكين، والإعراض عن قواعد الإسلام من الصلاة والزكاة؛ لأنَّ لا يخطر بباله أن يكون فعله ذلك ما يجلب له غضب الله وعقابه [٢].

ويربطها الإمام البقاعي بقوله[٣]: لما أخبر سبحانه وتعالى عن فعله معهم من الانتقام ممن تعدى حدوده فيهم ومن الرفق بهم بما هو غاية في الحكمة فكان معروفاً بأنَّ فاعله لا يترك النَّاس سدى من غير جزاء، وأمر؛ آخر "قريش" بشكر نعمته بإفراده بالعبادة، عرفهم أول هذه أنَّ ذلك لا يتهيأ إلا بالتصديق بالجزاء الحامل على معالي الأخلاق النَّهي عن مساوئها، وعجب ممن يكذب بالجزاء مع وضوح الدلالة عليه بحكمة الحكيم ، ووصف المكذب به بأوصاف هم منها في غاية النفرة وصوَّره بأبشع صورة بعثاً لهم على التَّصديق وزجراً عن التَّكذيب فقال خاصاً بالخطاب رأس الأمَّة إشارة إلى أنَّه لا يفهم هذا الأمر حق فهمه غير ه : {أرءيت}.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٩٤.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور: ٣٠/ ٤٩٥.
٣ ـ ينظر: نظم الدُّرر :٢٢/ ٢٧٥. وما بعدها بتصرف.

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

افتتاح هذه السُّورة الكريمة بالاستفهام بقوله تعالى: {أريت الَّذي يُكذِّب بالدين} يثير العجب فما المقصود به؟

قيل: هذا توقيف وتنبيه؛ لتتذكر نفس السَّامع كُلَّ من يعرفه بهذه الصِّفة [١]. فتحضر صورته في ذهن المتلقي مخرج العيان.

وقال أبو حيان: همزة الاستفهام تدلُّ على التَّقرير والتَّفهيم ليتذكر السَّامع من يعرفه بهذه الصفة [٢].

وقيل: لإثارة التَّعجب والتَّشويق [٣]. فيستعد الذِّهن لمعرفة من يتصف بهذأ التَّكذيب المستمر بدلالة زمن المضارع في الفعل: {يكُذِّب}.

وذلك لأنَّ (التكذيب بالدِّين أبو الخبائث) [٤]. والحذر منه من أهم الأمور التَّي تعني كُلَّ مسلم ليتخلى عن هذه الصِّفة إن كانت فيه. ويكون شديد الحذر منها؛ لكي لا يدخل تحت هذه الطَّائفة المكذِّبة بالدِّين؛ فـ(الاستفهام عن رؤية من ثبتت له صلة الموصول يذهب بذهن المستمع مذاهب شتى لمعرفة المقصد بهذا الاستفهام) [٥].

ولا شك أنَّ الخطاب موجه لرسول الله ﷺ ثمَّ لكلِّ عاقل يصلح له الخطاب [٦].

ويأتي الجواب على شوق واستعداد ذهن بقوله تعالى: {فذلك الَّذي يدَّعُّ اليتيم} حرف "الفاء" الَّذي بدأت به الآية الكريمة دلَّ على أنَّ التَّكذيب بالدِّين يتفرع عنه دع اليتيم، وعدم الحض على طعام المسكين؛ (لإفادة تسبب مجموع الصفتين في الحكم المقصود بالكلام. فجاءت الإشارة إلى الَّذي يكذِّب بالدِّن لتميزه أكمل تميز. وفي إقحام اسم الإشارة والموصول بعد الـ(فاء) زيادة تشويق؛ حتَّى تقرع جملة الصِّلة: {يكذِّب بالدِّين} سمع السَّامع فتتمكن منه كمال تمكن) [٧].

ويستوقفنا للتأمل وُضِعَ اسم الإشارة: {فذلك} موضع الضَّمير فقد كان يصح المعنى بالقول "هو الَّذي يدع اليتيم" لكنَّ اسم الإشارة جاء لتميُزه في ذهن المتلقي أفضل تميز فتتحقق صفته في الذهن بأوضح ما يكون عليه الإيضاح لخطورة ما هو عليه من جرم.

---

١ ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة/٥/ ٥٢٧.
٢ ـ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان/ ٥١٧/٨.
٣ ـ ينظر التَّفسير الكبير للإمام الرَّزي/ ٣٠١/١١.
٤ ـ ينظر: نظم الدُّرر للبقاعي/٢٧٥/٢٢.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٤٩٥.
٦ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/ ٩/ ٢٠٣.
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٤٩٥.

وعليه قيل: للإشعار بعلَّة الحكم [١]؛ وكان مجيء الموصول: {الَّذي} بعده ليدل على تحقق جملة الصلة: {يَدُعُّ اليتيم} [٢] في ذهن المتلقي كمال تحقق؛ فيربط بين هذا الفعل المشين وبين تكذيب هذا بالدين وبين دع اليتيم، وذلك؛ لأنَّ الوصايا باليتيم تملأ مصدري الدِّين: القرآن والسنَّة الصحيحة.

ويستوقفنا للتَّأمل الفعل: {يدُعُّ} بزمنه المضارع ليثبت أن هذا العمل يتكرر من فاعله بلا حساب ولا رادع. ويحقق هذا المعنى دخول "أل" التعَّريف الَّتي تفيد الجنس على كلمة "يتيم" حث دلَّت على أن هذا التَّصرف ألَّا ديني ولا حتَّى إنساني يتكرر من هذا الفاعل مع كل يتيم؛ بل جنس كُلِّ يتيم.

ويصور بشاعة هذا العمل معنى كلمة: {يُدعُّ} الَّتي تدور مادتها حول: الدَّفع بجفوة وبقوة [٣]. والمراد منه ـ والله أعلم ـ دفعه عن حقه مع ظلمه [٤].

ودعُّ اليتيم يكون إمَّا على وجه الطَّمع في حقِّه، أو إبعاداً له وزجره [٥] وذلك لأنَّ المكذِّب بالدِّين لا يرجو ثواباً فيه [٦].

وتظهر المناسبة بين أصوات الكلمة: {يدعُّ} وما تدلُّ عليه من حيث قوَّة أصواتها المناسبة لقوة معناها، والانتقال من الدَّال القويَّة إلى العين النَّاصعة القويَّة المضعَّفة يصوِّر لنا قوَّة الدَّفع وشدَّته [٧].

ويأتي عطف الآية الثَّانية بحرف الـ(واو) الَّذي يدلُّ على التَّشريك في الحكم؛ فقال تعالى: {ولا يحض على طعام المسكين} فدلَّ على أنَّه مع ما سبق من صفة يكررها الله ﷻ فهو: {لا يحضُّ على طعام المسكين}. صفة سيئة أخرى. وهكذا يصوِّر زمن المضارع في الفعل: {لا يحضُ} تكرر ذلك أيضاً منه؛ فقد أصبح هذا الخُلق سجيَّة فيه.

والفعل المنفي: {لا يحضُّ} تدور ماته حول: الحثِّ [٨]. والمراد من عدم الحضِّ على طعام المسكين: ألاَّ يحافظ عليه ولا يأمر به [٩]؛ لأنَّه مكذِّب منكر للجزاء [١٠].

---

١ ـ ينظر إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٩/ ٢٠٣.
٢ ـ ينظر: روح المعاني للألوسي/ ٣٠/ ٦٥٦.
٣ ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور "دعَّ"
٤ ـ ينظر: معاني القرآن للفراء/٢٩٤/٣٠. وكذا جامع البيان للطبري/ ٣٠/ ٣٧٧.
٥ ـ ينظر: النكت والعيون للماوردي/٦/ ٣٥١.
٦ ـ ينظر: ابن الجوزي /٤/ ٤٩٥.
٧ ـ ينظر التَّصوير القرآني في جزء عمَّ / أ/ أناهيد جمال حرير/٩٤٨/٢.
٨ ـ ينظر لسان العرب لابن منظور: "حثَّ"
٩ ـ ينظر: معاني القرآن للفراء: ٣٠/ ٢٩٤.
١٠ ـ ينظر: معالم التنزيل للبغوي/ ٣١٢/٥.

والَّذي يشحُّ بالحضِّ على الإطعام، فهو بالإطعام أشحُّ؛ فجاء عدم الحضِّ كناية عن عدم الإطعام [١].

ويستوقفنا للتأمل إضافة: الطعام للمسكين في: {طعام المسكين} لتدلَّ هذه الإضافة على أنَّه حقَّه الَّذي ينبغي أن يعطاه [٢]. هكذا جعل الله ﷻ (عَلَمَ التَّكذيب بالجزاء: منع المعروف، والإقدام على إيذاء الضَّعيف، فلو آمن بالجزاء، وأيقن بالوعيد؛ لخشي الله ﷻ وعقابه، ولم يقدم على ذلك، فحين أقدم عليه عُلِمَ أنَّه مكذِّب. فما اشدَّه من كلام وما أخوفه من مقام، وما أبلغه في التَّحذير من المعصية...) [٣].

فإبراز صورة الَّذي يكذِّب بالدِّين بهتين الصفتين: "دع اليتيم، وعدم إطعام المسكين" دلَّ على جزم التَّكذيب بالدِّين.

(وفي ذلك كناية عن تحذير المسلمين من الاقتراب من إحدى هاتين الصِّفتين؛ لأنهما من صفات الَّذين لا يؤمنون بالجزاء) [٤]

وفيه دليل قاطع على أنَّ الإيمان بالبعث والجزاء هو الوازع الحق الَّذي يغرس في النَّفس جذور الإقبال على الأعمال الصَّالحة؛ حتَّى يصير ذلك لها خُلقاً إذا شبت عليه[٥].

وهكذا ما ذُكِرَ عنهم كان سبباً للدُّعاء عليهم بـ(الويل) في قوله تعالى: {فويلٌ للمصلين). معطوف بحرف "الفاء" على ما سبق. (فموقع "الفاء" صريحٌ في اتصال ما بعدها بما قبلها من الكلام على معنى التَّفريع والتَّرتيب والتَّسبب) [٦].

يقول الزَّمخشري: على معنى فويلٌ لهم؛ إلا أنَّه وضع صفتهم موضع ضميرهم؛ لأنَّهم كانوا مع التَّكذيب وما أضيف إليهم ساهين عن الصَّلاة مرائين غير مزكِّين أموالهم [٧]. فيكون في ذكرهم بـ(المصلين) إظهار في مقام الإضمار لما للصَّلاة من أهميَّة في تحقيق الإيمان.

وقد قيل: أطلق عليهم لفظ (المصلين) مع أنَّهم غير ملتفتين إليها بناءً على أنَّهم من جملة المكلفين بها [٨].

---

١ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور:٣٠/ ٤٩٧. بتصرف.
٢ ـ ينظر التَّفسير الكبير لفخر الدِّين الرَّازي/ ١١/ ٣٠٣. بتصرف.
٣ ـ ينظر: الكشَّاف للزَّمخشري/ ٤/ ٨٠٤.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٤٩٦.
٥ ـ ينظر: السَّابق. بتصرف
٦ ـ ينظر: السَّابق بتصرف.
٧ ـ ينظر: الكشَّاف/ ٤/ ٢٣٦.
٨ ـ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري/ ١٩١/٣٠.

ثمَّ وصفوا بعد ذلك بقوله تعالى: {الَّذين هم عن صلاتهم ساهون}. السَّهو في حقيقته الذُّهول عن أمر سبق علمه، وهو ـ هنا ـ مستعار للإعراض والتَّرك عن عمد استعارة تهكميَّة [١].

بدأت هذه الآية الكريمة بالاسم الموصول لإحضار المقصودين به في ذهن المتلقي، ثمَّ جاء ضمير الفصل: {هم} لتأكيد الخبر الَّذي تحمله الجملة، وجاء حرف الجر: {عن} ليدل على التَّجاوز. فهم وإن ظهروا واقفين للصلاة إلا إنَّهم خارجها.

لذا يقول ابن كثير: قال ابن عبَّاس وغيره: يعني المنافقين. الَّذين يُصلُّون في العلانية ولا يُصلُّون في السِّر. لهذا قال: {للمصلين}، أي: الَّذين هم من أهل الصَّلاة وقد التزموا بها، ثمَّ هم عنها ساهون، إمَّا عن فعلها بالكليَّة، وإمَّا عن فعلها في الوقت المقدَّر لها شرعاً، فيخرِجونها عن وقتها بالكليَّة [٢].

فعلى هذا يكون وصفهم بـ"المصلين" تهكماً، والمراد عدمه، أي: الَّذين لا يصلون، وقرينة التَّهكم وصفهم بقوله تعالى: {الَّذين هم عن صلاتهم ساهون}. فتكون "الفاء" في قوله تعالى: {فويلٌ للمصلين} من هذه الجملة لربطها بما قبلها؛ لأنَّ الله ﷻ أراد ارتباط هذا الكلام بعضه ببعض [٣].

وقد أورد ابن كثير خبراً عن عطاء بن رباح قوله: الحمد لله الَّذي قال: {عن صلاتهم} ولم يقل: في صلاتهم ساهون [٤].

ثمَّ يعلق ابن كثير قائلاً: إمَّا عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً. وإمَّا عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإمَّا عن الخشوع فيها والتَّدبر لمعانيها؛ فاللفظ يشمل هذا كُلَّه، ولكلِّ من اتصف بشيء من ذلك قسطٌ من هذه الآية. ومن اتصف بجميع ذلك فقد تمَّ نصيبه منها وكمل له النِّفاق العملي [٥].

ويستدرك السِّعدي قائلاً: فالسَّهو عن الصَّلاة هو الَّذي يستحق صاحبه الذَّم واللوم، وأمَّا السَّهو في الصَّلاة فهذا يقع من كلِّ أحدٍ حتَّى من النَّبي [٦] ﷺ.

وعليه جاء وصفهم بالرِّياء والقسوة وعدم الرَّحمة فقال تعالى: {الَّذين هم يُراءُون. ويمنعون الماعون}. فبدأت الجملة كسابقتها بالاسم الموصول لِمَا له من قوة في إحضار صورة المقصود به الكلام في الذِّهن، وهو متلبس بما تحمله جملة الصِّلة

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٤٩٩.
٢ ـ ينظر: تفسير القرآن الكريم /٦/ ٤٩٨.
٣ ـ ينظر التحَّرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٤٩٩.
٤ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/٤٩٨/٦.
٥ ـ ينظر: السَّابق.
٦ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٣٥.

من مضمون. وصيغة الجمع فيه تدلُّ على كثرة هذه الفئة المنافقة الَّتي تجعل عبادة الله وسيلةً للوصول إلى غاية من غايات الدُّنيا الفانية عند أحدٍ من عباد الله ﷻ ؛ فلا ترجوا بعملها ما عند الله ﷻ من ثواب في الدُّنيا ولا في الآخرة، يؤكد ذلك مجيء الاسم الموصول: {الذين} مبتدأ لجملة اسميَّة زيادة في تحقيق وقوع ما تحمله من مضمون

وتأتي جملة صلته بقول تعالى: {هم يراءون} فتكرر الإسناد بها مرتين مما يدل على التَّقوية والتوكيد.

وتوضيح ذلك: بأن جاءت جملة الصلة {هم يراءون} الجملة اسميَّة لِمَا لها من قوَّة التَّأكيد والثبات والدَّوام، فبدأت بالضمير {هم} لزيادة تحقيق وصفهم، وجاء خبرها {يراءون} بجملة فعليَّة فعلها مضارع؛ فدلَّ على الاستمرار. وفي الإخبار عن الجملة الاسميَّة بجملة فعليَّة قوَّة إسناد الحكم الَّذي تحمله الجملة؛ فقد ذُكِرَ الفاعل مرَّتين. وذلك كله لتأكيد رياءهم الثَّابت عليهم.

وينتج عن هذا الرِّياء خُلُقٌ رديءٌ له أشدُّ الصِّلة به تحمله الجملة الأخيرة في السُّورة المباركة بقوله تعالى: {ويمنعون الماعون}.

(المنع) بحد ذاته يدل على شِدَّة الحسرة مع شِدَّة الحاجة لما يمنع، كما ترسم صورة الشُّح والغلظة للمناع.

وزمن الفعل {يمنعون} يؤكد على أنَّ ذلك دأبهم لِمَا يحملُ من معنى الاستمرار. ويرسم في الذِّهن مشهد المنع.

و{الماعون}: أُختلف في تفسيره، فقيل: هو المال بلغة قريش [1]. وفسر بأنَّهم يمنعون الزكاة [2]. وقيل: هو الآنية [3]. وما يماثله. وقيل غير ذلك؛ لكن أقرب المعاني إليه أنَّه دليلٌ على الاحتواء حتَّى لو اختلفت آنيته ومادة المحتوى وتنوعت.

والله أعلم وأحكم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

[1] ـ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطيَّة /٥/ ٥٢٨.
[2] ـ ينظر: فتح القدير للشوكاني/٥/ ٥٠١.
[3] ـ ينظر تفسير السِّعدي: ٩٣٥.

سورة الكوثر

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم

إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣

بين يدي السُّرة المباركة:

هذه السُورة المباركة سُمِّيت في جميع المصاحف والتَّفاسير "سورة الكوثر"، وكذلك عنونها التِّرمذي في كتاب التَّفسير من "جامعه". وعنونها البخاري في "صحيحه" سورة: {إنَّا أعطيناك الكوثر} [١]. اشتملت على بشارة النبي ﷺ بأنَّه أُعطي الخير الكثير في الدُّنيا والآخرة، وأمره بشكر الله على ذلك بالإقبال على العبادة، وأنَّ ذلك هو الكمال الحق، انقطاع الولد الذكر ليس بتراً؛ لأنَّ ذلك لا أثر له في كمال الإنسان[٢]

وقد جاء في سبب نزولها: ما قاله ابن عبَّاس: (نزلت في العاص، وذلك أنَّه رأى رسول الله ﷺ يخرج من المسجد، وهو يدخل، فالتقيا عند باب بني سهم ... فلمَّا دخل العاص قالوا له: من الَّذي كنت تُحَدِّث؟ قال: ذلك الأبتر، يعني: النَّبي ﷺ وكان قد توفي قبل ذلك " عبد الله " ابن رسول الله ﷺ وكان من أمِّ المؤمنين "خديجة" وكانوا يسمُّون من ليس له ابن: أبتر فأنزل الله ﷻ هذه السُورة) [٣].

ويربطها الإمام البقاعي بما قبلها قائلاً [٤] لما كانت سورة " الدين" - يقصد الماعون- بإفصاحها ناهية عن مساوئ الأخلاق كانت بإفهامها داعية إلى معالي الشيم فجاءت الكوثر لذلك، وكانت الدين قد خُتمت بأبخل البخلاء وأدنى الخلائق: المنع تنفيراً من البخل ومما جره من التكذيب فابتدأت الكوثر بأجود الجود. العطاء لأشرف الخلائق ترغيباً فيه وندباً إليه فكان كأنَّه قيل: أنت يا خير الخلق غير متلبس بشيء مما نهيت عنه تلك المختتمة بمنع الماعون: {إنَّا} بما لنا من عظمة {أعطيناك الكوثر}...

---

[١] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣/ ٥٠١.
[٢] ـ ينظر: السَّابق/٣٠/ ٥٠٢.
[٣] ـ ينظر: أسباب النُّزول للواحد /٢٧٠
[٤] ـ ينظر: نظم الدُّرر/ ٢٢/ ٢٨٧وما بعدها

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

وعليه جاء افتتاح السُّورة المباركة بحرف التَّوكيد (إنَّ) وجاء اسمه ضمير العظمة (نا) مشعراً بالامتنان بعطاء عظيم فقال تعالى: {إنَّا أعطيناك الكوثر} تأكيداً للاهتمام بالخبر، والإشعار بأنَّه شيءٌ عظيمٌ يستتبع الإشعار بتنويه شأن النَّبي ﷺ [١]. وقد عاد الضمير (نا) في الفعل: {أعطيناك} على الضَّمير في قوله تعالى: (إنَّا) ليفيد تكرر الإسناد مرتين [٢]. مما يزيد من الدَّلالة على تأكيد أمر هذا العطاء [٣]. والكلام مسوق مساق البشارة من الله تبارك وتعالى [٤].

ويفسر ذلك ورود الفعل "أعطى" بزمن الماضي الَّذي دلَّ على تأكيد الحدث وإسناده إلى نون العظمة، لـ(تعظيم تلك العطيَّة لصدورها من الله تعالى، وقد عُبِّر بـ(أعطى) دون (آتى)؛ لأنَّ الإيتاء يحتمل أن يكون واجباً وأن يكون تفضلاً، والعطاء أشبه بالتَّفضل، كما أنَّ العطاء يستعمل في القليل والكثير، والإيتاء لا يستعمل إلا في الشيء العظيم، مما يدل على أنَّ نهر الكوثر فيض من كثير مما سيعطيه الله ـ تبارك وتعالى ـ في الآخرة لرسوله ﷺ علاوة على ما أعطاه في الدُّنيا من العطايا العظيمة) [٥].

وجاء المفعول به الأول: (كاف) الخطاب الخاص بالنَّبي ﷺ {أعطيناك} دليل تكريم وتشريف، وجاء المفعول به الثَّاني بشرى عظيمة: {الكوثر} الَّذي أرجح الأقوال فيه ما أورده ابن كثير بعِدَّة روايات منها: عن "أنس بن مالك" قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه مبتسماً قالوا له: لِمَ ضحكت؟ قال ﷺ : إنَّه نزلت عليَّ آنفاً سورة. فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم {إنَّا أعطيناك الكوثر} حتَّى ختمها قال: "هل تدرون ما الكوثر قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "هو نهرٌ أعطانيه ربِّي ﷻ في الجنَّة عليه خيرٌ كثيرٌ، ترد عليه أمَّتي يوم القيامة، أنيته عددُ الكواكب، يُخْتَلج العبدُ منهم فأقول: يا رب! إنَّه من أمَّتي. فيقال: إنَّك لا تَدْرِي ما أحدثوا بَعْدَك!" هكذا رواه أحمد بهذا الإسناد وهذا السِّياق [٦].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٥٠٢/٣٠.
٢ ـ ينظر: نظم الدُّرر للبقاعي/ ٥٧٨/٦.
٣ ـ ينظر التَّفسير الكبير للإمام الرَّزي: ٣١١/١١.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٥٠٢/٣٠.
٥ ـ ينظر: التَّفسير الكبير للإمام الرَّزي/ ٣١١/١١.
٦ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/٦/ ٥٠٣.

قيل: الكوثر: اسم في اللغة للخير الكثير [١]. وقيل الكثير من كُلِّ شيء [٢]. وعليه جاء حذف موصوفه مما أشعر بعموم تلك العطيَّة وشيوعها [٣].

يقول السِّعدي: يقول الله تعالى لنبيّه ممتناً عليه: {إنَّا أعطيناك الكوثر} أي: الخير الكثير، والفضل الغزير، الَّذي من جملته، ما يعطيه الله لنبيَّه ﷺ يوم القيامة من النَّهر الَّذي يُقال له "الكوثر" ومن حوض طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته كنجوم السَّماء في كثرتها واستدارتها، من شرب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبداً [٤].

ويستوقفنا للتأمل تلك المناسبة بين أصوات كلمة "كوثر" وبين ما تدل عليه من معنى: فـ(الكاف) و(الواو) القويتان تقابلان أوَّل الحدث وهو كثرة الخير، و(الثاء) برخاوتها تقابل سهولة هذا الخير وانسيابه، و(الراء) المجهورة المتكرِّرة تقابل تكرار هذا العطاء [٥].

وبما تحمل كلمة "الكوثر" من معنى الخير الكثير قوبلت بقول القائل: هو الأبتر؛ فقوبل معنى الأبتر بمعنى الكوثر إبطالاً لقولهم [٦].

ولَمَّا كان تفضله ﷻ على رسوله ﷺ بالغاً أقصى التَّفضل، أمر تعالى نبيَّه بالصَّلاة والنَّحر له دون غيره، لا مثل قومه المشركين الَّذين أشركوا غيره معه في صلاتهم ونحرهم [٧]. فجاء ذلك تعريضاً بهم [٨].

فأمره ـ تعالى ـ جزاء نعمه العظيمة بقوله تعالى: {فصلِّ لربك وانحر} وذلك ما دلَّ عليه ارتباط الجملتين بـ(فاء) التَّعقيب الدَّالة على السَّببيَّة [٩]. أو (فاء) التَّفريع. على هذه البشارة بأن يشكر ربَّه عليها، فإنَّ الصَّلاة أفعال وأقوال دالة على تعظيم الله تعالى والثَّناء عليه، وكذلك النَّحر [١٠].

والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله: {فصلِّ لربِّك} دون فصلَّ لنا، لِمَا في لفظ الرَّب من الإيماء إلى استحقاقه لأجل ربوبيته فضلاً عن فرط إنعامه.

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٠٢.
٢ ـ ينظر: تهذيب اللغة للأزهري، ولسان العرب مادة "كثر"
٣ ـ ينظر: الدُّرر المصون للسمين الحلبي / ٥٧٨/٦.
٤ ـ ينظر: تفسير السَّعدي/ ٩٣٥، ٩٣٦.
٥ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ أ أناهيد جمال حريري/ ٩٦٦/٢.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٥٠٣/٣٠
٧ ـ ينظر: الكشَّاف للزمخشري/ ٤/ ٨٠٧
٨ ـ ينظر: الدُّر المصون للسمين/٥٧٨/٦.
٩ ـ ينظر: التِّبيان في إعراب القرآن للعكبري/ ٣٩٥.
١٠ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٥٠٢/٣.

وإضافة (رب) إلى ضميره المخاطب لقصد ـ تشرف النَّبي ﷺ وقربه المعنوي، وفيه تنويه برأفة الله ﷻ به ﷺ .

وعليه لم يقل سبحانه: (لنا) وكان ممكن ذلك؛ إلا إنَّه جاء بقوله تعالى: {فصلِّ لربك} وذلك للتنبيه على نعمة الربوبيَّة من الخلق والتَّدبير والحفظ والرِّزق نعمه الَّتي لا تعد ولا تحصى [١]. ويستوقفنا فعل الأمر بقوله (انحر) دون غيره من مثل: (اذبح) قيل: دلالة على وجوب تقديم أفضل المال؛ لأنَّ النَّحر اختص عند العرب بنحر الإبل خيار أموالهم [٢]

ونجد أنَّ متعلق: {وانحر} قد حذف أي: لم يقل وانحر له اكتفاءً بما قبله [٣].

ثمَّ يأتي قوله تعالى: {إنَّ شانئك هو الأبتر} جملة استئنافيَّة رداً على مقولة مشركي قريش على طريقة الأسلوب الحكيم، ويجوز أن تكون الجملة تعليلاً لحرف (إنَّ) إذا لم يكن لرد الإنكار، يكثر أن يفيد التعليل [٤].

فنجد الجملة أُكدتْ بـ(إنَّ) لتأكيد الخبر الجاري مجرى القسم، ومثلها جملة صدر السُّورة، والإتيان بضمير الفصل: (هو) يؤذن بالاختصاص و التأكيد، وإن أُعرب الضمير {هو} مبتدأ، أفاد التأكيد؛ لتكرار الإسناد [٥].

فحصل القصر في قوله تعالى: {إنَّ شانئك هو الأبتر}؛ لأنَّ ضمير الفصل يفيد قصر صفة الأبتر على الموصوف، وهو شانئ النَّبي ﷺ قُصِرَ المسند {شانئك} على المسند إليه {هو الأبتر} وهو قصر قلب، أي هو الأبتر لا أنت، والأبتر الَّذي لا خير فيه [٦].

فـ{شانئك} كلمة تدل على البغض [٧]. أي مبغضك يا رسول الله وعدوَّك [٨].

وتبرز المناسبة بين أصوات الكلمة وما تدل عليه من حيث مناسبتها لأجزاء الحدث، فالشِّين بتفشيها وانتشارها، وبعدها الألف الَّتي تعدُّ امتداداً لها تقابلان قوَّة الحقد، والنُّون بجهرها وغنَّتها، وبعدها الهمزة القويَّة تقابلان تركُّز الحقد واكتماله، والكاف الشَّديدة تقابل عمق وقوَّة وتسلط الحقد من الشَّانئ على رسول الله [٩] ﷺ

---

١ ـ ينظر: البرهان للزركشي/٢/ ٤٩٣، ٤٩٤. بتصرف.
٢ ـ ينظر نظم الدُّرر للبقاعي/٢٢/ ٢٢٩١.
٣ ـ ينظر: روح البيان للبروسوي: ٦٣٥/١٠. وكذا التَّحرير والتَّنوير/٥٠٥/٣٠.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٥٠٥/٣٠.
٥ ـ ينظر: أسرار التِّكرار للتركماني/ ٢٥٦ وكذا الدر المصون للحلبي/ ٦/ ٥٧٩.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٠٥، ٥٠٦.
٧ ـ ينظر: التَّهذيب اللغة للأزهري، وكذا لسان العرب "شنأ"
٨ ـ ينظر: معاني القرآن للفراء/ ٣/ ٢٩٦. وكذا جامع البيان للطبري/ ٤٠٠/٣٠.
٩ ـ ينظر التَّصوير القرآني في جزء عمَّ أ أناهيد جمال حريري/٢/ ٩٦٦.

وأمَّا كلمة {الأبتر} الَّتي انتهت بها السُّورة المباركة فتدور مادتها حول استئصال الشَّيء قطعاً [١]. والمراد بها في هذه السُّورة الَّذي لا عقب له [٢]. أو الأقلُّ الأذلُّ المنقطع دابره [٣]. أو الَّذي لا خير فيه حتَّى صار مثله مثل الأبتر [٤]. أو المقطوع الذِّكر [٥].

وتبرز المناسبة بين أصوات الكلمة وما تدل عليه من حيث قوَّة صوت الـ(همزة) وكذا الـ(باء) والـ(تاء) فجميعها أصوات شديدة مغلقة انفجاريَّة تناسب قوَّة البتر والقطع، وتكرار حرف الـ(رَّاء) يتناسب مع استمرار قطع هذا الشَّانئ، فهو منسي في الأخرة والدُّنيا وإن ذُكر في الدُّنيا ذكر باللعن [٦]. وحاشاه عليه أفضل الصَّلاة وأتم التسليم. والله أعلم وأحكم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

سورة الكافرون

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ .

بين يدي السُّورة المباركة:

عنونت هذه السُّورة المباركة في المصاحف قديماً وحديثاً وفي معظم التَّفاسير بـ"سورة الكافرون" بإضافة "سورة" إلى {الكافرون} وبثبوت واو الرَّفع في {الكافرون} على لفظ القرآن الواقع في أولها [٧].

---

١ ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور "بتر"
٢ ـ ينظر: معاني القرآن للفراء/ ٣/ ٢٩٦
٣ ـ ينظر: جامع البيان للطَّبري/ ٣٠/ ٤٠٠.
٤ ـ ينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٩٤/٤.
٥ ـ ينظر: الكشَّاف للزمخشري/ ٤/ ٨٠٨.
٦ ـ ينظر: السَّابق. وكذا التَّصوير القرآني في جزء عمَّ أ أناهيد جمال حريري/ ٢،٩٦٦.
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور:٣٠/ ٥٠٨.

يقول ابن كثير: (هذه السُّورة سورة البراءة من العمل الَّذي يعمله المشركون، وهي آمِرَةٌ بالإخلاص فيه: فقوله: {قل يا أيها الكافرون} شَمَل كُلَّ كافرٍ على وجه الأرض؛ لأنَّ الـ(ألف) والـ(لام) الدَّاخلة على "الكافرون" لام الجنس ـ لكن المواجَهُون بهذا الخطاب هم كُفَّار قريش، وقيل: من جهلهم دَعَوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنةً، ويعبدون معبوده سنةً، فأنزل الله هذه السُّورة، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكليَّة) [١]. وعليه يقول ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس في القرآن أشدُّ غيظاً لإبليس من سورة الكافرون؛ لأنَّها توحيد خالص، وبراءة من الشِّرك [٢].

وبهذا يعلم الغرض الذي اشتملت عليه وأنَّه تأييسهم من أن يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال وإنَّ دين الإسلام لا يخالط شيئاً من دين الشرك [٣].

يربطها الإمام البقاعي بقوله [٤]: لما أخبر في الكوثر أنَّ العريق في شنانه عدم وجب أن يعرض عنه ويقبل بكليته على من أنعم عليه بذلك، فقال معلماً له ما يقول ويفعل : {قل يا أيها الكافرون...}

<u>الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:</u>

افتتحت السُّورة المباركة بفعل الأمر: {قل} للاهتمام بما بعد القول بأنَّه كلام يراد إبلاغه إلى النَّاس بوجه خاص منصوص فيه على أنَّه مرسل بقولٍ يبلغه. وعليه ابتدأ الخطاب بالنِّداء لإبلاغهم؛ لأنَّ النِّداء يستدعي إقبال أذهانهم على ما سيلقى [٥].
والنِّداء بين يدي الأمر والنَّهي والإخبار يدلُ على أهمية الكلام الَّذي بعده، بِدْؤه بأداة التَّنبيه: {يأيها} دليل حرص زائد على أهميَّة ما ينادى من أجله.

يقول الإمام البقاعي: ولما كان شائنه أعرق الخلق في الضَّلال والبعد من الخير قال منادياً له بأداة البعد؛ وإن كان حاضرا، معبراً بالوصف المؤذن بالرُّسوخ : {يا أيها الكافرون} أي: الَّذين قد حُكم بثباتهم على الكفر فلا انفكاك لهم عنه [٦]

---

١ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم/٦/٥١٠
٢ ـ ينظر: تدبر المفصَّل: ٩٨
٣ ـ نظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٠٩.
٤ ـ ينظر: نظم الدُّرر للبقاعي: ٢٢/ ٣٠١.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/٥٠٩.
٦ ـ ينظر: نظم الدُّرر/ ٢٢/ ٣٠٢.

وهكذا نودوا بوصف الكافرين تحقيراً لهم وتأييداً لوجه التبرؤ منهم وإيذاناً بأنَّه لا يخشاهم إذ ناداهم بما يكرهون مما يثير غضبهَم؛ لأنَّ الله كفاه إيَّاهم وعصمه من أذاهم[١].

فجاءت الجملة الخبريَّة بقوله تعالى: {لا أعبد ما تعبدون} تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله ظاهراً وباطناً[٢].

أراد بهذه الجملة نفي عبادته لأصنامهم في المستقبل لقطع طمعهم في استمرار دعوتهم له، والمعنى: (لا حصل مني عبادة ما تعبدون في المستقبل تحقيقاً؛ لأنَّ المضارع إذا دخل عليه "لا" النَّافية أفادت انتفاء أزمنة المستقبل) [٣].

ونفي عبادته آلهتهم في المستقبل يفيد أنه لا يعبدها في الحال بدلالة فحوى الخطاب، ولأنَّهم ما عرضوا عليه إلا أن يعبد آلهتهم بعد سنة مستقبلة؛ فجاءت جملة مقيل القول بقوله تعالى: {لا أعبد ما تعبدون} أي: لا أفعل ما تطلبون مني من عبادة الأصنام. الآن وفي المستقبل [٤]. فحملت هذه الآية الكريمة إخباراً عنه بما يحصل منه حتَّى يتوفاه الله على الملَّة السَّمحة والدِّين الحق[٥].

ويعطف عليها تأكيداً قوله تعالى: {ولا أنتم عابدون ما أعبد} فقد ذكرت هذه الآية الكريمة خبر استمرار بعضهم على الكفر فعللت ذلك: (لعدم إخلاصكم لله في عبادته، فعبادتكم له المقترنة بالشِّرك لا تسمى عبادة) [٦].

وجاء في جناب نفي عبادتهم لله بنفي اسم الفاعل: {عابدون} الَّذي هو حقيقة في الحال، والمعنى ما أنتم بمغيِّرين إشراككم الآن؛ لأنَّهم عرضوا عليه أن يبتدئوا هُم فيعبدون الرَّب الَّذي يعبده النَّبي ﷺ سنة وبهذا تعلم وجه المخالفة بين نظم الجملتين في أسلوب الاستعمال البليغ [٧].

وأُتي بـ(ما) الموصولة في {ما أعبدُ} لقصد الإيهام لتفيد المبالغة في التَّفخيم كقوله تعالى: {والسَّماء وما بناها} في سورة الشمس.

ويؤكده القول الكريم: {ولا أنا عابدٌ ما عدبتم} جاء به على طريقة: {ولا أنتم عابدون ما أعبد} بالجملة الاسميّة للدلالة على الثَّبات، ويكون الخبر اسم فاعل دالاً على زمان الحال. زيادة في البيان لتأييسهم مما راودوه عليه، ولمقابلة كلامهم المردود بمثله في

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٥١٠.
٢ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٣٦.
٣ ـ ينظر: الكشَّاف للزمخشري/ ٢٣٨/٤. وغيره من المفسرين
٤ ـ ينظر: فتح القدير للشوكاني/٥/ ٥٠٦.
٥ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٥١٠. بتصرف.
٦ ـ ينظر: تفسير السَّعدي/٩٣٦.
٧ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٥١٠.

إفادة الثَّبات. وحصل من ذلك تقرير المعنى السَّابق وتأكيده تبعاً لمدلول الجملة، لا لموقعها (١).

يؤكد ذلك ابن عطيَّة: فلمَّا كان قوله: {لا أعبدُ} محتملاً أن يراد به الآن ويبقى المستأنف منتظراً ما يكون فيه من عبادته جاء البيان بقوله: {ولا أنا عابدٌ ما عبدتم} أي: أبداً وما حييت (٢).

وعليه فإنَّ المراد بقوله: {لا أعبدُ} نفي الفعل؛ لأنَّها جملة فعليَّة، وقوله: {ولا أنا عابدٌ ما عدبتم} نفي قبوله لذلك بالكليَّة؛ لأنَّ النفي بالجملة الاسميَّة آكد فكأنَّه نفى الفعل، وكونه قابلاً لذلك. ومعناه نفي الوقوع، ونفي الإمكان الشَّرعي أيضاً (٣). وقد عزا هذا القول ابن كثير إلى ابن تيميَّة، وقال: وهو قولٌ حَسن.

وجيء بالفعل الماضي في قوله: {ما عبدتم} للدلالة على رسوخهم في عبادة الأصنام من أزمان مضت، وفيه رمز إلى تنزهه ﷺ من عبادة الأصنام من سالف الزَّمان (٤).

ويأتي قوله تعالى: {ولا أنتم عابدون ما أعبد} عطف على جملة: {ولا أنا عابدُ ما عبدتم} لبيان تمام الاختلاف بين حاله ﷺ وحالهم، وإخبار بأنَّهم لا يعبدون الله إخباراً ثانياً؛ تنبيهاً على أنَّ الله أعلمه بأنَّهم لا يعبدون الله، وتقوية للدَّلالة على نبوءته ﷺ فقد مات أولئك النَّفر الَّذين ساوموه على الدِّين كفاراً؛ فكانت هذه السُّورة من دلائل النُّبوءة(٥).

وقد حصل من ذكر هذه الجملة بمثل نظيرتها السَّابقة توكيد للجملة السَّابقة توكيداً للمعنى الأصلي منها، والمقصود من التَّأكيد تحقيق تكذيبهم في عَرضهم أنَّهم يعبدون ربَّ محمد ﷺ (٦).

وعليه يأتي التَّذييل بقوله تعالى: {لكم دينكم ولي دين}. ومن الملاحظ في جملتي التَّذييل أن قُدِّم في كلتا الجملتين: {لكم دينكم ولي دين} المسند {لكم} لوقوعه خبر مقدَّم للجملة الاسميّة، على المسند إليه {دينكم} الواقع مبتدأ مؤخر للجملة نفسها؛ ليفيد قصر المسند إليه على المسند، أي: دينكم مقصور على كونه لكم لا يتجاوزكم إليَّ، وديني مقصور على كونه ليَّ لا يتجاوزني إليكم. وحرف الـ(لام) في الموضعين لشِبه الملك

---
١ ـ ينظر: السَّابق/٣٠/ ٥١١. بتصرف.
٢ ـ ينظر: المحرر الوجيز/ ٥/ ٥٣١.
٣ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/ ٥١١/٦.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٥١١/٣٠.
٥ ـ ينظر: المرجع السَّابق/٣٠/ ٥١٢.
٦ ـ ينظر: السَّابق/٥١٢/٣٠.

وهو الاختصاص، أو الاستحقاق. وقد أرسل هذا الكلام إرسال المثل وهو أجمع وأوجز عبارة، والتمثل به من تمام بلاغته واستعداد للعمل به [١].

ولا شك أنَّ الدِّين العقيدة والمَّلة، وهو معلومات وعقائد يعتقدها المرء فتجري أعماله على مقتضاها، فأصله في اللغة المعاملة والجزاء [٢].

وقد استدلَّ الإمام الشَّافعي، وغيره بهذه الآية الكريمة: {لكم دينكم وليَّ دين} على أنَّ الكفر كُله مِلَّة واحدة؛ لأنَّ الأديان ما عدا الإسلام كُلُها كالشَّيء الواحد في البطلان[٣].

والله أعلم وأحكم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

سورة النَّصر

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

قال تعالى:

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ .

بين يدي السُّورة المباركة:

سُمِّيَتْ هذه السُّورة في كلام السَّلف "سورة إذا جاء نصر الله والفتح" وروى البخاري " "أنَّ عائشة ـ رضي الله عنها- قالت: لما نزلت سورة "إذا جاء نصر الله والفتح". الحديث. وسُمِّيتْ في المصاحف وفي معظم التَّفاسير: "سورة النَّصر" لذكر نصر الله فيها، فسُمِّيتْ بالنَّصر المعهود عهداً ذكرياً [٤].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥١٢. بتصرف
٢ ـ ينظر: السَّابق/٣٠/ ٥١٣. بتصرف
٣ ـ ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير/ ٦/ ٥١١.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور: ٥١٤/٣٠.

والغرض منها الوعد بنصر كامل من عند الله، أو فتح مكة، والشارة بدخول خلائق كثيرة في الإسلام، والإيماء إلى أنَّه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقال رسول الله ﷺ إلى الآخرة [١].

يربطها الإمام البقاعي بقوله: لما دلَّتْ الَّتي قبلها على أنَّ الكفار قد صاروا إلى حال لا عبرة بهم ولا التفات ولا خوف منهم ما دام الحال على المتاركة، كان كأنَّه قيل: فهل يحصل نصر عليهم وظفر بهم بالمعاركة فأجاب بهذه السُّورة بشارة للمؤمنين ونذارة للكافرين [٢].

الدَّراسة البلاغيَّة التحليليَّة:

بدأت السُّورة الكريمة باسم الزَّمان: {إذا}، وأضيف إلى جملة: {جاء} بزمن فعلها الماضي؛ وذلك لإفادة تحقق وقوعه؛ لِمَا يحمل الزَّمن الماضي من تأكيد وقوع الحدث وإن لم يقع بعد.

كما إنَّ: {إذا} هنا متضمنة الشَّرط لوجود حرف الـ(فاء) في جوابه بقوله تعالى: {فسبِّح بحمد ربك} الَّذي يُعدُ جوابُ الشَّرطِ.

وجاء فاعل المجيء ببشرى عظيمة أثلجتْ صدر النَّبي ﷺ وصُدور المسلمين على مر الزَّمان؛ فقال تعالى: {إذا جاء نصرُ الله والفتح....} فكان فاعل المجيء {نصرُ الله}.

وهكذا أُسند المجيء إلى النَّصر ومعه الفتح؛ مع أنَّ الَّذي جاء بالنَّصر والفتح هو الله ﷻ ولكنَّ هذا التَّركيب صوَّر مسارعة البُشْرى للمسلمين، إضافة إلى أنَّ الفعل "جاء" يصوِّر قُرب وقوع الحدث الَّذي يحمله، قرباً مكانياً وزمانياً.

فدلَّ على تكريم هذا النَّصر والفتح المبين لجعله هو فاعل الحدث، ويزيد هذا التَّكريم إضافة {نصر} إلى لفظ الجلالة: {الله} الاسم العلم الجامع لكُلِّ أسماء الله الحُسنى وصفاته العلا؛ ليصوِّر بذلك صورة نصر مبين ليس كأي نصر. (فإضافة {نصر} إلى {الله} تشعر بتعظيم هذا النَّصر، وأنَّه نصر عزيز خارق للعادة اعتنى الله بإيجاد أسبابه، ولم تجر على متعارف تولد الحوادث عن أمثاله) [٣]. ويؤكد ذلك آيات سورة [الفتح:١-٣]

---

١ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور:/ ٣٠/ ٥١٦.
٢ - ينظر: نظم الدُّرر /٢٢/ ٣١٣.
٣ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٥١٧.

فما هو النَّصر؟ وما الفرق بينه وبين الفتح؟ حتى عطف عليه؛ لأنَّ العطف بحرف الـ(واو) يدل على المغايرة.

قيل: النَّصر هو الإغاثة والإظهار على العدو، ومنه نصرَ اللهُ الأرضَ أغاثها. والفتحُ فتح البلاد [١]. باقتحام ثغور الأرض ومحارسها [٢].

وقد فتح المسلمون خيبر قبل نزول هذه الآية فتعين أنَّ الفتح المذكور فيها فتح آخر وهو فتح "مكة المكرمة" كما يشعر به التَّعريف بلام العهد[3]

فإنَّ فتح مكة لما كان مفتاح الفتوح ومناطها كما أنَّها هي أمُّ القرى وإمامها جعل مجيئه بمنزلة مجيء سائر الفتوح [٤].

وتأتي الآية الكريمة الثَّانية متصلة بالأولى بـ(واو) العطف فقال تعالى: {ورأيت النَّاس يدخلون في دين الله أفواجاً} ليدل ذلك على تزامن هذا الحدث مع النَّصر، و هو دليل من أدلَّة النَّصر.

ولتأكيد ذلك صيغ الفعل: {رأيت} بالزَّمن الماضي لِمَا لهذا الزمن من قدرة على تأكيد للحدث الَّذي يحمله.

ولا شك أنَّ الخطاب في الآية الكريمة لأشرف المرسلين والخلق أجمعين؛ "محمد ابن عبد الله" ﷺ .

والرُؤية يجوز أن تكون علميَّة، أي: علمتَ علمَ اليقين أنَّ النَّاس يدخلون في دين الله أفواجاً، ويجوز أن تكون رؤية بصريَّة؛ بأن رأى أفواج وفود العرب يَرِدُون إلى المدينة المنَّورة، يدخلون في الإسلام؛ وذلك سنة تسع من الهجرة [٥].

وجاءت جملة: {يدخلون} في موضع الحال من النَّاس. ويستوقفنا للتأمل ورود هذا الفعل: {يدخلون} بزمن المضارع؛ وذلك - والله أعلم- ليحمل بشرى أخرى عظيمة للنَّبي ﷺ ولكافة المسلمين؛ حيث دلَّ على استمرار دخول النَّاس في دين الإسلام عبر العصور إلى قيام الساعة؛ بما يدل عليه زمن الفعل المضارع.

ومن يتابع هذا على مر عصور الإسلام إلى وقتنا الحاضر يرى تحقق وعد الله ﷻ حيث ارتفاع عدد المسلمين في العالم مستمر بفضلٍ من الله رُغم كُلِّ محاولات

---

١ ـ ينظر: الكشَّاف للزَّمخشري/ ٤/ ٢٣٩.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير:٥١٧/٣٠.
٣ ـ السَّابق.
٤ ـ ينظر: إرشاد العقل السَّليم لأبي السَّعود/٢٠٨/٩.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير للابن عاشور/٥١٧/٣٠.

الشيطان وأعوانه للقضاء على الإسلام والمسلمين. ما ذلك النصر واستمراره إ بفضل الله ثبتنا الله وإياهم على طريقه المستقيم آمين.

ولا شك أنّ ذكر الدُّخول في الدِّين: صورة مستعار للنُطق بالشهادة، والتزام أحكام الدِّين النَّاشئة عن تلك الشهادة. فشُبِّه الدِّين ببيت، أو حمى على طريق الاستعارة المكنيَّة، ورمز إليه بما هو من لوازم المشبه به؛ وهو الدخول. على تشبيه التَّلبس بالدِّين بتلبس المظروف بالظرف، ففيه أيضاً استعارة أخرى تصريحيَّة (١).

وذلك لتقريب المعنى للذهن. بإبراز صورة دخول هذه الأفواج المتتابع في الدِّين الحق دين الإسلام. والذي ساعد على إبراز هذه الصُّورة في الذِّهن كلمة: {أفواجاً} الَّتي وقعت حال من ضمير: {يدخلون}. و: {أفواجاً} جمع فوج، وهو بحد ذاته يعني: الجماعة الكثيرة. فيا لها من صورة تثلج قلبَ كُلِّ موحدٍ ولله الفضل والمنَّة.

ثمَّ يأتي جواب: {إذا} بقوله تعالى: {فسبح بحمد ربِّك واستغفره}. في هذه الجملة الَّتي جاءت جواب الشرط {إذا} يستوقفنا للتأمل أولاً: ربط هذا المقطع بحرف المسارعة في التَّعقيب.

وثانياً: اقترن التَّسبيح بالحمد بـ(باء) المصاحبة المقتضية أنَّ التسبيح لاحقٌ للحمد؛ لأنَّ (باء)المصاحبة بمعنى (مع)؛ فدلَّ على أنَّه تسبيح واستغفار خاص لم يحصل من قبل.

وقد روي عن ابن عبَّاس ـ رضي اللهُ عنهما ـ أنَّه قال: لمَّا نَزَلَتْ: {إذا جاء نصرُ اللهِ والفتح} إلى أخر السُّورة قال: نُعِيتْ لرسول الله ﷺ نفسَهُ حين أُنزلت فأخذ في أشدِّ ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة (٢).

وقد تقدَّم الأمر بالتسبيح في الذكر؛ لأنَّه تنزيه لله عن النَّقص، والحمد ثناء عليه ﷻ لإنعامه، وهو: أداء العبد ما يجب عليه لشكر المنعم؛ فهو جامع بين جانب الله وحظ العبد؛ أمَّا الاستغفار؛ فهو حظ للعبد وحده؛ لأنَّه طلبه الله أن يغفر عمَّا يؤاخذه عليه.

وعطف الأمر باستغفار الله ﷻ على الأمر بالتَّسبيح مع الحمد يقتضي أنَّه من حَيِّز جواب: {إذا}، وأنَّه استغفار يحصل مع الحمد، مثل ما قرر في {فسبح بحمد

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير للابن عاشور /٣٠/ ٥١٩.بتصرف

٢ ـ أخرجه النَّسائي في التفسير/ ٧٣٢. والطَّبري/١١٩٠/٤.

ربك}؛ فيدلُّ على أنَّه استغفار خاص يأذن باقتراب وفاة رسول الله ﷺ بانتقاله من حياة تحمل أعباء الرِّسالة إلى حياة أبديَّة في العلويات الملكيَّة [١].

ومقتضى الظاهر أن يقول: "فسبح بحمده لتقديم اسم الجلالة في قوله: {إذا جاء نصر الله} فعدل عن الضَّمير إلى الاسم الظَّاهر: {ربِّك} لما في صفة "رب" وإضافتها إلى ضمير المخاطب من الإيماء إلى أنَّ من حكمته ذلك النَّصر والفتح ودخول النَّاس في الإسلام نعمة أنعم الله ﷻ بها عليه وهو شأن تلطُّف الرَّب بالمربوب، لأنَّ معناه السيادة المصاحبة بالرفق والإبلاغ إلى الكمال.

وقد أورد ابن عطيَّة خبراً قائلاً: لم يمت رسول الله ﷺ وفي العرب رجل كافر، بل دخل الكل في الإسلام بعد حنين والطائف، منهم من قدم ومنهم من قدم وفده، ثمَّ كان بعده من الرِّدة ما كان ورجعوا كلهم إلى الدين [٢].

وقد روي عن ابن عبَّاس قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بَدْر، فقال ما تقولُون في قول الله ﷻ {إذا جاء نصرُ اللهِ والفتحُ} فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا وفُتح علينا. وسكت بعضهم، فقال لي أكذلك تقول يا ابن عبَّاس؟ فقلت: لا فقال ما تقول؟ فقلتُ: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له قال: {إذا جاء نصرُ ِالله والفتح} فذلك علامة أجَلك، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنَّه كان تواباً} فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول [٣].

ويأتي التَّذييل السَّورة الكريمة يحمل أعظم بشرى للمؤمنين بقوله تعالى: {إنَّه كان توَّاباً} جملة تقريريَّة مؤكدة بعِدَّة مؤكدات: اسميَّة الجملة، وحرف التوكيد (إنَّ)، وتبعتها (كان) الدَّالة على الأزليَّة، والضَّمير العائد عليه ﷻ الواقع اسماً "لكان" وصيغة المبالغة في خبر "كان": {توَّاباً} الدَّال على الكثرة والاستمرار. فجاءت هذه الخاتمة تعليل لما تحمل السُّورة من مضامين، وأكدت على أنَّ من شأنه ﷻ الصَّفح والتَّكريم.

يقول السِّعدي: في هذه السُّور الكريمة بشارة، وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة، وتنبيه على ما يترتب على ذلك. فالبشارة هي بنصر الله لرسوله، وفتحه مكَّة، ودخول النَّاس في دين الله أفواجاً، وقد وقع هذا المبشر به.

وأمَّا الأمر بعد حصول النِّصر والفتح فأمر اللهُ تعالى رسوله ﷺ أن يشكر ربَّه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره.

---

[١] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٢٠. بتصرف

[٢] أ ينظر: المحرر الوجيز /٥٣٢/٥.

[٣] انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/ ٥١٣/٦. قال إنَّه صحيح أخرجه البخاري/ ٤٩٧٠.

وأمَّا الإشارة، فإنَّ في ذلك إشارتين: أن يستمر النَّصر لهذا الدِّين، ويزداد عند حصول التَّسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله - والمسلمين - فإنَّ هذا من الشكر...

وأمَّا الإشارة الثَّانية، فهي الإشارة إلى أجل رسول الله ﷺ قد قَرُب ودنا، ووجه ذلك أنَّ عمره عمر فاضل أقسم الله ﷺ به، وقد عهد المولى أنَّ الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصَّلاة والحج، وغير ذلك... فكان ﷺ يتأول القرآن، ويكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك الله وبحمدك، اللهم اغفر لي" [١].

والله أعلم وأحكم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة المسد

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرِّحيمِ

تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۢ ۝٥

بين يدي السّورة المباركة:

سُميت هذه السُّورة في كثير من المصاحف "سورة تبَّت: وكذلك عنونها التِّرمذي في "جامعه". وسُميت في بعض المصاحف وبعض التَّفاسير " سورة المسد". واقتصر في "الإتقان" على هذين الاسمين. ورُوي أنَّ نزولها كان في السَّنة الرَّابعة من البعثة.

وجاء سبب نزولها على ما في "الصَّحيحين" عن ابن عبَّاس - رضي الله عنهما - قال: "صعد رسولُ الله ﷺ ذات يوم إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: "يا صَبَاحاه" فاجتمعت إليه قريش، فقال: " أرأيتم لو أنّي أخبرتكم أنَّ العدو مصبِّحكم أو مُمَسِّيَكم

---

١ - ينظر تفسير السِّعدي/ ٩٣٦.

أكنتم تُصَدِقوني"؟ قالوا: نعم. قال: " فإني نذيرٌ لكم بين يَدَي عذابٍ شديدٍ،، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ ! تباً لك فأنزل الله: {تبت يدا أبي لهب} إلى آخرها. وفي رواية: فقام ينقُض يديه، وهو يقول تباً لك سائر اليوم! ألهذا جَمعتنا فأنزل الله، السُّورة [1].

ومن أغراضها: زجر أبي لهب على قوله: " تباً لك ألهذا جمعتنا؟ ووعيد امرأته على انتصارها لزوجها، وبغضها النَّبي ﷺ .

وقد ربطها الإمام البقاعي بما قبله قائلاً: لما قدم ﷻ في سورة النصر القطع بتحقيق النصر لأهل هذا الدِّين بعد ما كانوا فيه من الذِّلة، والقلَّة، وختمها بأنَّه التَّوَاب وكان أبو لهب من شِدَّة العناد لهذا الدِّين والأذى لإمامه بالمحل الذي لا يجهل قال تعالى: {تبت يدا أبي لهب} فلا قدرة له البتَّة [2].

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

وعليه جاءت أول آياتها بقوله تعالى: {تَبَّت يدا أبي لهب وتب}، افتتاح السُّورة بالتَّبات مشعرٌ بأنَّها نزلت لتوبيخ ووعيد، وذلك براعة استهلال. وهذا النِّظام من عادة العرب في شعرها ونثرها [3].

والتَّبُّ: هو الخُسران والهلاك [4]. وهذا دعاء وتقريع لأبي لهب فقد دافع الله ﷻ به عن نبيِّه بمثل اللفظ الَّذي شَتَم به أبو لهب "محمداً" ﷺ جزاءً وفاقاً [5].

ويستوقفنا للتأمل إسناد التَّبِّ إلى اليدين؟

قيل: لِما روي من أنَّ أبا لهب لَمَّا قال للنبي ﷺ "تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا" أخذ بيده حجراً ليرميه به [6]. وقد يحمل هذا الإسناد على المجاز [7]. من باب إطلاق الجُّزء وإرادة الكل. أو لأنَّها كناية عن نفس أبي لهب وذاته لِمَا بينهما من اللُّزوم وعلى ذلك يكون قوله تعالى: {وتبَّ} مكرراً للتأكيد [8]. أو قد يحمل تباب يده على الحقيقة [9].

---

[1] ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/ ٥١٧/٦. وكذا أسباب النُّزول للواحدي :٢٧٣. قريب منه: لباب النُّزول للسيوطي:٣٧٥.
[2] ـ ينظر: نظم الدُّرر /٢٢/ ٣٢٨.وما بعدها.
[3] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٥٢٦/٣٠.
[4] ـ ينظر: تهذيب اللغة للأزهري "تبَّ" وكذا لسان العرب لابن منظور "تبَّ"
[5] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور:٥٢٦/٣٠.
[6] ـ ينظر: السَّابق.
[7] ـ ينظر: إعراب القرآن للنَّحاس /٣٠٥/٥. وكذا المحرر الوجيز لابن عطيَّة/ ٥/ ٥٣٤.
[8] ـ ينظر حاشية الشِّهاب/ ٨/ ٤٠٨، ٤٠٩.
[9] ـ ينظر: إعراب القرآن للنَّحاس/ ٥/ ٣٠٥، وكذا روح البيان للبروسوي/١٠/ ٦٤٦.

وعلى ذلك يكون قوله تعالى: {وتَبّ} من مجيء العام بعد الخاص [١] لذا قال الشوكاني: {تبت يدا أبي لهب دعاء} و{وتب} خبر يؤكد حدوث ذلك على الفور[٢]. أي: قد حصل له التبات الَّذي يعني: الهلاك والخسران، أي وقد هلك وخسر وخاب؛ وذلك ما يؤكده زمن الفعل الماضي: {تبَّ}

وعليه: قد تكون هذه الجملة في موضع الحال، والـ(واو) الرابطة واو الحال، ولا تكون دعاء إنّما هي تحقيق لحصول ما دُعي عليه به[٣].

وقد جاء ذِكْرُ أبي لهب بكنيته: {أبي لهب} لعدَّة أسباب منها: لشهرة كنيته دون اسمه؛ ولأنَّ اسمه من الشِّرك الَّذي ينافي التَّوحيد؛ فقد كان اسمه "عبد العُزَّة"؛ ولآن ذكره بهذه الكنية يدل على مآله إلى عذاب الآخرة فمصيره إلى ذات اللهب [٤].

ومع أنَّه عمُّ النَّبي ﷺ إلا إنَّ الانتماء إلى الصَّالحين لا يغني؛ إلا إن وقع الاقتداءُ بهم في صلاحهم [٥].

ويأتي التَّوجيه الدِّيني من الله ﷻ بقوله تعالى: {ما أغنى عنه ماله وما كَسَبَ} استئناف ابتدائي للانتقال من الشَّتم والتَّوبيخ إلى الإعلام بأنَّه آيس من النَّجاة من هذا التَّبات، ولا يغنيه ماله، ولا كسبه في دفع شيءٍ عنه في الآخرة [٦].

لهذا قد تكون (ما) نافية في قوله تعالى: {ما أغنى}، ويجوز أن تكون استفهاميَّة للتوبيخ والإنكار. أي: أيُّ شيء يغني عنه ماله وما كسبه.

وأمَّا التَّعبير بالماضي في الفعل: {أغنى} فهو لتحقيق وقوع عدم الإغناء؛ بما يحمل الزَّمن الماضي من قوة تأكيد الحدث.

أمَّا (ما) في قوله تعالى: {وما كسب} إمَّا أن تكون مصدريَّة أي (ما كسبه) [٧].

أو تكون موصولة وتقديره: والَّذي كسبه، وحذف العائد تخفيفاً [٨]. أو استفهاميَّة، أي: وأيُّ شيءٍ كَسَبَ؟ يخرج إلى معنى: لم يكسب شيئاً [٩].

---

١ ـ ينظر: الدُّر المصون للسَّمين الحلبي/ ٦/ ٥٨٥. وكذا فتح القدي الشُّوكاني/ ٥١١/٥.
٢ ـ ينظر: فتح القدير/ ٥١١/٥. بتصرف.
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٢٨.
٤ ـ ينظر: الكشَّاف للزمخشري/ ٤/ ٢٤٠. بتصرف
٥ ـ ينظر: نظم الدُّرر للبقاعي/ ٣٣١/٢٢.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٥٢٩/٣٠.
٧ ـ ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج/٥/ ٣٧٥.
٨ ـ ينظر: إعراب القرآن للنَّحاس/ ٥/ ٣٠٥.
٩ ـ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان/ ٨/ ٥٢٥.

وبذلك يبرز أنَّ مقياس هذا الدِّين: هو الإيمان بالله الخالص من كل شائبة، والعمل الصَّالح المقصود به وجه الله ﷻ ؛ فإذا لم يتحققا لن ينفع الإنسانَ مالُه ولا جاههُ ولا نسبه [١].

ويأتي تأكيد وعيده بقوله تعالى: {سيصلى ناراً ذات لهب} حرف "السين" الَّذي بدأت به الجملة للتَّحقيق و (يصلى ناراً) سيُشوى بها ويحس بإحراقها فالجملة بيان لـ{ما أغنى عنه ماله وما كسب} [٢].

ويستوقفنا للتأمل وصف النَّار بقوله تعالى: {ذاتَ لهب} تصويراً لتوقدها المستمر أي: ذات اشتعال وتوقُّد لا يخبو أبداً؛ وهذه هي نار جهنَّم التي لا تبقي ولا تذر [٣].

يقول الشَّافعي: وقد حمل هذا الوصف دليلَ استمرار عذابه في نار جهنَّم بمدلول الصُّحبة المعبر عنها بـ{ذاتَ لهب} [٤].

ونلاحظ الجِّناس التَّام بين لفظي {لهب} الأول: التي هي جزء من كُنية الطَّاغية "عبد العُزَّة"، وبين {لهب} الثانية: الَّتي هي نار جهنَّم المتوقدة. وذلك جانب من جوانب براعة إعجاز القرآن البلاغي

وتختم السُّورة المباركة بعطف صورة عذاب امرأة أبي لهب على ما تقدم من ذكر عذابه؛ فقال تعالى: {وامرأته حمَّالة الحطب. في جيدها حبلٌ من مسد}. أول ما يستوقفنا للتأمل في هذا المقطع وصف زوجة أبي لهب بقوله تعالى: {حمَّالةَ الحطب} بالنَّصب لـ{حمَّالة} على إرادة الشتم والذَّم [٥]، ومجيء هذا الوصف: {حمَّالةَ} بصيغة المبالغة دلالة على كثرة ذلك الفعل منها.

وهذه الصُّورة الجليَّة للمتأمل قد تحمل على الحقيقة؛ لأنَّها كانت كثيراً ما تحمل الشَّوك؛ فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ وأصحابه - رضوان الله عليهم - وقد يحمل حملها الحطب على الحقيقة؛ وذلك في نار جهنَّم لتزيد من تعذيب زوجها [٦]

كما جوَّزوا حمل هذا المعنى على المجاز؛ لأنَّها كانت تمشي بالنميمة [٧].

يشرح ذلك الشَّيخ السِّعدي بقوله: كانت شديدة الأذيَّة لرسول الله ﷺ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشَّر، وتسعى غاية ما تقدر في أذيَّة الرَّسول

---

١ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ لأناهيد جمال حرير/ ٢/ ٩٩٤. بتصرف.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٥٣٠.
٣ ـ ينظر: فتح القدير للشُّوكاني/ ٥/ ٥١٢. بتصرف شديد.
٤ ـ ينظر: حدائق الروح والرَّيحان للشافعي/ ٢٣/ ٤٢٩.
٥ ـ ينظر إرشاد العقل السَّليم لأبي السُّعود/ ٢١١/٩.
٦ ـ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي/٢٤٠/٢٠.
٧ ـ ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج/ ٥/ ٣٧٦.

ﷺ، وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعدَّ له في عنقها حبلاً {من مسد} [1].

والمسد: يقول الرَّاغب فيه: ليف يُتخذ من جريد النَّخل، أي: من غُصنه فيمسدُ أي: يُفتل [2].

وهذه الصُّورة، تمثل عذابها المستمر في نار جهنَّم. نسأل الله السلامة والعافية.

ويؤكده الشَّيخ السِّعدي قائلاً: أو أنَّها تحمل في النَّار الحطب على زوجها، متقلدة في عنقها حبلاً من مسد ـ لا ينفك عنها أبداً.

ثمَّ يقول: رحمه الله ـ وعلى كلٍ ففي هذه السُّورة آية باهرة من آيات الله، فإنَّ الله أنزل هذه السُّورة، وأبو لهب وأمرأته لم يُهلكا، وأخبر أنَّهما سيعذبان في النَّار ولا بد، ومن لازم ذلك أنَّهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة [3].

وقد حصل بهذه السُّورة المباركة عظة عظيمة؛ حيث ينبه ﷻ إلى عقوبة التَّعاون على الباطل، وأبرز لها أوضح مثال بما كان من عقوبة امرأة أبي لهب، وما آل إليه مصيرها هي وزوجها في عذاب نار جهنَّم خالدين فيها إلا ما شاء الله تعالىﷻ .

والله أعلم وأحكم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الإخلاص

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤ .

هذه السُّورة المباركة لها عِدَّة أسماء لكنَّ من أشهر أسمائها في السُّنَّة ما رواه التِّرمذي عن أبي هريرة، ورواه أحمد عن ابن مسعود الأنصاري، وعن أم كلثوم

---

[1] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٣٧.
[2] ـ ينظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني "مسد"
[3] ـ ينظر: تفسير السَّعدي/٩٣٧.

بنت عقبة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: " قل هو الله تعدل ثُلث القرآن" وهو ظاهر أنَّه أراد تسميتها بتلك الجملة؛ لأجل تأنيث الضَّمير من قوله " تعدل" فإنَّه على تأويلها بمعنى السُّورة [١]. وصحَّ أنَّها تعدل ثُلث القرآن. وتأويل هذا الحديث مذكور في شرح "الموطأ" و "الصَّحيحين"

وجاء في فضائلها أحاديث كثيرةٌ، منها: ما جاء عن أبي أيوب عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: "أيعجز أحدُكم أن يقرأ ثُلُث القرآن في ليلة؟ فإنَّه من قرأ: {قل هو اللهُ أحد. اللهُ الصمد} في ليلة فقد قرأ ليلتئذ ثُلُث القرآن" [٢].

ومن فضائل هذه السُّورة أيضاً أنَّها مشتملة على توحيد الأسماء والصِّفات [٣]. وقيل في فضائها الكثير، ولكنَّها أعظم وأوسع مما قيل عنها ويقال.

ومن أغراضها: إثبات وحدانية الله ﷻ، وأنَّه لا يقصد في الحوائج غيره وتنزيهه عن سمات المحدثات، وإبطال أن يكون له ابن ﷻ، وإبطال أن يكون "عيسى" عليه السلام إلاهاً [٤]

يربطها الإمام البقاعي بقوله: لما بين ﷻ إهلاك عدوه ﷺ ختم بأعدا أعدائه فحكم بهلاكه وهلاك زوجته جاءت الإخلاص كاشفة لما ثبت من العظمة لويه ﷺ الذي أمره بهذا لدين وفعل له الأمور العظيمة لئلا يستبعد عليه ﷻ شيئاً من ذلك ولا غيره[٥]

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

قال تعالى في أول آياتها: {قل هو الله أحد} افتتحت بالأمر بالقول لإظهار العناية بما بعد فعل القول؛ لأنَّه كلام يراد إبلاغه إلى النَّاس بوجه خاص منصوص فيه على أنَّه مرسل بقول يبلِّغُه؛ وإلا فإنَّ القرآن كله مأمور بإبلاغه [٦].

وفعل الأمر: {قل} من جهة المولى ﷻ يدلُّ على وجوب الالتزام به؛ لأنَّه من جهة الاستعلاء: يقول السَّعدي: أي {قل} قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه [٧].

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٥٠٩.
٢ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير / ٦/ ٥٢٤. والحديث أخرجه الترمذي ٢٨٩٦، والنسائي / ٢١٧٢، وأحمد / ٥/٤١٩.وهو حسن صحيح وبطرقه وشواهده
٣ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٢٧.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٥٣٥ وما بعدها
٥ ـ ينظر: نظم الدُّرر / ٢٢/ ٣٤٦. وما بعدها بتصرف.
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٥٣٦
٧ ـ ينظر: تفسير السِّعدي/ ٩٣٧.

كما إنَّ لذلك الأمر في هذه السُّورة فائدة أخرى، وهي أنَّها نزلت على سبب قول المشركين: أنسب لنا ربَّك، فكانت جواباً عن سؤال؛ فعليه قيل له: {قل} [1].

ولا شك أنَّ هذا الأمر متجهاً أولاً إلى النَّبي ﷺ ثمَّ من بعده لكُلِّ موحدٍ؛ لِمَا له من أهميَّة عظمى في تصحيح عقيدة القائل.

فـ(في أمر الله ﷻ لنبيه ﷺ بأنَّ يبيِّن للعالمين تفرُّده ﷻ في صفات الجلال والكمال أمرٌ لكُلِّ مسلمٍ، وهو من أعظم الجهاد) [2].

والضَّمير: {هو} ضمير الشأن؛ ووجوده في مكانه؛ لإفادة الاهتمام بالجملة الَّتي بعده، فإذا سمعه الَّذين سألوا تطلعوا إلى ما بعده.

لجواز أن يكون: {هو} عائداً إلى الرَّب في سؤال المشركين حين قالوا: انسب لنا ربك [3].

وجاء بعد ضمير الشَّأن الدَّال على التَّوكيد، قوله تعالى: {اللهُ أحدٌ} جُملة اسميَّة من خصائصها تأكيد ما تحمله من مضمون؛ فاجتمع في هذه الآية القصيرة سببان للتأكيد: ضمير الشأن، والجملة الاسميَّة

ونجد في قوله تعالى: {اللهُ أحدٌ} بدأ ﷻ باسمه العلم قبل إجراء الأخبار عليه؛ ليكون ذلك طريق استحضار صفاته كُلَّها عند التَّخاطب بين المسلمين، وعند المحاجَّة بينهم وبين المشركين، فإنَّ هذا لاسم معروف عند الجميع، ولكنَّهم يصفونه بصفات تنزَّه عنها ﷻ [4].

وبهذا (قد انحصرت فيه الأحديَّة، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الَّذي له الأسماء الحسنى، والصِّفات الكاملة العليا، والأفعال المقدَّسة، الَّذي لا نظير له و لا مثيل)[5].

يشرح ذلك ابن كثير قائلاً: يعني الواحد الأحد، الَّذي لا نظير له ولا وزير، ولا نَدِيدَ ولا شبيه ولا عَديل، ولا يطلق هذا اللفظ "أحدٌ" في الإثبات إلا على الله ﷻ لأنَّه الكامل في جميع صفاته، وأفعاله، وأقواله، ـ تبارك وتعالى ـ [6].

فكلمة: {أحدٌ} بمعنى (واحد) وكلاهما من مادة (الوحدة) يعني التَّفرد؛ لكن اختيرت صيغة الصِّفة المشبَّهة {أحدٌ} عن صيغة اسم الفاعل (واحد)؛ لأنَّ الصِّفة

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير /٣٠/ ٥٤٧.في معرض حديثه عن سورة الفلق.
٢ ـ ينظر: تدبر المصَّل إعداد اللجنة العلميَّة: ٩٩.
٣ ـ ينظر: التحَّرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٤٦.
٤ ـ ينظر: السَّابق:٥٣٧/٣٠. بتصرف.
٥ ـ ينظر: تفسير السَّعدي/٩٣٧.
٦ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/ ٦/ ٥٢٩.

المشبهة تفيد تمكن الوصف في موصوفها بأنَّه ذاتي له، فلذلك أوثر {أحدٌ} هنا على (واحد) فـ(واحد) اسم فاعل لا يفيد التَّمكن. فوصف الله بأنَّه {أحدٌ} يدل على: أنَّه منفرد بالحقيقة الَّتي لوحظت في اسمه العلم "الله" وهي: الألوهيَّة. فـ{أحدٌ} جامع للدلالة على الوحدانية من جميع الوجوه. وفي هذا إبطالٌ للشرك على اختلاف مذاهب أهله [١].

وتأتي الآية الثَّانية بجملة اسميَّة ثانية محكيَّة بالقول للفعل: {قل} أيضاً بقوله تعالى: {اللهُ الصمدُ} أي قل: {اللهُ الصمدُ} وجاء معها الاسم العلم "الله" قيل: تكرار الاسم الجليل للإشعار بأنَّ من لم يتصف بذلك؛ فهو بمعزل عن استحقاق الألوهيَّة، وحذف العاطف من هذه الجملة؛ أي: لم تأتِ "والله الصمد" لأنَّها كالنَّتيجة للجملة الأولى؛ لأنَّ السِّياق يقتضي استقلال كل جملة [٢].

وأعيد فيها لفظ الجلالة، ولم يقل: هو الصَّمد حتَّى تكون جملة مستقلة مقصود مضمونها بذاته، وكما إنَّ لحضور لفظ الجلالة هنا مزيد من المهابة والإجلال؛ لأنَّه الاسم العلم الجامع لكُلِّ الأسماء والصِّفات.

ومعنى: {الصَّمد} هو: (المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسُّفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم؛ لأنَّه ﷻ له الكامل في كافة أوصافه) [٣].

وقد قيل في تفسير هذه الكلمة الكثير لكن حسبنا أن نعلم أنَّه هو وحده الَّذي تصمد إليه الخلائق في جميع شؤونها، ولا غناً لأحدٍ عنه البتَّة. وقد صوَّر هذا المعنى حروف الكلمة قبل معناها؛ بما في حروفها من صفات تتناسب مع ما تحمله الكلمة من معاني؛ فحرف (الصَّاد) بما في مخرجه من الاستعلاء والإطباق، وبما في صوته من همس وصفير خرج مدوياً، وقد زاده في ذلك التَّضعيف، وساعد على ذلك حرف (الميم) بما فيه من صفة الإزلاق. ثمَّ تأتي صفة الشِدّة في حرف (الدَّال) لتصوّر عظم معنى الصمود لله ﷻ ؛ فهو الصَّمد وحده لا إله غيره، وقد امتازت هذه السُّورة بأنَّها انفرَدت بهذا الاسم الجليل، فلم يذكر في القرآن الكريم إلا فيها وحدها.

وعليه قيل: فإن علمت أنَّه الأحد الصَّمد فأخلص له الطَّاعات ولا تُشب عملك بشائبة رياء ولا شرك [٤].

[١] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٥٣٧/٣٠. بتصرف
[٢] ـ ينظر: فتح القدير للشوكاني:/٥١٦/٥.
[٣] ـ ينظر: تفسير السِّعدي/٩٣٧.
[٤] ـ تدبر المفصَّل /٩٩.

وتأتي جملة: {لم يلد} خبر ثانٍ عن اسم الجَّلالة من قوله: {اللهُ الصمدُ}، أو حال من المبتدأ {الله}، أو بدل اشتمال من جملة {اللهُ الصَّمد}؛ لأنَّ من يُصمد إليه لا يكون من حاله أن يلد؛ فطلب الولد لقصد الاستعانة به في إقامة شؤون الوالد، وتدارك عجزه.

وهكذا بعد أن أبطلت الآية الكريمة الأولى من هذه السُّورة تعدد الإلُه، أبطلتْ هذه الآية الكريمة تعدد الإلُه بطريق تولد إلُه عن إلُه؛ لأنَّ المتولد مساوٍ لِمَا تولَّد عنه [1].

وهذا هو منطق العقلاء الَّذين أنار الله قلوبهم بهذا الكتاب العزيز الذي: {لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ} [فصلت:٤٢]

إذن عطف جملة: {لم يُولد} على جملة: {لم يلد} لتأكيد أنَّه ﷻ لم يلده غيره، وهي بمنزلة الاحتراس سداً لتوهم أن يكون له والد، فأردف نفي الولد بنفي الوالد.

وإنَّما قُدم نفي الولد؛ لأنَّه أهم إذ قد نَسب أهل الضَّلال الولد إلى الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً ولم ينسبوا إلى الله والداً، وفيه إيماء إلى أن من يكون مولوداً مثل " عيسى" عليه السلام لا يكون إلهاً [2] البتَّه.

وتختم السُّورة المباركة بخاتمة جامعة مانعة بقوله تعالى: {ولم يكن له كُفُواً أحَدٌ}. (هذه الجُّملة مقررة لمضمون ما قبلها؛ لأنَّه سبحانه وتعالى إذا كان متصفاً بالصِّفات المتقدة كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد، ولا يماثله ولا يشاركه في شيء) [3]. (لا في أسمائه، ولا أوصافه، ولا أفعله، تبارك وتعالى) [4].

فهذه الآية الكرية أتت بمعنى التَّذييل للجمل الَّتي قبلها؛ لأنَّها أعم في مضمونها. و (الواو) الَّتي رُبِطَتْ بها الجُملة إمَّا أن تكون (واو) الحال وهو الأرجح. ويجوز أن تكون عاطفة [5].

ويستوقفنا للتأمل تقديم المجرور بقوله: {له} على متعلقه وهو: {كفؤاً} وذلك للاهتمام باستحقاق الله نفي كفاءة أحدٍ له تعالى وتقدس عن الند والنظير.

كما أنَّ تقديم خبر (كان): {كُفُواً} على اسمها {أحدٌ} للاهتمام بذكره عقب الفعل المنفي: {لم يكن} ليكون أسبق إلى السَّمع.

---

١ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٤١.
٢ ـ ينظر: السَّابق/٣٠/ ٥٤١.
٣ ـ ينظر: فتح القدير للشَّوكاني/ ٥/ ٥١٧.
٤ ـ ينظر: تفسير السِّعدي /٩٣٧.
٥ ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٤٢.

وقد قيل: جنس كلمة: {أحدٌ} الَّتي ختمت بها السُّورة المباركة تأتي بمعنى إنسان، أو موجود، وهذه الكلمة من الأسماء النَّكرات الملازمة للوقوع في حيِّز النَّفي. وحصل بها جناس تام مع قوله تعالى: {قل هو الله أحد} [١].

والله أعلم وأحكم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الفلق

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم اللهِ الرّحمنِ الرّحيم

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

بين يدي السُّورة المباركة:

سمى النَّبي ﷺ هذه السُّورة المباركة " قل أعوذُ برب الفلق"، وجاء في كلام بعض الصَّحابة تسميتُها مع سورة النَّاس "المعوّذتين"، وسميت في أكثر المصاحف ومعظم كتب التفسير "سورة الفلق". وقد ثبت أنَّ النَّبي ﷺ كان يتعوذ بهذه السُّورة وأختها ويأمر أصحَّابه بالتَّعوذ بهما، فان التَّعوذ بهما من سنَّة المسلمين [٢].

وقد قيل: إنَّ هذه السُّورة المباركة نزلت بسبب أنَّ اليهود سحروا رسول الله ﷺ وتولى ذلك "لبيد بن الأعصم اليهودي" فكان كما أخبرت أم المؤمنين السَّيدة "عائشة": يظن أنَّه فعل الشَّيءَ ولم يفعله، فما زال يستفتي ربَّه ﷻ حتَّى أفتاه، ونزلت السُّورتان فانحلَّ السِّحر [٣].

---

[١] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٥٤٣. بتصرف شديد

[٢] ـ ينظر: السَّابق/٣٠/ ٥٤٥. بتصرف

[٣] ـ ينظر: أسباب النُّزول للواحدي/٢٧٥.

والغرض منها تعليم النَّبي ﷺ كلمات للتعوذ بالله من شر ما يُتقى شره من المخلوقات الشريرة والأوقات التي يكثر فيها حدوث الشر والأحوال الَّتي يستر أفاعل الشر من ورائها لئلا يُرمى فاعلوها بتبعاتها [1].

ويربطها الإمام البقاعي بما قبلها قائلاً: لما ختم الإخلاص بأنَّه ﷻ لا كفوء له فتوافرت الدَّواعي على الانقطاع إليه، أمر بالتَّعوذ برب هذا الدِّين، موافقة لإيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين من شر ما يقدح فيه بضرر في الظَّاهر أو في الباطن [2].

<u>الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:</u>

بدأت الآية الكريمة كسابقتها بفعل الأمر: {قل} وهو خطاب لرسول الله ﷺ وينسحب على كافة أمَّته (والأمر بالقول يقتضي المحافظة على هذه الألفاظ؛ لأنَّها هي الَّتي عينها الله ﷻ لنبيَّه ﷺ ليتعوذ بها فإجابتها مرجوَّة) [3] بحول الله وقوته.

وجملة القول المأمور بها: {أعوذ بربِّ الفلق} وقعت في محل نصب مقيل القول للفعل: {قل} وبدأت بالفعل: {أعوذُ} الَّذي جاء بزمن المضارع المقتضي الحال والاستقبال ومعناه: (ألجأ وألوذ، وأعتصم) [4].

واستعمال صيغة التَّكلم فيه يتبع ما يراد بصيغة الخطاب في الفعل: {قل} فهو مأمور به لكُلِّ من يريد التَّعوذ بها [5].

وحرف الجر الـ(باء) في قوله تعالى: {بربِّ} يفيد الإلصاق، أو الاستعانة، أو المصاحبة، والجار والمجرور: {بربِّ} متعلقان بالفعل: {أعوذ}، وجاءت كلمة "ربِّ" مضاف و {الفلق} مضاف إليه والمضاف "والمضاف إليه عند العرب بحكم الكلمة الواحدة" وفي هذا تظهر صورة شِدَّة تعلُّق العائذ بالرَّب القدير- سبحانه جلَّ شأنه - الَّذي من قدرته فلق (الحبَّ والنوى وفالق الإصباح) [6].

(ولا شك أنَّ ما وصف به تعالى نفسه: {ربّ الفلق} يناسب الاستعاذة المطلوبة، فالاستعاذة من الشُّرور الضَّارة تربية وعناية ورعاية، أو لازم من لوازمها، ومتمم من متمِّماتها [7].

---

١ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٥٤٧.
٢ - ينظر: نظم الدَّرر /٢٢/ ٤٠٦. وما بعدها بتصرف.
٣ - ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٤٧.
٤ - ينظر: تفسير السَّعدي/٩٣٧.
٥ - ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٤٧.
٦ - ينظر: تفسير السَّعدي/٩٣٧.
٧ - ينظر: بدائع الفوائد/ لابن القيم/ ٢/ ٣٤٧.

لأنَّ تعريف (الرَّبّ) بإضافته للفلق، إيماء بأنَّ القادر على فلق الأشياء، خاصة ظلام الليل بنور الصُّبح لا شك قادر على دفع كُلِّ الشُّرور والأنكاد عن الإنسان)[١].

ويستوقفنا مجيء كلمة: {الفلق} على صيغة (فَعَل) وهي صفة مشبَّهة باسم الفاعل بمعنى مفعول؛ أي: مفلوق عنه [٢]؛ لأنَّ الليل شُبِّه بشيء ينفلق عن الصُّبح، وحقيقة الفلق: الانشقاق عن باطن شيء، واستعير لظهور الصُّبح بعد ظلمة الليل [٣].

وجاء فلق الصُّبح كالمثال لمجيء الفرج، وقيل: الصُّبح: أنموذج من يوم القيامة؛ لأنَّ الخلق النِّيام كالأموات، واستيقاظهم من النَّوم كبعثهم [٤].

ثمَّ وضَّح ﷻ المستعاذ منه، وعمَّمه بجميع: (ما خلق) من ذوات الشَّر بقوله تعالى: {من شرِّ ما خلق} [٥].

وبالطبع هذا يشمل جميع ما خلق الله من إنس وجن وحيوانات، فيستعاذ بخالقها من الشَّر الَّذي فيها [٦]. أمَّا عالمُ الغيبِ؛ فهو خيرٌ محضٌ منزَّهٌ عن الشَّرُ بالكليَّة [٧].

ثمَّ نجده ﷻ خصص المستعاذ منه بثلاثة أمور، ذكرت بقوله تعالى: {ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقب. ومن شر النَّفثات في العقد. ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسد} مع اندراجها تحت عموم الشَّر في الآية السَّابقة؛ وذلك لخفاء أمرها، ولحوق أذاها بالإنسان من حيث لا يشعر [٨]. وعليه يكثر وقوع الضَّرر منها [٩].

وبدأ ﷻ في هذا التَّفصيل بقوله: {ومن شر غاسق إذا وقب} فحرف الجر: {من} بيانيَّة، وكلمة {من شر} بعد حرف العطف في هذه الجملة وفي الجملتين المعطوفتين عليها مع أنَّ حرف العطف مغنٍ عن إعادة العامل قصداً لتأكيد الدُّعاء، تعريضاً للإجابة؛ لأنَّه من الابتهال فيناسبه الإطناب [١٠].

وكلمة: {غاسق}: تدور مادتها حول الانصباب، والإظلام، والبرودة [١١].

والغاسق هنا الليل [١٢].

---

[١] ـ ينظر: التَّفسير الكبير للرازي /٣٨١/١١.
[٢] ـ ينظر: بدائع الفوائد /٢/ ٣٦٠.
[٣] ـ ينظر التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٤.
[٤] ـ ينظر: تفسير الخازن/٤/ ٤٢٩.
[٥] ـ ينظر: بدائع الفوائد لابن القيم/ ٢/ ٣٥٧.
[٦] ـ ينظر: تفسير السَّعدي: ٩٣٧.
[٧] ـ ينظر: حاشية الدُّسوقي/٨/٤١٥.
[٨] ـ ينظر: الكشَّاف للزَّمخشري/٤/ ٨٢٢. وكذا بدائع الفوائد لابن القيم/ ٣٥٧/٢.
[٩] ـ ينظر: حاشية الشِّهاب/٨/ ٤١٧.بتصرف يسير
[١٠] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٤٩.
[١١] ـ ينظر: لسان العرب "غسق"
[١٢] ـ ينظر: معاني القرآن للفراء/٣/٣٠١.

وقيل: (الغاسق: كلُّ هاجم يضرُّ، كائناً ما كان) [1]. وأكثر ما يكون الليل ظرفاً له بما فيه من الإظلام.

والمناسبة بين أصوات الكلمة وما تدلُّ عليه من حدث قويَّة جداً؛ فحرف الـ(غين) وحرف الـ(ألف) القويان يتناسب مع قوَّة إظلام اللَّيل، وما يقع فيه من أهوال، وشرور، ويأتي حرف الـ(سين) برخاوته وصفيره ليتناسب مع انتشار الظَّلام وسريانه على النَّور المشرق، و حرف الـ(قاف) بقوته يتناسب مع إحكام هذا الإظلام وسيطرته على كُلِّ الموجودات [2].

وقيّد الحدث بقوله تعالى: {إذا وقب} فالليل ليس شراً في ذاته؛ بل هو كذلك {إذا وقب} أي في وقت دخوله؛ لأنَّ الكلمة تعني الدُّخول في الشَّيء [3]. وقيل: إذا اشتدتْ ظلمتُه [4].

ويبقى سؤال ملح، لماذا ذكر الليل بـ{غاسق}؟

والجواب ـ والله أعلم ـ حتَّى تجمع هذه التَّسمية مع الليل أموراً أخرى مثل: كوكب الثُّريا، أو القمر. قال ذلك الطَّبري [5]. أو النَّجم قاله ابن الجوزي [6].

ويعطف عليه ﷻ شراً ثانياً في هذا التَّفصيل بقوله تعالى: {ومن شرِّ النَّفثات في العقد} أتت كلمة: {النَّفاثات} بصيغة المبالغة لتصوّر كثرة وقوع ذلك الحدث، قيل في معناه: أي: ومن شر النُّفوس النَّفاثات، أو النِّساء النَّفاثات [7].

ومناسبة عطف: {شر النَّفاثات في العقد} على شر الليل؛ لأنَّ الليل وقت يتحين فيه السَّحرة إجراء شعوذتهم لئلا يطلع عليهم أحد. والله أعلم وأحكم.

ويأتي تعريف: {النَّفاثات} بـ(لام) العهد إشارة إلى أنَّهنَّ معهودات بين العرب [8].

يقول أبو السَّعود: وتعريفها إمَّا للعهد أو للإيذان بشمول الشَّر لجميع أفرادهنَّ وتمحضهنَّ فيه، وتخصيصه بالذكر لما حدث للنبي ﷺ من السِّحر الَّذي تولاه لبيد ابن الأعصم اليهودي [9].

---

[1] ـ ينظر: فتح القدير للشُّوكاني/ ٥/٦٦٧.
[2] ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ/ الأستاذة /أناهيد جمال حريري/ ١٠٠٢/٢. بتصرف
[3] ـ ينظر: لسان العرب "وقب" وكذا
[4] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٤٩.
[5] ـ ينظر: جامع البيان للطَّبري/ ٤٢٩/٣٠.
[6] ـ ينظر: زاد المسير للجوزي/ ٤/ ٥٠٩.
[7] ـ ينظر: فتح القدير للشُّوكاني/ ٥/ ٥٢٠.
[8] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٥٥١/٣٠.
[9] ـ ينظر إرشاد العقل السَّليم/ ٢١٥/٩.

و {العقد} جمع عقدة وهي ربط في خيط أو وتر يزعم السَّحرة أنَّ سحر المسحور يستمر ما دامت تلك العقد معقودة. فأمر اللهُ ﷻ رسوله ﷺ بالاستعاذة من شر السَّحرة؛ لأنَّه ضمن له ألَّا يلحقه شر السِّحرة، وذلك إبطال لقول المشركين في أكاذيبهم إنَّه مسحور [1].

وقد حكى الله تعالى قولهم هذا في سورة الفرقان بقوله تعالى: {وقال الظالمون إنْ تتبعون إلا رجلاً مسحوراً} [الفرقان:٨].

وتأتي آخر آية بالنوع الثَّالث من الشَّر بقوله تعالى: {ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسد}.

نجده ﷻ قد قرن بين شرِّ السَّاحر وشرِّ الحاسد؛ لأنَّ شرهما يصدر عن الإنس والجن معاً، وإن كان الأول: يحصل باستدعاء، والثَّاني: بمصاحبة؛ ولكن دون استدعاء [2].

ويستوقفنا تقيّدُ شر الحاسد بالظرف: {إذا}. يقول ابن عاشور: وتقييد الاستعاذة من شره بوقت: {إذا حسد}؛ لأنَّه حينئذ يندفع إلى عمل الشَّر بالمحسود حين يجيش الحسد في نفسه؛ فتتحرك له الحيل والنَّوايا لإلحاق الضر به [3].

ونجد أنَّه ﷻ قد فرَّق بين هذه الشُّرور في الدَّرجة؛ لذا عرَّف: {النَّفاثات} تعريف جنس؛ للتأكيد على أنَّ كل (نفَّاثة) شريرة، ونكَّر كلاً من: {غاسق} و {حاسد} للإيماء إلى التَّبعيض لا الحصر [4].

قيل: والسِّر في اختتام هذه السُّورة بذكر الحاسد إذا حسد إيماء إلى أنَّه من أخس الطَّبائع الإنسانيَّة، وأحطها قدراً ومنزلةً [5].

والله أعلم وأحكم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

[1] ـ ينظر: المرجع السَّابق
[2] ـ ينظر: بدائع الفوائد لابن القيم/ ٢/ ٣٧٩.
[3] ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣/ ٥٥١.
[4] ـ ينظر الكشَّاف للزَّمخشري/ ٤/ ٨٢٢.
[5] ـ ينظر المحرر الوجيز لابن عطيَّة/ ١٦/ ٣٨٧

سورة النّاس

الحمد لله رب العالمين عليه نتوكل وبه نستعين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ .

بين يدي السُّورة المباركة:

هذه السُّورة الكريمة سماها النَّبي ﷺ "قل أعوذ بربِّ النَّاس". وتُسمى مع سورة الفلق "المعوذتين". وهي مكيَّة فقد عُدَّت الحادية والعشرين من السُّور، نزلت عقب سورة الفلق وقبل سورة الإخلاص (١).

والغرض منها إرشاد النَّبي ﷺ لأن يتعوذ بالله ربَّه من شر الوسواس الَّذي يحاول إفساد عمل النَّبي ﷺ وإفساد إرشاده النَّاس، ويلقي في نفوس النَّاس الإعراض عن دعوته، وفي ذلك إيماء أنَّ الله ﷻ مُعيذه من ذلك فعاصمه في نفسه من تسلط وسوسة الوسواس عليه، ومتمم دعوته حتَّى تعم في النَّاس. ويتبع ذلك تعليم المسلمين التَّعوذ بذلك، فيكون لهم من هذا التَّعوذ ما هو حظهم بمقدار مراتبهم في الزلفى (٢).

يربطها الإمام البقاعي قائلا: لما جاءت سورة الفلق للاستعاذة من شر ما خلق من جميع المضار ثمَّ وقع فيها تخصيص بشرور بأعينها من الفاسد والسَّاحر والحاسد، فكانت الاستعاذة فيها عامَّة للمصائب، جاءت سورة النَّاس متضمنة الاستعاذة من شر خاص وهو الوسواس وهو أخص ويرجع إلى المعايب الداخليَّة اللاحقة للنفوس البشريَّة، وهي سبب الذُّنوب والمعاصي (٣).

---

١ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٥٣.
٢ ـ ينظر: السَّابق/٣٠/٥٥٤.
٣ ـ ينظر: نظم الدُّرر/٢٢/ ٤٢٤. وما بعدها بتصرف.

الدِّراسة البلاغيَّة التَّحليليَّة:

بدأت السُّورة المباركة بفعل القول: {قل} خطاب تشريف [1].

فقال تعالى: {قل أعوذ بربِّ النَّاس} هو خطاب موجه للنَّبي ﷺ ولامَّته في ذات الوقت، إذ لا دليل لتخصيصه به؛ فشابهت فاتحتها فاتحة "سورة الفلق" إلا أنَّ سُورة الفلق تعوُّذ من شُرور المخلوقات من حيوان وناس. وسورة النَّاس تعوُّذ من شرور مخلوقات خفيَّة وهي الشَّياطين [2].

يقول السَّعدي: (هذه السُّورة مشتملة على الاستعاذة بربِّ النَّاس ومالكهم وإلههم من الشَّيطان الَّذي هو أصل الشُّرور كُلِّها ومادَّتها) [3].

وتأتي جملة القول بقوله تعالى: {أعوذ بربِّ النَّاس} الفعل {أعوذُ} يدل على الاستمرار لحاجة المؤمن لهذا التَّعوذ في كل وقت، بدلالة زمنه المضارع.

وحرف الجر: الـ(باء) الَّذي جُرَّتْ به كلمة: (رب) يفيد الاستعانة والإلصاق، وما يستوقفنا للتأمل تعريف كلمة {رب} (بإضافتها إلى {النَّاس} دون غيرهم من المربوبين؛ لأنَّ الاستعانة من شرٍّ يلقيه الشَّيطان في قلوب النَّاس فيَضِلُّون ويُضَلون، فالشَّر المستعاذ منه مصبُّه إلى النَّاس، فناسب أن يُستحضر المستعاذُ إليه بعنوان أنَّه ربُّ من يُلْقون الشَّر ومن يُلْقَى إليهم؛ ليصرف هؤلاء ويدفع عن الآخرين) [4].

ومعنى: {رب النَّاس} يقول الشوكاني فيه أي: (مالك أمرهم ومصلح أحوالهم، وإنَّما قال {رب النَّاس} مع أنَّه ربُّ جميع مخلوقاته للدَّلالة على شرفهم، ولكون الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس في صدورهم) [5].

وقيل النَّاس: أصله أناس، فحذف فاؤه لَمَّا أدخل عليه الألف واللام، وقيل قُلب من نَسي وأصله إنْسِيان، وقيل: أصله من: ناس ينُوس: إذا اضطرب [6]. يؤكده ابن القيم قائلاً: أصل كلمة: {النَّاس} من (نَوَسَ) [7].

---

١ ـ ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي/٢/٢٥١.
٢ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير/٣٠/ ٥٥٤.
٣ ـ ينظر: تفسير السِّعدي:٩٣٧.
٤ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٥٤.
٥ ـ ينظر فتح القدير/٥/ ٥٢٢.
٦ ـ ينظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني "نوس".
٧ ـ ينظر: بدائع الفوائد لابن القيم/٢/ ٣٩٤.

وجاءت الآية الكريمة الثَّانية بقوله تعالى: {مَلِكِ النَّاس} عطف بيان، جيء به لبيان أنَّ ربوبيته ﷻ ليست كربوبيَّة سائر المُلَّاك لِمَا تحت أيديهم من مماليكهم؛ بل بطريق المُلك الكامل، والسُّلطان القاهر [١].

وتحمل الآية الثَّالثة صفة أخري هي أعم وأبلغ؛ فقال تعالى: {إله النَّاس} عطف بيان كالَّذي قبله؛ لبيان أنَّ ربوبيته وملكه قد انضم إليهما المعبودين المؤسسة على الألوهيَّة[٢].

ويستوقفنا للتأمل تكرار لفظ: {النَّاس} دون الاكتفاء بضميره!

قيل: لأنَّ عطف البيان يقتضي الإظهار؛ ليكون الاسم المبيِّن (بكسر الياء) مستقلاً بنفسه؛ فهو بمنزلة علم للاسم المبيَّن (بفتح الياء) [٣].

كما يستوقفنا للتسّاؤل تقديم وصفهُ ﷻ بـ(رب) ثمَّ بـ(ملك) ثمَّ بـ(إله).

وجاء الجواب: بالقول: إنَّه على التَّرتيب في الارتقاء إلى أعلى؛ وذلك أنَّ الرَّب قد يُطلق على كثير من النَّاس فيقال فلان رب الدَّار، وشِبه ذلك؛ فبدأ به لاشتراك معناه، وأمَّا المَلِك فلا يوصف به إلا آحاد من النَّاس ـ وهم الملوك ـ ولا شك أنَّهم أعلى من سائر النَّاس؛ فلذلك جاء به بعد الرَّب، وأمَّا الإله؛ فهو أعلى من المَلِك؛ ولذلك لا يدَّعي الملوك أنَّهم آلهة؛ فإنَّه لا شريك له ولا نظير؛ فلذلك ختم به. (قال ذلك أو قريب منه كثيرٌ من المفسّرين) [٤].

وقيل: فلمَّا كانت صفة الألوهيَّة منتهى معارف النَّاظر انتهى بها [٥].

وفي هذا التَّرتيب إشعارٌ أيضاً بمراتب النَّظر في معرفة الله ﷻ فإنَّ النَّاظر يعلم بادئ ذي بدء بأنَّ له رباً؛ بسبب ما يشعر به من وجود نفسه، ونعمة تركيبه، ثمَّ يتغلغل في النَّظر فيشعر بأنَّ ربَّه هو المَلِكُ الحق الغني عن الخلق، ثمَّ يعلم أنَّه المستحق للعبادة؛ فهو إله النَّاس كلهم [٦].

وبالمقارنة بين هذه السُّورة وسورة "الفلق" يتضح أنَّ في سُورة "الفلق" جاءت الاستعاذة بصفة واحدة لله: {أعوذ برب الفلق}. وفي سُورة "النَّاس" جاءت الاستعاذة بثلاث صفات للرَّب: ﷻ {رب النّاَس. ملك النَّاس. إله النَّاس} مع أنَّ المستعاذ منه في "الفلق" جُمِعَ بقوله تعالى: {من شر ما خلق} ثمَّ فصِّلَ بثلاثة أمور: {ومن شر

---

١ ـ ينظر: فتح القدير للشُّوكاني/٥/٥٢٢.
٢ ـينظر: فتح القدير للشُّوكاني/٥/٥٢٢..
٣ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٥٥.
٤ ـ ينظر: على سبيل المثال / أضواء البيان للشنقيطي/ ٩/ ٣٣٤وما بعدها. وكذا الجامع لأحكام القرآن للقرطبي/٢٠/ ٢٦١.
٥ ـ ينظر: حاشية محي الدين شيخ زادة/٤/٧١٨. وكذا حاشية الشِهاب / ٨/ ٤١٨
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٣٠/٥٥٤.

غاسقٍ إذا وقب. ومن شر النَّفاثات في العقد. ومن شر حاسدٍ إذا حسد}، والمستعاذ منه في" سورة النَّاس" أمرٌ واحدٌ؛ {من شر الوسواس الخنَّاس} فلخطر الأمر الواحد جاءت الصِّفات الثلاث [١].

وأضيف كُلُّ اسم من الأسماء الحُسنى الثَّلاثة إلى: {النَّاس} فتكررت هي بدورها، وكان ذلك مظنَّة الإظهار دون الإضمار [٢].

ولهذا التِّكرار دورٌ مهمٌ في تجديد يقظة العقل والتَّأثير في النَفس [٣]. كما يدل ذلك على شرف هذا الجِّنس عند ربهم ﷻ .

ويأتي المُسْتَعاذُ منه في الآية الرَّابعة بقوله تعالى: {من شرِ الوَسْوَاسِ الخنَّاسِ}. نجد أنَّ كلمة "شر" أضيفت إلى "الوَسواس" الَّذي تعني الصَّوت الخفي من ريح ونحوه، والوَسواس صوت الحُلي، والوِسواس بالكسر: المصدر، وبالفتح: لإضافة الشَّر إليها فقد تعين أنَّه الشَّيطان [٤].

ثمَّ وُصِفَ بصفة أخرى بقوله تعالى: {الخنَّاس} التَّي تعني: الانقباض والاستخفاء والتَّأخر [٥] ووزنها (الفَعَّال) صيغة مبالغة دلَّت على أنَّه شديد الخنس وكثيره. والمراد أنَّه صار عادة له. والخنس والخنوس: الاختفاء. والشَّيطان يلقب بـ{الخنَّاس} أي الَّذي يخنس ليعود مرة أخرى [٦].

وقد أفردت صفتا الوَسْوَسة والخنس للشيطان دون ما سواهما؛ لأنَّهما أشدَّهما خطراً، وأعظمهما أثراً، وأعمَّهما فساداً [٧]. حتى صارتا كالعلم عليه [٨].

ويستوقفنا تعريف كلمتي "الوَسوَاس"، "والخنَّاس" تعريف جِنْس ليعم الشَّر جنس الموصوفين بهاتين الصفتين من الجِنَّة والنَّاس [٩].

وجاء وصف: {الوَسوَاس الخنَّاس} بقوله تعالى: {الَّذي يوسوس في صدور النَّاس} لتقريب تصوير الوَسْوَسة؛ كي يتقيها المرءُ إذا اعترته لخفائها، وذلك بأنَّ بُيِّن أنَّ مكان إلقاء الوَسْوَسة هو صدور النَّاس [١٠].

---

١ ـ ينظر: أضواء البيان للشِّنقيطي/ ٩/ ١٨٣. بتصرف.
٢ ـ ينظر: الكشَّاف للزَّمخشري/ ٤/ ٨٢٣.
٣ ـ ينظر: تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن لمحمد رشيد رضا/ ١١٢.
٤ ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور "وسوس" وكذا معاني القرآن للفراء/٣/ ٣٠٢. وكذا جامع البيان للقرطبي/٤٣٣/٣٠.
٥ ـ ينظر: لسان العرب لابن منظور" خنس"
٦ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/٥٥٥/٣٠. بتصرف.
٧ ـ ينظر: روح البيان للبروسوي/ ٦٦٥/٣٠.
٨ ـ بدائع: الفوائد لابن القيم/ ٣٨٧/٢.
٩ ـ ينظر: التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور/ ٣٠/ ٥٥٥.
١٠ ـ ينظر: السَّابق.

يقول ابن كثير في مضمون هذه الآية: (هل يختص هذا ببني آدم ـ كما هو الظاهر ـ أو يَعُمُّ بني آدم والجِنَّ؟ في ذلك قولان: ويكونُون قد دَخَلُوا في لفظ النَّاس تغليباً. وقال ابن جرير: قد استعمل فيهم: "رجال من الجِنّ" فلا بِدْعَ في إطلاق النَّاس عليم) [١].

ويستوقفنا ورود هذا الفعل: {يوسوس} بصيغة المضارع؛ ليدل على محاولاته الحثيثة لبث هذه الوَسْوَسة في صدور النَّاس، وهذا نفسه معنى: {الخنَّاس} أي: يذهب إذا ذُكِرَ اللهُ، ثمَّ يعود، ولا يكلُ ولا يملُّ؛ ولهذا على المؤمن التقي مداومة ذكر الله حتَّى يدحر الشيطانَ بذلك.

يؤكد ذلك السَّعدي بقوله: (الِّذي من فتنته وشره أن يوسوس في صدور النَّاس، فيحسن لهم الشَّر ويريهم إياه في صورة حسنة، وينشِّط إرادتهم لفعله، ويقبِّح لهم الخير ويثبطهم عنه، ويريهم إياه في صورة غير صورته، وهو دائماً بهذه الحال يوسوس ويخنس أي: يتأخر إذا ذكرَ العبدُ ربَه واستعانَ به على دفعه) [٢].

ويصدِّقه ما قاله سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس في قوله: {الوَسْوَاس الخنَّاس}، قال: الشَّيطان جاثمٌ على قلبِ ابن آدم، فإذا سَهَا وغَفَل وَسْوَسَ، فإذا ذكرَ اللهَ خَنَسَ. وكذلك قال مجاهد، وقتادة [٣].

وتأتي نهاية السُّورة المباركة بقوله تعالى: {من الجِنَّةِ والنَّاس}، تفصيلاً لقوله تعالى: {الَّذي يوس في صدور النَّاس} بيَّنهم بقوله: {من الجِّنَّةِ والنَّاس}. قيل: قوله: {من الجِنة والنَّاس} تفسير للذي يُوسوس في صدور النَّاس، من شياطين الإنس والجِن [٤].

ومن الملاحظ تقديم "الجنَّة" على "النَّاس" قيل: لأنَّ الحديث هنا عن أصل الوَسْوَاس[٥].

ومن الإعجاز اللفظي في القرآن الكريم ما يُلاحظ في هذه السُّورة الكريمة من تكرار صوت "السِّين" وشيوعه، فلم تخلُ منه آية من آياتها، حيث وردت "السين" في الآيات: [١، ٢، ٣، ٦] مرَّة واحدة، وفي الآيتين [٤، ٥] ثلاث مرَّات في كُلٍّ منهما؛ ليشيع في هذه السُورة الكريمة صوت الوَسْوَسة، حتَّى كأنَّه يحاكيها ويجعلها ماثلة للسَّمع [٦].

والله أعلم وأحكم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

---

١ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم /٥٤١/٦.
٢ ـ ينظر تفسير السَّعدي/ ٩٣٨.
٣ ـ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير/ ٦/ ٥٤١)
٤ ـ ينظر السَّابق. بتصرف.
٥ ـ ينظر: التَّحرير والَّتنوير لابن عاشور/٣٠/ ٥٥٧.
٦ ـ ينظر: التَّصوير القرآني في جزء عمَّ لأناهيد جمال حريري/٢/ ١٠٢٠.

الخاتمة

تم بحمد الله وتوفيقه دراسة "جزء عمَّ" دراسة بلاغيَّة تحليليَّة حاولت فيها بقدر الإمكان الاختصار، والوضوح، وتجنب الخوض في كثير من المسائل الخلافيَّة.

كما عمدتُ فيها إلى الإشارات الطفيفة لكثير من المسائل النَّحوية والبلاغية مراعاة لعامة من يطلع عليها من غير المتخصصين، ووقفت على قدر بسيط من مفاهيم علوم البلاغة والنَّحو؛ لأنَّ الهدف الأساس هو وصول مفهوم واضح ومبسط لمعاني آيات تلك السُّور الَّتي ضمَّها هذا الجزء من كتاب الله الكريم، مع محاولة الوصول إلى معني أكثر عمقاً لِمَا تحمله الكلمة القرآنية وبالتالي الجملة والآية والنَّص بكامله؛ وذلك بهدف استشعار عظمة أسلوب كلام الله ﷻ المعجز.

وكان وراء اختياري لهذا الجزء الكريم "جزء عمَّ" كثرة ترداد سوره في الصَّلوات

والحمد لله على التَّمام وأستغفر ربِّي الغفَّار مما قد يكون فيه من النَّقص والخطأ والتَّقصير، كما أسله أن يجعله حجَّةً وشاهداً لي لا عليَّ يوم يقوم الأشهاد، وأن ينفعني وكُلَّ من أعان على إخراجه، وكُلَّ من يقرأه على مرِّ الزَّمان.

وما كان فيه من الصَّواب فهو بتوفيق الله وعونه وسداده، وما كان فيه من غير ذلك فهو من نفسي الموسومة بالنَّقص والشَّيطان عليه لعنة الله.

ونسأل الله العفو والغفران لنا وللمسلمين أجمعين آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المقدّمة ٠
سورة النّبأ (١ - ١٦) ٢
سورة النَّبأ (١٧-٣٠) ١١
سورة النَّبأ (٣١-٤٠) ١٧
سورة النَّازعات (١-١٤) ٢٣
سورة النَّازعات (١٥- ٢٦) ٣٠
سورة النَّازعات (٢٧-٣٣) ٣٥
سورة النَّازعات (٣٤-٤٦) ٤١
سورة عبس ٤٧
سورة التَّكوير ٦٠
سورة الانفطار ٧٤
سورة المطففين ٨١
سورة الانشقاق ٩٣
سورة البروج ١٠٣
سورة الطَّارق ١١١
سورة الأعلى ١١٧
سورة الغاشيَّة ١٢٤
سورة الفجر ١٣٥
سورة البلد ١٥٠
سورة الشَّمس ١٥٩
سورة الليل ١٦٨
سورة الضحى ١٧٨
سورة الشرح ١٨٤
سورة التِّين ١٩١
سورة العلق ١٩٨
سورة القدر ٢٠٨
سورة البيِّنة ٢١٤
سورة الزلزلة ٢٢٢
سورة العاديات ٢٢٧
سورة القارعة ٢٣٤
سُورَة التَّكَاثُر ٢٣٩
سورة العصر ٢٤٤
سُورَة الهُمَزَة ٢٤٨
سورة الفيل ٢٥٤

سورة قريش ٢٦٠
سورة الماعون ٢٦٤
سورة الكوثر ٢٧٠
سورة الكافرون... ٢٧٤
سورة النَّصر ٢٧٨
سورة المسد ٢٨٣
سورة الإخلاص... ٢٨٧
سورة الفلق ٢٩٢
سورة النَّاس ٢٩٧
الخاتمة... ٣٠٢